

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سَلا ورباط الفتح
أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الأول
(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني · **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فاكس 75.51.01 (037)

الكتاب : «سَلا ورباط الفتح، أسطولُهما وقرصنتهما الجهادية»

تأليف : جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق : أحمد بن جعفر الناصري

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2006/1337

ردمك : 9981-46-042-7 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-043-5 (الجزء الأول)

تقديم الكتاب

هذا الكتاب الذي انصبّ عليه اهتمام العلاّمة الأديب المرحوم جعفر بن أحمد الناصري، ودبّجته يراعته، من الكتب الأدبية التاريخية الطريفة التي تتشوّف النفوس إلى الوقوف عليها، وتتشوّق الأذهان إلى رفع أستارها، واكتشاف أسرارها، والتقاط دررها، لما تجد فيها من فائدة في الاطّلاع على حوادث الأعصار، ومتعة في مطالعة ما تشتمل عليه من أدبيات وأشعار...

وتربطه بموضوعه المتعلّق بتاريخ العُدوتين الرقراقيتين : سلا ورباط الفتح، وقرصنتهما الجهادية، روابط عاطفية، ووشائج نسبية.

وانكبابه – في نظري – على جمع أخبارهما وتصنيفها، يرجع إلى ثلاثة أسباب أساسية:

– السبب الأول : كونه رأى النور في أولى الحاضرتين المذكورتين : سلا، وقضى في الثانية : رباط الفتح، قسطاً وافراً من حياته، عدّه من أسعد الأيام التي عاشها، في آثار أدبية رفيعة.

– وعندي، أنه تخليداً لذكرى عهد جميل سلف له بهما، وإحياءاً لماضيهما الحافل بالمآثر والمفاخر التي يحقّ لها أن تُكتب وتُحبّر، وتُسجّل وتُسطّر، أراد بهذا العمل تقديم خدمة واجبة لهاتين المدينتين الشقيقتين اللتين بهما نشأ، ومن عشّهما درج، وفيهما تعلم وقرأ، وفي ربوعهما الزاهرة مرّ صباه وشبابه، وبمعاهدهما العامرة قضى أيام مسرّته، ما بين خلاّن وإخوان...

وكما قال ابن الرومي .

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ ... مَآرِبُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا

إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ ... عُهُودَ الصِّبَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

وأبو الطيّب المتنبي :

وَكَيْفَ الْتِذَاذِي بِالأَصَائِلِ وَالضُّحَى ... إِذَا لَمْ يَعُدْ ذَاكَ النَّسِيمُ الذِي هَبَّا

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَن لَّمْ أَفُزْ بِهِ ... وَعَيْشاً كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبَا

– السبب الثاني : كونه ينتمي – من جهة أمّه[1] – إلي بيت عريق، لا في العلم فحسب، بل وفي الجهاد البحري أيضاً، حيث خرج من ضئضئ رجاله عدد من الرؤساء والأميرالات الذين جلّوا في هذا الميدان، وكان لهم فيه بدأ وعودة، دفاعاً عن حوزة الوطن الذي نشبت فيه مخالب الاستعمار، وحماية لبيضة الإسلام الذي تطاول عليه المبشّرون والرُهبان، فتاقت نفسه إلى البحث في تاريخ هذا الجهاد البحري، والتنقيب عن جوانبه الغامضة، والتعرُّف على الرجال الأشاوس، والمحاربين الصناديد الذين قاموا به بكل شجاعة وإقدام، في ظروف جدّ صعبة، وبوسائل غالبا ما كانت دون وسائل أولائك الخصوم الذين كانوا يقارعونهم في أعالي البحار...

– السبب الثالث : كونه أراد بهذا العمل إزاحة النِّقاب عن حقبة مهملة منسية من تاريخ المغرب – وهي حقبة الجهاد البحري – أعقبت أفول نجم الإسلام عن الديار الأندلسية، وطمس معالم حضارتها اللامعة بأصقاعها، وطرد سكانها المسلمين من ربوعها، بمنتهى القسوة والشِّدة والغلظة، في ظروف مأساوية ينفطر لها الجنان، وشَره الدول الأوروبية إلى النزول بالسواحل المغربية واحتلالها، تمهيداً لفرض سيطرتهم على البلاد بأجمعها ؛ ولم يولها أحد من المعنيين بها، ولا الذين جاءوا من بعدهم، عناية كافية تجعلهم يجمعون للأجيال الآتية أخبارها بكيفية منظمة ومنسقة ومعمّقة، حيث أنَّ كلَّ ما خلّفوه لنا من أخبارها هو جمل ونُتَف وردت متفرقة عرضاً أثناء الكلام على قضايا أخرى، بينما دوّن لها – لمصلحتهم الخاصة – الكثير من الأخبار، الأجانب الذين احتكُّوا بالمغرب ورجاله، من فرنسيين وإصبانيين وإنجليزيين وبرتقاليين وهولنديين، وغيرهم، وحفظوا لها الكثير من الوثائق، وترجموا للعديد من أولائك الذين برزوا على مسرح أحداثها...

وحرصاً منه على ملئ هذا الفراغ، تصدّى جعفر الناصري بعزم وإخلاص إلى البحث في هذا الموضوع، وأولاه كامل عنايته، وأمعن في تحليل أخباره، وتوفّق في تنسيق عناصره، بعد

1) هي السيدة البتول بنت الفقيه العلاّمة محمد عوّاد، وحفيدة الأميرال الحاج الهاشمي بن الرئيس الحاج أحمد عوّاد الذي أسند إليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله رياسة الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي، وفوّض له فيه تفويضاً تاماً شاملاً، حتى كأنه وزير للبحرية، بظهير مؤرخ بـ 2 ربيع الثاني عام 1179، أثبته مع صورته مؤرخ الدولة العلوية المولى عبد الرحمان بن زيدان في كتابه : «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس». ج 3، ص 264-265، وهذا الأميرال هو جدّها للأم. كما أن الرئيس الأميرال الحاج بن حسّون بن أحمد عوّاد هو جدّها للأب.

جمعه لأوابده وشوارده، وأبرز للعيان ما تُنوسي وأهمل من مكنونه، وجلب إلى واضحة النهار ما كان مدفونا في غياهب الخزائن، مبعثراً في الأوراق والدفاتر، يصعب تتبُّعه في مضانّه، والاهتداء إليه في أماكنه ومكامنه، فجاء عمله هذا وكأنه شهادة صادرة لأول مرة - على ما في علمي - من مغربي مسلم ينتسب إلى أهل إحدى الحاضرتين اللتين منهما انبثق ذلك الجهاد البحري - أو القرصنة، كما كان يُعبّر عنه آنذاك - الذي أقلق راحة أوروبا ردحاً من الدهر، وأقام وأقعد ملوكها، وعرقل بسط هيمنتها ونفوذها على إفريقيا الشمالية طيلة أحقاب وأجيال، وأكسب المغرب هالة من المناعة والاعتبار في العالمين الإسلامي والمسيحي، دامت له إلى أن احتلَّ الفرنسيون الجزائر، وهبَّ المغرب للدفاع عنها ونصرتها، كعادته، وكانت وقعة «إيسلْي» التي محّص الله فيها المغاربة، وكانت من أدهى وأمرّ كبواته...

وأظن أنه لم يكتب أحد من بني جلدة جعفر الناصري في هذه المسألة مثل ما كتب هو فيها. فقد أحاط بموضوعها، واستقصى مادَّته، واستوعب شعبه جملة وتفصيلا، مع حسن تبويب وعرض، وتناسب وبيان، مخلّلاً ذلك بنوادر وأدبيات وأشعار، وتراجم أعلام، في تنسيق محكم، وتصوير بديع للأحداث، ظهر من خلاله جانب من جوانب تاريخ المغرب المجيدة، وزال الغبار عن صفحة مشرقة من صفحاته الخالدة، لمَّا كانت الأيام مقبلة، والدنيا خادمة، وكانت الدول الأوروبية العظمى تُقَدِّر قدره، وتخطب ودّه، وتسارع إلى تلبية رغبات ملوكه[2]...

ولمَّا كان هؤلاء يتعاملون مع ملوكها معاملة النّد للنّد، ويتبادلون معهم السفارات والهدايا، ويعقدون معهم المعاهدات السياسية، والصفقات التجارية...

ولمَّا كان سفراؤه، أمثال محمد تميم التطواني، وعبد الله بن عائشة السلاوي، ومحمد بن عبد الوهاب الغسّاني، وأحمد بن حدّو العطّار الريفي، والحسن بن محمد سكيريدو الرباطي، ومحمد بن عثمان المكناسي، وغيرهم، يُستقبلون في بلاطات وقصور باريز ومدريد ولندن وفيينَّا ونابّولي وأمستردام وسطوكهولم، بمنتهى الحفاوة والتعظيم، ويحظون بكامل التقدير والإعجاب، من لدن ملوكها وأقيالها ونبلائها ووزرائها، لما كانوا يتحلَّون به من حسن سلوك، ورقّة طبع وبراعة فروسية، وحدّة ذكاء، وتمسُّك بالمبادئ، وعجيب توقيع...

فكانوا يتعجّبون غاية العجب من ذلك، ويقولون : «كيف يمكن أن يكون هؤلاء المغاربة «البرباريون» (Les Barbaresques) على هذا المثال الأسمى من الأدب واللُّطف والتمدّن ؟

وخلال تناوله للأحداث، وسرده للوقائع والأخبار، لم يحد المؤلف عن دائرة الموضوعية

---

2) «الاستقصا»، ج 7، ص 94-95، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

والمعقول، محاولاً في نفس الوقت – كلّما دعت الضرورة إلى ذلك – دحض مزاعم بعض الباحثين والمؤرخين الأوروبّيين الذين كانوا، تارةً يبالغون في انتقاد سلوك المغاربة وعوائدهم، لجهلهم لها، أو لمخالفتها لسلوكهم وعوائدهم، أو تعصّباً لحضارتهم التي كانوا يعدّونها أرقى من حضارة غيرهم، وتارةً يتعمّدون تغيير الواقع، وعدم الإخبار بالحقيقة، تقليلاً للأهمّية، وتنقيصاً من شأن أولائك القوم، لحاجة في نفس يعقوب.

قسّم المؤلف دراسته إلى أربعة أقسام :

– القسم الأول : (الجزآن : الأول والثاني)

ضمّنه تاريخ العُدوتين الرقراقيتين : سلا ورباط الفتح، منذ نشأتهما إلى العصر الحاضر، وجعل له مباحث تندرج في فصول، على حسب الأزمنة والدول، منذ عهد بني يَفْرَن إلى عهد الدولة العلوية. فبيّن كيف نشأ العمران وازدهر بهما في عهد كل دولة، وما خلّفته من الآثار الباقية، الشاهدة باعتنائها بهما، ووصف كل بناء من تلك الآثار، كالأسوار والأبراج والحصون والأبواب والمساجد والمعاهد والمدارس والزوايا، وغير ذلك وصفاً كاشفاً.

وأطال الحديث في كيفية عمران مدينة سلا في أول عهدها. وخصّ «بني عشرة» الذين مصّروها وعمّروها بدراسة ضافية، وترجم لعدد من أعلامها، وخلّل ذلك بأدبيات وأشعار، وذكر ما تجدّد في هذه المدينة من حوادث، كإيواء لسان الدين ابن الخطيب إليها في دولة بني مرين، وأسهب في الكلام على ثلاثة مشاهد مشهورة بها : المسجد الأعظم ومدرسة أبي الحسن، وزاوية النُسّاك، دون إهمال باقي المآثر الموجودة بها.

ثم انتقل للحديث عن حدوث رباط الفتح وعمرانه، لمّا بلغت الدولة الموحدية أوج عظمتها، أيام واسطة عقدها، يعقوب المنصور، وخصوصاً بعد الهجرة الأندلسية، وازدهار الحضارة به ازدهاراً لافتاً للأنظار، ونبّه على أنه أُسّس من أول يوم ليكون صلة وصل بين مدن المغرب الشمالية والجنوبية، ومجتمعاً للجيوش المرابطة فيه، بقصد الجهاد والعبور إلى العُدوة الأندلسية ؛ وعلى أنه كان دائماً محلّ اعتناء الملوك به، بتردّدهم عليه، وإقامتهم به، إلى أن أصبح في عصرنا هذا عاصمة المملكة المغربية.

وخصّ كُلاً من شالّة ومسجد حسّان وقصبة الأوداية بدراسة شاملة أظهرت فخامة ومحاسن كل واحد منها.

وختم كلامه عن هاتين المدينتين المتقابلتين بمقامتين أدبيتين تجلّت من خلالهما روائع هاتين الحاضرتين، وأتبع ذلك بباقة من مختار الأشعار البديعة الرائقة التي قيلت فيهما وفي قطّانهما.

القسم الثاني : (الجزآن : الثالث والرابع)

خصّصه للكلام عن القرصنة بصفة عامّة، منذ نشأتها، وعن أسبابها، وحوادثها، وعواقبها، وما احتفّت به من مصائب وأهوال، وفتنة في الدين، وطول أسر واسترقاق، وأتى – للذكرى والعبرة – بأسماء مائتي مغربي نالهم العذاب في السجون والسفن المجذافية الفرنسية (les galères)، ونبّه على أنها تعاطتها جميع الدول التي كان لها شأن وأساطيل وسواحل بحرية، لأسباب عدة، ثم بيّن أن القرصنة السلاوية الرباطية، كانت قبل كل شيء، وفي معظمها جهادية، دفاعاً عن النّفس والدّين والوطن، وجواباً عن طرد المسلمين من الأندلس، ثم تصدّياً لمحاولات الدول الأوربية الهيمنة والاستيلاء على شواطئ المغرب، وعرّف ببعض الأعلام الذين كانوا ضحية لأعمال القرصنة الأوربية ...

وبعد ذلك تفرّغ للكلام بتفصيل وبيان عن السفارات التي تبادلها ملوك المغرب مع ملوك أوروبا لفكاك الأسرى بين الطرفين، وإقرار السلم بينهما، وتسهيل التجارة، ووضع حد نهائي للقرصنة والاسترقاق الناجم عنها، وبيّن حرص المغرب على ذلك، متمثّلاً في الرسالة التي بعث بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى لويس السادس عشر، طالباً منه في نفس الوقت إبلاغ فحواها إلى باقي ملوك أوروبّا. لكن هذه الصّرخة الإنسانية المدوّية من أرجاء المغرب لم تجد، مع الأسف، آذاناً صاغية بأوروبّا.

القسم الثالث : (الجزء الخامس)

تطرّق فيه المؤلف للكلام عن الأسطول المغربي عبر التاريخ، من بداية الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، عندما استقر الأندلسيون بالعُدوتين السلاوية ـ الرباطية، وكان كمقدمة للتفرغ إلي الحديث عن الأسطول القرصاني السلاوي ـ الرباطي، وعن أعماله القرصانية بصفة خاصة.

فبيّن أن هذا الأسطول كان فيما سلف من الدهر، تُخشى صولته، وتُتّقى في البحار جولته ؛ وما كان قائماً به من مواصلة بين العُدوتين المغربية والأندلسية، وباقي مراسي البحر الأبيض المتوسط، وسائر موانئ العالم الإسلامي ؛ وأنه هو الذي ساعد على نشر حضارة الشرق بين أمم هذا البحر، فامتزجت بحضارة الغرب، وتكونت منها حضارة إسلامية بالبلاد الأندلسية، وعمّت بعد ذلك سائر إفريقيا الشمالية، وعطّر أريجها جنوب القارة الأوربية.

ثم تصدّى للكلام بإسهاب عن الأسطول القرصاني السلاوي ـ الرباطي، فذكر أنّه صال وجال حيناً من الدّهر في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ؛ وأنّ رؤساءه وبحريته كانوا يمخرون عُبابهما، ويتخلّلون شواطئ أوروبّا، ويصلون إلى الدُّول الإسكانديناڤية

وسواحل إيسلاندا، بالشمال، وطرفاً من إفريقيا والجزر الخالدات وجزر أسوريس (Açores)، جنوباً ؛ وأنه كان الشجا في حلق الدول الغربية المتلهِّفة إلى الاستيلاء على السواحل المغربية، وأطلعنا بتفصيل عن أنواع سفنه وعدد رجاله، ونظامه، وكيفية معيشة بحّارته وأعماله القرصانية، وعظم مغانمه، وكيفية تقسيمها ؛ وما كان له من آثار بالغة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأقصى، إلى أن أخذ هذا الأسطول في الاضمحلال، واضطرّ ملوك المغرب إلى تعطيله نهائياً بعد ما ظهرت القوة الخارقة للدول الغربية في جميع الميادين، وانعدم بذلك كل توازن بين القوتين المتحاربتين.

وأنهى كلامه بالإشارة إلى الجهود التي بذلها السلطان المولى الحسن الأول لبناء أسطول مغربي عصري قادر على مسايرة دواعي الدّهر، إلاّ أن تلك الجهود لم يكن لها غد...

القسم الرابع : (الجزء السادس)

جعله ذيلا وتكملة للقسم الثالث من دراسته، حيث حشر فيه ما أمكنه الوقوف عليه وجمعه من أخبار رجال ذلك الأسطول القرصاني الذي حدثنا عنه وعن أعماله آنفا، في شكل تراجم لرؤسائه وأميرالاته، منها ما هو مطوّل، ومنها ما هو مختصر، حسب غزارة أو شحّة الأخبار المتعلقة بكل واحد منهم، والتي استقاها من مصادر مغربية وأجنبية، وذلك من بداية القرصنة السلاوية ـ الرباطية في أواخر العهد السعدي، إلى نهايتها في دولة المولى عبد الرحمان بن هشام، مروراً بعهد الأندلسيين وحكومتهم الانفصالية، وعهد العياشي والدِّلائيين، ثم عهد الدولة العلوية وملوكها : المولى الرشيد، والمولى إسماعيل، والمولى محمد بن عبد الله، والمولى سليمان، والمولى عبد الرحمان بن هشام والمولى الحسن الأول، رحمهم الله.

حرّر المؤلف مباحث فصول دراسته بدقّة وموضوعية، واختار لكتابتها أسلوباً عربياً فصيحاً، مشرقاً، يرقى في كثير من الأحيان إلى نثرٍ فني، ونوّع فيه التعبير ما بين تسجيع وإرسال، حسبما تقتضيه طرق البلاغة ومقتضيات الأحوال، على النمط الأدبي العتيق، وهو ما أضفى على تأليفه حلة قشيبة.

عَمَلُنا في تحقيق الكتاب

اعتمدنا في ذلك على النسخة الفريدة الموجودة بخزانة المؤلف، رحمه الله، المكتوبة بخطّ يده، والمشتملة على خمسة أجزاء، مجموع صفحاتها 1024 صفحة، حجمها 20/30، مسطّرة، سالمة من كل ما يمكن أن يعتري المخطوطات من عيوب كالبرودة واليبوسة والبتر والتمزيق وعمل الأرضة.

كتبها مؤلفها بالخط المغربي، بقلم أزرق وأحمر في ما يخص عناوينها. وحرص على كتابة مراجعها وإحالاتها، وأسماء الأعلام والأماكن الجغرافية الأجنبية المذكورة فيها بالحروف اللاتينية، لتسهُل قراءتها، ويرتفع كل إشكال في ما يخصها.

هذا، ونريد أن نلفت نظر الواقف على هذه السطور، أننا أضفنا ملحقاً إلى هذا القسم من الدراسة، وهو الجزء السادس، يجمع بعض الوثائق التاريخية ذات الصلة بالموضوع، وصوَر عدد من المآثر والمشاهد التاريخية لمدينتي سلا والرباط، والله الموفّق.

الرباط، في ربيع النبوي 1427/أبريل 2006

أحمد الناصري

ترجمة المؤلف

هو أبو الفضل، جعفر الناصري، من سلالة حسب ودين، وأسرة عريقة في العلم والصلاح، يتَّصل نسبه بالشيخ الإمام الشهير محمد بن ناصر الجعفري الزينبي، ثم الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بتامگروت، جنوب المغرب.

ولد بسلا في 23 شوال عام 1310، الموافق لـ 10 ماي سنة 1893، من أبوين كريمين : العلاّمة أحمد بن خالد الناصري، صاحب كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا» والسيدة الفاضلة البتول بنت الفقيه العلاّمة محمد عوّاد، وتكفَّل بشؤون تعليمه وتربيته أخوه الأكبر، العلاّمة محمد العربي، فأدخله الكتَّاب القرآني، حيث أخذ في حداثته المبكّرة كتاب الله عن أشهر الشيوخ المقرئين بسلا : أحمد التَّيَّال المتوفى عام 1900/1317 ؛ محمد حسيسو المتوفى عام 1907/1324 ، محمد بن عبد الله بريطل المتوفي عام 1916/1334، وعن هذا الأخير أخذ أحكام الرسم والتجويد والقراءات السبع.

وتابع بعد ذلك أخذ القراءات عن : الشيخ جلُّول الكفتي العنتري، إمام الزاوية القادرية بثغر الصويرة الذي انتقل إليه مع أخيه محمد العربي، وبعد رجوعه إلى مسقط رأسه سَلا، أتمَّ دراسته على الشيخين : محمد بوشعرة المتوفى عام 1943/1361، وعبد السلام السهلي المتوفى في نفس السنة.

وقد حفظ جعفر الناصري في صِباه المتون العلمية المختلفة حفظاً متقناً، كالمرشد المعين، وألفية ابن مالك، ومختصر خليل، وتلخيص المفتاح، وغير ذلك من المتون الأصولية، وكذلك المعلقات السبع، ودواوين فحول الشعراء الستة، ممَّا هو من أصول اللغة العربية.

ثم تفرَّغ بعد ذلك لأخذ العلم بمعناه الأعمّ، وخصوصاً الفنون اللّسانية، والعلوم العقلية والنقلية والأدبية، بدءاً مع أخيه محمد العربي، المتوفى عام 1943/1362. وإليه يرجع الفضل في تكوينه الأوّلي بتلقين مبادئ العربية والسيرة النبوية والأصول الأدبية، وسرد الكتب الستَّة الحديثية، وملازمة المذاكرة في المسائل العلمية المتنوّعة، والإرشاد إلى كيفية البحث عنها، والاهتداء إليها، والتصرُّف في خزائن الكتب لمعرفة مضانِّها ومصادرها.

ثم مع ابن عمه الطيب بن المدني الناصري، مفتي الديار المغربية، المتوفى عام 1940/1359 وأحمد بن الفقيه الجريري، المتوفى عام 1935/1354 والشيخ السلفي شعيب بن عبد الرحمن الدكالي، المتوفى عام 1937/1356. لازمه إلى وفاته، وهو عمدته، وأجازه بخط يده تلقائياً، ودون سابق رغبة.

ومن جملة ما درس عليه معلقات الشُّعراء السَّبع، والمعاني والبيان والبديع واصطلاح الحديث والأصول ومختصر الشيخ خليل ؛

ثم مع الفقيه المحدِّث القاضي محمد الهاشمي ابن خضراء، المتوفى عام 1972/1354 ؛ وقاضي سلا علي بن محمد عواد، المتوفى عام 1935/1354 ؛

على أن أكثر دراسته كانت على يد العلامة النفّاعة، شيخ الجماعة بسلا، أحمد بن عبد النبي السلاوي، المتوفى عام 1972/1392

فقد لازم دروسه، صباح مساء، زهاء عشرين سنة، سواء بالمسجد الأعظم بسلا، أو غيره. حضر عنده في أمهات اللغة وقواعدها والفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه، والمنطق، وأدب البحث والمناظرة، وأجازه إجازة عامّة، بخط يده، ودون سابق رغبة.

يُضاف إلى هؤلاء الأعلام الذين لازم دروسهم ومجالسهم أعلام آخرون، جمعته وإياهم الوظيفة المخزنية زمنا طويلاً، مدة الدولة اليوسفية وشطراً من الدولة المحمدية، وهم :

عبد الرحمن بن القرشي، محمد الرّنْدة الرباطي، الشريف السّلَفي محمد بن العربي العلوي. فقد استفاد منهم الفوائد الجمّة، وقيّد من مذاكراتهم ومحاضراتهم أموراً مهمّة، فقهية وأدبية وتاريخية.

وفي أثناء رحلاته بإفريقية الشمالية ومصر والحجاز، اجتمع بعدة أعلام، وأجازوه على الطريقة والعادة الجارية بين العلماء في ذلك العهد.

ولما فُتحت المدارس العصرية لتعليم اللغة الفرنسية، كان جعفر الناصري من أوّل الوالجين أبوابها، المتنقّلين من ابتدائها إلى ما فوقه، بسلا أوّلاً، ثم بثانوية مولاي يوسف بالرباط، إلى أن تخرّج منها حاصلاً على المسكة العلمية التي تفتح الآفاق الخارجية في مجال البحث العلمي.

هكذا ازدوجت ثقافة مترجَمنا، فكانت في نفس الوقت أصيلة متينة، وحديثة مُتفتّحة، وعُرف، وهو ما يزال في ريعان الشباب، أديباً ممتازاً وشاعراً رقيقاً، وناثراً بليغاً، وباحثاً مُدقِّقاً...

كما أُشرب حبَّ علم التاريخ من والده مؤلف «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا» و«طلعة المشتري في النسب الجعفري» و«كشف العرين عن ليوث بني مرين»، فكانت له جَوَلات في مختلف الميادين الأدبية والتاريخية المتعلِّقة بعُدْوَتَيْ المغرب والأندلس...

وأكثر ما انصبَّ اهتمامه على تاريخ مسقط رأسه سلا، وجارتها رباط الفتح ؛ وشُغف بابن الخطيب منقّباً عن آثاره، متتبّعاً ما يُنشر عنه في الداخل والخارج، مُنشئاً في شأنه من البحوث والرسائل والقصائد، تحليلاً وتعليلاً، ومعارضة ومحاكاة، وإشادة وتنويهاً، ومنافرة ومنابذة، وتفجعاً ورثاءاً...

انتحل جعفر الناصري الشعر في زمن مبكّر، إبّان التعاطي ومجالس الأنس مع الأحباب، وخواصِّ الأصدقاء والأتراب. ولم يكن له اعتناء بجمعه وتدوينه، فلم يبق منه إلاّ النَّزْر اليسير، أثبته في ديوان صغير ضمَّ شوارده وحفظ أوابده. وقد نُشر بعضه في بعض المؤلفات والصحف والمجلات، وغالبه لا يخرج عن أوصاف الجمال، وعيشة التَّصافي والأنس والمرح والإخوانيات ومدح الأشياخ بمناسبة ختْم المُتون. ولم يخطر بباله قطُّ التخصُّص بالقَريض، والطّموح إلى الوصف بالشاعر. وإنما كان همُّه من الشعر معرفة مادَّته، وتحصيل آلته، تكميلاً لحياته التربوية، ومعلوماته الأوَّلية، لأن ذلك كمال لِلْفتى، ومظهر من مظاهر نخوته ونجدته ومجده، وبه يُعْرَف مقامُه بين قومه. وإلى ذلك يشير أبو العلاء المعرِّي بقوله :

أَرَى المَجْدَ سَيْفاً وَالْقَرِيضَ نِجَادَهُ ... وَلَوْلاَ نِجَادُ السَّيْفِ لَمْ يَتَقَلَّدِ

وَخَيْرُ حَمالاَتِ السُّيُوفِ حَمَالَةٌ ... تَحَلَّتْ بِأَبْكَارِ الثَّنَاءِ الْمُخَلَّدِ؛

وأبو تمّام بقوله :

وَلَوْلاَ خِلاَلٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَادَرَتْ ... بُغَاةُ النَّدَى مِنْ أَيْنَ تُوتَى الْمَكَارِمُ

خلَّف جعفر الناصري ما لا يقلُّ عن عشرين مؤلفاً، نذكر منها :

«المحيط بالمهمّ من صحراء المغرب وشنقيط»

«الإحصا لِمَا وقع بعد الاستقصا»

«الكتابة والكتب والمكاتب»

«ابن الخطيب بسلا»

«ماضي القرويين وحاضره»

«الأسطول المغربي عبر التاريخ»

هذا ما يخصُّ بعض إنتاجه الفكري، أما عن حياته وسيرته، فقد كان – رحمه الله – متشبّثاً بالفضائل والمثل العليا، وعلى جانب كبير من الاستقامة والنزاهة، دمث الأخلاق، لَيِّنَ الجانب، طَيِّبَ المعاشرة، عفيف اليد واللسان ؛ اشتهر بذلك عند الخاص والعام.

كما كان مُغْرماً بجمع الكتب، شغوفاً بالبحث عن نفائسها، باذلاً الغالي والنفيس في اقتنائها. وقد حكى في تأليفه : «الكتابة والكتب والمكاتب» ما وقع له من النَّوادر في تيسيرها، والحصول عليها، كلما تشوَّفت النفس للوقوف عليها، أو مراجعة شيء فيها، دؤوباً على نسخ الغريب أو النادر منها، ولا زال بخزانته زُهاء عشرين مجلداً بخط يده.

وكانت وفاة جعفر الناصري يوم الأحد 26 ذي الحجة عام 1399، الموافق لـ 16 نونبر سنة 1980، ودُفن بمسقط رأسه، بزاوية أجداده، رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ السلطنة العلوية الهاشمية

وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية (1)

إن وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية، كانت إحدى الأسباب التي قربت الأوروبيين منه، وغلقت أبوابه في وجوههم في آن واحد. مع أنه على [illegible] من أوروبا، ويحيط بسواحله شمالا وغربا بحران عظيمان، فهما أكبر [illegible] في الحضارة البشرية، منذ عصور وأجيال متداولة، تجري بهما السفن منذ عرف الإنسان ركوب البحار وتمرن عليهما، وهما: البحر الأبيض المتوسط شمالا، والمحيط الأطلسي غربا، إلا أن سواحله على هذين البحرين العظيمين غير قابلة لإيواء السفن والإرساء فيها بسهولة واطمئنان.

وإذا وجدت بعض الأجوان والمراسي في الشمالية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فإن المسالك الزراعية منها إلى الداخل تعترضها في الغالب سلاسل الجبال الريفية الشامخة الصعبة المرتقى العسيرة المنحدر، والجزائر الريفية بالشمالية الخضراء، والمرية والنكور و[illegible] التي هي المغرب الحقيقي.

أما سواحل المحيط الأطلسي، فإنها وإن كانت [illegible]، فإن الملاحين الفرنسيين اختاروها للولوج إلى داخلية المغرب لأنها أقرب من غيرها.

ولذلك، نجد الفرنسيين [illegible] سواحل المغرب الغربية، وأسسوا فيها مراكزهم التجارية، وخصوصا عند مصب الأودية والأنهار عند البحر، [illegible] حول مصب نهر أبي رقراق.

ومن مصاب الأودية المشهورة التي [illegible] منذ العصور القديمة مصب نهر أبي رقراق، الجارية فيها مياه [illegible] من الأطلس الأوسط، وقد اكتسب موقعه الجغرافي [illegible] أهمية كبرى، لكونه حدا طبيعيا فاصلا بين شمال المغرب وجنوبه.

هذا، ومع أن مجرى أبي رقراق تجتمع فيه الرمال عند مصبه في البحر فتصير حاجزا خطرا على السفن الداخلة إليه، والخارجة منه، فإنهم كانوا [illegible] ومراكز تجارتها التي [illegible] بعض الأحيان.

---

(1) [illegible] من الوثائق الغير المطبوعة من تاريخ المغرب، سلسلة البلاد المنخفضة للكونت دو كاستري « De Castries »، صفحة 15 وما بعدها

الصفحة الأولى من مخطوطة المؤلف

بعد ما كونه به من الوكالات البرية، والخزينة البحرية.
وفي أثناء التعقيب أثير نقاش عنيف بين نواب الأمة تحت إلحاح
أعلام الناس بجهل أخبار ما يجري في مراكش، واشتهر بين
المستعمرين عدة رأسية بمجلس مكلفة بمطالب الأيام، وكانت تتحدث
من حين لآخر بحقوق الرأسمالية الفرنسية الأخرى إذا اقتضى الحال ذلك،
إلى أن كان ما سنذكره من ما لها، وانتهى أمرها.

بيع وتقطيع الأشكول
المغربي واستهلاكه

كان المرحوم نفذ بيع مركب الأشكول المغربي الذي كان السلطان المولى
الحسن الأول رحمه الله ينوي بسلطانه بجعله نواة لأشكول مغربي
يساير روح العصر، ويتمشى مع الأيام، وتحيى به ما سلف من عز غابر،
ومجد دائر، للبحرية المغربية.
ولكنه لما اشتدت الأزمة المالية، وتضايقت ملحقاتها، عقب
سلف سنة أربع وتسعمائة وألف 1904 (1322)، وشرع المخزن في
الخزانة، وقت (المراقبين) وتعذر تنفيذ مشروع الترتيب، وفتش
أرباب السلف للمخزن عن موارد أخرى من المال، للتغلب على إدراك
عجز الميزانية، يشترك أن لا يستعمل عموما عن جباية الترتيب،
أو نقص العوائد، حتى يطبق ما قرره المؤتمر في شأنها، لم يجد
المخزن ما يسد به نفقاته إلا ثمنه، وغيرها من حاجيات الدولة.
باع في جملة ما كان له من قطع الأشكول، للقيام ببعض
الشؤون الضرورية، وتفاديا لمصاريفه الحالية المستعجلة،
واستراحة مما كان ينفق عليه، ومن المواكب الغامرة من القوافل
المتوالية الثقيلة.
قال فيز جيربير «Weisgerber» في كتابه المسمى «على
عتبة المغرب الحديث» «Au Seuil du Maroc Moderne»
(1) تم بيع القطعة الجميلة الحربية «بشير الإسلام»، بحوالي الألف
إلى كولومبيا، بعد «Calambia» بكيفية غريبة، تم إقرار المتفاوضين
البائعين، حتى إلى بعد منتصف ليلة من الليالي، بثمن
بخس دراهم معدودة، وكانوا فيها من الزاهدين.
ثم بعتها الباخرتان الحربيتان المسميتان: «التركي» الكبير والتركي
الصغير، وتلتهما الباخرة المسماة «الحسني» ولم يبق للمخزن ذلك
العهد علم يرفرف على وجه البحر، وطويت أعلام الأشكول المغربي ومضت وجوده
من الوجود. وسبحان الحي الدائم الموجود، الذي بيده الأمر ويفعل
ما يريد في الوجود.

---

(1) صفحة 605 من الجزء الثاني، (2) صفحة 154 ... .

الصفحة الأخيرة من مخطوطة المؤلف

الفصل الأول

عن تأسيس سلا
وعن بني عشَرة

المبحث الأول

نشوء العمران حول مصبّ نهر أبي رقراق [1]

وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية

إن وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية، كانت إحدى الأسباب التي صرفت الأوربيين عنه، وغلقت أبوابه في وجوههم دهرا طويلا، مع أنه على رمية سهم من أوربا. ويغمر سواحله شمالا و غربا، بحران عظيمان، لهما اثر كبير في الحضارة البشرية منذ عصور وأجيال متطاولة، تجري فيها السفن منذ عرف الإنسان ركوب البحار و تدرب عليها، وهما : البحر الأبيض المتوسط شمالا، والمحيط الأطلانطيقي غربا، لأن سواحله على هذين البحرين العظيمين، غير قابلة لإيواء السفن والإرساء فيها بسهولة وأمن واطمئنان.

وإذا وُجِدَتْ بعض الأجوان أو الموانيء السَّهلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فإن المسالك الذاهبة منها إلى الداخل، تصطدم في الغالب بسلاسل الجبال الريفية الشامخة السامقة الصعبة المرتقى، العسيرة التخطي والجواز، إلى البسائط السهلة الخِصبة، والمدن والقرى والعمائر، التي هي المغرب الحقيقي.

أما سواحل المحيط الأطلانطيقي، فإنها وإن كانت صعبة أيضا لعدم وجود موانيء طبيعية فيها، فإن الملاحين القدماء اختاروها للولوج إلى داخلية المغرب، لأنها أقل خطرا من غيرها.

ولذلك، نجد القرطاجنيين طرقوا سواحل المغرب الغربية، وأسسوا فيها مراكزهم التجارية، خصوصا عند مصب الأودية والأنهار في هذا البحر.

---

1) مقدمة المجلد الخامس من الوثائق غير المطبوعة من «تاريخ المغرب»، سلسلة البلاد المنخفضة للكونت دو كاستري "De CASTRIES" ص 10 وما بعدها.

مصبّ نهر أبي رقراق

ومن مصاب الأودية المغربية التي نشأ حولها العمران منذ العصور القديمة، مصب نهر أبي رقراق، الجارية مياهه الغزيرة من الأطلس الأوسط.

وقد اكتسب وَضْعُهُ الجغرافي هذا أهمية كبرى، لكونه حَدّاً فاصلا بين شمال المغرب وجنوبه.

هذا، ومع أن مجرى أبي رقراق تجتمع فيه الرمال عند مصبه في البحر فتصير حاجزا خطرا على السفن الداخلة إليه، والخارجة منه، فإنهم كانوا يعالجونها أو يجرفونها، وتارة يجرفها التيار في بعض الأحيان. وإذا جاوزته السفن وجدت عمقا جيدا، أو مرسى آمنا ترسي فيه، وتأوي إليه المراكب التجارية، والأساطيل الحربية، لاتخاف دَرَكاً ولا تخشى.

مدينة سلا الحديثة العامرة الآن[2]

وعلى الضفة الشمالية المنخفضة لهذا النهر، تلاحق عمران مدينة سلا الحديثة العامرة الآن، بعد خراب شالة لمقصد حربي في حروب بَرَغواطة، والمرتبط اسمها بالقرصنة الجهادية الرقراقية، أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري، الموافق لأواخر العقد الرابع من القرن التاسع للميلاد.

وأما سلا القديمة أو شالة، وكيفية حدوثها وعمرانها في العهد القديم، فهو موضوع خاص، وبحث مستقل، يحتاج إلى درس خاص.

كانت عمارة سلا الحديثة، في أول تكوينها، كتلا وعمائر متفرقة من مهاجرى شالة، ومن انضاف إليهم من المجاهدين والمرابطين برباطها حول شالة البَرَغواطية. ولم تزل تنمو وتسمو إلى أن اتخذها بنو يفرن، ملوك ناحيتها إلى تادلا وما والاها من البلاد، مركزا من مراكزهم، وفي عهدهم تزايد عمرانها، وتواصل بنيانها، وذكر في التاريخ اسمها.

---

2) مراجع فصول عمران سلا «جغرافية ليون الإفريقي»، «جغرافية الإدريسي»، «جغرافية ابن حوقل»، «الاستبصار»، «جغرافية أبي الفدا»، «معجم البلدان»، «ابن خلدون»، «نفح الطيب»، «الاسقصا»، «إتحاف أشراف الملا» لابن علي الدكالي، «القرصنة السلاوية» لروجي كواندرو.

Les corsaires de Salé par Roger Coindreau

واشتهرت في ذلك العهد، بمرابطة المجاهدين برباطها للجهاد في البَرَغْواطيين بتامسنا، حتى قيل . إنه في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد)، كان يجتمع فيها نحو مائة ألف من المرابطين المجاهدين في سبيل الله.

وفي ذلك يقول مؤرخ سلا أبو عبد الله محمد بن علي الدكّالي السلاوي في رجزه المسمى : «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار عدْوتي الرباط وسلا» :

تَمَّتَ دَوْلَةُ بَنِي الأَقْرَانِ أَهْلِ الجِهَادِ عُظَمَاءِ الشَّانِ

إلى أن قال :

واشْتَهَرَتْ فِي عَهْدِهَا القَدِيمِ بِمَرْبِطِ الجِهَادِ فِي الإِقْلِيمِ
فِي رَابِعِ القُرُونِ كَانَتْ مُجْتَمَعْ لِمِائَةٍ مِنَ الأُلُوفِ قَدْ وَقَعْ
لِغَزْوِ كُفَّارِ البَرَابِرِ وَقَدْ عَمَرُوا تَامَسْنَا وَشَرُّهُمْ وَقَدْ
فَاقْتُلِعَتْ جُرْثُومَةُ الأَغْمَارِ مِنْ كُلِّ بَرْغَاطٍ بِلاَ إِنْكَارِ
وَطَهَّرَ اللَّهُ بِلاَدَ المَغْرِبِ بِمَنْ بِهَا رَابَطَ مِنْ كُلِّ أَبِي

المبحث الثاني

بَنو عَشَرة

تمهيد

منذ سَبْع وعشرين سنة مضت، كان كتب لي الشيخ الفقيه، مؤرخ سلا والباحث في آثارها ومآثرها، وتراجم علمائها، ومشاهير أعيانها، أبو عبد الله محمد بن علي الدكّالي السلاوي، بطاقة يطلب فيها مني إعانته بالبحث عن ترجمة الأخوين : إبراهيم وأحمد ابني المُدَبِّر، لأنَّ ابن الأَبَّار ذكر في «أعتاب الكتاب»، وابن عبد الملك المراكشي ذكر في «الذَّيْل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» أن بني عشرة السلاويين ينتسبون إلى أحمد بن المُدَبِّر، وعدَّ هذه الإعانة من الحقوق المتعينة علينا لإحياء مجد سلا وأهلها.

ونص بطاقته :

الحمد لله،

المرجو من السيادة المعظمة، حرس الله مجدها، أن تراجعوا لمحبكم في اللّه وأخيكم من أجله، ترجمة إبراهيم بن المُدَبِّر، وزير المعتمد على الله العباسي.

فإن القاضي ابن عبد الملك المراكشي ذكر في ترجمة قاضي سلا الشهير، علي بن محمد ابن موسى بن القاسم بن عشرة، أنه ينتسب لأحمد بن المدبر، أخي وزير المعتمد على الله.

ومثله عند ابن الأَبَّار في «أعتاب الكتاب».

ولأني لم أعثر فيما عندي من المواد التاريخية على ترجمة الرجلين، فأرغب من السيادة أن تعينوني على البحث في هذا الموضوع، لأنه من الحقوق المتعينة علينا وعليكم، إحياء لمجد سلا و أهلها.

ودمتم في عناية الله والسلام.

محمد بن علي الدكّالي.

وحيث كانت المهمة في ذلك الوقت مصروفة في درس مسائل أُخْرى :

علمية وأدبية، تستغرق ما يفضل من الوقت النَّفيس الذي كانت تشغله الوظيفة العمومية التي كنا مطوقين بها، فقد اكتفيت في جوابه إذ ذاك بإحالته على بعض المظان المهمَّة التي يُظَنُّ فيها استيعاب أخبار «آل المُدَبِّر» ووجهت له بعض المراجع التي كانت موجودة عندي في خزانتي في ذلك العهد.

ونص ما أجبته به :

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وعلى سيادة حبيبنا وصفينا الودود المحبوب، العلامة المؤرخ، أبى عبد الله، سيدي محمد بن علي الدكالي، أزكى السلام وأعذبه وأطيبه ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، وصلت بطاقتكم السنية، في شأن البحث عن ترجمة الأخوين : أبي إسحاق، وأبي العباس ابني المدبر...

فليكن في علم السيادة، أننا راجعنا ما أمكننا مراجعته الآن مع ضيق الوقت حرصا على التعجيل بجوابكم، وها خلاصة ذلك.

ءال المدبر هم : أحمد، ومحمد، وإبراهيم، وكلهم كاتب بليغ، وشاعر مجيد، وما منهم إلا من ولي الولايات الجليلة، وعمل للسلطان الأعمال النافعة، في عهد الخلفاء العباسيين من المعتصم إلى المعتضد.

ولأحمد وإبراهيم أخبار حسان، وآثار في كتب الأدب والتاريخ.

وجاء في ذكر مؤلفات الجاحظ أن له كتابا سماه : «كتاب آل إبراهيم بن المدبر في المكاتبة»[3].

وقد ترجم لإبراهيم هذا، ياقوت في «معجمه» وأبو الفرج الاصبهاني في «كتاب الأغاني»، (ج 19، ص 114) ترجمة واسعة، كما ذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه، وابن الأثير، عند الكلام على دولة المعتمد على الله، والمعتضد بعده، وكذلك فيما قَبْلَهُمَا من الخلفاء منذ المعتصم.

---

3) «إرشاد الأديب» لياقوت، ص 108، ج 16.

وكانت وفاته بمدينة منبج سنة تسع وسبعين ومائتين 279 (يناير سنة 894) رحمه الله تعالى.

وورد ذكره أيضا في «الأغاني»[4] في ترجمة عريب.

في الجزء 18 صفحة 175 وما بعدها

وفي الجزء 9 صفحة 25

وصفحة 27

وصفحة 108

وصفحة 113

وفي الجزء 19 صفحة 29

وفي الجزء 15 صفحة 88

وأما أخوه أحمد، فلم نعثر له الآن[5] على ترجمة مستقلة، وإنما وردت أخباره مدرجة في ترجمة أخيه أبي الفرج، ومبعثرة في غيرها من التراجم، فورد ذِكْرُهُ في الأغاني :

في الجزء 5 صفحة 95

وفي الجزء 9 صفحة 27

وفي صفحة 32

وفي الجزء 8 صفحة 41

وها الجزء التاسع عشر من «الأغاني»، والأول من «معجم ياقوت» يصلانكم صحبته لتطالعوا ما فيهما، وان يسر الله في العثور على شيء آخر فسنوافي السيادة به بحول الله.

ونحن على استعداد لإعانتكم بكل ما في وسعنا، لاَ عَدِمْنَا أخوتكم ومحبتكم وإعانتكم، فانكم أسبق في هذا الميدان، ولا يقعقع لكم فيه بالشنان، والله يتولى حفظكم، وعلى المحبة والسلام.

---

4) طبع الساسي.

5) نعم ترجم له ترجمة مستقلة ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، ص 60 من ج 2 طبع دمشق.

في تاسع وعشرين (29) جمادى الأولى عام سبعة وخمسين وثلاثمائة وألف 1357، الموافق ثامن وعشرين (28) يوليوز سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وألف 1938.

جعفر بن أحمد الناصري لطف الله به

ثم توفي الشيخ رحمه الله بعد ذلك سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف (1945/1364)، وكان ذلك آخر عهدى بهذه المسألة، ولا أدري ما كانت نتيجة بحثه فيها، إلى أن اشتغلت في هذه الأيام بالبحث في تاريخ القرصنة السلاوية الرباطية، وكان من لوازم هذا الموضوع البحث في تاريخ نشوء العمران على مصب نهر أبي رقراق الذي هو مهد هذه القرصنة، وعشّها الذي منه درجت، وجحرها الذي منه خرجت، وفيه انجحرت، فأدى بي البحث في تكوين العمران بالضفة اليمنى للنهر، وهي العُدوة السلاوية، إلى البحث في بني عشرة الذين يُنْسب إليهم عمران هذه المدينة واشتهار اسمها بالمغرب والأندلس.

فتذكرت حينئذ ما كان طلبه مني الشيخ المذكور، رحمه الله، من الإعانة بالبحث في تاريخ هذه الأسرة القديمة، وعدَّ ذلك من الحقوق المتعيِّنة علينا، فتحرك مني ما كان ساكنا، وقلت : لعله جاء الوقت لإبراز ما كان كامنا، فحرَّرت ما تيسر تحريره في هذه الأسرة العشَرية السلاوية، وانتسابها للأسرة المدبِّرية العراقية، وانْتقَالها لهذه الأقطار المغربية، ونزولها بالعدوة السلاوية الرقراقية، تلبية لنداء الشيخ رحمه الله، وتحقيقا لإشارته، بمساعدته وإعانته، حيث تجدَّدت البواعث، وتيسَّر الوقوف على بعض المراجع، وتحقيق بعض الحوادث، وتهيَّأت الأسباب، ولو بعد حين، ولكل أجل كتاب.

من هم بنو عَشَرة ؟

بنو عشرة بسلا، أسرة قديمة عريقة في المجد والرياسة والسؤدد والجود والكرم والعلم والفضل والادب.

وإليهم ينسب تخطيط سلا الحديثة، واستبحار عمرانها، وتصييرها مصرا من الأمصار المغربية، وثغرا من الثغور البحرية، على مصب أبي رقراق من الضفة الشمالية.

وقد تعدَّد فيهم الرؤساء والأمراء، والعلماء والقضاة والأدباء، وأهل الخير والصلحاء، وتردَّدت أسماؤهم في المعاجم والفهارس وكتب التاريخ والتراجم المكتوبة في ذلك العصر، بالمغرب والأندلس.

وكانوا معظمين عند السلاطين والأمراء، مُمَدَّحِين من الأدباء والشعراء، يلوذ بهم ذووا الحاجات، ويقصدهم المنكوبون، إذا اشتدَّت بهم الأزمات، وسُدَّتْ في وجوههم الأبواب، واستحكمت الحلقات، فيجدون لديهم منزلا رحبا، ومرعًى خصبا، وفاكهة وأبًّا، متاعا لهم ولأنعامهم، ويتحملون عنهم هفواتهم وعثراتهم، فتغفر ذنوبهم، عند الملوك والسلاطين، وتكون لهم العتبى، والمُنْقَلَبُ الصالح وحسن العقبى، منذ عهد بني يفرن إلى ظهور دولة الموحدين، بل لم ينقطع ذكرهم، حتى في عهد بني مرين، حسبما سيأتي بيانه في محله.

أصل بني عَشَرة

بنو عشرة السلاويون ينتسبون إلى الأمير عشرة الذي يقول بعض المؤرخين إنه كان من أمراء أو رؤساء بني أمية خلفاء قرطبة بالمغرب الأوسط.

وقد نُقِلَ عن أبي بكر ابن اللبَّانة، المتوفي سنة سبع وخمسمائة (507/ 1113) أنه قال في كتابه «سقيط الدُّر، ولقيط الزَّهر»،[6] ان عشرة كان أميرا لخلفاء بني أمية بالمغرب الأوسط.

كما أن علي بن ظافر[7] حلَّى في كِتَابِه «بدائع البداية» أبا الحسن على بن القاسم بن عشرة منهم، بأن عشرة كان أحد رؤساء المغرب الأوسط.

وعليه، فان انتساب هذه الأسرة لعشرة، الامير، كانت معروفة مسلمة عند المؤرخين والكتاب والأدباء منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين، (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين). وابن اللبَّانة كان معاصرا لهم، ومطَّلعا على أخبارهم.

وعلي ابن ظافر، كان قريبا من زمنهم، ولا تخفى عليه تراجمهم لشهرتهم في ميادين الرياسة والأدب والجود والكرم الذي امتازوا به بالمغرب والأندلس.

---

6) «سقيط الدر ولقيط الزهر»، موضوعه شعر ابن عباد.

7) ص 78 من ج 1 المطبوع على هامش «معاهد التنصيص» وعلي بن ظافر كان علامة أديبا مؤرخا، تولى الوزارة للملك الأشرف بمصر.

تسميتهم ببني عَشَرة

ليس لدينا نص صريح نعتمد عليه في سبب تسميتهم ببني عشر، أو تسمية جدهم بعشرة، واشتهارهم بذلك.

وإنما يؤخذ مِمَّا أحال عليه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة» في رسم أبي علي الحسن منهم، انه تكلم على الأسطورة المنسوبة إليهم، وهي أنهم ولدوا عشرة في بطن واحد، ولذلك سموا ببني عشرة، حسبما يؤخذ مِمَّا نقله عنه الفقهاء مُحَرَّفًا عند الكلام على إيقاف قسم المتروك لأجل الحمل، كما سيأتي بيانه والتنبيه عليه وعلى إصلاح التصحيف الواقع فيه في الفصل المعقود لهذه الأسطورة، آخر هذه الدراسة.

وحيث أننا لم نقف على هذا الرسم المحال عليه، فانَّنَا لا ندري ما انفصل عليه من نفي أو إثبات لهذه الأسطورة، ولعله نفاها، لأنه قال : ويقول بعض الأغمار، كما يؤخذ من النص المُحرَّف الذي نقله الفقهاء.

والذي يظهر لنا، ان اسم جدهم عشرة، منقول من اسم العدد، على عادة أهل الأندلس. فقد كانوا يُسَمُّونَ بالأعداد، كابن عاشر، وابن خمسين، وابن سبعين، ونَحْوِ ذلك، فَنُسِبُوا إليه وسُمُّوا «بني عشرة»، والله أعلم.

انتســاب بنــي عشَــرة لآل المدبّـر وما قيل في ذلك

ذكر بعض المؤرخين وكُتَّاب التراجم أن بني عشرة السلاويين ينتسبون إلى أحمد بن محمد بن المدبّر العراقي الشهير.

وأول من وقفنا عليه حتى الآن ذكر ذلك أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتريني المتوفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (1147/542) في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»[8] لما ترجم للشاعر أبي بكر محمد بن سوار الأشبوني بلفظة (بلغني) فقال :

ولبني القاسم (يعني بني عشرة) خيم كريم، ولهم تقدم مشهور معلوم، بلغني أن جدهم الأكبر أحمد بن المدبر، حامل تلك الفضائل، وصاحب الأعمال الجلائل، إذ كان أحد نجوم تلك الآفاق، ببلاد الشام والعراق، واشتهار معرفة قدره، يمنع عن ذكره...

---

8) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم D 1324. ورقة 148.

ثم أردف هذا التعريف، بذكر نبذة من أخبار ونوادر آل المدبر في عهد المتوكل العبّاسي.

وقال ابن الأبّار في كتابه «أعتاب الكُتّاب»[9] في ترجمة ابن الوكيل اليابري الذي استجار ببني عشرة في نكبة نزلت به (ويذكر أن جدهم الأكبر، أحمد بن محمد بن المدبر).

ولما ترجم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة، لكتابي الموصول الصلة»[10] لابن الحسن علي بن القاسم، من بني عشرة، زاد «الفزاري» وقال : وقد تقدم أصل بيان هذه الشهرة في رسم أبي علي حسن منهم، وأعقبه بقوله : «ويذكر أنهم من عقب أحمد بن محمد بن المدبر الكاتب، أخي إبراهيم وزير المعتمد وكبيره»، فاتفق في ذلك مع ابن بسّام وابن الابّار.

وحيث اتفق هؤلاء المؤرخون الثلاثة على نقل وحكاية هذه النسبة، وان كانت بصيغة لا تدل على الجزم، فيؤخذ منها أنها كانت معروفة مقولة منقولة عند الكتاب والمؤرخين منذ القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر، والثالث عشر الميلاديين) لان ابن بسّام، توفي كما تقدم سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (1147/542)، وابن الأبار قُتل سنة ثمان وخمسين وستمائة (1259/658)، وابن عبد الملك المراكشي توفي سنة ثلاث وسبعمائة (1303/703).

أما زيادته في ترجمة أبي علي حسن لفظة «الفزاري» فإننا نتوقف فيها الآن، مادمنا نجهل ما قال، ولا ندري ما أحال عليه في الترجمة المذكورة، لفقدان حرف الحاء من النسخة المخطوطة التي بين أيدينا، لاسيما وهم ينتسبون إلى ضبَّة، كما سيأتي بيانه.

ومع أن فزارة وضبَّة قبيلتان عدنانيتان، فإنه لا يمكن النسبة إليهما معا في آن واحد، اللهمَّ إلا أن يكون أراد بقوله الفزاري، النسبة إلى «العُشَرَاء» بضم العين وفتح الشين المعجمة. وهم بطن من مازن بن فزارة، وينسب إليهم جماعة من الشعراء، منهم : هرم بن قطْبة بن سيار الذي تحاكم إليه عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة، والربيع بن مقنب الشاعر، وغيرهم.

وفزارة من جملة القبائل العربية التي رافقت بني هلال في هجرتهم إلى مصر، ثم إلى المغرب الأوسط أولا، والأقصى ثانيا.

---

9) ص 244.

10) مخطوط أبي عبد الله محمد التطواني السلاوي.

وقال القلقشندي في «صبح الاعشى»[11] : «إنهم اختلطوا بسُلَيْم في طرابلس».

والحاصل أن النسبة إلى العُشَرَاء، مجرد احتمال لاغير، لأننا لم نعرف مراده بالفزاري.

وعليه، فلنعتمد النسبة المدبرية ونبحث فيها، ونأتي بشيء من أخبار آل المدبر، وأحمد المنتسب إليه، وكيف انحدر من العراق إلى الشام، ثم إلى مصر.

وليس ببعيد ولا غريب أن تكون ذريته تسربت من مصر إلى المغرب الأوسط، لوجود الأسباب الداعية إلى هذا التسرب في ذلك العصر، حسبما سيأتي بيانه مفصلا في محله.

---

11) صفحة 345 من المجلد 1.

المبحث الثالث

آل المدبّر

آل المدبّر، بكسر الباء المشددة، كما ضبطها ابن خلكان، وفَتْحِهَا مشددة كما ضبطها الذهبي في كتاب «المشتبه من أسماء الرجال»، ونص في أوله على أنه لايضبط من الأسماء بالحروف إلا ما يتعين ضبطه لخلاف فيه.

أصلهم

اختلف الأخباريون وكتَّاب التراجم وأدباء عصرهم في تحرير نسبهم، وتحقيق أصلهم، وهل هم عرب أم عجم.

فذكر ياقوت في «معجم الأديب» في ترجمة إبراهيم[12] انه كان يدعي النسبة في ضبَّة ولم يبين هل صلبية أو ولاء.

وضبَّة بن أُدّ بن طابخة من العدنانية، معدودة في جمرات العرب الثلاث، وكانت منازلهم بجوار بني تميم اخوانهم بالناحية الشمالية التِّهامية من نجد، ثم انتقلوا في الإسلام إلى العراق بجهة النعمانية[13].

وكانوا مع عائشة رضي الله عنها يوم الجمل، وفي ذلك يقول شاعرهم[14] :

---

12) ص 292 من ج 1 طبع مرجُليوت.

13) «قبائل العرب» ص 661 من ج 2.

14) «تاريخ الطبري» ص 209 من ج 5.

نحن بنو ضَبَّـة أصـحـاب الجَـمَلْ　　نَنْعى ابن عـفـان بأطراف الأسَلْ
المـوت أحلى عندنا من العَـسَلْ　　رُدُّوا علينـا شـيـخنـا ثم بَجَـلْ

وفي نسبتهم إلى ضبة يقول مخلد بن الشامي الحوراني يهجو أحدهم ولعله ابراهيم[15].

عـلـى أبـوابــه مـــن كـل وجــه　　قَــصَــدتٌ لـه أخــو مُــرٍّ بْـنِ أُدٍّ

يعني ضبَّة بن أُدّ، ويقصد أن أبوابه مُضَبَّبة باللؤم ومحكمة عن الخير.

وبعد ذكر ياقوت لادعائهم النسب في ضبَّة قال : [16] إن أصلهم من سِتِمْسِيان، وهي غير معروفة، ولذلك علق عليها مُصَحِّحة مَرْجِلّيوت، بأنها لعلها سلَمْسين وهي كما في «معجم البلدان»، قرية قرب حرَّان من نواحي الجزيرة بينها وبين حرَّان فرسخ[17].

ولما ذكر ابن حزم في «جمهرة أنساب العرب»[18] ضَبَّة ابا القبيلة، وعدَّد أفخاذها ومشاهير من يُنْسَبُ إليها، لم يذكر آل المدبّر منهم، ولكنه قال : يقال : «إن الديْلَم من ولده»، فهل آل المدبّر ينتسبون إلى ضبَّة من طريق الديلم ؟

وعلى كل حال فإن أبا عمر يوسف بن عبد البر، قد بسط الكلام في كتابه «القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم»[19] على الديلم وانتسابهم إلى ضبَّة، فقال :

ذكر الشرقي بن القطامي : أنه الديلم بن باسل بن ضبَّة بن أُدّ، ويزعمون أن باسلاً غزا أرض الأعاجم، فَأَثْخَن فيهم، ثم مات، فصار ابنه الديلم بمن تبعه من قومه إلى الموضع الذي هلك فيه أبوه باسل، فصادف الأعاجم قد استقام أمرهم وخشي الهلكة، فانحاز إلى الجبال التي بها الديلم اليوم، فأقام بها هو وولده.

واستدلوا على ذلك باتفاق هيئات الديلم وهيئات العرب.

وقال آخرون : بل خرج باسل مُغاضباً لأبيه حتى صار إلى أرض العجم.

---

15) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 2 طبع دمشق عام 1330.
16) ص 292 من ج 2 «معجم الأدباء»، طبع مَرْجِلْيوت Maryoliouth.
17) ص 111 من ج 5.
18) ص 192، دار المعارف بمصر.
19) طبع دار السعادة بالقاهرة، عام 1350.

وذكر أحمد بن يعقوب الكاتب وغيره : أن الديلم من بني ضبَّة بن أُدّ بن طابخة بن إلياس ابن مُضَر.

وذلك أنَّ باسل بن ضبَّة، نافر إخوته، فصار إلى بلاد الديْلم، فأقام بها، وأنْسَلَ فيما يزعمون .

قال : وهذه الطائفة من الديلم مقيمون على هذا النَّسب، مُعْتَزِلُون لسائر أجناس الديلم.

قال أبو عمر : هذا يدلّ على أن أكثر الديلم وأصلهم ليس من العرب، فهم – وَالله أعلم – من ولد البُرْجان بن يونان، بن يافث، بن نوح، عليه السلام، كما قيل.

وقد رَوى عن النبي ﷺ، فَيْروز الديْلمي، وهو أحد الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ في قتل الأسود العنسي المتنبئ الكذاب.

ولفيروز الديلمي أبيات فيها.

بَنو الدَّيْلَمِ المِـقْـدامِ مِنْ ءال بَاسِلِ   أبى الخَفْضَ واخْتار الحَزْونَ على السَّهْلِ

انتهى كلام أبي عمر، ولم يرد فيه ذكر لآل المدبّر، وهذا يدل على أنَّ ادِّعاءَهم النسْبة لضبَّة كان مجرد قول منهم.

أمَّا ابن خلّكان، فقد ذكر أحمد بن المدبّر استطراداً في ترجمة أبي بكريموت بن المزرع وقال في نسبه الضَّبِّي الرسْتَساني[20]، ولم نقف على هذا الإسم في المعاجم البلدانية التي بأيدينا الآن، ولعلها الرُّسْتُن، بُلَيْدَة قديمة كانت على نهر العاصي، على نصف الطريق بين حمص وحماة.

قال ياقوت : وقد اضمحلَّت وبقيت منها آثار.

ولما ترجم ابن عساكر لأحمد بن المدبّر قال · أصله من سَامَرًّا، ولعله أراد أنه كان من سكَّانها، لكونها مقرَّ الخلافة وعاصمة الدولة في عهده، وقد كان أحد كبار موظفيها، وذوي الجاه والمكانة السامية بين أعيانها.

والذي يؤخذ صراحة من عدة قصائد من أمداح البحتُري فيهم أنهم فُرْس أعاجم ساسانيون كِسراويون.

---

20) وفيات، ص 54 من ج 6

ومن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها إبراهيم :[21].

أُنَاسٌ قَـدِيمُ المَكْرُمَـاتِ وَحَـدْثُهَـا   لَهُمْ وَسَرِيرُ العُـجْمِ فِيـهِمْ وَتَاجُـهَا

معناه : أنهم أناس عُرِفوا بالكرم قديما وحديثا، وكان في أسلافهم سرير ملك العجم وتاجها. وقوله من قصيدة أخرى يمدحه بها[22].

نَشَـدُوا فِي بَنِي المُـدَبِّرِ عَـهْدًا   غَـيْرَ مُـسْتَـقْصَرٍ وَ لاَ مَـذْمُـومِ

فِي المَحَلِّ الجَلِيلِ مِنْ رُتْبَةِ المُلْـ   ـكِ اسْتَقَلَّـتْ وَالمَذْهَبِ المُسْتَقِيـمِ

لِلنَّدَى الأَوَّلِ الأَخِـيـرِ الذِي بَـرَّ   زَ وَالسُّؤْدَدِ الحَـدِيـثِ القَـدِيـمِ

هِيَ أُكْـرُومَـةٌ نَـمَـتْ مِنْ بَنِي سَـا   سَـانَ فِي خَـيْـرِ مَنْصِبٍ وأُ رُ و مِ

لِلصَّرِيحِ الصَّرِيحِ والأَشْـرَفِ الأَشْـ   ـرَفِ إِنْ عُـدَّ وَالصَّمِيـمِ الصَّمِيـمِ

يعني أنهم طلبوا في ءال المدبّر عهدا، أي ذمة ومودة غير ناقصة ولا مذمومة، لأنهم في المَحَلِّ الرفيع من الرُّتَبِ الملكية، ولأنهم موصوفون بالسؤدد والجود والفضل، وهذه أُكْرُومة، أي فِعْلُ كرم، نمت، أيْ نُسِبَتْ إليهم من بني ساسان، الذين لهم المرجع في الأصل والشرف والنسب الصريح المَحْضِ الخالص...

وقوله من قصيدة أخرى يمدح بها أبا غالب بن أحمد بن المدبّر[23].

رضِـيـتُ خَلِيلِي أَبَا غَـالِبٍ   لِكَسْـرِ الخُطُـوبِ وَإِيهَـانِهَـا

تُـعَـدُّ لَهُ فَـارِسٌ قُـرْبَـةً   وَزُلْفَى بِكِسْـرَى بْنِ سَـاسَانِهَـا

إِذَا سُـئِلَتْ عَنْهُ عِنْدَ الفَـخَـا   رِ قَـالَتْ بِأَصْـدَقِ عِـرْفَـانِهَـا

يَطُولُونَ مِنْـهُ بِأَنْسَـانِـهِمْ   وَلِلْغَـيْـنِ طُـولٌ بِإِنْسَـانِهَـا

21) «ديوان البحتُري»، ص 140 من ج 1، طبع الجوائب.

22) نفس المصدر، ص 130 من ج 2.

23) نفس المصدر ص 133 من ج 2.

أي أنه رضى خليله أبا غالب بن أحمد المدبر لكَسْر خُطوبه العظيمة، ودواهيه الجسيمة، إذا نَزَلَتْ به، وتبديدها، أي تشتيتها وايهانها، أي اضعافها، لأنّ فارسا تعد له زُلفى، ومنزلة وقربى، من كسرى بن ساسان، وإذا سُئلت عنه عند الفخار والمباهاة بالخصال الكريمة المحمودة، قالت ذلك بصدق عرفانها، أي بما في عِلْمِهَا، وأنهم أي آل المدبر يَطولون منه، أي من كسرى بن ساسان، ويترفعون على غيرهم بانْسَانِهم أي كريمهم، وهو الممدوح، كما أن العين تطول، أي تفضل غيرها من الأعضاء بانسانها الذي هو سوادها أو حَدَقَتها.

ولولا أن البحتري الذي عاش في أيامهم، وعاشرهم، وعاصرهم، وجالسهم، وكان يَغْشَى مجالسهم، كان يعلم فارسيتهم وساسانيتهم، لما صرح بها في شعره، وتزلف إليهم بذكرها ونشرها.

ولولا أنه كان يعلم أنهم كانوا يُحِبُّون سماع ذلك منه، ويرتاحون لترديده وتسجيله في قصائده التي مدحهم بها، وأجازوه عليها، لما أقدم عليْه وتَقَرَّب إليهم به.

ولا يخفى أن الشاعر لا يمدح الممدوح إلا بما يتحقَّق أنه يحب أن يُمدح به من نسب عريق صريح، وحسب مَوْثُوق به صحيح، إلى غير ذلك من الخصال الحميدة التي يُمْتدح ويُتَمَدَّحُ بها كالجود والفضل والعلم والشجاعة... لأن الشعر سجل يحفظ للأجيال ما يُسَجِّل فيه أكثر من النثر.

وعليه، فإن القول بفارسيتهم رَاجِحٌ جداً لإقرارهم لهذه النسبة من شاعر كبير، وتسليمهم لها، بقولهم تلك القصائد وما جاء فيها.

وأما الإنتماء إلى ضبّة، فالظّاهر أنه كان انتماء ولاء فقط، كغيرهم من الأُسر الغير العربية في ذلك العهد.

وقد كان للأسر الفارسية والعجمية الشّهيرة في الدين والعلم والأدب والرياسة ولاء في قبائل العرب لعزتها، وعظم شأنها في ذلك العهد، عهد الفتوح والسيادة العربية، وخصوصا عهد المنصور ومن بعده من الخلفاء إلى أن ظهر الترك والممالك في زمن المعتصم والمتوكل، فزاحموهم في ميدان الحكم والرياسة. والولاء لحمة كلحمة النسب، وَمَوْلى القوم منهم، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، كما في الحديث الشريف.

والفرس هم الذين نظّموا دواوين الدولة العبّاسية، ووضعوا دساتيرها، ورتّبوا دخلها وخرجها، وفرّقوا كما شاؤوا جبايتها وأموالها، وعدّلوا خراج ضياعها، وألْبَسوها حلّة

كسراوية ساسانية، وخلعوا عنها الشّملة والعباءة المُضَرية القَحْطانية، وأدخلوا عوائد الفرس وأخلاقهم إلى بساط الخلفاء، فلبسوا جِلْدتهم، وتقمّصوا زيهم، وسلكوا سبيلهم، واقتبسوا نظامهم في أكلهم وشربهم، وعيشهم ولهوهم، وترتيب مجالس منادمتهم وأُنْسِهِم، واحتفالاتهم في أعيادهم ومواسمهم، وسائر مراسمهم.

وقد كان لآل المدبر السَّبْق في هذا الميدان، والقِدْح المعلَّى في هذا الشأن، وخصوصا إبراهيم وأحمد منهم، حسبما سيأتي في أخباره مفصلا. وآل المدبر ثلاثة إِخْوة : محمد وإبراهيم، وأحمد.

- فأما محمد

فلم نقف له الآن على أثر يذكر، فيما توفر لدينا من المراجع وكتب الأدب والأخبار والتراجم، ولعله لم تكن له جولة في الميادين الأدبية والسياسية في عصره.

- و أما إبراهيم

فقد ترجم له جماعة من المؤرخين والكُتّاب والأدباء في معاجمهم التاريخية، ومعالمهم الأدبية، وقلَّما نجد كتابا من كتب الأدب القديمة إلاّ وفيه ذكر له ولأخيه أحمد.

وقد جمع أبو الفرج الاصبهاني في كتابه «الأغاني» من أخبارهما الشيء الكثير، وسجَّل من نوادرهما مع الخلفاء والأمراء والوزاء والشعراء المعاصرين لهما أشعارا رائقة، ونوادر فائقة.

وتولَّى الولايات الجليلة، ووزر للمعتمد على الله لمَّا خرج من سُرَّمَنْ رَأى يُرِيدُ مصر[24]، وكان من وجوه الكُتَّاب بالعراق، وذوي الجاه والمتصرفين في كبار الأعمال، ومذكور الولايات.

وكان المتوكل على الله يقدمه ويُؤَيده ويفضله، وامْتُحِنَ ونُكِبَ كأمثاله من الكُتَّاب والأدباء والوزراء البارزين في كل زمان ومكان.

وكانت بينه وبين عريب الغانية المغنية، نجم المحافل والمجالس، وأُنْس كل أنيس ومجالس، دمية قصور الخلفاء والأمراء والوزراء في وقتها، مذاعبات ومُخَاطبات ومراسلات

---

24) «معجم ياقوت» ص 226 من ج 11 طبع مرجليوث.

ومناظرات، يستحليها السمع، ويسترقُّها الطبع، إذ كان يهواها وتهواه، ويرضاها وترضاه، وأخبارهما ونوادرهما كثيرة مُفَرَّقة في الدواوين الأدبية.

ومن آثاره الباقية في عالم الأدب وصناعة التَّرسيل، «الرسالة العذراء» في موازين البلاغة وأدوات الكتابة.

وقد أدرج عدة فصول منها أبو العبَّاس ابن عبد ربه الأندلسي في «كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة» من عقده الفريد، ولم ينسبها إليه، ونسبها إلى أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الشيباني[25] وطُبعت في كتاب «رسائل البلغاء»، لكرد علي، بمطبعة مصطفى بابي الحلبي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1331/1913) وأُدرجت قبل ذلك في الجزء التاسع من المجلد الرابع من مجلة «المقتبس» الصادرة في رمضان عام سبع وعشرين وثلاثمائة وألف (1327/1909)، وأعاد طبعها مصحَّحة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية، عن فن الإنشاء ومذاهب الكتابة في العراق في القرن الثالث الهجري، زكي مبارك، بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة خمسين وثلاثمائة وألف (1350/1931).

ومات وهو يتقلَّد ديوان الضياع ببغداد سنة تسع وسبعين ومائتين (279/892).[26].

- وأما أحمد،

فهو موضوع بحثنا ودراستنا، وإليه يساق حديثنا في الفصول الآتية :

---

25) لم نقف له على ترجمة.

26) «معجم ياقوت» ص 227 من ج 1 طبع مرجليوت.

المبحث الرابع

أخبار أحمد بن المدبّر الجدّ الأكبر لبني عشَرة

لمّا كان أحمد بن عبد الله، أبو الحسن، المعروف بابن المدبّر هو الجد الأكبر لبني عشرة كما يقال، رأينا أن نُلِمَّ هنا بشيء من أخباره وآثاره المتفرقة في بطون الدفاتر وكتب التراجم والأخبار، لتكون الفائدة أتم، والموضوع أشمل وأعم، لاسيما وهو يتعلق بتحقيق نسب أسرة سلاوية مُنْتَقِلَة من العراق، عريقة في القدم، وإليها ينسب تمصير مدينة سلا الحديثة، وعليها دار سورها، وسنتكلم على ترجمته من ناحيتين.

– الأولى : الناحية الأدبية.

– الثانية : الناحية الإدارية.

– فأمّا الناحية الأدبية

فقد اتفق كتّاب عصره ومن بَعْدَهُم على أنه كان من الأدباء البارزين بالعراق، ومن حملة الأقلام في عهد الخليفة المتوكل ومن بَعْدَهُ من خلفاء بني العبّاس في زمنه.

قال ابن عبد ربّه في «العقد الفريد» :[27] وسمّى جماعة ممن نبه بالكتابة بعد الخمول، فيهم أحمد بن محمد بن المدبّر : فهؤلاء نبلوا بالكتابة واستحقّوا اسمها.

وقال ابن النديم في «الفهرست» :[28] بنو المدبّر، أحمد ومحمد وإبراهيم، جميعهم مُتَرَسِّلٌ بليغ ؛ ولأحمد : كتاب «المجالسة والمذاكرة».

---

27) ص 256 من ج 4.

28) ص 123 من ج 1.

• ومن شعره يخاطب أخاه إبراهيم في نكبته، وقد أهدى إليه شعره مجموعا فقرأه وكتب عليه.

أبَا إسْحَاقَ إنْ تَكُنِ اللَّيَالِي عَطَفْنَ عَلَيْكَ بِالخَطْبِ الجَسِيمِ
فَلَمْ أرَ صَرْفَ هَذَا الدَّهْرِ يَجْرِي بِمَكْرُوهٍ عَلَى غَيْرِ الكَرِيمِ[29]

ومن شعره أيضا قوله :

صَبَاحُ الحُبِّ لَيْسَ لَهُ مَسَاءُ وَدَاءُ الحُبِّ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ
وَلِي نَفْسٌ تَنَفَّسُهَا اشْتِيَاقٌ وَعَيْنٌ فَيْضُ عَبْرَتِهَا الدِّمَاءُ
وَلَيْلِي وَالنَّهَارُ عَلَيَّ مِمَّا أُقَاسِي فِيهِمَا أَبَدًا سَوَاءُ[30]

وكان لا يقبل من الشعر إلا الجيد، ويُشَدِّدُ على الشعراء في انتقاد أشعارهم، وإذا مدحه شاعر فلم يرض شعره، قال لغلامه : «امض به إلى المسجد الجامع، ولا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة ثمّ اطلقه»، فتحاماه الشعراء إلاّ أفراد من ذوي الإجادة، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري، المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد، فقال له : «قد عرفت الشرط»، قال : «نعم» ثم أنشده :

أَرَدْنَا فِي أَبِي حَسَنٍ[31] مَدِيحًا كَمَا بِالمَدْحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَةُ
وَقُلْنَا أَكْرَمَ الثَّقَلَيْنِ طُرًّا وَمنْ كَفَّاهُ دِجْلَةُ وَالفُرَاتُ
فَقَالُوا : يَقْبَلُ المِدْحَاتِ لَكِنْ جَوَائِزُهُ عَلَيْهِنَّ الصَّلاَةُ
فَقُلْتُ لَهُمْ، وَمَا تُغْنِي صَلاَتِي عِيَالِي إِنَّمَا الشَّأْنُ الزَّكَاةُ
فَتَأْمُرُ لِي بِكَسْرِ الصَّادِ مِنْهَا فَتُصْبِحُ لِي الصَّلاَةُ هِيَ الصِّلاَتُ

29) «اعتاب الكتاب» لابن الابّار، ص 159.
30) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 6.
31) كان أحمد بن المدبّر يكنى أبا الحسن.

فضحك أحمد بن المدبّر واستظرفه وقال : من أين أخذت هذا ؟ فقال من قول أبي تمام :

هُنَّ الحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَابَةً ... مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ[32]

ومن أخباره الأدبية، ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني» :[33] قال : أخبرني عمي والحسن بن علي جميعا، قالا : حدثنا محمد بن أبي القاسم بن مهرويه قال : حدثني أبي، قال : كنت عند أحمد بن المدبّر ليلة من الليالي، فأنشدته لدِعْبَل في أحمد بن أبي دُؤَاد قوله :

إِنَّ هَذَا الَّذِي دُؤَادُ أَبُوهُ ... وإيادٌ قَدْ أَكْثَرَ الأَنْبَاءَ

سَاحَقَتْ أُمُّهُ وَلَاطَ أَبُوهُ ... لَيْتَ شِعْرِي عَنْهُ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ

جَاءَ مِنْ بَيْنِ صَخْرَتَيْنِ صَلُودَيْـ ... ـنِ عِقَاقَيْنِ يُنْبِتَانِ الهَبَاءَ

لَاسِفَاحٌ وَلَانِكَاحٌ وَلَامَا ... يُوجِبُ الأُمَّهَاتِ وَالآبَاءَ

قال : فاستعادها أربع مرات، فظننت أنه يريد أن يحفظها، ثم قال : جئني بِدِعْبل حتى أوصله إلى المتوكل، فقلت له : دِعْبل مَوْسُوم بهجاء الخلفاء والتشيع، وإنما غايته أن يخمل ذكره، فأمسك عني. ثم لقيت دِعْبَلا، فحدثته بالحديث فقال : لو حضرت أنا أحمد بن المدبّر لما قَدَرْتُ أن أقول أكثر مما قلت.

وروى أبو الفرج أيضا،[34] قال : أخبرني محمد يحيى الصُّولي، قال : سمعت إبراهيم ابن المدبّر يقول : جرى بين إبراهيم بن العباس (يعني الصُّولي) وبين أخي أحمد بن المدبّر شيء، وكان يودُّني دون أخي فلقيته فاعتذرت إليه عنه، فقال لي : يا أبا إسحاق :

خَلِّ النِّفَاقَ لأَهْلِهِ ... وَعَلَيْكَ فَالْتَمِسِ الطَّرِيقَا

وَاذْهَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَى ... إِلاَّ عَدُوّاً أَوْ صَدِيقَا

---

32) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 6، و«ابن خِلِكان» ص 54 من ج 6.

33) ص 41 من ج 19، طبع الساسي.

34) ص 27 من ج 9.

وقال أبو الفرج أيضا :[35] أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العباس، يقولها لأحمد بن المدبّر وقد جاءه بعد خلاصه من النكبة مهنئا، وكان استعان به في أمر نكبته فقعد عنه، وبلغه أنه كان يُحَرِّضُ عليه ابن الزيات.

وَكُنْتَ أَخِي بِالدَّهْرِ حَتَّى إِذَا نَبَا ... نَبَوْتَ فَلَمَّا عَادَ عُدْتَ مَعَ الدَّهْرِ
فَلاَ يَوْمَ إِقْبَالٍ عَدَدْتُكَ طَائِلاً ... وَلاَ يَوْمَ إِدْبَارٍ عَدَدْتُكَ فِي وِتْرِ
وَمَا كُنْتَ إِلاَّ مِثْلَ أَحْلاَمِ نَائِمٍ ... كِلا حَالَتَيْكَ مِنْ وَفَاءٍ وَمِنْ غَدْرِ

وللصُّولي في أحمد بن المدبّر وقد عاتبه أحمد بن المدبّر على شيء بلغه فقال :

هَبِ الزَّمَانَ رَمَانِي ... الشَّأْنُ فِي الخُلاَّنِ
فَمَنْ رَمَانِيَ لَمَّا ... رَأَى الزَّمَانَ رَمَانِي
وَمَنْ ذَخَرْتُ لِنَفْسِي ... فَصَارَ ذُخْرَ الزَّمَانِ
لَوْ قِيلَ لِي خُذْ أَمَانًا ... مِنْ أَعْظَمِ الحَدَثَانِ
لَمَا أَخَذْتُ أَمَانًا ... إِلاَّ مِنَ الخُلاَّنِ

وحدث الجهشياري عن وهب بن سليمان بن وهب قال :[36].

كنت أكتب لإبراهيم بن العباس علي ديوان الضياع، وكان رجلا بليغا، ولم يكن له في الخراج تقدم، وكان بينه وبين أحمد بن المدبّر تباعد، وكان أحمد مُقدّما في الكتابة، فقال أحمد بن المدبّر للمتوكل : قلّدت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع، وهو متخلف، ءاية من الآيات، لا يُحْسِنُ قليلا ولا كثيرا، وطعن عليه طعنا قبيحا، فقال المتوكل : في غدٍ أجْمَعُ بينكما. واتّصل الخبر بإبراهيم، فأيقن بالمكروه، وعلم أنه لا يفي بأحمد ابن المدبر في صناعته، وغدا إلى دار السلطان آيسا من نفسه ونعْمته، وحضر أحمد، فقال له المتوكل : قد حضر إبراهيم وحضرت، ومن أجلكم قعدت، فهات : أذكر ما كنت فيه أمس، فقال أحمد : أي

35) ص 32 من نفس ج.

36) «معجم الأدباء» لياقوت، ص 194 من ج 1.

شيء أذكر عنه ؟ فإنه لا يعرف أسماء عماله في النواحي، ولا يعلم ما في دساترهم وكيولهم، وحمْلَ من حَمَلَ منهم، ومن لم يحمل، ولايعرف أسماء النواحي التي تقلَّدها، وقد اقتطع صاحبه بناحية كذا، كذا ألفا، واختلَّت ناحية كذا في العمارة، وأطال في ذكر هذه الأمور، فالتفت المتوكل إلى إبراهيم فقال : ماسكوتك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتهما، فإن أذن أمير المومنين في إنشادهما أنشدتهما، فإذن له فأنشده :

رَدَّ قَــــولِـي وَصَـــــدَّقَ الأَقْــوَالاَ   وأطَـاعَ الـوُشَــــــاةَ وَالـعُـــــذَّالاَ

أَتَرَاهُ يَكُونُ شَـــــهْــــر صُـــدُودٍ   وَعَلَـى وَجْـــــهِــــهِ رَأَيْـتُ الهِـلاَلاَ

فقال المتوكل : زه، زه[37] أحسنت، إيتوني بمن يصنع في هذا لحنا وهاتوا ما نأكل، وجيئوا بالنساء، ودعونا من فضول ابن المدبّر، واخلعوا على إبراهيم بن العباس، فخُلِع عليه، وانصرف إلى منزله.

قال الحسن : فَمَكَثَ يومه مغموما فقلت له : هذا يوم سرور وجذل بما جدَّد الله لك من الإنتصار على خصمك، فقال : يابني، الحق أولى بمثيلي وأشبه، إني لم أدفع أحمد بحجَّة ولا كذب في شيء مما ذكر ولا أنا ممن يعشره[38] في الخراج كما أنه لا يعشرني في البلاغة، وإنما فلجت بِرطازة[39] ومخرقة، أفلا أبكي فضلا عن أغتم من زمان يدفع ذلك كله.

وقال أبو الفرج :[40] حدثني سليم بن الأخفش قال : حدثني محمد بن الحسن بن الحرون، قال : كنا يوما عند أحمد بن المدبّر، فغناه مغن كان عنده لحن إسحاق :

فَأَصْبَحْتُ كَالحَوْمَانِ يَنْظُرُ حَسْـرَةً   إِلَى المَاءِ عَطْشَانًا وَقَدْ مُنِعَ الـــوِرْدَا

فقال ابن المدبّر زد فيه :

وَأَمْسَيْتُ كَالمَسْلُوبِ مُهْجَة نَفْسِهِ   يَرَى المَوْتَ فِي صَدْرِ الحَبِيبِ إِذَا صَدَّا

---

37) كلمة تقولها الأعجام عند الإستحسان.

38) أي يبلغ عشرة في معرفة ذلك

39) الرطازة : الخرافة، والجمع رطازات.

40) ص 93 من ج 5.

وأخبار أحمد بن المدبر ونكته ونوادره الأدبية مع الخلفاء ووزراء عصره كثيرة مفرقة في كتب الأدب والنوادر والتراجم، وإنما التقطنا منها ما أثبتناه هنا.

وقد مدحه كبار الأمراء وحاملوا راية الأدب في وقته لِمَا كان يوصف به من الجاه والنفوذ واليد الطُّولى، والكلمة المسموعة عند الخلفاء، كالبحتري، وديك الجن، وغيرهما.

وفيه يقول شريف من الهاشميين :[41].

يَا ابْنَ المُدَبِّرِ أَنْتَ أَكْرَمُ مَاجِدٍ ... عَاذَتْ بِهِ السَّادَاتُ عِنْدَ عِثَارِي

إِنِّي امْتَدَحْتُكَ مِدْحَةً شَرَّفْتُهَا ... شَرَفَيْنِ مِنْ أَصْلِي وَمِنْ أَشْعَارِي

وكان هذا الشريف عليه دين مبلغه مائة ألف درهم، فتحمله عنه.

ومن أمداح البحتري فيه وفي أخيه إبراهيم قصيدته التي يقول فيها[42].

عَنَانِي مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَانِي ... وَعَاوَدَنِي هَوَاكِ كَمَا بَدَانِي

وَذَكَّرَنِي التَّبَاعُدُ ظِلَّ عَيْشٍ ... لَهَوْنَا فِيهِ أَيَامَ التَّدَانِي

أُلاَمُ عَلَى هَوَى الحَسْنَاءِ ظُلْماً ... وَقَلْبِي فِي هَوَى الحَسْنَاءِ عَانِ

إِذَا انْصَرَفَتْ أَضَاءَتْ شَمْسُ دَجْنٍ ... وَمَالَ مِنَ التَّعَطُّفِ غُصْنُ بَانِ

وَيَوْمَ تَأَوَّهَتْ لِلْبَيْنِ وَجْداً ... وَكَفَّتْ عَبْرَتَيْنِ تَبَارَيَانِ

جَرَى فِي نَحْرِهَا مِنْ مُقْلَتَيْهَا ... جُمَانٌ يَسْتَهِلُّ عَلَى جُمَانِ

وَكَانَ الحَجُّ لِلْقَلْبِ المُعَنَّى ... ضَمَانًا زِيدَ فِيهِ إِلَى ضَمَانِ

وَمَا ذِكْرُ الأَحِبَّةِ مِنْ ثَبِيرٍ ... وَ بَلْدَحَ غَيْرَ تَضْلِيلِ الأَمَانِي

نَظَرْتُ إِلَى طَدَانَ فَقُلْتُ لَيْلَى ... هُنَاكَ وَأَيْنَ لَيْلَى مِنْ طَدَانِ

وَدُونَ لِقَائِهَا إِيجَافُ شَهْرٍ ... وسَبْعٌ لِلْمَطَايَا أَوْ ثَمَانِ

تَجَاوَزْنَ السِّتَارَ إِلَى شَرَوْرَى ... فَأَظْلَمَ وَاعْتَسَفْنَ قُرَى الْهِوَانِ

---

41) «أعتاب الكتاب» ص 159.

42) «ديوان البحتري»، ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

وَلَمَّا غَرَّبَتْ أَعْرَافُ سَلْمَى   لَهُنَّ وَشَرَّقَتْ قُنَنُ القَنَانِ
وَخَلَّفْنَا أَيَاسِرَ وَارِدَاتٍ   جُنُوحًا وَالأَيَامِنَ مِنْ أَبَانِ
وَخَفَّضَ عَنْ تَنَاوُلِهَا سُهَيْلٌ   فَقَصَّرَ وَاسْتَقَلَّ الفَرْقَدَانِ
تَصَوَّبَتِ البِلَادُ بِنَا إِلَيْكُمْ   وَغَنَّى بِالإِيَابِ الحَادِيَانِ
أَمُبْهِجَتِي العِرَاقُ وَلَيْسَ فِيهَا   عَقِيدَايَ اللَّذَانِ تَكَنَّفَانِي
وَمُؤْنِسَتِي وَكَيْفَ شُهُودُ أُنْسِي   بِهَا وَابْنَا المُدَبِّرِ غَائِبَانِ
حُسَامًا نُصْرَةٍ وَيَدَا سَمَاحٍ   وَبَحْرَا نَائِلٍ يَتَدَفَّقَانِ
إِذَا ابْتَدَرَا مَدَى مَجْدٍ بَعِيدٍ   تَمَطَّرَ دُونَهُ فَرَسَا رِهَانِ
هُمَا كَنْزِي لِأَحْدَاثِ اللَّيَالِي   إِذَا خِيفَتْ وَذُخْرِي لِلزَّمَانِ...

ثم استرسل في مدح إبراهيم إلى آخر القصيدة.

ومنها قصيدته التي يمدحه وأخاه إبرهيم بها:[43]

لَئِنْ ثَنَى الدَّهْرُ مِنْ سَهْمِي فَلَمْ يَصِلِ   وَرَدَّ مِنْ يَدِيَ الطُّولَى فَلَمْ تَنَلِ
لَقَدْ حَمِدتُّ صُرُوفًا مِنْهُ عَرَّفَنِي   مَذْمُومُهَا عُصَبًا مِمَّنْ عَلَيَّ وَلِي
بَنِي المُدَبِّرِ مَا اسْتَبْطَأْتُ سَعْيَكُمُ   وَلاَ أَرَدتُّ بِكُمْ فِي النَّاسِ مِنْ بَدَلِ
أَيَامُكُمْ هِيَ أَيَامِي التِي عَدَلَتْ   مَيْلِي وَدَوْلَتُكُمْ حَظِّي مِنَ الدُّوَلِ
أَقَمْتُ مِنْ سَيْبِكُمْ فِي يَانِعٍ زَهِرٍ   وسِرْتُ مِنْ جَاهِكُمْ فِي يَانِعٍ خَضِلِ..

وتخلّص بعد هذا لمدح أخيه إبراهيم.

وفي مدحهما أيضا يقول قصيدته الآتية،[44] ويذكر ولاية أحمد الخراج بدمشق.

---

43) «ديوان البحتري» ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

44) «ديوان البحتري» ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

أَمَحَلَّتَيْ سَلْمَى بِكَاظِمَةَ اسْلَمَا ... وَتَعَلَّمَا أَنَّ الجَوَى مَا هِجْتُمَا
هَلْ تُرْوِيَانِ مِنَ الأَحِبَّةِ هَائِمًا ... أَوْ تُسْعِدَانِ عَلَى الصَّبَابَةِ مُغْرَمَا
أَبْكِيكُمَا دَمْعًا وَلَوْ أَنِّي عَلَى ... قَدْرِ الجَوَى أَبْكِي بَكَيْتُكُمَا دَمَا
أَيْنَ الغَزَالُ المُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا ... كَفَلاً وَ مِنْ نَوْرِ الأَقَاحِي مَبْسِمَا
ظَمِئَتْ جَوَانِحُنَا إِلَيْهِ وَرِيُّهَا ... فِي ذَلِكَ اللَّعَسِ المُمَتَّعِ وَاللَّمَى
مُتَعَتِّبٌ فِي حَيْثُ لاَ مُتَعَتَّبٌ ... إِنْ لَمْ يَجِدْ جُرْماً لَدَيَّ تَجَرَّمَا
أَلِفَ الصُّدُودَ فَلَوْ يَمُرُّ خَيَالُهُ ... بِالصَّبِّ فِي سِنَةِ الكَرَى مَا سَلَّمَا
خُلِّفْتُ بَعْدَهُمُ أُلاَحِظُ نِيَّةً ... قَذَفاً وَ أَنْشُدُ دَارِساً مُتَرَسَّمَا
طَلاً أُكَفْكِفُ فِيهِ دَمْعاً مُعْرِبًا ... بِجَوىً وَأَقْرأُ فِيهِ خَطّاً أَعْجَمَا
تَأْبَى رُبَاهُ أَنْ تُجِيبَ وَلَمْ يَكُنْ ... مُسْتَخْبِرٌ لِيُجِيبَ حَتَّى يَفْهَمَا
اللَّهُ جَارُ بَنِي المُدَبِّرِ كُلَّمَا ... ذُكِرَ الأَكَارِمُ مَا أَعَقَّ وَ أَكْرَمَا
أَخَوَانِ فِي نَسَبِ الإِخَاءِ لِعِلَّةٍ ... بَكَرا وَرَاحَا فِي السَّمَاحَةِ تَوْأَمَا
يَسْتَمْطِرُ العَافُونَ مِنْ نَوْئَيْهِمَا ... الشِّعْرَى العَبُورَ غَزَارَةً وَالمِرْزَمَا
غَيْثَانِ أَصْبَحَتِ العِرَاقُ لِوَاحِدٍ ... وَطَناً وَغَرَّبَ وَاحِدٌ فَتَشَأَّمَا
وَلَوْ أَنَّ نَجْدَةَ ذَاكَ أَوْ هَذَا لَنا ... أَمَمٌ لأَدْرَكَ طَالِبٌ مَا يَمَّمَا
قَدْ كَانَ آنَ لِمُغْمَدٍ أَنْ يُنْتَضَى ... فِي حَادِثٍ وَلِغَائِبٍ أَن يَّقْدَمَا
إِنِّي وَجَدْتُ لأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ... خُلُقاً إِذَا خَنَسَ الجَبَانُ تَقَدَّمَا
مُتَقَلْقِلُ العَزَمَاتِ فِي طَلَبِ العُلاَ ... حَتَّى يَكُونَ عَلَى المَكَارِمِ قَيِّمَا
المُسْتَضَاءُ بِوَجْهِهِ، وَبِرَأْيِهِ ... إِنْ حَيْرَةٌ وَقَعَتْ وَخَطْبٌ أَظْلَمَا
أَلْقَى ذِرَاعَيْهِ وَأَوْقَدَ لَحْظَهُ ... بِدِمَشْقَ يَعْتَدُّ النَّوَائِبَ أَنْعُمَا
مُسْتَصْغِرٌ لِلْخَطْبِ يَجْمَعُ حَزْمَهُ ... لِمُلِمَّةٍ حَتَّى يُرَى مُسْتَعْظِمَا
تَقَعُ الأُمُورُ بِجَانِبَيْهِ وَإِنَّمَا ... يَبْعَثْنَ رَضْوَى أَوْ يَرُمْنَ يَرَمْرَمَا

كَلِفٌ بِجَمْعِ الخَرْجِ يُصْبِحُ حَوْلَهُ مُتَفَرِّقاً فِي إِثْرِهِ، مُتَقَسِّمَا
شَغَلَ المُدَافِعَ عَنْ مَحَالَةِ كَيْدِهِ وَأَذَلَّ جَبَّارَ البِلاَدِ الأَعْظَمَا
بَخَعُوا بِحَقِّ اللّهِ فِي أَعْنَاقِهِمْ لَمَّا أَتَاحَ لَهُمْ قَضَاءً مُبْرَمَا
لَمْ يَغْبَ عَنْ شَيْءٍ فَيَطْلُبَهُ وَ لَمْ يَجُزِ الذِّي حَدَّ الكِتَابُ فَيَظْلِمَا

ثم تخلَّص لمدح أخيه أبي إسحاق إبرهيم إلى آخر القصيدة.

وفي مدح أحمد يقول أيضا : (45).

لَعَمْرُ المَغَانِي يَوْمَ صَحْرَاءَ أَرْثُدِ لَقَدْ هَيَّجَتْ وَجْداً عَلَى ذِي تَوَجُّدِ
مَنَازِلُ أَضْحَتْ لِلرِّيَاحِ مَنَازِلاً تَرَدَّدُ مِنْهَا بَيْنَ نُؤْيٍ وَرِمْدَدِ
شَجَتْ صَاحِبِي أَطْلاَلُهَا فَتَهَلَّلَتْ مَدَامِعُهُ فِيهَا وَمَا قُلْتُ أَسْعِدِ
وَقَلَّتْ لِدَارِ المَالِكِيَّةِ عَبْرَةٌ مِنَ الشَّوْقِ لَمْ تُمْلَكْ بِصَبْرٍ فَتُرْدَدِ
سَقَتْهَا الغَوَادِي حَيْثُ حَلَّتْ دِيَارُهَا عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَسْقِ ذَا الغُلَّةِ الصَّدِي
رَأَتْ فَلَتَاتِ الشَّيْبِ فَابْتَسَمَتْ لَهَا وَقَالَتْ نُجُومٌ لَوْ طَلَعْنَ بِأَسْعُدِ
أَعَاتِكَ مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِي إِلَيْكِ فَأَلْحَى الشَّيْبَ إِذْ طَارَ مُبْعِدِي
تَزِيدِينَ هَجْراً كُلَّمَا ازْدَدْتُ لَوْعَةً طِلاَبًا لأَنْ أَرْدَى فَهَا أَنَا ذَا رَدِ
مَتَى أُلْحِقِ العَيْشَ الذِّي فَاتَ ءَانِفاً إِذَا كَانَ يَوْمِي فِيكِ أَحْسَنَ مِنْ غَدِ
لَعَمْرُ أَبِي الأَيَّامِ مَا جَارَ حُكْمُهَا عَلَيَّ وَ لاَ أَعْطَيْتُهَا ثِنْيَ مِقْوَدِي
وَكَيْفَ أَخَافُ الحَادِثَاتِ وَصَرْفَهَا عَلَيَّ وَ دُونِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ
مَلُومٌ عَلَى بَذْلِ التِّلاَدِ مُفَنَّدٌ وَلاَ مَجْدَ إِلاَّ لِلْمَلُومِ المُفَنَّدِ
وَ أَبْيَضُ نُعْمَاهُ لأَقْصَرِ مَاتِحٍ رِشَاءٌ وَجَدْوَاهُ لأَوَّلِ مُجْتَدِ

45) «ديوان البحتري» ص 149 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

إِذَا بَدَرُوهُ بِالسُّؤَالِ انْتَحَى لَهُمْ   عَلَى وَفْرِهِ، حَتَّى يَجُوزَ فَيَعْتَدِي

بَعِيدٍ عَنِ الفِتْيَانِ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِ   إِذَا سَارَ فِي نَهْجٍ إِلَى المَجْدِ مَصْعَدِ

وَفِي النَّاسِ سَادَاتٌ يَرُوحُ عَدِيدُهُمْ   كَثِيراً وَلَكِنْ سَيِّدٌ دُونَ سَيِّدِ

غَدَا وَاحِداً فِي حَزْمِهِ وَاضْطِلاَعِهِ   يَنُوءُ بِنُصْحٍ لِلْخِلاَفَةِ أَوْ حَدِ

قَرِيبٌ لَّهَا مِنْ حِفْظِ كُلِّ مُضَيَّعٍ   سَرِيعٌ لَهَا فِي جَمْعِ كُلِّ مُبَدَّدِ

يَضِينُ عَنِ الشَّيْءِ الطَّفِيفِ يُخَانُهُ   وَإِنْ هُوَ أَمْسَى وَاسِعَ الصَّدْرِ وَاليَدِ

أَبَا حَسَنٍ تَفْدِيكَ أَنْفُسُنَا الَّتِي   بِسَيْبِكَ مِنْ صَرْفِ النَّوَائِبِ تَفْتَدِي

وَمَا بَلَغَتْ آمَالُنَا مِنْكَ غَايَةً   نَرَاهَا رِضىً فِي قَدْرِكَ المُتَجَدِّدِ

وَكَيْفَ وَذَاكَ الرَّأْيُ لَمْ يُسْتَنَدْ بِهِ   مُشِيرٌ وَ ذَاكَ السَّيْفُ لَمْ يُتَقَلَّدِ

وفيه يقول أيضا هذه القطعة :[46].

يَأْبَى سُمُوُّكَ وَ اعْتِلاَؤُكْ   إِلاَّ الَّتِي فِيهَا سَنَاؤُكْ

عَمْرِي لَقَدْ فُتَّ الرِّجَا   لَ وَبَانَ يَوْمَ السَّبْقِ شَأْنُكْ

يَا ابْنَ المُدَبِّرِ وَالنَّدَى   وَ بْلٌ تَجُودُ بِهِ سَمَاؤُكْ

عَظُمَ الرَّجَاءُ وَرُبَّ يَوْ   مٍ حَقَّ فِيهِ لَنَا رَجَاؤُكْ

وَيَفُوتُنِي نَيْلٌ مَسَا   فَتُهُ كِتَابُكَ أَوْ لِقَاؤُكْ

فَغَنَاءُ مَنْ يُرْجَى إِذَا   لَمْ يُرْجَ فِي حَدَثٍ غَنَاؤُكْ

وَعَطَاءُ غَيْرِكَ إِذْ بَذَلْـ   ـتَ عِنَايَةً فِيهِ عَطَاؤُكْ

46) «ديوان البحتري»، ص 150 من ج 1.

وقد كان لأحمد بن المدبر ولد اسمه أبو غالب، ورد ذكره في «تاريخ الطبري»[47]، وأنه كان مسجونا مع عمه إبراهيم أيام نكبته، وفر معه من السجن، وساد في حياة أبيه، ووصف بالجود والسماح، كغيره من أفراد أسرته، وفي مدحه يقول البحتري أيضا : [48].

لَمْ تَبْلُغِ الحَقَّ وَلَمْ تُنْصِفِ   عَيْنٌ رَأَتْ يَبْناً فَلَمْ تَذْرِفِ

مِنْ كَلَفِي أَنْ تَنْقَضِي سَاعَةٌ   يَاتِي بِهَا الدَّهْرُ وَلَمْ أَكْلَفِ

لاتَدَعُ الأَحْشَاءَ إِلاَّ لَهَا   تَحَرُّقٌ ذَاتُ الحَشَا المُرْهِفِ

يَضِيعُ لُبُّ الصَّبِّ فِي لَحْظِهَا   ضَيَاعُهُ فِي القَهْوَةِ القَرْقَفِ

صِفْوَتِيَ الرَّاحُ وَسَاعٍ بِهَا   فَدُونَكَ العَيْشُ الذِّي تَصْطَفِي

أَحْلِفُ بِاللَّهِ وَلَوْلاَ الذِّي   يَعْرِضُ مِنْ شَكٍّ لَمْ أَحْلِفِ

أَقْبَلُ مِنْ مُؤْتَمِنٍ خَائِنٍ   عَهْداً وَلاَ مِنْ وَاعِدٍ مُّخْلِفِ

إِذَا الرِّجَالُ اعْتَمَتْ أَجْوَادُهُمْ   فَاسْمُ إِلَى الأَشْرَفِ فَالأَشْرَفِ

ادْفَعْ بِأَمْثَالِ أَبِي غَالِبٍ   عَادِيَةَ العُدْمِ أَوِ اسْتَعْفِفِ

أَرْضَاهُ لِلْمُعْتَمِدِ المُشْتَرِى   حَظّاً وَ لِلْمُخْتَبِطِ المُعْتَفِي

مَنْ شَأْنُهُ القَصْدُ وَلَكِنَّهُ   إِنْ يُّعْطِ فِي عَارِفَةٍ يُّسْرِفِ

لَوْ جُمِعَ النَّاسُ لأُكْرُومَةٍ   وَلَمْ يَكُنْ فِي الجَمْعِ لَمْ نَكْتَفِ

وَوَقْعَةٍ لِلدَّهْرِ بِي لَمْ أَهُنْ   لِحَزِّهَا فِيَّ وَلَمْ أَضْعُفِ

مَا كُنْتُ بِالمُنْخَزِلِ المُخْتَتِي   فِيهَا وَلاَ بِالسَّائِلِ المُلْحِفِ

ضَافَتْهُ أُخْرَى مِثْلُهَا فَاعْتَدَى   مُسَانِدِي أَوْ وَاقِفاً مُّوقِفِ

مُسْتَظْهِراً يَحْمِلُ مَا نَابَهُ   وَنَابَنِي فِي المَغْرَمِ المُجْحِفِ

يَزْدَادُ مِنْ كَلِّي إِلَى كَلِّهِ   تَوْقِيرَ ثِقْلِ الرَّاكِبِ المُرْدَفِ

---

47) ص 216 من ج 11.

48) «ديوان البحتري» ص 151 من ج 1.

كَمْ رَفَعَتْ حَالِي إِلَى حَالِهِ ... يَدٌ مَتَى تُخْلِفْ غِنًى تُتْلِفِ

جُزِيتَ إِذْ فَاجَرَهُمْ غَادِرٌ ... مَثُوبَةَ البِرِّ لَدَيْنَا الوَفِي

غَنِيتَ مِثْلاً لَكَ فِي تَالِدٍ ... مِنْ مَالِكِ الرُّغْبِ وَمُسْتَطْرِفِ

وَهَاهُنَا رُجْحَانُ حَالٍ عَلَى ... حَالٍ فَجُدْ بِالعَدْلِ أَوْ أَسْعِفِ

عِنْدَكَ فَضْلٌ فَأَعِدْ قِسْمَةً ... تَرْجِعُ فِي العِقْدِ وَفِي النَّيِّفِ

تَجْعَلُهَا رِفْداً لِمُسْتَرْفِدٍ ... أَوْ سَلَفاً قَرْضاً لِمُسْتَسْلِفِ

هَلُمَّ نَجْمَعْ طَرَفَيْ حَالِنَا ... إِلَى سَوَاءٍ بَيْنَنَا مُنْصِفِ

وَمَا تَكَافَا الحَالُ إِنْ لَمْ يَقَعْ ... رَدٌّ مِنَ الأَقْوَى عَلَى الأَضْعَفِ

وله فيه قصيدة أخرى يقول فيها :[49]

مَتَى تَسْأَلِي عَنْ عَهْدِهِ تَجِدِيهِ ... مَلِيّاً بِوَصْلِ الحَبْلِ لَمْ تَصِلِينَهِ

يُكَلِّفُنِي عَنْكِ العَذُولُ تَصَبُّراً ... وَأَعْوَزُ شَيْءٍ مَا تُكَلِّفُنِيهِ

وَيُحْزِنُكِ اللُّوَّامُ لَسْتُ أُطِيعُهُمْ ... وَقَوْلٌ مِنَ العُذَّالِ لَسْتُ أَعِيهِ

عَلَى أَنَّنِي أَخْشَى عَلَيْكِ وَأَتَّقِي ... زِيَادَاتِ مُغْرًى بِالحَدِيثِ يَشِيهِ

عَنَاءُ المُحِبِّ مِنْ عَقَابِيلِ لَوْعَةٍ ... تَحُلُّ قُوَى صَبْرِ الجَلِيدِ وَتُوهِي

مُعَلِّلُهُ بِالوَعْدِ لَيْسَ يَفِي لَهُ ... وَقَاتِلُهُ بِالحُبِّ لَيْسَ يَدِيهِ

وَأَهْيَفُ مَأْخُوذٌ مِنَ النَّفْسِ شَكْلُهُ ... تَرَى العَيْنُ مَا تَحْتَاجُ أَجْمَعَ فِيهِ

وَلَمْ يَشْفِ قَلْبِي مَا سُقِيتُ بِكَفِّهِ ... مِنَ الرَّاحِ إِلاَّ مَا سُقِيتُ بِفِيهِ

أَرَى غَفْلَةَ الأَيَّامِ إِعْطَاءَ مَانِعٍ ... يُصِيبُكَ أَحْيَاناً وَحِلْمَ سَفِيهِ

إِذَا مَا نَسَبْتَ الحَادِثَاتِ وَجَدْتَهَا ... بَنَاتِ الزَّمَانِ أَرْصَدَتْ لِبَنِيهِ

49) «ديوان البحتري» ص 152 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

مَــتَى أَرَتِ الدُّنْيَــا نَبَــاهَةَ خَـامِلٍ ... فَــلاَ تَرْتَقِبْ إِلاَّ خُــمُــولَ نَبِــيــهِ

وَمَا رَدَّ صَرْفَ هَذَا الدَّهْرِ مِثْلُ مُهَذَّبٍ ... أَبَى الدَّهْــرُ أَنْ يَأْتِــي لَهُ بِشَــبِــيــهِ

أَبُو غَــالِبٍ بِالجُــودِ يَذْكُــرُ وَاجِــبِي ... إِذَا مَــا غَــبِيُّ البَــاخِلِينَ نَسِــيــهِ

تَطُولُ يَدَاهُ عِنْدَ أَوْدَعِ سَــعْــيِــهِ ... ذَوِي الطَّوْلِ مِنَ أَكْــفَــائِــهِ وَذَوِيهِ

إِذَا مَــا تَوَجَّــهْنَا بِهِ فِــي مُلِمَّــةٍ ... فَلَجْنَــا بِوَجْــهٍ فِي الكِرَامِ وَجِــيــهِ

تَقَــيَّلَ مِنْ ءَالِ الـمُــدَبَّرِ سَــيِّدًا ... يَقُــودُ إِلَى العَلْيَــاءِ مُــتَّــبِــعِــيــهِ

وَمَــا تَابِعٌ فِــي الـمَجْدِ نَهْجَ عَدُوِّهِ ... كَـمُــتَّــبِــعٍ فِي الـمَــجْــدِ نَهْــجَ أَبِيــهِ

يُذَلِّلُ صَــعْبَ الأَمْــرِ حِــينَ يَرُوضُــهُ ... وَيَحْــفَــظُ أَقْــصَى الأَمْــرِ حِــينَ يَلِيــهِ

جَــدِيدُ الشَّــبَــابِ كُبْــرُهُ بِفِــعَــالِــهِ ... وَبَعْــضُ الرِّجَــالِ كُــبْــرُهُ بِسِنِــيــهِ

مَــخِــيلَةُ حِلْــمٍ فِي النَّدَى كَــأَنَّهَــا ... إِذَا اشْــتَــهَــرَتْ مِنْهُ مَــخِــيلَةُ تِيــهِ

إِذَا بَاتَ يُعْطِي بِالسَّــمَــاحِ حَلِيــفَــهُ ... تُوُهِّمَ يَعْطُــو بِالسَّــحَــابِ أَخِــيــهِ

فَدَاكَ مِنَ الأَسْوَاءِ مَنْ بِتَّ مُسْمِحًا ... بِــمَــالِكَ تَفْــدِي مَــالَهُ وَتَقِــيــهِ

حَــلاَوَةُ لاَ فِي نَفْــسِــهِ جَــدُّ صَــدْقَــةٍ ... وَطَعْمُ نَعَمْ، فِــي فِــيــهِ جَــدُّ كَــرِيــهِ

وَمُطَّلِبُ مِنْكَ الـمُــسَــامَــاةَ لَمْ تَزَلْ ... أُلُوفُكَ حَــتَّــى أَجْــحَــفَتْ بِمِــئِــيــهِ

وَلَوْ كَانَ يَبْغِي مَوْضِعَ المَجْدِ لاَكْتَفَى ... بِمُــسْــمِــعِــهِ أَيْنَ العُــلاَ وَمُــرِيهِ

فَإِيهٍ لَكَ الخَــيْرَاتُ مِنْ سَيْبِكَ الذِي ... مَــحَــقْتَ بِهِ ذِكْــرَ الـمُــسَاجِلِ إِيهِ

وقال أيضا يمدحه .[50]

تَعَــاطَ الصَّــبَــابَــةَ أَوْ عَــانِهَــا ... لِتُــعْــذَرَ فِي بَرْحِ أَشْــجَــانِهَا

وَمَـــا نَقَلَتْ لَوْعَـــتِي لِـمَّـةً ... تَنَقُّــلُ فِي حِــــدْثِ أَلْوَانِهَــا

---

50) «ديوان البحتري» ص 132 من ج 2 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

أَوَائِلُ شَيْبٍ يُشِيرُ العَذُو / لُ إِلَيْهَا وَيُكْبِرُ مِنْ شَأْنِهَا

إِذَا حَرَّمَ اللَّهْوَ مِنْ أَجْلِهَا / غَلاَ فِي مَقَادِيرِ أَوْزَانِهَا

وَإِلاَّ تَجِدْنِي مُطِيعًا لَهَا / فَلَمْ أَعْصِهَا كُلَّ عِصْيَانِهَا

مَتَى جِئْتُ بَائِقَةً فِي الهَوَى / فَإِسْرَارُهَا دُونَ إِعْلاَنِهَا

تَعَامَى رِجَالٌ عَنِ المَكْرُمَا / تِ وَقَدْ مَثُلَتْ نُصْبَ أَعْيَانِهَا

وَلَمْ تَلْتَفِتْ لِوُجُوبِ الحُقُو / قِ وَوَاجِبُهَا خَلْفَ ءَاذَانِهَا

فَتَحْتُ يَدِي ثَانِيَ العِطْفِ عَنْ / كَذُوبِ المَوَدَّةِ خَوَّانِهَا

وَقَدْ عَلِمَتْ خُلَّتِي أَنَّنِي / أُفَارِقُهَا عِنْدَ هِجْرَانِهَا

وَإِنِّي لأَسْكُنُ جَأْشًا إِلَى / رِبَاعِ الكِرَامِ وَأَوْطَانِهَا

وَيَعْدُتُ نَفْسِيَ مِنْ مَالِهَا / وَمَا أَبْعَدَتْ مَالَ إِخْوَانِهَا

رَضِيتُ خَلِيلِي أَبَا غَالِبٍ / لِكَسْرِ الخُطُوبِ وَإِيهَانِهَا

تَعُدُّ لَهُ فَارِسٌ قُرْبَةً / وَزُلْفَى بِكِسْرَى بْنِ سَاسَانِهَا

إِذَا سُئِلَتْ عَنْهُ عِنْدَ الفَخَا / رِ مَالَتْ بِأَصْدَقِ عِرْفَانِهَا

يَطُولُونَ مِنْهُ بِإِنْسَانِهِمْ / وَلِلْعَيْنِ طُولٌ بِإِنْسَانِهَا

هَتَكْنَا إِلَيْهِ حِجَابَ الدُّجَى / بِخُوصٍ تَبَارَى بِرُكْبَانِهَا

تُكَلِّفُنَا لِنَرُومَ الْوِدَا / عَ مَسَافَةَ قُمٍّ وَخَاسَانِهَا

وَسِنَّ سُمَيْرَةَ طَيْفَ الفَتَا / ةِ تَبْسِمُ عَنْ ظَلْمِ أَسْنَانِهَا

إِذَا اسْتَشْرَفَتْ لَمَعَانَ الثُّلُو / جِ أَطَاعَتْ لَهُ قَبْلَ إِبَّانِهَا

تَبِيتُ مَطَايَا تُرَاقِي النُّجُو / مَ فِي مُشْمَخِرَّاتِ صِيدَانِهَا

مُرَاكِبَةَ الطَّيْرِ فِي جَوِّهِـ / ـنَّ فَوْقَ السَّحَابِ وَأَعْنَانِهَا

إِلَى مَلِكٍ غَلِقَتْ عِنْدَهُ / رِقَابُ المَدِيحِ بِأَثْمَانِهَا

وُقِيتَ الحِمَامَ بِمَثْنَى النُّفُو / سِ مِنَ الحَاسِدِينَ وَوُحْدَانِهَا

تَبُـوحُ المَـعَـالِي إذَا لَمْ تَكُنْ بِكَفَّـيْكَ إذْكَـاءُ نِيـرَانِهَا
وَتَجْـزِلُ فِي القَـوْمِ حَـتَّى تَكُو نَ فِـعَـالُكَ أنْجَـزَ أعْـوَانِهَـا
حَمَتْ قُضُبَ المَجْـدِ مِن أَنْ تَكُو نَ صِـلاَءً صَـلاَبَةَ عِـيـدَانِهَـا
وَعَـافَتْ بِكَ الذَّمَّ نَفْسٌ جَـرَتْ إلَى الحَـمْـدِ فِي طُولِ مَـيْـدَانِهَا
أخَـذتَ العَطَايَا بِتَكْرَارِهَـا وَأَبْدَاءَ طَوْلٍ بِتُثْنَيَـانِهَـا
أرَى بَذْلَهَـا عِنْدَ إعْـوَازِهَـا سِـوَى بَذْلِهَـا عِنْدَ إمْكَانِهَـا
وَ أحْـسَـنُ مَـأْثُـرَةً لِلْكِـرَا مِ إحْـسَـانُهَـا عِنْدَ إحْـسَانِهَا
وَ مَـا يَتَنَمَّى إلى المكْـرُمَـا تِ فَيَـفْـرَعُـهَـا غَـيْـرُ فُـرْسَانِهَا
لِمَـنْ عَـادَ بُعْـدِيَ عَنْ سَـاحَـتَـيْـ ـكَ بِنَقْصِ حُظُوظِي وَخُـسْـرَانِهَـا
وَكَـانَ اجْـتِنَابِيكَ إحْـدَى الذُّنُو بِ فَـقَـصْـدِيكَ أوْلَى بِغُـفْـرَانِهَـا
وَ مـا عُـوقِـبَتْ عُـصْـبَـةٌ أمِنَتْ عَلَى كُـفْـرِهَـا بَعْـدَ إيمَـانِهَـا
فَـإنَّ خَـوَاتِمَ أعْـمَـالِ مَـا تَرَاه جَـوَامِعُ أدْيَانِهَـا

وقال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» : [51] كان محمد بن إسحاق، أبو العنبس الصميري، أحد الأدباء الملحاء، وكان خبيث اللسان، هاجي أكثر شعراء عصره، ونادم جعفر المتوكل، وهو القائل يهجو أحمد بن المدبر، ومازال الكريم يُمدح ويُهْجَى.

أَسَلُ الذِي عَطَفَ المَـوَا كب بِالأعِـنَّةِ نَحْـوَ بَابِكْ
وَأرَاكَ نَفْـسَكَ مَـالِكـًا مَـا لَمْ يَكُن لَّكَ فِي حِسَـابِكْ
وَأذَلَّ مَـوْقِـفِيَّ الـعَـزِ يزَ عَلَى وُقُـوفٍ فِي رِحَـابِكْ
ألاَّ يُطِيـلَ تَجَـرُّعِي غُـصَصَ المَنِيَّـةِ مِنْ حِجَـابِكْ

51) ص 238 من ج 1، «تاريخ ابن عساكر» ص 61 من ج 1.

وكما كان ابن المدبر تُقَدم له القصائد الرفيعة الشعرية مدحا، فقد كان الكُتَّاب وكبار الأدباء من أقرانه في عصره، يتقربون إليه في قضاء أغراضهم بالقطع النثرية البليغة ثناءً وشكراً؛ ومنها ما خاطبه به الكاتب ابن مُكْرِم[52] قال : إن جميع أكفائك ونُظَرائك، يتنازعون الفضل، فإذا انتبهوا إليك، أقرّوا لك، ويتنافسون المنازل، فإذا بلغوك، وقفوا دونك، فزادك الله وزادنا بك وفيك، وجعلنا ممن يقبله رأيك، ويقدِّمه اختيارك، ويقع من الأمور بموقع موافقتك، ويجري فيها على سبيل طاعتك.

وقال أيضا في قطعة أخرى :

إن من النعمة على المثني عليك، أن لا يخاف الإفراط، ولا يأمن التقصير. ويأمَن أن تلحقه نَقيصَةُ الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غاية إلاَّ وجد فضلك تجاوزها، ومن سعادة جدك، أنَّ الراعي لا يعدم كثرة المتابعين له والمومنين معه.

ومن نثر أحمد بن المدبر الرائق البليغ قوله جوابا عن «رسالة عتاب» : [53]

«وصل كتابك المفتتح بالعتاب الجميل، والتقريع اللطيف، فلولا ما غلب عليَّ من السرور بسلامتك، لتقطَّعْتُ غَمّاً بعتابك الذي لَطُفَ حتى كاد يَخْفَى على أهل الرقة والفطنة، وغَلُظَ حتى كاد يفهمه أهل الجهل والبَلَه، فلا أعْدَمَني الله رضاك مجازيا به على ما استحقه عتبك، فأنت ظالم فيه، وعتابك وَلِيُّ المخرج منه».

ومن نوادره الأدبية اللطيفة[54] ما وقع بحضرة الخليفة المتوكل، مع قاضي القضاة يحيي بن أكتم لما قال له : أنت كاتب تتفقَّه، وتذكر أنك لا تلزم الناس إلاَّ بحجج فقهية، أو كما قال، فمن كتب للنبي ﷺ، فأجابه أحمد، ليس على الكاتب أن يعلَّم ذلك ولا يتعلَّمه، ولا على الفقيه أيضا، لأنه ليس يحل حلالا، ولا يحرم حراما، ولا يزيد نظرا في صناعة، وقد روى الناس : أنَّ عثمان، وعليا، وزيد بن ثابت، وحنظلة، ومعاوية، كتبوا للنبي ﷺ، ولكن اخبرني من عمل عملك على عهد النبي ﷺ، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله، يُعَرِّض له باللواط، فأفحم يحيى، واستغرب المتوكّل في الضحك.

ويُؤخذ من هذا كله، أن ءال المدبر، من الأسر القديمة الشهيرة العريقة في العراق، كآل طاهر أمراء خراسان، وآل حميد الطُّوسي، وآل مخلد، وآل سهل بن دينار، وغيرهم، وأنهم

52) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، ص 320 من ج 4.

53) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، ص 320 من ج 4.

54) «أعتاب الكُتاب» لابن الأبَّار، ص 157.

كانوا مُمَدَّحين من الشعراء، مقدَّمين في مجالس الخلفاء والوزراء، لهم الجاه العريض، والوَجَاهَة عند الخاص والعام، لِما اتَّصفوا به من الجود والعطاء، والنِّعمة الواسعة، والأدب الغض الأريض، ولذلك يقول البحتري فيهم كما تقدم :

وَمَا زَالَتِ الْعِيسُ الْمَرَاسِيلُ تَنْبَرِى فَتُقْضَى لَدَى ءَالِ المُدَبِّرِ حَاجُهَا

وقد ابْتُلِيَ إبراهيم وأحمد منهم بالنكبة والسجن، لأنهم كانوا مُحْسَدِينَ من أقرانهم كما سياتي، وكل ذي نعمة مَحْسُود.

هذا مقام أحمد بن المدبّر في قومه، وبين أهل عصره، وقطره ومصره، من الناحية الأدبية.

- وأما الناحية الإدارية،

وما تقلَّب فيه من المناصب السَّامية، فقد تولَّى في مذكور الولايات، وأُسندت إليه وظيفة الكتابة، وجباية الأموال، وتنظيم خراج الدولة، كأخيه إبراهيم، منذ عهد الخليفة الواثق ومن بعده من الخلفاء بالعراق والشام ومصر، فسنَّ سننا وابتدع أنظمة جَرَى العمل بها بعده بالأقطار المذكورة. وكان له إدلال وزُلْفَى لدى الخلفاء، وكلمة مسموعة.

تقلده مجلس الاسكدار[55] وكتابته لجعفر الخياط لمَّا خرج المامون لبلاد الروم

قال أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في «كتاب الوزراء والكُتَّاب» :[56]
"حدثني عبد الواحد بن محمد الحصيني قال : حدثني عبد الله[57] بن محمد بن أحمد بن

---

55) الاسكدار لفظة فارسية، معناها «إذكُوَدارِي» أي، من أين تُمْسكُ، وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط، والكتب الواردة والنافذة وأسامى أربابها (عن مفاتيح العلوم للخَوارزمي هـ) من هامش كِتَاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري.

56) ص 199.

57) عبد الله هذا راوي هذا الحديث، حفيد أحمد بن المدبر، ووالده محمد، غَيْر أبي غالب ممدوح البحتري المتقدم الذكر

المدبّر قال : سمعت جدّي أحمد بن المدبّر يقول : كنت أتقلّد مجلس الأسكدار في ديوان الخراج، وكانت نفسي تنازعني على أشياء لم تكن تنالها، وكنت أرفع نفسي عن التعرض لكسب الخسيس، فلمّا خرج المامون إلى بلاد الروم، سألني جعفر الخياط الخروج معه لأكتب بين يديه، ففعلت على كره من أبي لذلك، وجَهَدَ أنْ لا أخرج فلم أُطِعه، فدفع إلي بعض إخوانه الذين يثق بهم من حيث لا أعلم خمسة ءالاف درهم، وقال له : تكون هذه الدراهم معك من حيث لا يعلم بها أحد، فإن اختلّت حاله، أو رأيت به خصاصة، عرضت عليه القرض، واسلفته حسبما تراه صوابا، على حسب ما تشاهد من حاله.

قال : فكنت يوما بين يدي جعفر أعمل، حتى دخلت عَرِيبُ الكبيرة اليه، وكنت قد اكتملت، فنظرت إلي، فأطالت النظر، وكنت غلاما، فقالت لجعفر : من أين لك هذا الطير المُرَارِي ؟[58]، فاسْتَحْيَيْتُ وخَجِلْتُ ونهضتُ، وخرجت عريب. فدعاني جعفر، فقال · لعل ما كلمتك به هذه العيارة قد غمّك، وأمر لي بعشرة ءالاف درهم. وما كنت رأيتها مجتمعه قط في ملكي. فخرجتُ وما أعقل فرحا، فاستبدلتُ دابّتي واشتريتُ بغْلاً، يركبه غلامي خلفي. فلمّا كان بعد أيام، لقيني ذلك الصديق الذي كان أودعه أبي الدّراهم، فسألني عن خبري، ورأى أثر حسن حالي، فشرحت له أمري، فخبّرني بخبر المال الذي دفعه إليه أبي، وقال · ما لمكانه الآن عندي وجه، فوجّه به إلي، فرأيت حين جاءني أني في ذلك العسكر أجل من المامون، وكان ذلك أول مالٍ اعتقدته، ثم أتانا الله بما نحن فيه، ولم يكن لذلك سبب غير كلمة عريب" .

ويستفاد من هذه القصة أمور ألقت أشعّة كشّافة على ابتداء حياة أحمد بن المدبّر الإدارية، وتكوين ثروته المالية .

– منها، أنه افتتح أعماله الإدارية، بتقلده وظيفة الأسْكُدارْ، أو تسجيل الصادر والوارد بديوان الخراج. وكان ذلك فاتحة أعماله في هذا الديوان الى ءاخر عمره.

– ومنها، أنه كان منذ ابتداء أمره طموحا إلى أشياء أخرى أعلى وأهم، وهي الظهور في عالم الرياسة والسياسة، واقتناء الأموال، كغيره من أقرانه أعيان عصره، ولكنه كان يترفّع عَنِ الدنس وسقوط الهمّة، ولعل هذا كان سرٌ نجاحه.

– ومنها، أنه انتظم في سلك موظفي الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المامون .

---

58) لا ندري ما المراد بالمراري هنا.

– ومنها، أن جعفر الخياط، لمّا اختاره للخروج معه صحبة الخليفة المامون لأرض الروم،[59] قَبِلَ ذلك منه على كره من والده لصغر سنه إذْ ذاك، حسبما يوخذ من تعبيره أثناء حديثه بأنه كان غلاما، والغلام الطُّرُّ الشارب، والغالب فيه أن يكون أدرك سن البلوغ أو راهقه. ويوخذ منه أنه كان يحب الأسفار والتنقل ولو كانت طويلة بعيدة، سعيا وراء الشهرة والوظيفة، كغيره من الشبان، في كل زمان ومكان، ولو كانت في ذلك مغامرة.

– ومنها، أن والده أشفق عليه، وحاول منعه من التَّغرب في سفر طويل مجهول الْمَآل مع الجيش في دار الحرب. وحيث لم يستطع ردَّه عن عزمه، كلَّف بعض من يَثِقُ به من أصدقائه المرافقين للجيش بمراعاته من بعيد، وأودعه مالا لإنقاذه من الخصاصة والضياع، إذا طال السفر واشتدّت حاجته، واختلّت حاله، لأنه كان في ذلك الوقت لا مال له.

– ومنها، أن والده كان من ذوي اليسار في قومه، ولذلك استطاع أن يُخصِّص قَدْرا من ماله لإعانته سراً إذا دعت الضرورة لذلك.

– ومنها، أنَّه كان في فجر شبابه يستلفت الأنظار بطلعته وهيئته، ولذلك أطالت النظر إليه عريب الكبيرة، وهي من هي عيارة.

– ومنها، أنَّه خَجِلَ واستحيى وبارح المجلس، وذلك يدل على حسن تربيته ونشأته في بيته ومَنْبِتِه.

– ومنها، أن رئيسه جعفر الخياط، لمّا رأى خجله وحياءه، استدعاه وأنعم عليه بمبلغ مهم من المَالِ، أصلح به حاله ومظهره بين أقرانه في الجيش.

– ومنها، أن صديق والده، لاحظ صلاح حاله، وسأله عن أمره، فأخبره بما كان منه. ولمّا علم أنه حازم ضابط مُدبِّر كاسمه، يُؤْتمن على الأموال، سلَّم له الوديعة التي كانت عنده من قِبَلِ أبيه.

– ومنها، أنه صار غنيا بالصلة التي وصله بها رئيسه، والوديعة المالية التي استلمها من صديق والده، حتى ظن نفسه أنه أجل من المامون في ذلك العسكر، يعني رفاهية وترفا؛ وقد يخطر هذا ببال بعض الشبَّان وخصوصا إذا كان حديث عهد بنعمة.

---

59) دخل المامون أرض الروم غازيا سنة (830/215) وسنة (832/217).

وفي سنة (833/218) توفي في غزواته، هذه، ودفن بطرسوس، كما في الطبري، ص 280 ـ 281 ـ 283 ـ 295، ج 1 وابن الأثير، ص 154-155 من ج 6.

– ومنها، أن ذلك المال كان البَذْرة الأولى التي أثمرت ما هو فيه من الثَّروة والغنى، والنعم الدَّافقة، وأن سبب ذلك كله هو كلمة عريب.

كتابته لمحمد بن عبد الملك الزيات[60]

وفي عهد الخليفة المعتصم، تولّى الكتابة للوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الزيات على الجيش.

ويُحكى أنه قال :[61] كتبتُ لمحمد بن عبد الملك الزيات، فاحتيج إلى توجيه بعض القواد في أمْرٍ مُهِمّ، فعملتُ باستحقاقه ورجاله عملا مفصلا، ثم أجملت التفصيل فغلطت فيه، وصَكَّكْتُ به، وحمل المال إلى القائد وقبضه وشخص، ثم رجعت إلى العمل فتتبَّعته، فوقعت عل الغلط، فاستحييت من محمد بن عبد الملك، فجلست عنه ثلاثة أيام، فوجه إلي فاستحضرني. فكتبتُ إليه أصدقه عن القصَّة، واعترف بالخطإ، وأعلمته أنَّ الحياء منعني من الحضور، وأحكِّمه في نفسي في العقوبة، فوقَّع لي : لا جرم عليك فيما لم تتعمَّد، فارجعْ إلى مكانك، وتحرَّزْ من الوقوع فيما كان منك. وقاص الرجل وأصحابه بما قبضوه عند استحقاقهم.

ثم حدث ما غيره عليه، فأغرى به الخليفة فنكبه وسجنه.

نكبته وسجنه

روى القاضي أبو علي المحسن التَّنُوخِي في كتابه «الفرج بعد الشدة»[62] والفخرى في كتابه «الآداب السلطانية والدول الإسلامية»[63] أنَّ أحمد بن المدبِّر قال : لمّا أمر محمد بن عبد الملك الزيات بحبسي، أُدْخلت مَحْبَسًا فيه أحمد بن اسرائيل، وسليمان بن وهب، وهما

---

60) محمد بن عبد الملك الزيات وُزِّرَ للمعتصم والمتوكل، وكان داهية ذا حزم وقوة. ولد سنة (789/173)، وتوفي سنة (847/233).

61) «اعتاب الكتّاب» لابن الأبّار، ص 158.

62) ص 165 من ج 1، طبع دار الهلال.

63) ص 225 طبع القاهرة سنة (1899/1317)

يطالبان، قال فَجُعِلْتُ في بيتٍ ثالث، وكنا نتحدَّث ونأكل جميعًا، وربَّما أُدْخل إلينا النَّبِيذ فنشرب، وكان أحمد بن إسرائيل شديد الجبن، وكان ينكر علينا ويمنعنا أن نتحدَّث بشيء أو نرْجو لأنفسنا، فجاءني يوما سليمان بن وهب فقال : رأيت البارحة في نومي كأن قائلا يقول : يموت الواثق إلى ثلاثين ليلة، فَقُمْ بنا إلى أبي جعفر حتى نحدِّثه، فقلت : والله لئن سمع أبو جعفر هذا لَيَشُقَّنَّ ثوبه، ولَيَسُدَّنَّ أذنيه، فقال لي : قُمْ على كلِّ حال، فقمنا فدخلنا عليه، فأخبره سليمان بالخبر، فقال : يا هذا أنت أحسن النَّاس وأشدهم تحنُّنًا على نفسك وعلينا، وانما تريد أن يشيع هذا فَنُقْتل، فقال له : أُكتب هذه الرؤيا عندك لنمتحن صدقها فَنَفرَّ، فقال : أنا لا أكتب مثل هذا، فكتبت أنا في رُقعة صغيرة اليوم. فلما جاز يوم الثلاثين، دخل عليَّ أحمد بن اسرائيل فقال لي : يا أبا الحسن، هذا يوم الثلاثين فأخرجت الرّقعة، فإذا هو قد حفظ اليوم، قال : ومضى يومنا إلى آخره. فلمّا كان في الليل، لم نشعُر بالباب الا وقد دُقَّ دَقًّا شديدا، وصاح بنا صائح : البشرى قد مات الواثق واخرجوا إن شئتم. فضحك أحمد بن اسرائيل، وقال : قوموا لقد تحقَّقت الرؤيا، وجاء الفرج . فقال سليمان بن وهب : كيف نمشي مع بُعْدِ منازلنا، ولكن نوجه من يأتينا بمراكبنا. فاغْتَاظَ أحمد بن اسرائيل وقال : نعم نقْعُدُ حتى يجلس خليفة آخر، ويقال له : في الحبس جماعة من الكُتاب عليهم أموال، فيامر بالتَّوَثُّقِ منَّا، إلى أن ينظر في أمرنا. قم عافاك الله حتى نخرج، فخرج وخرجنا على اثره. وقبل ان نخرج من باب الهادوني، رأينا رجلين يقول أحدهما لصاحبه : سأل أمير المومنين جعفر المتوكل عمَّن في الحبس، فقيل له : جماعة من الكُتاب، فقال : يكونون فيه إلى أنْ ينظر في أمورهم. فجددنا السير، وقصدنا غير منازلنا، فَاستَتَرْنَا وبحثنا عن الأخبار، فبلغنا إقرار الخليفة محمد ابن عبد الملك الزيات، فكتبت إليه رقعة عن جماعتنا، نُعرِّفه خبرنا، واتساع آمالنا فيه، ونستأذن فيما نفعل. فلمَّا وصلت إليه وَقَّعَ على ظهرها :

ولِمَ استَخْفَيْتُمْ ؟ وليس منكم إلاَّ من عِنَايَتِي تَخُصُّهُ، ورأيي فيه جميل. أمَّا أبو أيوب، فقد تكلم في أمره أبو منصور ايناخ، واستوهبه، فوهبته له، وأمرت بإحضاره يُخْلع عليه، فليحضر.

أمَّا أبو جغفر، فإنه طولب بما ليس يلزمه، وقد وضحت حجّته في بطلانه، فليصر إليّ.

وأما أبو الحسن، يعني ابن المدبّر، فإنه قُذف بباطل.

فاظهروا جميعًا واثقين بما عندي من حياطتكم ورعاية حرماتكم. قال : فصرنا إليه جميعا، وزال عنا ما كنا فيه، وخلع على سليمان بن وهب خاصّة.

ولايته قَهْرَمَة الدار

بعد خروج أحمد بن المدبر من هذه النكبة، استرجع نعمته ورتبته، وجاهه ووجاهته. وتولى في عهد المتوكل قهرمة الدار، وهي رتبة ذات أهمية كبرى بدور الخلافة، لما فيها من النفوذ والكلمة المسموعة، والدنو من الخلفاء، واليد الطولى في قصورهم.

فاحتال الفضل بن مروان[64] في حمل المتوكل على عزله منها فَعَزَلَهُ[65] حسدا له، بعدما تتبع هفواته، وفضحه بها عند الخليفة.

ومن ذلك[66] انه تلاحى معه يوما بين يديه، قال الصُّولِي : وكان الخلفاء لا ينكرون تنازع الكُتاب بين أيديهم، وابن المدبّر يلي في ذلك الوقت امر دار المتوكل كله : المطابخ، والفرش، وغير ذلك، وفي المجلس مِرْفقته[67] قد جُعلت لامر ولم ترفع، فضرب الفضل بيده على المرفقة ضربا شديدا، فقام منها غبار كثير، فقال له أحمد : أتغبر بين يدي أمير المومنين ؟ أمالك أدب ؟ اما خدمت الملوك ؟ فضحك الفضل وقال : من خدمتي للملوك فعلت هذا، ليرى أمير المومنين قلة كفايتك في فرشه، وانك لا تهتم بنفضها، ويعلم كيف يكون فيما يبعد عنه، ولولا خوفي من سوء الأدب حقا لضربت البساط، فيرى ماهو أعظم من هذا، فبُهِت أحمد، وجعل يعتذر، فما مضت أيام حتى عُزِل عن الدّار.

ولايتـه عمـلا لعبيد اللـه بن يحيـى ابن خاقان وهربه وسجن أخيه إبراهيم

قال أبو الفرج الاصبهاني في «الأغاني»[68]حدثني عمي قال : حدثني محمد بن داود بن الجرّاح قال : كان أحمد بن المدبّر وَلِيَ لعبيد الله بن يحيى بن خاقان[69] عملا فلم يحمد اثره

---

64) الفضل بن مروان استوزره المعتصم وخدم بعده جماعة من الخلفاء، ولد سنة (786/170) وتوفي سنة (864/250).

65) «اعتاب الكتاب»، ص 157.

66) نفس المصدر، ص 133.

67) المرفقة كمكنسة : المخدة.

68) ص 115 من ج 19 طبع الساسي.

69) عُبَيْد الله بن يحيى بن خاقان، تولى الوزارة للمتوكل والمعتمد. ولد سنة (824/209) وتوفي سنة (876/263).

فيه، وعمل على ان ينكبه، وبلغ أحمد ذلك فهرب. وكان عبيد الله مُنْحَرِفاً عن إبراهيم، شديد النَّفاسة عليه برأي المتوكل فيه، فأغراه به، وعرَّفه خبر أخيه، وادَّعى عليه مالا جليلا، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه وأوغر صدره عليه حتى أذِن له في حبسه، فقال إبراهيم وهو محبوس :

تَسَلَّى فَلَيْسَ طُولُ الْحَبْسِ عَارٌ وَفِيهِ لَنَا مِنَ اللَّهِ اخْتِبَارُ
فَلَوْلاَ الْحَبْسُ مَا بُلِيَ اصْطِبَارٌ وَلَوْلاَ اللَّيْلُ مَا عُرِفَ النَّهَارُ
وَمَا الأَيَامُ إلاَّ مُعْقِبَاتٌ وَلاَ السُّلْطَانُ إلاَّ مُسْتَعَارُ
سَيُفْرَجُ مَا تَرَيْنَ إِلَى قَلِيلٍ مُقَدَّرَةٌ وَإِنْ طَالَ الإِسَارُ

وزاد ابن الأبَّار في «اعتاب الكُتَّاب»[70] بعد نقل هذه القصة، ان احمد كان أَسَنَّ من أخيه إبراهيم، واعلم منه بالاعمال، إلاَّ أنَّ سعده أقل من سعد إبراهيم.

ولايته ديوان الخراج الأعظم

قال اليعقوبي في «تاريخه» .[71]

"كان المتوكل ولَّى علي بن عيسى بن يزدانيروذ ديوان الخراج الأعظم، سنة ست وثلاثين ومائتين (850/236)، وبعد شهرين عزله. وولَّى مكانه أحمد بن محمد بن المدبِّر، فنظَّم عُمَّالهُ على طساسيج[72] السواد، وصالحهم على أموال عظيمة.

وكان تحت نظره سبعة دواوين، ديوان الخَرَاج، والضياع، والنفقات الخاصَّة والعامَّة، والصدقات، والموالي والغلمان، والجند، والشاكرية، فوفَّر أموالا عظيمة.

وقد كانت بينه وبين سلفه في هذه الوظيفة، علي بن سليمان المذكور، عداوة ربما نشأت عن تسابقهما في حلْبة الرياسة والولاية بهذا الديوان الأعظم، وهي عداوة أو داءٌ، قلَّمَا يوجد له دواء.

وكان ابن المدبر يترفَّع على خصمه، ولا يلتفت إلى الجُزْئيَّات، أو يرضى فيه -كما قال- بالمحقَّرات، او يكتفي بحرمانه من رزق يأخذه، او اقتطاع يشمله، ولا يقنع منه الا بسفك دمه، وقطع جرثومته".

---

70) ص 158.

71) ص 488 من ج 2.

72) الطساسيج النواحي، والطُسُوج أيضا حبّتان، والدَّانَق أربع طساسيج.

وتفسير ذلك، هو ما نقله لنا، ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في "كتاب الوزراء والكتّاب" قال :[73].

«كان بين أحمد بن المدبّر وبين علي بن عيسى يزدانيروذ عداوة مشهورة، وكانت لعلي مقاطعة، يُكتب له بها من الدواوين في كل سنة، فلمّا حضر وقت الكتاب وأحمد يتقلّد الديوان، قال علي بن عيسى لصاحبه : ادخل الديوان سرّاً، واغرم غرما، حتى تاخذ الكتاب بالمقاطعة، ولا يراك أحمد فيبطلها، ففعل ذلك صاحبه، واجتهد في ستْر الأمر، وانتهى الخبر إلى أحمد ابن المدبّر قبل فراغه، فدعا به، وأنْكَرَ عليه مساترته له، ودعا بالكُتّاب حتى انتسخوا الكتاب بحضرته، وعلّمُوا عليه، ودفعه إليه، فأفاض الرجل في شكره وكثّر، فقال له : تقول له : أظننت أنني أرضي فيك بالمحقرات، وأقتصر على أن أعترض عليك في مقاطعتك ؟ هيهات ! الأمر بيني وبينك أعظم من ذلك، ليس بيني وبينك إلاّ الدم».

ولما تمكّن أحمد بن المدبر من ديوان الخراج الأعظم، وكان وظيفة عظيمة في الدولة، عظم جاهه، وازدادت وجاهته، واتّسعت دائرة نفوذه، واظهر براعته في تدبير وتوفير الأموال وجبايتها، وضيق بكُتّاب الدواوين، فاحتالوا عليه لخوفهم منه، وقالوا : إن دمشق والأردن في احتياج إلى التعديل، ولا يقوم بالتعديل إلا من وُلي ديوان الخراج[74].

ولايته ديوان الخراج بدمشق والأردن

لما أشاع الكُتّاب عن دمشق والأردن احتياجهما إلى التعديل،[75] نقل المتوكل أحمد بن المدبّر من ولاية الخراج بالعراق إلى دمشق والأردن سنة أربعين ومائتين (854/240) وقيل : سنة احدى وأربعين ومائتين (855/241)، وكان ذلك أول انحداره من العراق نحو المغرب، فعدلهما، وحمل كل أرض ما تستحقه.

وذكر ابن عساكر في تاريخه،[76] ان المتوكل ولّى أحمد بن المدبر خراج جُنْدِيْ دمشق والأردن، والمساجد وغيرها.

وحين عزم المتوكّل على المسير إلى دمشق، ووصف له برد هوائها، وكان محرورا، كتب إليه يامره باتخاذ القصور، وإعداد المنازل، وإصلاح الطريق، وإقامة المنازل والمرافِد.

---

73) ص 252

74) «تاريخ اليعقوبي» ص 490 من ج 2.

75) «تاريخ اليعقوبي» ص 490 من ج 2

76) ص 160 من ج 1

وسـار من سُرَّ من رأى يوم الإثنين لعـشر بقـين من ذي القـعـدة سنة ثـلاث وأربعـين ومائتين (ذو القعدة 243/ فبراير 858).

ونزل دمشق يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر سنة أربع وأربعين ومائتين (صفر 244/ ماي 858)، فحل بتلك القصور، وأقام بها ثمانية وثلاثين يوما...[77].

ولايته خراج مصر

قال اليعقوبي في تاريخه :(78)

لمَّا تولّى محمد المنتصر الخلافة، نقل أحمد بن المدبر من ولاية خراج الشام إلى ولاية خراج مصر، وَفَرَّقَ أعمال الشام على جماعته، وذلك سنة ثمان وأربعين ومائتين (248/ 862).

ونصَّ المقريزي في كتابه «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار»[79] على أن ولاية أحمد بن المدبّر خراج مصر، كانت بعد سنة خمسين ومائتين (864/250).

وإذا كان المنتصر هو الذي ولاَّه، فقد بويع في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين (247/ 861)، وتوفي في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين (862/248).

وعليه فإن قول اليعقوبي اولى بالاعتبار، لأنه بغدادي الدار، وكان معاصرا لابن المدبّر، وتوفي سنة ثمان وسبعين ومائتين (891/278).

وأمّا المقريزي فقد وُلد ونشأ ومات بالقاهرة، سنة خمس وأربعين وثمانمائة (845/ 1441)، فهو متأخر جدا زمانا ومكانا.

ثم قال المقريزي · أَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ مَالاً سوى مَال الخَرَاج بمصر، أحمد بن محمد بن المدبر، لَمَّا وُلِّيَ خراج مصر، بعد سنة خمسين ومائتين (864/250)، وكان من دهاة الناس وشياطين الكُتّاب، فابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده، لا تُنقض، فأحاط بالنَّطْرُونَ وَحَجَّرَ عليه بعدما كان مباحا لجميع الناس، وقرّر على الكلإ الذي ترعاه البهائم، مالا سمّاه المراعي، وقرّر على ما يطعم الله من البحر مالاً، وسمّاه المعايد، إلى غير ذلك. فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجي وهلالي. وكان الهلالي يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون.

77) «تاريخ اليعقوبي» ص 491 من ج 2

78) نفس المصدر ص 493

79) ص 167 من ج 1، مطبعة النيل سنة 1906/1324.

وكان شديدا على الناس في إلْزامهم اداء ما يقرره عليهم من الضرائب، ولو بالسجن، ولا يستثني منه احدا، ولو كان عالما أو ذا مكانة في الهيئة الإجتماعية.

ومن ذلك ما ذكره ياقوت في «معجم الأدباء» :[80] في ترجمة أحمد بن يحيى بن الوزير ابن سليمان بن مهاجر، الفقيه العالم بالشعر والأدب والأخبار وأيام الناس والأنساب، من انه توفي في حبس ابن المدبّر صاحب الخراج بمصر، لخراج كان عليه، قال : ودفن يوم الأحد لاثنين وعشرين ليلة خلت من شوال سنة خمسين ومائتين (864/250).

وكما كان يلْزم الناس بالاداء ولو بالسجن، كان يماطل في اداء ما تكتب له به الحكومة المركزية، وتامره بتنفيذه وأدائه من أرزاق الناس وَذَوِي الحاجات.

ومن ذلك ما رواه ياقوت أيضا في «معجمه» :[81] من أنَّ محمد بن القاسم المعروف بأبي العَيْناء، وكان من ظرفاء العالم، ءاية في الذكاء واللَّسْنِ وسرعة الجواب واسْتِحْضَارِ النكتة، شكا تأخر أرزاقه إلى عبيد الله بن سليمان فقال له : ألم نكن كتبنا لك إلى ابن المدبّر، فما فَعَلَ في أمرك ؟ قال : جرني على شوْك المطل، وحرمني ثمرة الوعد، فقال : أنت اخترته، فقال : وما علي وقد (اخْتَار موسى قومه سبعين رجلا). فما كان منهم رجل رشيد (فأخذتهم الرَّجْفَةُ) واختار النبي ﷺ ابن ابي سرح كاتبا فلحق بالمشركين مُرْتَدًّا، واختار علي بن أبِي طالب أبا موسى الأشْعَرِي حكما فحكم عليه.

وقال ياقوت أيضا · ووعده بدابَّة، فلما طالبه بها قال : أخاف أن أحملك عليها فتقطعني ولا أراك، فقال : عِدْني أن تضم إليها حمارا لأواظب مقتضيا. ووعده يوما أن يعطيه بغلا

فلقيه في الطريق، فقال كيف أصبحت يا أبا العيناء ؟ فقال : أصبحت بلا بغل، فضحك منه وبعث به إليه.

وهكذا استمر ابن المدبّر في ولايته المصرية، يقرر الضرائب، ويُنَمِّي الدخل المالي، فكرهه الناس، وكادوا له كيدا، فأحسَّ بذلك، واحتاط لنفسه، واتخذ حرسا وجندا يبلغ نحو مائة غلام هندي ممتازين بالقوة والشجاعة، فكانوا لا يفارقونه في حلِّهِ وترحاله[82].

---

80) ص 149 من ج 5.

81) نفس المصدر ص 286 و 293 من ج 18.

82) «تاريخ مصر الحديث» ص 190 من ج 1.

المبحث الخامس

أحمد بن المدبّر وأحمد بن طولون

قال المقريزي في «خططه» :[83] لما استلم أحمد بن طُولُونَ ولاية مصر سنة أربع وخمسين ومائتين (868/254)، كان على الخراج أحمد بن محمد بن المدبر، وهو من دهاة الناس وشياطين الكتاب كما تقدم، فأهدى إليه هدايا قيمتها عشرة ءالاف دينار، بعدما خرج إلى لقائه هو وشقير الخادم، غلام فتحية أم المعتز، وهو يتقلَّد البريد، فرأى ابن طولون، بين يدي ابن المدبر، المائة غلام المتقدمة الذكر، قد انتخبهم وصَيَّرَهُمْ عُدة وجمالا، وكان لهم خَلْق حسن، وطول أجسام، وباس شديد، وعليهم أَقْبِيَةٌ ومناطق ثقال عراض، وبأيديهم مقارع غلاظ، على طَرَف كل مقرعة مقمعة من فضة، وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه إذا جلس. فإذا ركب ركبوا بين يديه، فيصير له بهم هيبة عظيمة في صدور الناس.

فلما بعث ابن المدبر بهديته إلى ابن طولون رَدَّها عليه، فقال لابن المدبّر : إنَّ هذه لهمَّة عظيمة، ومن كانت همته هكذا، لا يومن على طرف من الأطراف، فخافه وكره مقامه بمصر معه، وسار إلى شقير الخادم، صاحب البريد، واتفقا على مكاتبة الخليفة بإزالة ابن طولون.

فلم يكن غير ايام، حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له : قد كنتَ أعزك الله، اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها، ولم يجز أنْ يغتنم مَا لَكَ كَثَّرَهُ الله، فرددتها توفيرا عليك، ونحب ان تجعل العوض عنها الغلمان الذين رأيتهم بين يدك. فأنا اليهم احوج منك. فقال أحمد بن المدبر لما بلغته الرسالة : هذه أخرى أعظم ممّا تقدم قد ظهرت من هذا الرجل، إذْ كان يردُّ الأعراض ويستهدي الرجال ويثابر عليهم، ولم يجد بُدّاً من بعثهم إليه، فتحولت هيبة ابن المدبر إلى ابن طولون، ونقصت مهابة ابن المدبر لمفارقة الغلمان مجلسه.

---

83) ص 105 من ج 2.

قلت : هذا من دهاء ابن طولون وحكمته، فإنّه تعفّف او تعالى عن اخذ ماله وهديته، ولكنه جرّده من قوته، ومنعه من الركون والاطمئنان الى حاشيته وحراسته، ليسهل تناوله باليد، اذا ساعدت الظروف الزمانية والمكانية على سلبه من وظيفته، وسجنه او اذهاب مهجته.

إِنَّ الأُسُودَ أُسُودُ الغَابِ هِمَّتُهَا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي المَسْلُوبِ لاَ السَّلَبِ

وكذلك كان كما سياتي :

ثم كتب ابن المدبر فيه إلى الحضرة يغري به، ويحرّض على عزله، فبلغ ذلك ابن طولون، فكتمه في نفسه ولم يبده.

واتّفق موت المعتز في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (869/255)، وقيام المهتدي بالله محمد بن الواثق، وقتل بابك، ورد جميع ما كان بيده إلى ماجور التركي حمو ابن طولون، فكتب إليه : تسلم من نفسك لنفسك، وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر، وكتب إلى اسحاق بْن دينار، وهو يتقلّد الإسكندرية، أنْ يُسلمها لأحمد بن طولون، فعظمت بذلك منزلته، وكثر قلق ابن المدبر وغمّه، ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون إلى ملاطفته، والتقرب من خاطره.

ثم حدثت أحداث بالشام والعراق، وحاول أحمد بن المدبر اغتنامها فبعث بسبعمائة ألف وخمسين ألف دينار حملا من مصر إلى بغداد، ففرقت بدون نتيجة.

وبعد قتل المهتدي، وبيعة المعتمد بن المتوكل سنة ست وخمسين ومائتين (870/256)، كتب لابن المدبر أنْ يطلق من المال لابن طولون ما شاء لمحاربة المشغّبين على الدولة بالشام، ففعل.

ثم تلاحق[84] أحمد بن المدبر، وأحمد بن طولون، وكشف كل منهما اللثام عن وجهه، وأفسد بينهما شقير الخادم المعروف بأبي صحبة، وكان يتولى البريد وضياعا من ضياع الأقطار، وما يستعمل للسلطان من المتاع، وكتب كل منهما إلى الحضرة يغرى به، وكان لابن طولون أَعْيُن واصحاب يطلعونه على سائر ما يروج بالحضرة.

فلمّا بلغه ذلك، تلطّف حتى توصل بكتب ابن المدبر، وشقير، من غير أن يعلما بذلك، فإذا فيها : ان أحمد بن طولون عزم على التغلب على مصر والمجاهرة بالعصيان، فكتم ذلك.

---

84) «تاريخ اليعقوبي» ص 493 من ج 2، و«الخطط» المقريزية. صفحة 107، ص ج 2.

وبإِثْره مات شقير، وانفرد ابن المدبر، فكتب حينئذ ابن طولون إلى الحضرة يسأل صرفه عن الخراج وتقليد محمد بن هلال، فأجيب إلى ذلك، وصدر أمر الخليفة بعزله، وتولية ابن هلال.

وحينئذ قبض أحمد بن طولون على أحمد بن المدبر وحبسه وقيده. زاد اليعقوبي : والبسه جبة صوف واوقفه في الشمس، فاقام بهذه الحالة ثلاثة أشهر.

ثم ورد الامر برده إلى خراج مصر، فاقام تسعين يوما وورد الامر أيضا بازالته ورد محمد بن هلال.

قال اليعقوبي :[85] ثم جاء امر المعتمد إلى ابن طولون متعقبا ما سبق، بِرَدِّ أحمد بن المدبر إلى تدبير خراج مصر كما كان سابقا، فوجده الحال محبوسا في سجن ابن طولون، فأخرج يوم السبت لسبع ليال بقين من ذي القعدة، سنة ست وخمسين ومائتين (870/256)، وتولى الخراج. وكان حبسه تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما.

وبعد ذلك اشتد الصراع بين الأحمدين، وحدثت حوادث، ءالت إلى خروج ابن المدبر عن مصر، وتقلد ابن طولون خراجها، وجمع بين الرياستين المالية والحكومية.

رجوع أحمد بن المدبر لتدبير خراج الشام

قال اليعقوبي[86] في المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين (محرم 258/ نونبر 871)، خرج أحمد بن المدبر من الفسطاط متوجها إلى الشامات فأقام بها، وقصد مدينة دمياط، وتَولّى أعمال الخراج، وصُرِف خراج مصر إلى أحمد بن محمد بن شجاع.

ولما رجع إلى الشام، ابتهج به الشاميون.

قال ابن عساكر، حاكيا عن أبي زرعة عبد الرحمان بن عمرو : قلت لابن المدبر بعد عوده من مصر : سبحان من أتى بك بعد إبَائكَ على فاقة إليك، وحاجة وخَلة واختلال، ولقد أمَّلتُ بمقدمك، - مدَّ الله في طول أيامك -، أنْ تكون بركة، كغيث نزل بأرض قَفْرَاءَ امْحلت لفقد الغيث، فلمّا أُغيثت أخرجت بركتها، وظهرت زينتها وبهجتها، وإني لأرجو أن يصلح الله بك،

85) «تاريخ اليعقوبي»، ص 508 من ج 2.
86) ص 509 من ج 2.

وعلى يديك، وان يعمر الأرض ويزكوَ الفَيْئ. قال أبو زرعة : فلما خرجنا عنه قال لي عبد الله ابن ذَكْوَانٍ : ليته كان قاضيا علينا.

قالوا :[87] وقبل مفارقته مصر، اجْتَهَدَ حتى أعاد صِلاتِ الوصل بينه وبين ابن طولون، وتوطيداً لها، زوج ابنته لخُمارويه بن أحمد بن طولون، ووهبه معها جميع الأملاك التي كانت له بمصر.

ومع هذا كله، فإن هذا الصلح كان مبنيا على دخن، إذ كانت الشام داخلة تحت نفوذ ابن طولون، وكان المثال ان ابن طولون أعاد الكرة على خصمه ابن المدبر، واصطلم نعمته، وسجنه وداس كرامته.

قتل أحمد بن المدبّر
ووفاة أحمد بن طولون

بقي أحمد بن المدبر بالشام، وأحمد بن طولون بمصر يتجاذبان حبل الرياسة، ويتسابقان في ميدان السياسة، ويستغل كل واحد مِنْهُمَا الظروف والحوادث التي تبرزها الأيام، ويتربّص كُل واحد منهما بصاحبه الدوائر.

وحدثت فتنة العباس بن أحمد بن طولون، وخلافه على أبيه، وخروجه إلى برقة والمغرب الأوسط، ولم نقف على نص صريح يفصح عن موقف أحمد بن المدبر منها، الا ما سنستنتجه من أقوال بعض المؤرخين، وأخيرا كانت الدَّبرة على ابن المدبر، فأدبرت أيامه، ولحق به خصمه، فطويت أعلامه، وعند الله تجتمع الخصوم.

قال ابن عساكر، نقلا عن صالح بن مسافر الكاتب،[88] ان ابن طولون استدعى ابن المدبر من دمشق، فلما قدم عليه، حبسه وضيق عليه، فكتب إليه رقعة من الحبس، ودفعها إلى من كان يتولى خدمته، وامره ان لا يدفعها إلا في يد ابن طولون، فأوصلها إليه، فدعا ابن طولون كاتبه ابن حدار، وكان شاعرا أديبا وقال له : اقرأ فقرأها فإذا مكتوب فيها.

---

87) «تاريخ مصر الحديث» لزيدان ص 195 من ج 2.

88) «تاريخ ابن عساكر» ص 61 من ج 1.

أُريتُ قُبَيْلَ الصُّبْحِ رؤيا كأنَّنا ... جميعاً على سَطْحٍ يُنيفُ بِنَا السَّطْحُ
إذْ فارسٌ يهوي إلى السطح مُقْبِلاً ... أخُو شكَّةٍ بُرْهَانُه السيفُ والرُّمْحُ
يَلُوحُ بالبُشْرى إليْك مُبادراً ... بعقْبِ كتابِ الفتح إذْ قُرِئَ الفَتْحُ
وَقُل لِّي فَدَتْكَ النفسُ منْ كلِّ حادث ... وإنْ بانَ بالنَّفْسِ النَّفاسَةُ والشُّحُ
أما كان دونَ الحَبْسِ لِلْمَرْءِ مَعْتَبٌ ... بتَمْويهِ واشٍ شأنُهُ القَذْفُ والقَدْحُ
يُصَرِّحُ بالبُهْتانِ تصْريحَ مَازِحٍ ... ويَا رُبَّ جِدٍّ قادَهُ اللَّعْبُ والمَزْحُ

فقال لابن حدار : أجبه، فقال . بالرضا أم بالسخط ؟ فقال : بالسخط فقلب الرقعة، وكتب في ظهرها :

أأحمدُ كان السَّطْحُ بَيْنَ محمد ... مُنيفًا، ولو عالَيْتَهُ انْخَسَفَ السَّطْحُ
مَتَى كُنْتَ بالإخلاصِ للّه موقناً ... فَتُصْدُقُ في رؤياك إذْ قُرِيءَ الفَتْحُ
ولَكنْ أدام اللّه عزَّ أميرَنا ... ودامَتْ له النُّعْمَى ودام له النُّجْحُ
فَكَمْ ذَبَحَتْ كَفَّاكَ منْ رَبِّ نعْمة ... بلاَ شَفْرة بَلْ يُحْتَوَى المُلْك والسَّرْحُ
فَأَصْبَحَ ممَّا خَوَّلَ اللّهُ عارياً ... فَلاَ جاهُهُ يَبْقَى ولا المالُ والرِّبْحُ
وَمنْ عَدْلنا أنْ قَدْزُوِيت مُضَيَّقًا ... عَلَيْكَ فَلاَ عَفْوٌ مُرَجًّى ولا صَفْحُ
فَلَوْ جَاءَنا النَّاعِي بِنَعْيِكَ جَاءنا ... بِأنْ جَاءَ نَصْرُ اللّهِ للنَّاس والفَتْحُ

فلما قرأها عند ذلك يئس من نفسه.

وقال أحمد بن خاقان : إنَّ احمد بن طولون أشخص أحمد بن المدبر إلى مصر سنة خمس وستين ومائتين (878/265)، وحبسه في أضيق مجلس حتى مات. فذكر أحمد بن كامل ابن خلف، أنَّ الخبر ورد بموته في حبس ابن طولون سنة سبعين ومائتين (883/270)، وذكر ابن القواس ان ذلك كان سنة احدى وسبعين ومائتين (884/271).

وقال ابن تغرى بردى في «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»[89] :

وفيها، أيْ سنة سبع وستين ومائتين (880/267) وثب احمد بن طولون على احمد بن المدبر، وكان متوليا خراج دمشق والأردن وفلسطين، وحبسه، واخذ أمْوَالَهُ، ثم صالحه على ستمائة ألف دينار، والظاهر أنه بقي هذه المرة في سجن ابن طولون حتى مات.

---

89) ص 43 من ج 3.

وذكر ابن خلكان :[90] أنه كان متوليا خراج مصر سنة خمس وستين ومائتين (265/ 878)، وحبسه ابن طولون. ومات في حبسه في صفر سنة سبعين ومائتين (883/270)، وهو ما تقدم أعلاه نقلا عن ابن عساكر. و قيل بل قتله ابن طولون، ولم يمت حَتْفَ أنفه، والله أعلم.

وفي ليلة الأحد لعشر خلون من ذي القعدة من هذه السنة، توفي أحمد بن طولون أيضا، ولحق الخصمان بربهما، وهو سبحانه الحكم العدل بينهما.

هذا وقد علمنا مما جمعناه والتقطناه من أخبار أحمد بن المدبر، الذي يقال إنه الجد الأكبر لبني عشرة، المبعثرة في بطون الدواوين، وكتب التراجم والتاريخ والأدب والأخبار، انه كان من كُتاب الدولة العباسية البارزين المشار إليهم بالبنان، ومن جُبَاة أموالها، ومنظمي خراجها بالعراق والشام ومصر. وانه كان من رجالاتها المعدودين، الذين لهم في الدهاء والمعرفة ذكر وشان. ولذلك تجاذب حبل الرياسة والسياسة والظهور مع أحمد بن طولون، وحصل بينهما نزاع وشنآن، انتهى بالقضاء على أحمد بن المدبر، ولم ينفعه معه حزم ولا تدبير، ونفذت فيه مشيئة الحكيم القدير.

أولاد أحمد بن المدبر وذريته بمصر

علمنا مما سبق من أخبار أحمد بن المدبر، أنه كان له ولد بالعراق اسمه أبو غالب، ساد وظهر في حياته، ومدحه البحتري كما مدح والده وعمه ابراهيم. ولا نعلم هل رافق والده إلى الشام ومصر أم لا. ولعله بقي بالعراق، لأننا لم نقف له على ذكر أثناء الأطوار التي تقلب فيها والده، والحوادث التي مرت عليه في القطرين المذكورين.

وعلمنا أيضا مما تقدم، ان أحمد بن المدبر، فارق العراق منحدرا إلى الشام سنة أربعين ومائتين (854/240) .

ودخل مصر سنة ثمان وأربعين ومائتين (862/248).

وأقام بها إلى أن مات، سنة سبعين ومائتين (883/270) ما يزيد على عشرين سنة، تخلَّلتها فترة رجوعه إلى الشام، لما ثارت عاصفة الخلاف والعداوة بينه وبين أحمد بن طولون.

---

90) ص 55 من ج 6، طبع دار النهضة سنة 1948.

ولاشك أنه كان له في هذه الفسحة من حياته بالشام ومصر أزواج وذرية، لم تبلغنا عنها تفاصيل كافية، ولم نعرف عددها، ولا أسماء أفراد أعيانها، وإنما ورد ذكر بعض أحفاده، وأحفاد أحفاده، أو الإشارة إليهم أثناء سياق بعض الأخبار، أو سرد بعض الوقائع التاريخية، وربما أُبْهِمَ اسمهم، واكْتُفِي بنسبتهم إليه كما سياتي أثناء تلفيق الأخبار القليلة التي التقطناها من كتب التاريخ والتراجم.

ومن ذلك أنه كانت له بنت بمصر، زوَّجها لخُمارويه، ولد أحمد بن طولون، وخَلَفَهُ في الامارة بعده تامينا له، وتسكينا لثورته، ورغبةً في ربط صلة الوصل بينه وبينه بالمصاهرة، فلم يُجْدِ ذلك نفعا[91].

ومن ذلك، انه كان له ولد اسمه محمد. وهل هو أبو غالب ؟ وكان لهذا الولد ولد اسمه عبد الله، وهو الذي روى لنا قصة خروج جده في جيش المامون إلى أرض الروم كاتبا مع جعفر الخياط، حسبما تقدم نقلا عن كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري[92] وليست لدينا الآن معلومات أخرى عن الوالد وولده.

ومن أعيان حفدته الذين لم نقف على اسمهم بالتعيين «الشيخ ابن المدبر» الكاتب مع وزير الدولة الاخشيدية، بالديار المصرية، أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حِنْزابَة[93] وهي جدته، وبها كان يعرف، المتوفى سنة إحدى و تسعين وثلاثمائة (391/ 1001).

وله معه قصة طريفة طريفة، أوردها كل من ياقوت الحَمَوِي في «معجم الأدباء»،[94] ومحمد شاكر في «فوات الوفيات»[95] وللطافتها وطرافتها وغرابتها، وما يستنتج منها، لم نر بُدّاً من إدراجها وهي :

---

91) «تاريخ مصر الحديث»، لجرجي زيدان، ص 195 من ج 1.

92) ص 199.

93) حِنْزَابَة بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء ساكنة : المرأة القصيرة الغليظة.

94) ص 170 والتي بعدها من ج 7 طبع الحلبي.

95) ص 204 والتي بعدها من ج 1.

قال ياقوت :

قرأت بخط الشريف النسَّابة، محمد بن أسعد بن علي الجواني المعروف بابن النَّحوى : كان الوزير جعفر بن الفضل بن الفُرات المعروف بابن حِنْزَابَة، يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعي، والحيات، والعقارب، وأم أربعة وأربعين، وما يجري هذا المجرى. وكان في داره التي تقابل دار الشَّنْتكَانِي ومسجد ورش. - وكانت لِلْمَاذِرَائي قبل ذلك - قاعة لطيفة مرخمة، فيها سِلَلُ الحيَّات، ولها قيم فراش حاوٍ من الحُواة، ومعه مستخدمون برسم الخِدْمة، ونقل السِّلل وحطِّها. وكان كل حاوٍ في مصر واعمالها، يصيد له ما يقدر عليه من الحيات، ويتباهون في ذوات العجب من أجناسها، وفي الكبار، وفي الغريبة المنظر. وكان الوزير يثيبهم في ذلك أوْفَى الثواب، ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا في تحصيلها. وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحواة، فيخرجون ما في السلل ويطرحونه في ذلك الرخام ويحرِّشون بين الهوام، وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه.

فلما كان ذات يوم، أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب، وكان من أعيان كتاب ءابائه ودولته، وكان عزيزا عنده، وكان يسكن في جوار دار ابن الفرات، يقول فيها :

نشعر الشيخ الجليل -أدام الله سلامته- انه لما كان البارحة، وعرض علينا الحواة الحشرات الجاري بها العادة، انساب إلى داره منها الحية البتراء، وذات القرنين الكبرى، والعُقْرُبان الكبير، وأبو صوفة، وماحَصَلوا لنا إلاَّ بعد عناء ومشقة، وبجملة بذلناها لِلْحُواة.

ونحن نامر الشيخ - وفقه الله تعالى - بالتوقيع إلى حاشيته وصبيته، بِصَوْنِ ما وُجد منها، إلى أن نُنْفِذَ الحُواة لأخذها وردها إلى سِلَلِها.

فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها وكتب في ذيلها :

أتاني أمر سيدنا الوزير - أدام الله نعمته، وحرس مدته - بما أشار إليه في أمر الحشرات، والذي يعتمد عليه في ذلك، أنَّ الطَّلاق يلزمه ثلاثا إِن بات هو أَوْ واحد من أولاده في الدار، والسلام.

ويستنتج من هذه القصة عدة استنتاجات :

- منها، اعتناء هذا الوزير بجمع الحشرات والحيَّات وأنواع الحيوانات الزَّاحفة، وأنه كان يهوى النظر إليها إما للتسلية والعبرة أو الدرس، شان ما يفعله علماء العصر الإختصاصيون

في علم الحيوانات ودرس طبائعها (Zoologues)، من إحداث أقسام في المتاحف العلمية لعرض هذه الحيوانات حية وميتة. وهو ما يعبرون عنه بعلم الحيوان، أو درس طبائع الحيوان (Zoologie) ويقصدها الناس والسياح من البلاد الدَّانِيَة والقاصية، بقصد التسلية أو العبرة، أو الدَّرس كذلك، حسب مذهب كل واحد منهم ومشربه.

وعليه فليس بغريب ما فعله هذا الوزير، وقد تقدَّم من أتى بعده من علماء درس الحيوان وطبائعه في عصرنا هذا بنحو ألف عام .

– ومنها، ان ابن المدبر هذا، وان كان الوزير ابن حِنْزَابَة أبهم اسمه، فقد كان على ما يظهر من ذوي الإجلال والوقار، ولذلك خاطبه مع مكانته العلمية، ورتبته الوزارية، وما أدْرَاكَ ماهية، في تلك الأزمنة الخالية، – بالشيخ الجليل – ولاشك أن هذا الخطاب يُشْعِر بالاحترام الكبير، ومزيد التقدير.

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلاَلاً وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ المُعْتَلي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

– ومنها، أنه كان كاتبا في ديوانه، ولذلك خاطبه بالكاتب.

– ومنها، أنه كان من أعيان كُتَّاب ءابائه من الوزراء ءال الفرات الذين سبقوه، مما يَدُلُّ على أنه كان عريقا في خطة الكتابة التي كان لها اعتبار وشأن عند أولئك القوم في ذلك الزمان، ودولته، يعني الدولة الكافورية الإخشيدية.

– ومنها، انه كان حظيا اثيرا عنده، مرموقا بعين الإعتبار وسُمُوٍّ المكانة لديه، ولذلك ألاَنَ له القول ولطف العبارة.

– ومنها، انه كان يسكن بجوار داره، ليكون قريبا منه كلما احتاج إليه، وذلك دليل على اختصاصه به، وملازمته له، شان الكُتَّاب المقربين من الرؤساء والأمراء لكفاءتهم، وقيامهم بوظيفتهم في كل وقت وحين.

– ومنها، أن الشيخ ابن المدبر، لما أتاه أمر الوزير بصيانة الحيات والعقارب المنسابة لداره، استشعر شراً، وخَشِيَ على نفسه وأولاده منها.

فأجاب مقسما بالطَّلاق، بأنه لا يبيت هو أو أحد من أولاده بتلك الدار خوفا من إدايتها، يعني وللوزير الحق في تفتيشها وتطهيرها من الحيات والحشرات، وردها لِسِلَلِها في قاعتها المختصَّة بها في داره.

ومن أعيان حفدة أحمد بن المدبر الذين ورد لهم ذكر في الدولة الفاطمية "عبد الله بن يحيى بن المدبر"، ولم نقف على من رفع نسبه بعد يحيى، ووصله بأحمد بن المدبر، وعلى كل حال فهو من حفدة حفدته الذين نشأوا بمصر، ولم يفارقوها، إذ بين تاريخ وفاتيهما نحو مائة وخمس وثمانين سنة.

ويؤخذ ممَّا عثرنا عليه حتى الآن من أخباره القليلة، أنه كان من أعيان الدولة الفاطمية ورجالها البارزين، ولذلك ولَّاه الخليفة المستنصر الوزارة بعد عزل الوزير البابلي في المحرم سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة (1061/453).

ثم صرفه في رمضان من السنة، وتداول الوزارة بعده آخرون، إلى سنة خمس وخمسين وأربعمائة (1063/455) فأعيد للوزارة في صفر منها، بَدَلاً من الوزير أبي علي أحمد بن عبد الحكم، وبقي فيها إلى أن مات في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها[96].

وجاء في «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بَرْدى،[97] انه كان له ابن أخ من رجال الدولة الفاطمية أيضا وأصهارها، لأنه تزوج إحدى بنات نزار بن الخليفة المستنصر. وكان مع ناصر الدولة بن حمدان، لما قتله إِلْدِكَزْ التركي عقب فتنة الترك والسودان انصار أم الخليفة السودانية والمتعصبين لها والمُعْصَوصبين عليها، فانهزم أمامه لما قامت الهيعة في رمضان سنة خمس وستين وأربعمائة (1073/465) في زي المكدين، فأُخذ، وحيث كان تزوج حفيدة الخليفة، فقد قُطع ذكره وجُعل في فمه ثم قُتل.

وجاء فيه أيضا[98] ان بدر الجمالي لما وصل مصر مُلبِّيا دعوة الخليفة المستنصر لما استنصر به على إِلْدِكَزْ المذكور، قاتل ناصر الدولة والمستبد عليه، وجده تغلب على مصر ووصل إلى دمياط. قال : وبها يومئذ ابن المدبر، ولم يذكر إسمه. وكان قد هرب منه، فقتله وصلبه وعاد إلى مصر.

ولما دخل بدر الجمالي مصر، احتال على إِلْدِكَزْ، عدو الخليفة، حتى قتله، وذلك كله سنة سبع وستين وأربعمائة (1074/467)، وهو بلا ريب غير ابن المدبر المتقدم الذكر، الذي

---

96) «حسن المحاضرة» للسيوطي ص 153 و 154 من ج 2 و«تاريخ مصر الحديث» لزيدان ص 269 من ج 1، والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي، المصري، ص 48.

97) ص 22 من ج 5 و «تاريخ مصر الحديث» ص 277 من ج 1.

98) نفس الصفحة ونفس الجزء.

كان متزوجا بحفيدة الخليفة، لأنه مُثِّلَ به وقُتِل، سنة خمس وستين وأربعمائة (1073/465). وهذا لم يُقتل إلا في سنة سبع وستين وأربعمائة (1074/467) ولعلّه كان واليًا أو من الموظفين بدمياط، أو ذوي النُّفوذ والجاه بها.

والذي يؤخذ من هذا كله، هو أن جميعهم من الأسرة المدبرية النازحة إلى مصر، وحافظت على ذكرها ومركزها فيها نحو قرنين من الزمن، ومن حين لآخر كان يلمع منها نجم يضيء في سماء الرياسة والحكم والسياسة، ثم يختفي. ولله عاقبة الأمور.

انتقال ءال أحمد بن المدبر من مصر إلى المغرب الأوسط

تبين لنا مما سطرناه في الفصل السابق، أن ءال المدبر بقيت منهم بقية بمصر، وظهر أفراد منهم في الدولتين الإخشيدية، والفاطمية. وكان لهم ذكر ومقام في الكتابة والوزارة.

وليس لدينا الآن نص صريح نعتمد عليه، يُفصح عن سبب وكيفية انتقال زمرة منهم، أو فرد من أفرادهم من مصر إلى المغرب الأوسط، ولا تعيين الزمن الذي وقع فيه هذا الإنتقال بالضبط. وهذه نقطة غامضة في أخبار بني عشرة المنتَسبين إليهم. ولم يبق لدينا إلاَّ فُروض واحتمالات وظنون واستنتاجات تاريخية تحتمل الصدق والكذب لذاتها، حتى يقوم الدليل بالنص الصحيح على نفيها أو إثباتها. وعليه :

فهل كان هذا الإنتقال في زمن ابن طولون أو بعده ؟ وإذا كان في زمن ابن طولون، فهل فراراً منه لمَّا نكب والدهم وسجنه، وسلبه رياسته ونعمته ؟ وهذا محتمل جدا لأنه :

لاَ يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحَيِّ والْوَتِدُ
فَذَا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

أو كان انْتِقَالُهم اختياراً منهم للهجرة من مصر ؟ حيث لم يبق لهم بها رياسة ولا ذكر ولا كرامة في الدولة الطولونية، لأن العز في النقل، وإذا نبا بك منزل فتحول.

أو دخلوا إلى إفريقية، بصفة أخرى مع بعض السَّرايا الحربية، أو القوافل التجارية ؟ أو لسبب آخر من الأسباب، التي لم نعلمها ولم يصلنا خبرها ؟

وهناك احتمال آخر، وهو أن ءال المدبر لما ادبرت عنهم الأيام، وثار العباس بن أحمد بن طولون على والده، و توجه إلى إفريقية، ووصل إلى برقة، سنة خمس وستين ومائتين (878/265) انضمُّوا إليه، انحرافاً عن والده لِمَا بينهم وبينه من العداوة، والتنافس على الرياسة. ولمَّا وصلوا إلى إفريقية التحقوا بالثوار، ومنها تسرَّبوا إلى المغرب الأوسط، فاستقرُّوا به إلى أن كان منهم الأمير عشرة.

ولَعَلَّ هذه الفتنة كانت من الأسباب التي دفعت ابن طولون إلى الوثوب وثبته الأخيرة على أحمد بن المدبر سنة سبع وستين ومائتين (267 / 880)، وحبسه واخذ ماله كما تقدَّم نقلاً عن ابن تغرى بردى في «النجوم الزاهرة»[99]

وقد تعاقبت على إفريقية والمغرب الأوسط منذ انتهاء فتنة العبَّاس ولد أحمد بن طولون في السنة المذكورة إلى أن ظهر عشرة بالمغرب الأوسط ووفد على هشام المؤيد بالأندلس، كما سياتي، عدة دول، وهي :

– الدولة الفاطمية ، بطرابلس وتونس ، قبل أن تنتقل إلى مصر من سنة ست وتسعين ومائتين (909/296) إلى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (972/362).

– والدولة الرُّسْتُمِيَة، بالمغرب الأوسط، وشملته كله، ما عدا ناحيتي الزاب وتلمسان، من سنة ستين ومائة (976/160) إلى سنة ست وتسعين ومائتين (972/296).

– والدولة الإدريسية، ولم يمتد نفوذها إلا على طرفٍ من المغرب الأوسط فقط. ولم يشمله كله، من سنة اثنتين وسبعين ومائة (789/172) إلى سنة إحدى عشر وثلاثمائة (923/311).

– والدولة الصُّنْهاجية، ابتدأت سنة إحدى وستين وثلاثمائة (972/361) وطال زمنها، وانقسمت في الأخير إلى قسمين.

شرقي : وعاصمته القيروان

وغربي : وقاعدته القلعة الحمَّادية

---

99) ص 43 من ج 3.

إلى أن قضى عليها عبد المومن بن علي سنة سبع وأربعين وخمسمائة (1153/547)، ولم يرد لآل المدبر ذكر في هذه الدولة، ولا في حروبها بالمغرب الأوسط وإفريقية، بل اختفى هذا الإسم ما يزيد على مائة عام، إلى أن ظهر عشرة الذي قيل إنه منهم مُتَّصفاً بالإمارة من غير تعيين محلها بالمغرب الأوسط.

* * *

وقد ظهر لنا بعد البحث في ءال المدبر، وبنى عشرة المنتسبين إليهم، ان نُنظِّر بينهم وبين بني حمدون، مع مراعاة النظير، ومقابلة المشبه بالمُشَبَّهِ بِهِ في حسن التنظير، بمن تعاقب على هذا المغرب الكبير، من الأسر السرية النبيلة من أمير ووزير، ولا يَخْلُو ذلك من فائدة تاريخية، ومِلَحٍ أدبية، لا تخرج عن نطاق دائرة موضوعنا، وربما ستجر ذيلها على ما سنحرره فيما سياتي من فصول أبحاثنا، فنقول :



المبحث السادس

التنظير بين ءال المدبّر
وبين ءال حمدون(100)

نظير ءال أحمد بن المدبّر، الذين جاءوا من العراق إلى الشام، ثم إلى مصر ثم إلى المغرب الأوسط، وظهر منهم به عشرة الذي كان من شيعة الامويين بالأندلس، واقطعه هشام المُؤَيَّدَ أرض سلا، ءال حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجُذامي، المعروف بابن الأندلسية، الذين جاءوا من الشام. وجدهم الأكبر، عبد الحميد، كان الداخل إلى الأندلس. ولا نعلم بالضبط تاريخ دخوله.

ثم انتقل أحد حفدته، حمدون، المُسمَّاة به الأسرة، إلى بجاية، وصحب أبا عبد الله الشّيعي الدّاعي، وكانت له به معرفة قبل ذلك بالمشرق، وانتحل نِحْلَته، وتشيّع له ولده علي. وفي أيامه ظهر، وازداد ظهورا في أيام أبي عبيد الله المهدي، وابنه أبي القاسم.

ولما اختطّ مدينة المسيلة بأرض الزّاب، سنة خمس عشرة وثلاثمائة (927/315)، رسمها برمحه، وهو على فرسه، أمّره عليها، وأمره ببنائها.

كما مصّر عشرةُ سلا، وبقي في إمارتها إلى أن هلك في فتنه أبي يزيد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (940/334)، وخَلّفَهُ عليها ولداه : جعفر ويحيى، فشيّدا بها القصور

---

100) مراجع هذا الفصل .

«ابن عذاري» ص 361 من ج 2، «ابن خلدون» ص 198-277-291 من ج 1، طبع الجزائر و ص : 76-21-38 من ج 2، نفس الطبعة، «الحلة السيراء» لابن الأبار ص 434، «اعلام الزركلي» ص 119 من ج 2 وص 93 من ج 5، «تاريخ الجزائر» لمبارك الميلي ص 94 وما بعدها من ج 2، «ديوان ابن هانيء»، «نفح الطيب» للمقري ص 213 من ج 2، و ص 4 من ج 4، طبع دار السعادة بمصر عام (1949/1368)

Histoire des Musulmans d'Espagne par Dozy, T II, pages 198-230-236-237.

Histoire de l'Espagne Musulmane par E. Levy-Provençal, T II, pages : 187-188-195-206-224-226-231-260-261-262-263.

Traduction d'Ibn KHALDOUN par le Baron de Slane, Appendice III, p. 554, T II.

الضّخمة، والمنازل الفخمة. وامتازا من بين أمراء الفاطميين في أوّل عهدهما، بالإخلاص لهم، وإشاعة مَذهبهم، والكرم الحاتمي، والجود الفيّاض، والهمّة العالية.

وكان لجعفر ولد اسمه إبراهيم، ساد في حياة أبيه، وشبهه في جوده وكرمه. ومن شبه أباه فما ظلم. فضمّت مجالسهم العامرة عيون أعيان الأمراء والعلماء، واجتمع على مئادبهم، نخبة الكتاب والأدباء، وتغنى بجودهم وعطائهم الشعراء، ومنهم شاعر الدولة المُعزّية، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي، فخلّد فيهم قصائد، كأنها أزهار الأفنان، او قلائد اللؤلؤ والمرجان، تُضارع ما قَالَهُ المتنبي في ءال حمدان، فكان بأمداحه لهم بمنزلة البحتري من ءال المدبر، أسلاف بني عشرة في الميدان ؛ ومن أمداحه فيهم قوله من قصيدة :

كــأنَّ لوَاء الشــمس غُــرَّةُ جــعــفــرٍ　　رأى القرْنَ فازدادت طَلاَقَتُهُ ضِعْفَا
وقد جَاشَتِ الدَّأْمَاء بِيضاً صَوَارِماً　　ومَارِنَةً سُمْراً وَفَضْفَاضَةً زَغْفَا»...

وفي جعفر يقول أيضا :

خَلِيلَيَّ أَيْنَ الزَّابُ مِنِّي وَجَــعْــفَــرٌ　　وَجَنَّاتُ عَــدْنٍ بِنْتُ عَنْهَــا وَكَــوْثَرُ
فَــــقَلْبِي نَأَى عَنْ جَنَّةِ الخُلْدِ ءَادَمٌ　　فَمَا رَاقَهُ مِنْ جَانِبِ الأَرْضِ مَنْظَرُ

وفيهم يقول :

أَبَنِي العَوَالِي السَّمْهَرِيَّةِ والسُّيـ　　ـوفِ المَشْرَفِيَّةِ وَالعَدِيدِ الأَكْثَرِ
كُلُّ المُلُوكِ مِنَ السُّرُوجِ سَوَاقِطٌ　　إِلاَّ المُمَلَّكَ فَوْقَ ظَهْرِ الأَشْقَرِ
مَنْ مِنْكُمُ المَلِكُ المُطَاعُ كَأَنَّهُ　　تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبَّعٌ فِي حِمْيَرِ

ويُحكى أنه لما انشد هذه الأبيات، ترجّل العسكر كله، ولم يبق راكبا سوى الممدوح. ولا يعلم سؤال كان جوابُه نزولَ عسكر جرّار غيره.

وبعد هذا كله، فقد حصلت وحشة ومنافسة على الرياسة بين الأخوين جعفر ويحيى، وبين زِيرِي بن مُنَادٍ الصنهاجي، انتهت بحرب بينهم قُتِلَ فيها زيري عدو بني أمية، فخرج الاخوان ناجييْن بأنفسهما من إفريقية إلى الأندلس، وافديْن على هشام المؤيد، كما وفد عليه عشرة بعد هذا التاريخ، نابذيْن دعوة الشيعة، ومُراجعيْن طاعة الخلافة الأموية، ومتقربيْن

إليها براس زيري بن مناد عدوها. فاحتفل بهما المنصور بن أبي عامر يوم دخولهما إلى قرطبة، وأمَّرَهما على المغرب الأقصى، كما كان عشرة أميرا بالمغرب الأوسط من قبل بني أمية وكان لهما به شان واخبار طويلة.

ثم إن المنصور لما رأى من ظهور الأخوين ما رأى، وخصوصا جعفرا، وما كان له من النفوذ والكلمة المسموعة بين القبائل البربرية بالعدوة المغربية، خافه وحذره، وغار منه، بعد أن استعان به على اعدائه، فاستدعاه إلى قرطبة، واحتفل به احتفالا فاخرا في ليلة من الليالي بقصره، وبيَّت له كمينا ترصَّد له عند خروجه، فقتله غيلة سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة (982/372)، واظهر الأسف عليه.

وفرَّ يحيى إلى مصر مُرَدِّدًا دعوة الشيعة، وملتجئا إلى العزيز بن نزار، فقبله، واقام عنده، محترما سنين عديدة، ووجَّهه في حركة عسكرية إلى برقة، فلم يُقدَّر له النجاح فيها، فرجع إلى القاهرة. وبقي بها إلى أنْ مات أواخر المائة الرابعة للهجرة.

وقد تخلَّف خلف من هذه الأسرة الحمدونية بالمغرب، كان منهم بسلا سمَّى جديْه : الشيخ علي ابن حمدون، ذكره في «التشوُّفِ» في ترجمة الشيخ أبي علي الشريشي البكَّاي، وقال : انه نَزَلَ عنده لما ءاوى إلى سلا بعد مجيئه من مراكش، وذلك أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وعلى كل حال، فان التَّنظير حاصل مُتمكِّن، والشبه تام بين الأسرتين : العشرية والحمدونية في مجيئهما معاً من المشرق، وإقامتهما دهراً طويلاً بالمغرب الأوسط، ودعايتهما للخلافة الأموية، وانحرافهما عن الشيعة، ووفادتهما على الخليفة هشام المؤيد، واسناد الامارة إليهما من قبله، وبناء الحمدونيين مدينة المسيلة وعمرانها بالمغرب الأوسط، والعشريين مدينة سلا وعمرانها بالمغرب الأقصى، واشتهارهما جميعا بالجود والسخاء وحَمْل الكَلِّ، واكساب المعدوم، وتخليد الشعراء ماثر أعيانهم وكرمهم في أشعارهم.

هذا، واخبار بني حمدون كثيرة متفرقة في كتب التاريخ والتراجم، وإنما ألمعنا إليها هنا إلماعاً لنقابل بينها وبين أسرة بني عشرة.

وكم من أسرة مشرقية أو مغربية هاجرت في ذلك العصر أو قبله أو بعده من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق فكان لها شأن.

قال أبو العباس المقَّري في «نفح الطيب»[101]، لما تكلَّم على الراحلين من الأندلس إلى المشرق، والراحلين من المشرق إلى الأندلس .

«إعْلَمْ – جعلني الله وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال –، ان حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحَاطَةِ إلاَّ علاَّم الغيوب الشديد المحال...»

وقال أيضا :[102]

«إعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قومٌ كثيرون، لا تحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم. ومنهم من اتَّخذها وطنا، وصيَّرها سكنا، إلى أن وفته مَنِيَّتُهُ، ومنهم من عاد إلى المشرق، بعد أن قُضيت بالأندلس أُمنيته...»

قلت : وقد كان لهؤلاء الراحلين أثر كبير في العلم والأدب والحضارة والسياسة ونشر الدعاية إلى المذاهب التي كانت رائجة في ذلك العهد.

ومنهم من حفظ التاريخ أسماءهم ودوَّنه المؤرخون، كبني عشرة وبني حمدون، ومنهم من لم يحفظه التاريخ ولم يدونه المؤرخون، فطوتهم الأيام طيّاً، وجعلتهم نِسْيا مَنْسياً، وما حدَّثت بهم إنْسِيا، فذهب أولئك القوم في الذاهبين الأولين، ولم يتركوا بعدهم أثراً للآخرين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

---

101) ص 213 من ج 1، طبع السعادة بمصر.

102) ص 4 من ج 4، نفس الطبعة.

المبحث السابع

الأمير عشَرة

ليس لدينا معلومات كثيرة عن ترجمة الأمير عشَرة، ولا نعرف حتى اسم والده المنتسب لِآلِ المدبِّر، مع ما في ذلك من الغموض والانقطاع في ارتباط عمود نسبه بهم.

وغاية ما أدركناه من اخباره قبل نزوله بأرض سلا، انه كان من دُعاة الأمويين بالمغرب الأوسط، وأميراً من أمرائهم به، من غير تعيين لمحل هذه الإمارة.

وقد جاء في النَّصِ المنقول عن الكاتب الأديب أبي بكر بْنِ اللَّبَّانة الدَّاني في كتابه «سقيط الدر، ولقيط الزهر» أنَّ عشرة جَدَّ الأسرة العشرية السلاوية، كان أميراً لخلفاء بني أمية بالمغرب الأوسط.

ويُعَضِّدُهُ ما ذكره علي بن ظافر في كتابه «بدائع البِدَاية»[103] لما حكى مساجلة أدبية تُرْوَى عن القاضي أبي الحسن علي بن القاسم بن عشرة، ستاتي في ترجمته آخر هذا البحث، من وصفه بِأنَّه أحد رؤساء المغرب الأوسط، فاتَّفق في ذلك مع أبي بكر بن اللبَّانة.

ولا يخفى أن ابن اللَّبَّانة، كان من شعراء الدولة العبَّادية بإشبيلية، وتوفي سنة سبع وخمسمائة (1113/507). وعلي بن ظافر، كان وزيراً للملك الأشرف بالقاهرة، وتوفي سنة ثلاث عشرة وستمائة (1216/613)، وبينهما ما يزيد على مائة عام. وعليه، فإن إمارة عشرة بالمغرب الأوسط، كانت معروفة منقولة عند كُتَّاب ومؤرخي القرنين : السادس والسابع الهجريين، سواء بالأندلس أو بالقاهرة.

---

103) ص 78 من ج 1، المطبوع على هامش كتاب «معاهد التنصيص».

وقد ذكر الضبّي "في بغية الملتمس" عرضا[104] أن الأمير عشرة، وفد على هشام المؤيد مجاهدا في جُمْلة من أمراء المغرب، وكان حاجبه يقدمه، والدهر يخدمه.

والظاهر أن هذه الوفادة، كانت بعد سنة سبع وسبعين وثلاثمائة (887/377)، وهي السنة التي استولى فيها زيري بن عطية على فاس. ولا ندري هل كانت هذه الإمارة التي وُصف بها من غير تعيين محلها، في بيته قبله أو له وحده، ولا من الذي ولاّه.

ولكننا إذا تتبعنا شريط الحوادث التاريخية، في هذه الفترة الزمانية بالمغرب الأوسط، نجده كان ميدانا تسابق فيه بنو أمية الأندلسيون، والفاطمية الشيعيون، وتجاذبوا حبل الرياسة والسيادة فيه حينا من الدهر، وكانت بينهم فتن وحروب سجلها المؤرخون، ووقائع تناقلها الأخباريون، وكان داعية بني أمية الأكبر، زيري بن عطية، ومن لَّف لَفَّهُ من أمراء الدولة الصنهاجية.

ولم يثبت تاريخياً أنَّ قَدَمَ الأمويين رَسخت في المغرب الأوسط باستمرار، إلا في عهده، من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (991/381) إلى أن هلك سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (1000/391)، مدة عشرة أعوام فقط.

ولعلَّ عشرة، لمَّا كان من دُعاتهم وأنصارهم، أمَّرُوهُ وقدَّموه، جزاءً له على ما قام به من الدَّعوة لهم، فتألَّق نجمه في سماء الرياسة والإمارة في ذلك العهد، وجدَّد للأسرة المدبِّرية المنتمي إليها ما كان لها من الذكر والشهرة والمجد.

ويؤخذ من هذا كله، أن بني عشرة، لم يكونوا مغاربة برابرة ولا أندلسيين مهاجرة، وإنما هم عراقيون مُدبِّريون على ما قيل، بزغ نجمهم بالعراق، وأشرقَ بالشام، وتألَّق بمصر، وبلغ نوره المغرب الأقصى، واستمر لامعاً في «سلاه» أثر مجدهم الخالد، وذكرهم الدائم المستمر، إلى عصرنا الحاضر.

فِي «سلاه» يُغْشِي النَّاظرِيـ ـنَ إِذَا هُمُ لَمَحُوا شُعُاعَهْ

نزول الأمير عشرة بأرض سلا وابتداء تمصيرها

تقدم لنا أن مدينة سلا، كانت في أول تكوينها، كُتَلاً وعمائر متفرقة من مهاجري شالة بعد خرابها، وما انضاف إليهم من المرابطين برباطها للجهاد في الفئة الضالة البرغواطية.

---

104) ص 414 طبع مدريد سنة 1302/1884

ولكنَّها لم يتناسق عمرانها، ويتمَّ تمصيرها، حتى نزل بها الأمير عشرة جد الأسرة العشرية الشهيرة.

وفي كتاب «المدن والقبائل المغربية» :[105] نقلاً عن أبي عبد الله محمد بن علي الدكالي أنَّ أمير قرطبة، أذِنَ للرئيس عشرة أنْ ينزل بازاء شالة فنزل، ومعه ثلاثة من أولاده ونساؤه وخَدَمه وحَشَمه.

ثم بنى بأرض سلا قصره في المحل الذي يوجد فيه أقدم حيّ بها، وهو حَيُّ الطالعة، حيث يوجد الآن المسجد الأعظم والمدرسة المرينية الحسنية، وبنى أيضا هناك مسجدا تخرب ولم يبق إلاَّ أثره...

وقال في كتاب «الاستبصار»[106] بعد ذكر شالَّة : وقد كان اتخذ أرباب البلد العشريون وأولياؤهم، مدينة بالعدوة الشرقية، وهي المعروفة الآن بسلا، فيها ديارهم بحومة الجامع، ولم يبق منه سوى المنار، وأمَّا السَّقف كله فتهدم، واحتمى الغرباء في بنائه سنة أربع وسبعين وخمسمائة (574 / 1178).

وهذا النصُّ وإنْ كان صريحا في نسبة سلا إلى العشريين، فإنه لم يذكر جدهم الأمير عشرة ونزوله بها كما تقدَّم، ولا من أين جاء العشريون إليها، ولم يُفْصِح عن تاريخ نزولهم بها بالضَّبط، كما أنَّه لم يُعَبِّر بالتأسيس وإنما عبَّر «بالاتخاذ»، وهو لفظ يحتمل أنَّهم اتَّخذوها مدينة، يعني صيَّروها مدينة وعمَّروها ومصَّروها وسكنوها، لكونهم وجدوا مهاجري شالة سبقوهم إليها، كما يقال : اتخذ فلان مدينة كذا دارا وقرارا، أي نزل بها وسكنها. وأمَّا الجامع فسياتي الكلام عليه مُفصَّلا في الفصول الخاصة به.

ويوخذ من هذا كله، أن تمصير سلا وتصييرها مدينة ينطبق عليها مدلول هذا الإسم، إنما تَمَّ بعد نزول العشريين بها، ومِنْ ذلك العهد عُرِفت في التاريخ، وقُرِنَ إسمها باسمهم حتى قيل إنَّها مدينة بني العشرة، واتَّصلت هذه النسبة لهم من بعدهم دهراً طويلا.

وقد فَصَّل في كتاب المدن والقبائل المغربية[107] كيفية تناسق العمران في المدينة، ولا ندري مستنده في ذلك فقال :

---

105) "Villes et Tribus du Maroc", Rabat et sa région, T I, page 27

106) ص 140، طبع الاسكندرية

107) ص 27 من ج 1 ناحية الرباط.

لمّا دارت دور العشريين حول الجامع، نشأ حيُّ الطالعة، ثمَّ تكاثر البنيان وأتصل وتدرّج فتكوّنت بُلَيْدَة صغيرة، هي حي البليدة بسلا الآن، وشرعوا حينئذ في إحاطتها بالسُّور تحصيناً لها.

قال وقد عُثِرَ على أثر هذا السُّور في زمننا هذا، بباب شَعْفَة، لما كانت البلدية تُجْري بعض الإصلاحات بتلك الناحية في المدينة. وتلاحق الناس بعد ذلك، وتسارعوا إلى البناء والتعمير من القبائل البربرية والأندلسيين المهاجرين.

ومن أقدم ما بُني في ذلك العصر بتلك الناحية، دور بني مسطاس، سفراء وتراجمة البَرَغواطيين.

ومنهم السفير الترجمان، عيسى بن عمر المسطاسي، وهو أول من نزل منهم بهذه المدينة السلاوية.

وبعدهم نزل بنو خيرون الأندلسيون، وإليهم ينسب درب الأخيار الآن. وقد هاجرت فرقة من هذه الأسرة الخيرونية إلى القيروان، واستقرت بها فكان لها ذكر وأثر في العلم والتجارة.

ثم تكوّن حي زَنَاتَة، الذي كانت به دور ومنازل لأُسَرِ ءال تميم ابن زيري اليفرني الزناتي، أمراء شالة وسلا وتادلا، وما وراءها من البلاد. وهكذا، تناسق العمران وتسلسل، ونشأت المدينة السلاوية الجديدة العشرية واتّسع نطاقها.

وكانت تتكون في ذلك العهد من أربعة أحياء :

- حي الطالعة، الذي فيه المسجد الأعظم، ودور العشريين حوله.
- وحي البليدة، الذي فيه أتباعهم وحشمهم.
- وحي درب الأخيار، حيث منازل بني خيرون الأندلسيين.
- وحي زنانة، المعمور بمنازل ءال تميم بن زيري الزناتي.

وكان كل مَنْ وضع يده على قطعة أرض وأحياها، وتصرّف فيها صارت ملكا له، لأنَّ من أحيا أرضا مواتا فهي له.

وسنرى كيف تواصل العُمْران فيها في الدول الآتية.

المبحـــث الثامـــن

قصـر بني عشَـرة بسـلا

قصر بني عشرة بسلا، ردَّد صدى ذكره المؤرخون، وتغنَّى به الشعراء، وتبوَّأه السلاطين والأمراء، ونزل به الرؤساء والوزراء، وقصده العلماء والأدباء، المترددون على سلا من الأقطار المغربية، والعدوة الأندلسية، منذ تشييده في عهد العشريين، إلى أوائل دولة الموحدين، ثم اختفى ذكره بعد ذلك.

موقعه ومَثَالُهُ

علمنا مِمَّا سبق، ومِنْ نصِّ صاحب «الإستبصار» بالخصوص، أن بني عشرة لمَّا نزلوا بسلا، بنوا دورهم بحي الطالعة حول الجامع، ولاشك أنَّ القصر كان من جملة دورهم.

وقد استظهر أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي، كما رأيته في بعض مُقيَّداته، أنَّه كان مَبنياً في مَحلِّ المدرسة الحسنية المرينية الآن قال :

«الظاهر أن بِمحلِّ القصر بنيت المدرسة المرينية، للعثور على جدار قديم يُجاورها غرباً، كشف الحال عن عَضَّادة باب دار عتيقة جِداً يظهر أنها كانت قبل بناء المدرسة بكثير، وصورة الباب شاهقة في الجو، يَغْلُبُ على الظنِّ أنه من بناء القصر الفاضلة على المساحة التي بنيت بها المدرسة. وهذه البقعة التي بها هذا الأثر، من أملاك الأحباس المحبَّسة على الجامع الكبير، ولذلك ساغ أن تبنى فيها المدرسة وبقي بها الأثر إلى هذا الحين، ولولا الحبس لتداولتها الأيدي، وتغيرت الآثار التي استدللنا بها الآن، والعلم لله الملك الديان سبحانه.»

والذي يوخذ من أخبار بني عشرة، أنهم كان لهم قصران بسلا مركز عزهم، ومطلع شموسهم وأقمارهم.

الأول : بُني في عهد نزولهم، واستقرارهم بطالعتها.

والثاني : بناه فخر الأسرة وعميدها أبو العباس أحمد بن القاسم بالطّالعة أيضاً، كما يُعلم ذلك صراحة من أقوال المؤرخين الذين ترجموا له. وهل كان هذا القصر الثاني، تجديداً للقصر الأول، وبُنى في محله، وعلى انقاضه، أو هو غيره ؟ لا ندري، لعدم وجود نص يُفْصح عن ذلك. وهذا القصر الثاني، هو الذي تغنى به الشعراء، وتبوّأه الملوك والأمراء، وطاف بساحته ذَووا الحاجات، واستجار به المنكوبون عند حلول النكبات، واستحكام الأزمات.

قال أبو العباس المقري في «نفح الطيب»[108] :

لما بنى أبو العباس أحمد بن القاسم قصره بسلا وشيّده، وصفته الشعراء وهنأته به، ودعت له.

وكان بالحضرة حينئذ الوزير أبو عامر بن الحمارة، ولم يكن أَعَدَّ شيئاً، ففكّر قليلا ثم قال :

يَا أَوْحَدَ النَّاسِ قَدْ شَيَّدْتَ وَاحِدَةً ... فَحَلَّ فِيهَا حُلُولَ الشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ
فَمَا كَدَارِكَ فِي الدُّنْيَا لِذِي أَمَلٍ ... وَلاَ كَدَارِكَ فِي الأخْرَى لِذِي عَمَلِ

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رَجَزِه . «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» :

أَنْشَا أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ عَشَرَةْ ... قَصْرًا بَدِيعًا بِسَلاَ وَعَمَرَةْ
وَقَصَدَتْهُ الشُّعَرَا بِالمَدْحِ ... مُهَنِّئِينَ طَلَبًا لِلْمَنْحِ
وَعَادَ مَنْزِلاً لِعَبْدِ المُومِنِ ... لِحُسْنِهِ وَلاِنْفِسَاحٍ بَيِّنِ
وَحَلَّ فِيهِ الْمَلِكُ الصَّنْهَاجِي ... وَالِي بِجَايَةَ أَخَا ابْتِهَاجِ
إِثْرَ انْصِرَافِهِ عَنِ المُلْكِ الْجَلِيلْ ... مُلْكِ بَنِي حَمَّادٍ ذِي الْفَخْرِ الطَّوِيلْ
وَكَانَ فِي بِجَايَةٍ بَنَى العَجَبْ ... قَصْرًا بَدِيعًا بِسَرَاجِيبِ الذَّهَبْ
وَاعْتَمَّ بِالحَرِيرِ وَالإِبْرِيزِ ... عَمَائِمًا تُنْسَبُ لِلتَّطْرِيزِ

108) ص 196 من ج 2، طبع بولاق

وقد ءال هذا القصر بعد رسوخ قدم الموحدين في المُلك إلى الدولة، فتداوله أمراؤها، ولا نعلم الكيفية التي ءال بها إليها، هل بالشراء، أو الانتزاع والاستيلاء ؟ ولعله الراجح، لأن بني عشرة جنحت شمسهم للغروب، بعد استيلاء عبد المومن على سلا، لمَا احْتَفَّ بهذا الإستيلاء من الحوادث الحربية التي شغلت عبد المومن وجيشه فترة من الزًمن، كثورة عمر الخياط بجزولة، وله نسب بسلا[109] وفتنة الثائر ابن هود السلاوي، التي كانت عاصفة ساحقة ماحقة هبت على سلا والسلاويين في ذلك العهد.[110]

لاسيما والدًولة الجديدة إذ ذاك في طور نشوءها، وعنفوان قوتها وشبابها، فغضَّتْ من السلاويين، وأعظم أسرة بارزة فيهم نالها الغَضُّ، أسرة العشريين، كعبة القاصدين، ومحطُّ رحل الوافدين، تمتدُّ نحوها الأعناق، ويُشار إليها بالأصابع، وويلٌ لمن أشارت له، فئاوت إلى الظل ترى ولا ترى، وسترها حجاب الانكماش والعزلة عن الظهور، وَوُلوج ميادين السياسة والرياسة، وتنكًّرت لها الوجوه، وتغيًّرت المعالم، وذهب الناس الذين كانت تعرفهم.

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الذِينَ عَهِدْتَهُمْ وَلاَ الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ

فاختارت الاشتغال بالعلم، والانحياش إلى أَهْلِ الخير والصَّلاح والدِّين، كما سنعلمه ونستقصيه ونقصه من أخبار بعض أفرادها.

ولم يبق لهذا القصر اليوم اسم ولا رسم، إلا الذكر في الأوراق. كما أننا لا نعلم سبب خرابه واندثاره، وعفاء رسمه، ولا متى كان ذلك، والله يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

نزول المهدي بن تومرت وعبد المومن بقصر بني عشرة بسلا

قال ابن البَيْذَق في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت، وابتداء دولة الموحدين" :[111].

---

109) «أخبار المهدي» لابن البيدق، ص 106.

110) «ابن عذاري» ص 20 وما بعدها من ج 3، طبع تطوان، و«ابن خلدون» ص 310، طبع الجزائر و«الاستقصا» ص 11، طبع القاهرة، ج 2. والاستقصا، طبع وزارة الثقافة – 2001، ص 55.

111) ص 65.

"لما خرج المهدي من فاس، مرَّ على مكناسة، ونزل بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة...[112] ولمَّا رحل إلى سلا، سنة خمس عشرة وخمسمائة (515 / 1122-1121) نزل بقصر بني عشرة..."

قال ابن البيدق :[113]

"اعلم أنه لما دخل المعصوم سلا، نزل بها عند الفقيه أحمد بن عشرة. وكان ياتيه الشُّبْلير، ومحمد بن الخير الوقاصي،[114] والسلطان بن قَيْلو[115] والقاضي حسُّون بن عشرة، فكانوا ياخذون عنه العلم، ويامرهم أن يامروا الناس بالمعروف، وينهوا عن المنكر. واقام بها أياماً عديدة، ثم أمرنا بالرحيل نحو مراكش، فخرجنا على بركة الله تعالى".

نزول عبد المومن لمَّا
فتح سلا بقصر بني عشَرة

لما تغلَّب عبد المومن على سلا، بعد مواقعة قليلة، سنة أربعين وخمسمائة (540 / 1146-1145)، نزل بقصر بني عشرة الذي كان نزل فيه قبل ذلك مع إمامه المهدي، سنة خمس عشرة وخمسمائة (515 / 1122-1121).[116] ثم ثارت عليه وافتتحها مرة ثانية، وثَلَّمَ سورها لِيَلاَّ تستعصى عليه مرة أخرى[117].

وفي نزول عبد المومن بقصر بني عشرة أقول في قصيدة "سلا في التاريخ" :

«الْعَشْرِيُّونَ» بِهَا سَمَوْا : زَمَنًا كَمَا تَسْمُو الْبُدُورْ
حَلَّ «الْخَلِيفَةُ قَصْرَهُمْ» لَمَّا بِهَا كَانَ الْمُرُورْ

112) سياتي مزيد الكلام عليه في الفصل المعقود لترجمته مع أعيان بني عشرة.

113) ص 66

114) يوجد اليوم حي بالرباط يسمى «وقَّاصة» مجاور لملاح اليهود فهل هو منسوب لهذا الرجل... ؟ وأمامه مسجد قديم يعرف بمسجد أم القاضي.

115) هؤلاء الأشخاص غير معروفين، ما عدا حسون الذي سياتي الكلام عليه.

116) «ابن البيدق»، ص 66.

117) «ابن خلدون» ص 308 المجلد 2 طبع الجزائر، و«الحلل الموشية» ص 102 طبع تونس، و«الاستقصا» ص 143 من ج 1 طبع القاهرة. والاستقصا، ص 51، طبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

والظاهر أنّ عبد المومن، لمّا فتح سلا في التاريخ المتقدم، اختار النزول بقصر بني عشرة، لأنه أعظم بناء كان موجودا بها في ذلك الوقت، يستحقّ أن ينزل به الخلفاء، ولأنه كان يعرفه قبل ذلك، ولم يكن في ذلك العهد بالقصبة عمران يستحقّ أن ينزل به الملوك، إلاّ حصن تاشفين، أو قصر بني تاركة، ولعلّه لم يكن مُستوفياً لوسائل الرّاحة وشروط الاستقرار والاطمئنان اللذين يتطلبهما مطلق الناس، فضلا عن ملك أو خليفة كعبد المومن في أهله وذويه وخدمه وحشمه.

ولم يشرع في بناء قصره بالقصبة الذي صار ينزل فيه بعد ذلك، إلا سنة خمس وأربعين وخمسمائة (545 / 1150)، يعني بعدما يزيد على أربعة أعوام من استيلائه على سلا، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة، حسبما سياتي تفصيله عند الكلام على عمران القصبة في عهد الموحدين.

استقبال عبد المومن وفود أهل الأندلس بقصر بني عشَرة بسلا

لقد تعدّدت وفادة أهل الأندلس على عبد المومن، وكان يستقبلهم حيثما وجده الحال أثناء حركاته وتنقلاته.

– فالمرة الأولى : كانت وفادتهم عليه بمراكش، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (542/ 1147)، برياسة القاضي أبي بكر بن العربي.[118] وبها كان استقبالهم.

– والمرة الثانية : كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة (1150/545)، وهي السنة التي شرع فيها في بناء قصره بالقصبة، وكانت وفادتهم عليه بسلا بإذن منه، في نحو خمسمائة فارس من الفُقهاء والخُطباء والقُضاة والأشياخ والقُوّاد. فتلقّاهم الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي، والوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية على نحو ميلين من المدينة، وأمر بإنزالهم، وأفاض عليهم سجال الإكرام وأنواع الضّيافات والانعام، وبقوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم أذن لهم في الدخول ، فدخلوا عليه، أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة (محرم 546/ أبريل 1151) فسلّموا عليه، وأشار الوزير ابن عطية لأهل قرطبة بالتقدّم، فتقدّم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج، فأراد أن يتكلم، فدهش، ثُمّ وصف حال قرطبة فقال : يا أمير المومنين،

118) الزركشي، ص 6، و«الاستقصا» ص 147 من ج 1، طبع القاهرة. و«الاستقصا»، ص 64، طبع وزارة الثقافة، سنة 2006.

إنّ الفنش، لعنه الله، قد أضعفها، فتلافاه أبو بكر ابن الجد بالخطبة البليغة، فجَلّى في ذلك المجلس، واستحسن عبد المومن خطبته، ووصل الجميع كُلاً على قدره، وقضى مطالبهم، وأوصاهم بما اقتضاه الحال، وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم فانصرفوا مغتبطين.

وقال ابن خلدون :[119] استدعى عبد المومن أهل الأندلس، وهو بسلا، فوفدوا عليه وبايعوه جميعا...

وقد تضافر المؤرخون على أن عبد المومن كان ينزل بقصر بني عشرة بسلا قبل بناء قصره بالقصبة.

وعليه، فقد كان استقباله لهذا الوفد بالقصر المذكور، وقد ثبت انه كان بأقدم حي بالمدينة، وهو حي الطالعة حول الجامع كما تقدم.

ولما تكلم مؤرخ رباط الفتح جاك كاي (Jacques Caillé) على هذه الوِفَادَة قال :[120]

لا يمكن الجزم بأن عبد المومن استقبل هذا الوفد بحصنه أو قصره بالقصبة، لأنه كان لازال لم يتم بناؤه.

وعليه، فإن كان الاستقبال بالضفة اليمنى للنّهر، فقد يكون من قبيل المحقّق انه أمره بزيارة منشئاته بالضفة اليسرى، ليطلع على ما أسسه فيها من المباني الضخمة لأهميتها عنده، فزارها، ورأى فخامة الدولة الناشئة، وعظمة شانها، المتجلية في مبانيها الخالدة.

– والمرة الثالثة : كانت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (553/ 1158) كما عند الزّرْكشي، قال :[121]

"لما نهض عبد المومن للجهاد، واحتلّ بسلا، قَدِمَ عليه هنالك وفد أهل الأندلس، سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (553/ 1158) وفيهم حفصة الأديبة المعروفة بابنة الحاج الركوني[122] وكان يسمع عنها وعمّا توصف به من الجمال الباهر، والأدب الظاهر، فأمر بإحضارها فحضرت، فقال لها: أنت حفصة الشاعرة، فقالت : نعم، خادمتك، وصلت لتتبرّك بغُرّتك السعيدة، ودنت فقبّلت يده. ثم انشدته تستدعي منه ظهيرا لموضع :

---

119) ص 235 من ج 6، طبع بولاق.

120) ص 62 من ج 1.

121) ص 7.

122) ترجمة حفصة الركُونية مبسوطة في «نفح الطيب» ص 1078 من ج 2، طبع بولاق. و«الإحاطة» ص 491 من ج 1.

يَا سَيِّدَ النَّاسِ يَامَنْ يُؤَمِّلُ النَّاسُ رِفْدَهْ
أُمْنُنْ عَلَيَّ بِصَكٍّ يَكُونُ لِلدَّهْرِ عُدَّهْ
تَخُطُّ يُمْنَاكَ فِيهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهْ[123]

فأعجب عبد المومن بها، ووقّع لها بالقرية المعروفة بركونة وإليها تنسب، فعاشت فيها عيشة الملوك".

والظاهر أن عبد المومن استقبل هذا الوفد بقصره الجديد الذي أسّسه بالقصبة، لأنه كان موجودا في هذا التاريخ، كما سياتي في أخبار القصبة.

نزول آخر ملوك بني حماد بقصر بني عشَرة بسلا

لما استغنى عبد المومن عن النُّزول بقصر بني عشرة بسلا، لبناء قصره بالقصبة، اتَّخذه كدار الأضياف في وقتنا هذا، وصار ينزل به الملوك والأمراء الذين يفدون عليه، أو يستنزلهم عن عروشهم، لأنه كان أحسن وأتم بناء في العدوتين في ذلك العصر. ومِمَّن نزل به، آخر ملوك، ءال حمَّاد بالقلعة، قال ابن خلدون[124] في أخبار دولة ءال حماد الصنهاجيين أصحاب القلعة :

---

123) إشارة بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، فإنها كانت، أن يكتب السلطان بخط يده في رأس المنشور «الحمد لله وحدهُ وإلى ذلك يشير الشاعر ابن مرج الكحل في القطعة التي مدح بها عبد المومن بعد فتحه المهدية

ولما توالى الفتح من كل وجهة ولم تبلغ الأوهام في الوصف حدَّه
تركنا أمير المومنين لشكره بما أودع السرِّ الإلهيُّ عِنده
فلا نعمة إلا تؤدي حقوقها علامته به «الحمد لله وحده »

124) ص 231 من المجلد 1، طبع الجزائر

لما بايع يحيى بن عبد العزيز، آخر ملوكهم، لعبد المومن سنة سبع وأربعين وخمسمائة (1152/547)، ونزل له عن قسنطينة، اشترط لنفسه، فوفَّى له عبد المومن، ونقله إلى مراكش، فسكنها، ثم انتقل إلى سلا، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (1162/558)، فسكن قصر بني عشرة، إلى أن هلك من سنته، وأُقْبِر بمقابر سلا الجوْفية.[125]

125) رحلة التجاني ص 344، طبع تونس.

المبحث التاسع

بعض أعيان بني عشَرة السلاويين

تمهيد

نبغ من هذه الأسرة المجيدة العشرية السَّلاوية – التي كانت تعرف ببني القاسم أيضا – أفراد كانوا في سلا كما قال الفتح : «بدور سمائها وصدور أسمائها». قصدهم العلماء، وطاف بساحتهم الأدباء والشعراء، ولاَذَ بِهِمْ في قصرهم الشامخ، وتفيأ ظل مجدهم الباذخ، كل من عثر به الزمان، وكبا به فرسه في حلبة الرهان، فكانوا يجدون لديهم ملجأ يلجئون إليه، وحرما يستجيرون به، فتُقال عثراتهم، وتُمحى هفواتهم، وتُقبل أعذارهم، وتُقضى حاجاتهم، لأن العشريِّين كانت لا تُردُّ عند المرابطين شفعاتهم، فيرجعون إلى مراكز عزِّهم مجبورين، وينقلبون إلى أهلهم مسرورين، آمنين مطمئنِّين، حامدين مادحين، منوِّهين شاكرين.

وقد تناسلوا بسلا وامتدَّت بها فروعهم، وبرز منهم أفراد جلّوا في ميادين الجود والعلم والأدب والرياسة.

ثم خلفهم خلف نهجوا نهج أسلافهم في الاتِّصاف بالعلم والتقوى، والاستمساك بحبلها الأقوى، والتخلق بأخلاق الدِّين المتين، والانحياش إلى أهل الخير والفضل من الأولياء والصالحين، لم يصلنا من أخبارهم إلا النزر اليسير، لطول الزمن، وعدم الاعتناء بالتقييد في ذلك العهد.

وقد وَرَدَ ذكر أفراد منهم في «كتاب التشوف إلى رجال التصوف»، للشيخ أبي يعقوب يوسف التادلي، المعروف بالزيَّات، عَرضا ؛ روى عنهم مباشرة أو بواسطة، حكايات وأخباراً في تراجم بعض صُلحاء سلا أو الوافدين عليها من رجال التصوف.

وعلى كل حال، فإننا، وإنْ كُنَّا لم نعرف من أخبارهم، إلا مارواه عنهم، فإنَّهم كانوا من أهل المروءة والزهد والورع، واحترام الناس لهم، حسبما يؤخذ من روايته عنهم، وأنَّهم كانوا موجودين أحياء في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد)، لأن ابن الزيات، - وان كان لم يعقد لهم تراجم خاصة، لأنه التزم ان لا يترجم للأحياء -، فقد ذكر[126] أنه شرع في تأليفه سنة سبع عشرة وستمائة (617 / 1220). وعليه، فقد كانوا أحياء موجودين في ذلك العصر.

وهذه سلسة تقريبية لنسب من وصلتنا نُتف من أخبارهم أو أسمائهم فقط، مفرقة في بعض كتب التاريخ والتراجم والأدب المكتوبة في زمنهم أو بعده، رسمناها في الصحيفة المضافة إلى هذه، والله أعلم.

126) ص 13، طبع الرباط، سنة 1958/1378

الأمير عشرة

عيسى

موسى

محمد

القاسم

علي

(توفي سنة 1108/502)

أحمد (توفي قبل استيلاء عبد المومن على سلا)

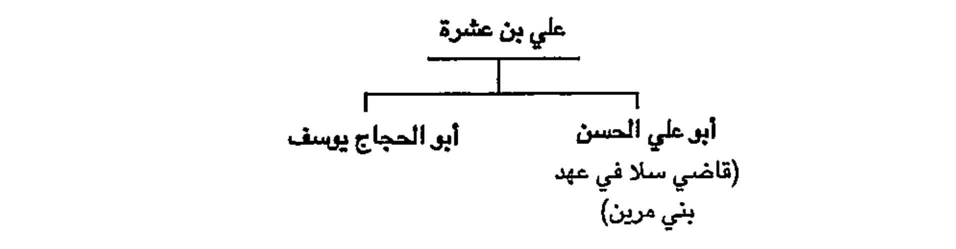
الحسن أو حسون كان حيا عام (1121/515)

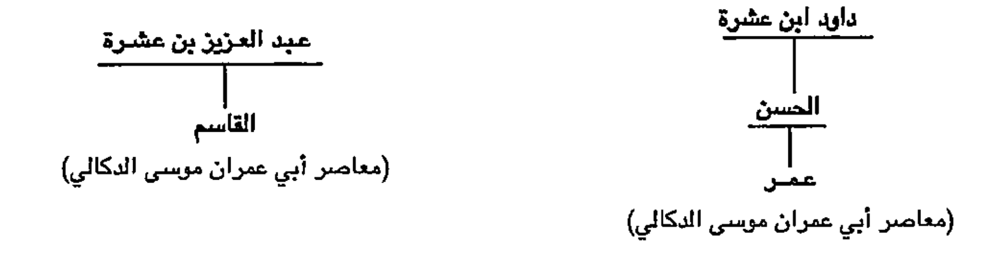
يحيى

أبو يعقوب يوسف (توفي قبل استيلاء عبد المومن على سلا)

عبد الرحمان (من أهل القرن السادس)

عبد الله (من أهل القرن السادس)





هذا، وقد شارك بعض المشاهير والأعيان بني عشرة في هذا الإسم، لأن التَّسْمية بالأعداد كانت شائعة فيهم، حسبما تقدمت الإشارة إليه في فصل «تسميتهم ببني عشرة» وليس لهم اتصال بهم. منهم:

– علي بن عشرة الاشبوني : ذكره ابن عذاري[127] في حوادث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (337/ 948) فقال :

«وفيها صُلب بقرطبة على بن عشرة، من أهل شبونة، بعد أن قطعت يداه ورجلاه، وكان من المفسدين في الأرض». ومنهم :

– أبو عمر أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عشرة، التُّجيبى : من أهل بلنسية، روي عن أبي الربيع بن سالم، ذكره ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة». و منهم :

– أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أبي عشرة الفاسي .

ذكره ابن عبد الملك أيضا في «الذيل والتكملة»، ونصَّ على أنه تولَّى القضاء ببلنسية سنة عشر وستمائة (610 / 1213) وبإشبيلية قبل الفتنة، ثم قلَّده العادل الموحدي قضاء الحضرة المراكشية، سنة أحدى وعشرين وستمائة (621/ 1224). وورد ذكره في تاريخ مراكش لابن إبراهيم[128] .

فهؤلاء ليسوا من بني عشرة السلاويين، وإنما جمعتهم التَّسْمِيَة فقط، وليس لهم ارتباط بهم قط.

127) ص 322، طبع بيروت.

128) ص 102، من ج 3.

القاضي أبو الحسن علي بن القاسم ابن عشَرة السـلاوي[129]

هو علي بن القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى بن عشرة السلاوي، يكنى أبا الحسن. زينة هذا البيت العشري ونجمه اللامع، في سماء الجود والكرم بلا منازع، وكعبة القاصدين واللاَّجئين لاستمناح فضله وجوده وجاهه ووجاهته عند السلاطين بلا مدافع.

تَســقط الطَّيْــرُ حَــيْثُ يُلتــقط الحَــ بُّ وتُغــشى منازل الكُرمــاء

كان من أهل العلم والنباهة والسؤدد، رئيسا جوادا ممدّحا ؛ تولى قضاء سلا، وأورث بنيه من بعده سُؤدداً ضخماً، وشرفاً جمّاً.

وحلاَّه الضَّبِّي في «بغية الملتمس» بأنه كان قاضياً فقيهاً عالماً أديباً بليغاً جواداً، وأنَّ جدَّه عشرة، ورد على هشام المؤيد مجاهداً في جملة من أمراء المغرب.

قال ابن الأبَّار في تكميل الصلة : كان دخوله الأندلس غازيا سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة (438/1046)، وامتدحه جماعة من أدبائها. وفيها رحل إلى المشرق، لأداء فريضة الحج، وامتدح بالمهدية ومصر وغيرهما، وقفل بعد ذلك.

وترجمه ابن عبد الملك المرَّاكشي في «الذيل والتكملة»، ووصفه بأنه كان حافظاً سرِي أهل بلده، وجيها فيهم، نَبِيهَ القدر، رئيسا جواداً مُمَدَّحاً موثراً، واستقضى ببلده، وأوْرَث عقبه سُؤْدداً وشرفاً...

شيء من شعره في الزهد

قال رحمه الله تعالى، كما أثبته له الضَّبي في «البغية»[130]

---

129) مراجع هذه الترجمة : «بغية الملتمس»، ص 414 ، «تكميل الصلة» لابن الأبّار، ص 231 ؛ «أعتاب الكتاب» له، ص 224 ، ابن البيدق، ص 106 من الترجمة الفرنسية ، «الروض المعطار»، ص 197 ، «بدائع الفوائد»، ص 78 من ج 1، على هامش شرح «شواهد التلخيص» ، و«النفح» ص 146 من ج 5 ، و«الذيل والتكملة»، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ؛ و«الذخيرة» لابن بسام، ق 2، مخطوط الخزانة العامة بالرباط أيضا.

130) ص 414، طبع مدريد.

ألاَ رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً أَحَسْ وأَحْيا الفؤادَ بِدَمْعٍ هَمُولْ
تَضَاءَلَ في نَفْسِهِ فَاسْتَرا حَ وأَلْقى عَلَيْهِ رِداءَ الخُمُولْ
وأَطْلَعَ من شَمْسِ أَفْكَارِهِ ايابَ السَّلامةِ قَبْلَ الأُفولْ
فَقُلْ لِلَّذي عَابَ أفعالَهُ سَيَدْرِي الحَقِيقَةَ عَمَّا قَليلْ

وله أيضا :

تَغَيَّرَ حالي وحالتْ صِفاتي وذلك أجْمَعُ مِنْ سَيِّئاتي
وما كُنْتُ أَخْشاهُ بَعْدَ المَمَا تِ فَها أنا أَبْصَرتُهُ فِي حياتي

وقال أيضا رحمه الله .

إلى كَمْ ذَا التَّمادي في المَعاصي أمَا تخشى هَبلْتَ من القِصَاصِ
ذُنوبُك كُلَّ يومٍ في ازدِيادٍ تُسَرُّ بها وعُمْرُكَ فِي انْتِقَاصِ
تُمَنِّي النفسَ يوماً بعدَ يومٍ وما بَعْدَ المَنِيَّةِ مِنْ مَنَاصِ
أَتَعْصِي اللّهَ خَالِقَ كُلِّ شيءٍ وأَنْتَ لِشَرِّ نفسِكَ غَيرُ عاصِ
تُباكِرُ سَوْءَةً وتَظَلُّ تَبْغِي رِضى ربٍّ وتَطْمَعُ في الخَلاصِ
ستَعلمُ ما أقولُ وسَوْفَ تُجْزَى بِفِعْلِكَ يوم يُوخَذُ بِالنَّواصِ

وقال أيضا ولعله في كتاب كتبه ونسخه:

كَتَبْتُكَ يا كِتابُ وعِلْمُ قلبي يَدُلُّ عَلَى بَقَائِكَ وانْقِلابي
إلى ربٍّ رَّحيمٍ من يَرِدْهُ يَفُزْ بالعَفْوِ في يَوْمِ الحِسَابِ

وقال أيضا في التحذير من المزاح المخل بأدب الوداد :

إنَّ الوِداد إذا تَحاكَمَ عَقْدُهُ نَزَحَتْ دواعي المَزْحِ والإدْلالِ
ولَرُبَّما كَانَ المِزاحُ ذَرِيعَةً لِّتَباعُدٍ وتَقاطُعٍ وتَقالِي

شعراء الأندلس وأسرة بني عشَرة

لما ظهر القاضي أبو الحسن علي بن عشرة بسلا بمظهر العلم والنَّباهة والنَّزاهة والسُّؤدد والفضل، والرياسة الدينية، والكلمة المسموعة النافذة عند أمير المسلمين، وأمراء الدولة اللمتُونية، والجُود الفيَّاض، والعطاء الجَزْل، طار صيته في الآفاق، وتجاوز بحر الزقاق، عابراً من الاقطار المغربية، إلى الأصقاع الأندلسية، فتسامع به فحول شعراء الأندلس في عصره، الذين كانوا يطوفون بملوك الطوائف، يستمطرون سحاب جودهم الواكب، إلى ان انقشع، بعد انقضاء مُلْكهم، والقضاء على ملوكهم، فخاطبه بعضهم من بلاده، وانسال إليه آخرون زرافات ووحدانا، لائذين بقصره العامر، مشيدين بِمَا لَهُ من المزايا والمفاخر، مُنْدمجين في جملة إِخوانه الملازمين لِخِوانه، فغمرهم بجوده وإحسانه، وصِلاَته المتَّصلة بمواصلة البر بكل واحد منهم والرفع من شأنه، فانْحلَّت عقد ألسِنتهم، وتفجَّرت ينابيع أفكارهم بحمده وشكره، والتنويه بمكانته وقدره، بما خلَّدوه من القصائد الغرَّاء في مدحه ومدح كافَّة عشيرته.

ولا غرابة في ذلك، فان النهَا تفتح اللهَا، والوجود ينفعل بالجود. فكان وقوفهم من الأسرة العشرية وقوف زهير من هرم ابن سنان، وأبي الطيب من بني حمدان، فسجَّلوا في أشعارهم أفراح الأسرة وأتراحها، وأيَّامها الغرَّاء وأمجادها، وفضلها وكرمها، وانهم كانوا يحملون الكل، ويكسبون المعدوم، وياخذون بيد المظلوم.

ولقد ذهب ما أخذوه منهم من مال ونشب، وأصبح الجميع في خبر كان، وبقي ما قلَّدوه جيدهم من الشعر الحُرّ، والقصائد العالية الغالية مخلِّدة ذكرهم على مَمَرِّ الأعصار والأزمان.

وسنثبت في ترجمة أبي الحسن هذا وتراجم بعض أفراد عشيرته، ما تيسَّر لنا الوقوف عليه من تلك الأشعار الملتقَطة من الدفاتر والدواوين الأدبية، لِمَا لها من القيمة التاريخية والفنية، والدِّلالة على عراقة مجد هذه الأسرة العشرية السلاوية.

شهامته في تحمل ما انكسر من مال الجباية عن أبي الوكيل

ومن شهامته وعُلُوِّ همَّته، ما قَصَّهُ ابن الأبَّار في «إعتاب الكُتَّاب»، وابن عبد المنعم الحميري في «الروض المِعْطار»، وابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتَّكْمِلة» قالوا :

كان أبو عيسى ابن الوكيل الكاتب، مستعملا في غرناطة في الدولة اللَّمْتُونِيَّة، فحكى أنه انكسر عليه مال جليل، يبلغ عشرة ءالاف دينار، فقُبض عليه وأُشخص منكوباً إلى مراكش.

فلمَّا بلغ الموكَّلون به مدينة سلا، – وبها يومئذ بنو القاسم، المعروفون ببني عشرة، رِباب السَّماح، وأرْبابِ الأمداح – زاد ابن الأبَّار : ويذكر أن جدهم الأكبر، أحمد بن محمد ابن المدبر قال قصيدته الشهيرة، يمدح بها القاضي أبا الحسن، ويستجير به، وسأل إيصالها إليه، فبادر عند الوقوف عليها، إلى مخاطبة أمير المسلمين، بتضمُّن المال وتَحَمُّله، وسؤال الصفح عنه، والإبقاء عليه، بإعادته إلى عمله.

فصدر جوابه بالإسعاف والإسعاد. وعاد ابن الوكيل إلى غرناطة انبه مَعاد، وأوَّلُ القصيدة :

سَلِ البرقَ اذ يلتاح من جانب الْبَلْقَا ... أَقُرْطَيْ سُلَيْمى أَمْ فؤادي حكى خَفْقَا
وَلِمْ أَسْبَلَتْ تلك الغمامةُ دَمعَها ... أَرِيعَتْ لِوَشْكِ البَيْنِ أَمْ ذَاقَتِ العِشْقَا ؟

إلى أن قال :

غَرِيبٌ بِأَرْضِ الغَرْبِ فُرِّقَ قَلْبُهُ ... فَنَاوَتْ سَلاَ فِرقًا وَ يَا بُورَةٌ فِرقَا
إِذَا مَا بَكَى أَوْ نَاحَ لَمْ يُلْفِ مُسْعِدًا ... عَلَى شَجْوِهِ إلاَّ الغَمَائِمَ وَالوُرْقَا

ومنها في المدح :

حَيَاءٌ يَغُضُّ الطرفَ إلاَّ عَنِ العُلا ... وعِرْضٌ كَمَاءِ المُزْنِ فِي الحُزْنِ بَلْ أَنْقى
وفَضلٌ نُميرٌ قَدْ خَضَلَ الرُّبَى ... وَعَدْلٌ مُنيرُ النَّجْمِ قَدْ نوَّر الأُفْقا
بَلَغْنَا بِنُعْمَاكَ الأمانِيَّ كلَّها ... فَمَا بَقِيَتْ أُمْنِيَةٌ غَيْرَ أَنْ تَبقى

وقد غلط من نسب هذه القطعة للشيخ أبي محمد عبد الله اليابوري، دفين رباط الفتح، ولعله كان يتمثل بها فقط.

سعيُه في فداء الشاعر ابن سوار
مـن الأسـر وامداحُـه فيـه

قال ابن بَسَّام في «الذَّخيرة»[131]

أبو بكر محمد بن سِوَار الاشبوني، شاعر كبير، وأديب بارع، مدح ملوك الطوائف، ولمَّا أفَلَ نجمهم، حالت به الحال، وتقسَّمه الإدبار والإقبال، ثم أسرَهُ العدو عَقِبَ مِحنة، وبين اطباق فتنة، وقيدَ بقورية «Coria»[132] من أعمال الطاغية فرديناند.

وقد بقي في أسره سنة كاملة، فاستغاث بكريم الاسرة العشرية السلاوية، القاضي الكريم، أبي الحسن علي بن عشرة، وخاطبه بقصيدته الرائية، التي وصف فيها كيفية أسْره وما جرى عليه من الأهوال والخطوب وصفْاً كاشفاً، فقال :

وَلَيْلٍ كَـهَمِّ العـاشـقـين قَـضَـيْـتُـه ... رَكِـبْتُ دياجـيـه ومَـرْكَـبُـهَـا وَعْـرُ
سَـرَيْتُ وأصـحـابي يُمـيلهُمُ الكَرى ... فَـهُـمْ منْه في سُكْرٍ ومـا بـهـمُ سُكْرُ
رَمَـيْـتُ بِجِـسْـمي قَلْبَهُ فَنَفَـذْتُه ... كَما نفذَ الإصْبـاحُ إذْ فُتِق الفَجْرُ
ولمَّـا بَدَا وجْـهُ الصَّـبـاحِ تَطلَّعَتْ ... خُـيُـولٌ من الوادي مُـحَـجَّلَةٌ غُـرُّ
فَـقُلْتُ لَهُمْ خَـيْلٌ فَـشَـمِّروا نَحْـوَها ... وكَـرُّوا إلَيْـهَـا مِنْ هُنا يَحْـسُنُ الكَرُّ
وَكَـانَتْ حُـمَـيَّـا النَّوْم قَـدْ صَـرَعَـتْـهُمُ ... فَـفَلُّوا وولَّوْا مُـدْبِرِينَ ومَـا فَـرُّوا
وأَخْرَجْتُ سَـهْـمـا واحـداً مِنْ كنانتِي ... منَ الحَرْبِ لاَيَخْشى عَلَى مثْله الكَسْرُ
وكُنْتُ عَـهِـدتُ الْحَرْبَ مَكْراً وخُـدْعَـةً ... وَلَكِن مَـعَ المَـقْـدورِ لا يَنْفَـعُ المَكْرُ
فَطاعَنْتُـهُـمْ حَـتَّـى تَحَطَّمَتِ القَنَى ... وَضَـارَبْتُـهُـمْ حَـتَّى تكَسَّـرَتِ السُّـمْـرُ
أُضَـرِّجُ أثْوابي دَمَـاءَ وُجُـوهِهِمْ ... كَـأنَّ الذي بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ عِطْرُ
وأُحْـدِقَ بي وَالْمَـوْتُ يَكْشِـرُ نابَهُ ... ومَنْظَرُهُ جَـهْـمٌ ونـاظِـرُهُ شَـزْرُ
فـأَعْطَيْـتُـهَـا وَهْيَ الدَّنِيَّـةُ صـاغِـراً ... وَقَدْ كَانَ لِي فِي الْمَوْتِ لَوْ يدْني عُذْرُ
فَطارُوا وَصَـارُوا بي إلى مُـسْـتَقَـرِّهِمْ ... يُصـاحِبُنِي ذُلٌّ وَيَصْحَبُـهُمْ فَـخْـرُ

131) ق . 2 ورقة 148 وما بعدها، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

132) قال في «الرَّوْضِ المعطار» ص 164 . قورية قريبة من ماردة وبينها وبين قنطرة السيف مرحلتان، ولها سور منيع. وهي أولية البناء، واسعة الفناء، من أحصن المعاقل، وأحسن المنازل، ولها بوادٍ شريفة خصيبة، وضياع طيبة، وأصناف من الفواكه كثيرة، وأكثرها العنب والتين.

فَقَالَ الْعَذَارَى حَرِّقُوهُ مُقَارِضاً فَمِنْ قَتْلِه الفِتْيَانَ عُطِّلَت البِكْرُ
فَجَاءُوا بِأَنْوَاعِ الكُبُولِ وَنَظَّمُوا سَلاَسِلَ في جِيدِي كَمَا يُنْظَمُ الدُّرُّ
وَسَاقُوا كِلاَباً كَالْفُحُولَةِ أَجْسُماً لَهَا أَعْيُنٌ خُضْرٌ مَلاحِظُهَا شَزْرُ

ومنها :

فَسُبْحَانَ رَبِّي مَا أَجَلَّ جَلالَهُ تَخَلَّصَنِي مِنْهَا لَهُ الحَمْدُ والشُّكْرُ
فَضَاقَتْ عَلَيَّ الأرضُ حَتَّى كَأَنَّهَا بِمَا رَحُبَتْ مَا كَانَ فِي طُولِهَا شِبْرُ
فناديتُ في حَوْلٍ من الدَّهر كَامِلٍ أَلاَ رَجُلٌ حُرٌّ أَلاَ رَجُلٌ حُرُّ
وإنَّ وراء البَحْرِ أَرْوَعَ مَاجِداً بِغُرَّتِه الغَرَّاءَ يُسْتَنْزَلُ القَطْرُ
أَلاَ خَبِّرَانِي ابْنَيْ أَبِي هَلْ أَتَاكُمَا وَشِيكًا عَنِ القَاضِي أَبِي حَسَنٍ ذِكْرُ
سَلاً عن سَلاَ هَلْ مِن عَلِيٍّ حَقِيقَة بِأَنِّيَ فِي أَحْشَاءِ قُورِيَةٍ سِرُّ
أَلا إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلِيٌّ وَقُرْبُهُ وإلاَّ فَإِنَّ الأرضَ عَامِرُهَا قَفْرُ
بِعَدْلِ عَلِيٍّ تَعْمُرُ الأَرْضُ كُلُّهَا وَتَتَّسِعِ الدُّنْيَا وَلَوْ أَنَّهَا قَبْرُ
حَنِينِي إِلَيْهِ مُوثَقًا ومُسَرَّحًا كَمَا حَنَّ لِلبَرِّ الذي يَغْرَقُ البَحْرُ

ولما وقف القاضي أبو الحسن بن عشرة على هذه القصيدة، بادر إلى السعي في فدائه وإزالة سلاسل الأسْر على رقبته.

قال ابن بسَّام :[133] فخرج من وثاقه، خروج البدر من محاقه، وتردَّد في البلاد، يحمله قرب على بعد، ويكله سُعَيْد إلى سعد، حتى ضاقت عليه الأرض بما توالى عليه من الخطوب، وملّه السرى واللُّغوب، فجذب أبو الحسن بضبعه، واستدناه إليه، فأعاد هلاله بدرا، وصير خَلَّه خمرا... فالتحق به بسلا، وصار من ذويه وناسه، وخاصة جُلاَّسه.

ولما اطمأنَّ باله، وحسن حاله، خاطبه بقوله :[134]

133) «الذخيرة» ق 2، ورقة 148 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.
134) «المُغْرب في حلى المَغْرب»، ص 412 من ج 1.

رأيتكَ أنْدى النَّاسِ كـفًّـا وكُلُّ مـا تَجـودُ به فـاللّـه يُنْمـيـه للأُخْـرى
وَلولاكَ مـافَكَّ السَّـلاسلَ ضـاغطٌ ومـا فـارقتْ عَـيْنَايَ سلْسلَةَ الأسْـرَى
وَصَـيَّـرتَ عَـيْـشـي في جَنابكَ بالذي مَنَنْتَ به حُلْوًا وَكَمْ ذُقْـتُـهُ مُـرًا
عَلَـى ذَاكَ لا أنْـفَكُّ أُخْلِـصُ دائِـمًـا إلى اللّهِ أنْ يُنْمِي لَكَ الجاهَ والعُـمْـرا

خروجه إلى نزهـة مـع ولـي

نعمته أبي الحسن ابن عشَرة

ومن لطائفه الأدبية، ما حكاه الوزير أبو الحسن علي بن ظافر في كتابه «بدائع البداية»، وأبو العبَّاس المقَّري في «نفح الطيب» قال :[135]

يُروى أنَّ القاضي أبا الحسن علي بن القاسم بن محمد بن عشرة، أحد رؤساء المغرب الأوسط، تنزَّه مع جماعة من أصحابه فيهم : محمد بن عيسى بن سوار الاشبوني، ورجل يُسمَّى بأبي موسى، خفيف الروح، ثقيل الجسم، يعبث بالحاضرين بأبيات من الشِّعر يصنعها فيهم، فصنع القاضي أبو الحسن معابثاً له، واستجاز ابن سوار فقال :

وشـاعـرٍ أثقَلُ من ظِلِّه تاتي مـعـانيـه على حُكْمِـه
يَهْـجُـو ولا يُهْـجى فَـهَلْ عندَكُمْ ظـلامـة تَـعْـدى على ظُلْمِـه
لِسَـانُه فـي هَجْـوِهِ حَيَّـةٌ مَنِيَّـة الحـيَّـةِ في سَـمِّـه
أمَّـا أبو مـوسى فـفي كَـفِّـه عـصـا ابْنِه والسِّحْـرُ في نَظْمِـه
يُصـيبُ سِـرَّ المرء في رَمْـيِـه كـأنَّمـا العَـالَـمُ في عِلْمِـه

وهذه القطعة تدلُّ على أريحيته، ورقة طبعه، وانشراحه في مجالسه مع خاصته وجُلاَّسه.

135) «البداية» ص 78 من ج 1، على هامش «معاهد التنصيص» و«النفح» ص 146 من ج 5.

وفادة أبي الحسن ابن عشَرة على أمير المسلمين وتهنئة ابن سوار له بالأوبة

يظهر أنَّ القاضي أبا الحسن ابن عشرة، كان له أنْداد وحَسَدة، كغيره من ذوي الجاه والنفوذ، والكلمة المسموعة في الدولة في كل زمان ومكان، فكانوا يظهرون له وُدّاً، ويكيدون سِرّا له كَيْدا، ويكفرون بفضله ليكونوا عليه ضِدّا، فلم يعجل عليهم وأعَدَّ لهم عدّا، وَوَفَدَ على أمير المسلمين ليحبط أعمالهم، ويخيب آمالهم، ويبطل سعايتهم، فاستقبله استقبال أبٍ حنون، مظهرا له البشر والرعاية به، لاعتقاده أنه ناصح للإسلام مستمسك بعهده الوثيق، حسبما يوخذ ذلك كله من منطوق القصيدة التي هنأه فيها بِالأوْبَة، مرفوع الرأس، متوجا بتاج الكرامة، منتصرا على أعدائه، فغضَّ الطرف عنهم، ولم يواخذهم كما هي شيمة الكرام ذوي النفوس الكريمة أمثاله.

قال ابن سوار[136] :

مَضَيْتَ بِوَجْهِ السَّعْدِ وَهْوَ طليقُ ... وأُبْتَ بثَوْبِ النُّجْحِ وَهْوَ يَروقُ
لَقِيتَ أَمِيرَ الْمُسْلمينَ مُقَرِّباً ... كَمَا يَتَلاَقَى شَائِقٌ ومَشُوقُ
رءاك ولِلإسلام نُصْحُكَ كُلُّهُ ... وعَهْدك في ذات الإلاهِ وَثِيقُ
تَلَقَّاكَ بالبِشْرِ الذي أنتَ أهْلُهُ ... فقالوا أبٌ حانٍ عَلَيْهِ شَفيقُ

ومنها :

ولمَّا طغى قَوْمٌ وفَرَّتْ حلومُهُمْ ... فَعَاجَ فريقٌ واسْتَقَامَ فَريقُ
وضلَّ أُناسٌ بالجَهَالَة مِثْلَ ما ... أضلَّ سُواعٌ مَعْشَراً ويَعُوقُ
وجَاؤكَ بالمَكْر الكَريهِ وإنَّما ... بِصاحِبِه المَكْرُ الكَريهُ يَحيقُ
أراهُم مكَانَ الفَضْلِ منْكَ فَرُوِّعُوا ... كَمَا انْتَشَقَتْ ريحَ الغَضَنْفَرِ نوقُ
وفَرُّوا ولَوْلاَ حُسْنُ رَأيكَ فيهِمُ ... لَمَا حَمَلَتْهُمْ بَعْدَ ذَلك سوقُ
فَلاَ عَدموا منْكَ، الذي عَهِدوا فَمَا ... بِغَيْرِكَ غُفْرانُ الذُّنوبِ يَحيقُ
توسَّعْتَ فَضْلاً في وَلِيٍّ وحاسدٍ ... ولَمْ يَكُ في باعِ المَكَارِمِ ضِيقُ
كَرُمْتُمْ فُروعاً في المَعالي حَميدةً ... وطابَ أصولٌ مِّنْكُمُ وَعُرُوقُ

136) «الذخيرة» ق 2 ورقة 151 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

أمداحه فيه وفي أسرته

فـــي عـدة مناسـبـات

لابن سوار أمداح كثيرة غير ما ذكرنا في علي وسائر أسرته، كلَّما تجدَّدت حال، أو حدثت مناسبة.

ومن ذلك قوله يوم زيارته واصفاً جوده ومحلَّ نزله :(137)

أياكِ من ظَبْـيَـــةٍ في ذلك الكَنَـسِ ... فـإنَّهـا أُخْتُ ذاك الضَّـيْـغَمِ الهَـرِسِ
كَمْ نَمَّ لي جَرْسُ قُرْطَيْـها وسـاعَدَني ... مَا في الخَلاخِلِ مِنْ صَمْتٍ وَمِنْ خَرَسِ
ما تَعْرِفُ العَرْفَ في المِسْواكِ مِنْ سَبَبٍ ... إلاَّ مِنَ الشَّنَبِ المِـعْطَـارِ واللَّعَسِ
يَارَبَّةَ الخِـدْرِ حَيْثُ البَـحْـرَ من مَّددٍ ... والمَوْجُ مِنْ زَرَدٍ والسَّيْـفُ مِنْ جَرَسِ
رُسُـــومُ دَارِكِ في يَبْـرينَ دارِسَـــةٌ ... وفي الحَـشـا لَكِ رَبْعٌ غَـيْـرُ مُنْدَرِسِ
قِسْ مـا تشـاء تجدْ في مـثْله عـوضـًا ... وَبـالزَّمــــانِ الـذي وَلَّى فَـلاَ تَقِسِ
أَلَسْتَ تَذْكُـرُ يَوْمــاً حــينَ زُرْتُهُـمُ ... والدَّهْرُ يَخْـرُجُ مِنْ عـيـدٍ إلى عُـرُسِ
نَزَلْتَ في مَــوْضِـعٍ حَفَّ الغَــديرُ بِـه ... كَمَـا يحُفُّ اخْـضِـرَارُ اللَّيْلِ بِالغَسَقِ
كَـــأَنَّ جُـــودَ عَلِيٍّ جـــاد لُجَّـــتَـهُ ... فَلَيْسَ يُخْـشَى عَلَيْــهِ آفَـةَ الدَّرَسِ

ومن أمداحه فيه هذه القطعة التي يذكر فيها جوده وكرمه المتوالي توالي الغيث المسجم على كلِّ من ينزل بمنزله من الاضياف والزوَّار في غبطة وأمان :

إذا نَزَلَ العَــافُــون في عُــقْـرِ دَارِه ... فَـــقَــدْ نَزَلُوا في غِـــبْطَةٍ وأَمَـــانِ
بِحَيْثُ حِيَـاضُ الجُـودِ زُرْقٌ مِّـياهُـها ... ومُــــزْنُ العطـايـا دائمُ الـهَطَلانِ
ولِلْغَــيْثِ أَوْقَــاتٌ يُفَــاجِيءُ صَــوْبُهُ ... و نَـــائِـلُـــهُ يَــنْـــهَــلُّ كُـــلَّ أَوانِ
أَغَــرُّ طَلِيقَ الوَجْــهِ يَهْــتَــزُّ لِلنَّدى ... كَـمـا اهْتَزَّ مَـصْـقـولُ الفِـرِنْدِ يَمَـانِ
فَـمَــا لِعَلِيٍّ في البَـرِيَّة مُــشْـبِـهٌ ... وَمَـــا لِـعَلـيٍّ في الأَنام بِثَـــانـي
فَلَوْ أَنَّني في الوَصْفِ لَمْ أَذْكُرِ اسْـمَـه ... دَرَوْهُ وقَـــالوا ذي صِـفَـــاةُ فُـــلاَنِ

---

137) نفس المصدر. الورقة 148.

ومن أمداحه فيه قوله :[138]

صاروا وحَبْلُ وِصالِهِمْ مُبْتُوتُ   فَسَلُوا نُجومَ اللَّيْلِ كَيْفَ أبيتُ
بانوا وروحي عِنْدَهم وحُشاشَتي   ظَنَّتْ بأنَّهُمُ مَضَوْا وبَقيتُ
أسَفي على وادي الأراك وإنَّما   يتأسَّفُ المحزون وَهْوَ يموتُ
أنْحَى على الأقْراط ناطقةٌ ولا   أنْحَى على الخَلْخال وَهْوَ صَموتُ
لا تاخذوا في اللَّوْم لَسْتُ بِسامعٍ   إنَّ المَلامَةَ في الهوى تَعْنيتُ
هذا فؤادي إنْ وجدتُم غَيْرَهَا   في طَيِّه فالنَّارُ والكِبْريتُ
لَوْ أنَّ رِفْقَكَ في قلوب مُرَكَّبٌ   لَمْ يَلْتَقِمْ في البَحْرِ يونُسَ حوتُ
ولقد حَمَلْتَ من الوقار سكينةً   لم يَحْتَمِلْها قَبْلَكَ التَّابوتُ

ثم إنَّ ابن سوار، انتقل من سلا بدون إرادة ممدوحه إلى تلمسان، ولا ندري السبب الذي أوجب انتقاله وبُعْده عنه.

ولعلَّه لم يجد بتلمسان ما خلَّفه وراءه بسلا عند آل عشرة، من البِّر والرِّعاية، والجود والحَفاوة، فنَدِمَ على مفارقته لهم، وخاطب ممدوحه أبا الحسن بهذه القصيدة، معتذرا عن بَيْنُونَتِه، ومُفْصحاً عمَّا يقاسيه من مضاعفة ألَمِ نَدامته.[139]

بَدَتِ الغزالةُ والغزالةُ وَجْهُها   وتكلَّمتْ فسمعتُ ظَبْياً ينغَمُ
خالسْتُها وتبسَّمت فظننتُها   عن مِثْلِ ما في نَحْرِها تتبسَّمُ
فَتَشابَهَتْ مِنْها الثلاثةُ أضْرُبٍ   عِقْدٌ وثَغْرٌ طَيِّبٌ وتَكَلُّمُ
لَوْ كان مَرْئيًا جُمانُ حَديثِها   لرأيْتَ مِنْهُ أجَلَّ شَيْءٍ يُنْظَمُ
ومضتْ تجرُّ وراءها شَعَراً كما   أعْطاكَ جَانِبَه الغُرابُ الاسْحَمُ
يَمْحو مواقع اثْرِها فَكأنَّهُ   يُخْفيه عَنْ عَيْنِ الرَّقيبِ ويَكْتُمُ
والمِسْكُ فَوْقَ التُّرْبِ من أرْدانِها   خَطٌّ كما رُقِمَ الرِّداء الْمُعْلَمُ
مالي ومالكِ ياعُيونُ تَسومُني   خُطَطَ الرَّدى وأنا المُعَنَّى المُغْرَمُ
هَلاَّ الْتَقَيْنا حَيْثُ يَنْتَثِرُ الظُّبَى   والهامُ تسْقُط والقَنَى تتحطَّمُ

---

138) «الذخيرة» ق 2 ورقة 149، مخطوط الخزانة العامة بالرياط.

139) نفس المصدر ورقة 150.

والجوُّ دكْنٌ والغُبار قميصُهُ والجَيْشُ أرْعَنُ والخَميسُ عَرَمْرَمُ
وكأنَّ يومَ الحَشْرِ يومُ جُموعِنا وكأنَّ غَلْيَ الحَرْبِ فيهِ جَهَنَّمُ
وكأنَّ كُلَّ كَميٍّ حَرْبٍ ماردًا تَهْوي إليهِ من الأسنَّة أنْجُمُ
ومُدَرَّبِين على الطِّعان لقيتُهمْ وكأنَّهُمْ في الشَّمْسِ لَيْلٌ مُظْلِمُ
لَبِسوا جُلودَ الرَّقْمِ واعْتَقَلوا القَنى فرأيتُ كسيف يَجُرُّ أرْقَمَ أرْقَمُ
حتَّى عَلَوْناهُمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ يَبْكي فتحْسِبُهُ لَهُمْ يَتَرَحَّمُ
ذُو خُطْبَةٍ فِي الْهَامِ يُسْمَعُ صَوْتُهَا فِي كُلِّ قُطْرٍ وَهْوَ لاَ يَتَكَلَّمُ
ولقد سلِمتُ من الصَّوارِمِ والقَنى لو كُنْتُ من فَتَكَاتِ رَمْيِك أسْلَمُ
أعَلِيُّ يابْنَ القاسِمِ بْنَ مُحمدٍ بَيْني وبَيْنَكَ عُروةٌ لاتُفْصَمُ
رُدَّ التَّحِيَّةَ مثل وُدي غَضَّةً إنِّي عَلَيْكَ مَعَ النَّسيمِ مُسَلِّمُ
ولقد كَتَبْتُ وأدْمُعي مُنْهلَّةٌ والْقَلْبُ فِيهِ جِذْوَةٌ تَتَضَرَّمُ
أمِنَ السَّوِيَّةِ ان أكُونَ كما أنا فَيَفُوزَ غيري بالنَّعيمِ وأحْرَمُ
واللَّهُ يَرْضى عَنْكَ مِنْ حَكَمٍ فَقَدْ وافقْتَ حُكْمَ اللَّهِ فِيمَا تَحْكُمُ
إنْ بِنْتُ عَنْكَ وَلَمْ تُرِدْهُ فإِنَّهُ بَعْضِي لِبَعْضِكَ في فِراقِكَ يُخْصَمُ
ولقد نَدِمْتُ عَلَى فِرَاقِ سَلاَ كَما ضُعِفَ النَّدامَةَ حِينَ أُهْبِطَ ءادَم

وقال أيضا يمدحه، وكتب بها إليه من تلمسان[140]

لَعَلَّ إيَابَ الظَّاعِنينَ قَريبُ فَتَرْجِعُ أيَّامُ الحِمَى وَتَئُوبُ
مَغاني تَلاَقِينا وَعَهْدُ اجْتِماعنا ولَيْسَ عَلَيْنَا في الزَّمانِ رَقيبُ
وأيَّامُنا بِيضُ اللَّيالي ودَهْرُنا مِنَ الحُسْن مَا لِلشَّمْسِ فيه غُروبُ
بِهَا كَانَ يَدْعوني الْهَوى فَأُجِيبُهُ مُطيعاً وأدْعُو بالهَوى فيُجيبُ
وأرْمِي المَهَى مِن نَّاظري فتُصيبُها سِهامي وتَرْميني المَهَى فتُصيبُ
وفي الخِدْرِ مَكْحولُ الجُفونِ صِفاتُهُ مِنَ السِّحْرِ مَغْسولُ الرُّضابِ شَنيبُ
إذا ما أدارَ الْكَأسَ من مِثْلِ ريقه تمايل غُصْنٌ وارْجَحَنَّ كَثيبُ

140) «الذخيرة» ق 2 الورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

فَــأَجْــفَــانُهُ سَكْرى وَنَحْنُ وَقَــدُّهُ　وَكُلٌّ بِمَــا اسْـتَـوْلَـى عَلَيْـهِ مُـرِيبُ
ويَهْــدي لِنُــوَّارِ الحَــدائِقِ عَــرْقَـهُ　فَـيَـعْـبِقُ مِنْ أَنْفَـاسِـهِ ويَطِـيبُ
عَلَى مِــثْلِ الزَّمــانِ الذي مَــضَى　تُشَـقُّ قُلُوبٌ لا تُشَــقُّ جُــيُـوبُ

ومنها وقد شبَّهه بالملوك ونزَّله منزلتهم :

أَمِــثْلَ عَلِيٍّ تَطْلُبُ الْعَــيْنُ أَنْ تَرى　ومِــثْلُ عَلِيٍّ في المُلُوكِ غَــرِيبُ
فَـــتًى يَهَبُ الدُّنْيـــا وَ يَرْتَاح لِلنَّدى　كَـمَـا اهْتَـزَّ غُـصْنُ البـانِ وَهْوَ رَطِيبُ
وتَاتي عَطاياهُ اطِّـرادَ خِــصــالِهِ　كَـمَـا اطَّرَدَتْ للسَّـمْـهَرِيِّ كُـعُـوبُ
وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَضْرَبْتُ عَنْ مَدْحِ غَيْرِهِ　فَلَيْسَ لَهُ في العَــالَمِــينَ ضَـرِيبُ
أُحِبُّ سَـلاَ مِنْ أَجْلِ كَـوْنِكَ مِـنْ سَـلاَ　فَكُلُّ سَــلاَوِيٍّ لَدَيَّ حَــبِـيـبُ
وصَــيَّرتَهـا مِـصْــرًا وَنَيْلُكَ نَيْلُهـا　وَكَـفَّـاكَ بَطْحَـاها وأَنْتَ خَـصِـيبُ

قال ابن بسَّام : وقد كُرر هذا المعنى فيه أبو بكر في مواضع من شعره، منها قوله من قصيدة :

يَقُــولُ رِجَـالٌ غَــيْـرَ مَــا يَفْـعَلُونَهُ　وإِنَّ عَلِيّـاً قَـــائِلٌ وفَــعُــولُ
فَلاَ تَطْلُبُـوا في سَاحَـةِ الأَرْضِ مِثْلَهُ　فَـــمِــثْلُ عَلِيٍّ فـي المُلُـوكِ قَلِيلُ
وَلَوْلاَكَ مَـا كَـانَتْ سَـلاَ دَارَ هِجْـرَتي　وَلاَ كَــانَ لِي عَــمَّنْ أُحِبُّ رَحِـيلُ
فـألفَـيْتُـهَا مِصْـرًا وأَنْتَ خَصِـيبُهَا　وكَــفَّـــاكَ بَطْحَــاهَا ونَيْلُكَ نِيلُ

والغالب على الظَّن أنَّ ابن سوار لَمَّا لمْ يطب له المقام بتلمسان، واشتاق إلى ممدوحه مِنْ بني عشرة بسلا، وحنَّ إليهم، وتذكَّر ما كان له عندهم من الحُرمة والحُظوة والمكانة والإعتبار، وما كانوا يغدقونه عليه من العطايا، ويخصُّونه به من المنح والمزايا، حسبما يوخذ ذلك من القصائد والأشعار التي خاطبهم بها أثناء انفصاله عنهم، شدَّ الرِّحلة مرة ثانية، ورجع إليهم مُجدِّدا صلته بهم، مستانفا أمداحه فيهم ، فقابلوه بما هو معروف من جودهم، وشرف نفوسهم، فاطمأنَّت به في هذه المرة الدَّار، وطاب له المقام والقرار.

وممَّا فاضت به سجيته، وانطلق به لسانه في مدح الاسرة العشرية، إمَّا قبل انتقاله عنهم أوْ بعد رجوعه إليهم ، قوله :[141]

إلى ضَوْءِ ذَاكَ البَارِقِ المُتَعالي حَنَنْتُ وحنَّتْ أَيْنُقي وجِمالي
تَأَلَّقَ يُزْجِي عارضاً مِثْلَ أدْمُعي ويَحْكي فُؤادي خَفْقُهُ المُتَوالي
فَلَوْ لا شِمَاليَ في زِمَامِ شِمِلَّتُهُ لَطَارَتْ إليْهِ في صَبَا وشَمَالِي
إلى مَسْقَطِ الْغَرْسِ الذي كان غَرْسُها بِهِ لا إلى سِدْرٍ هُنَاكَ وَ ضَالِ
ولم تَنْسَها الأرْطَى رِيَاضٌ تَرودُها لَدَا مَوْرِدٍ عَذْبِ المِيَاهِ زُلاَلِ
وَحُبِّبَ لِلإنْسانِ أَوَّلُ مَوْطِنٍ وإنْ كَانَ في حَاشاهُ نَاعِمَ بَالِ
هُمُ بعثوا طَيْفَ الخَيالِ الذي سَرى فَعانَقَ جِسْماً مِثْلَ طَيْفِ خَيالِ
وأَقْبَلَ مِنْ تِلْقَائِهِمْ فَكَأَنَّهُ مُغَلَّفَةٌ أعْطافُهُ بِغَوالِ
فَيَادَارَهُمْ بالحَزْنِ حُزْني مُجدَّدٌ عَلَيْكِ وقَلْبِي لَيْسَ عَنْكِ بِسَالِ
أرى أعْيُناً صَوْراً عَلَيَّ كَثيرةً و مِنْ دونِ أَنْ أَلْقاكَ سُورُ عَوَالِ
وأبْيَضَ هِنْدِيٍّ كَأَنَّ بِحَدِّهِ مُطَارَ ذُبابٍ أو مَدَبَّ نِمَالِ
جَرَى فَوْقَهُ مَاءُ الفِرِنْدِ وتَحْتَهُ وَجَالَ عَلَى مَتْنَيْهِ كُلَّ مَجَالِ

و في المدح :

وَقَدْ أَظْهَرَتْ فيهِ المَنَايا نُفُوسَها كَمَا خَوَّضَتْ لُجَّ السَّرابِ سِعَالِ
وَلَمْ يَحْكِهِمْ صَوْبُ الحَيا لَكِنِ اقْتَدى بِمَا فيهِمُ من شِيمَةٍ وخِلالِ
وَجَادوا عَلى جِيدِ الزَّمانِ قَلائِدًا وَ أَفْعَالُهُمْ فيها ضُروبُ لَئالِ
أَقَاموا لِوَاءَ المَكْرُمَاتِ وخَيَّموا مِنَ المَجْدِ والعَلْيَاءِ تَحْتَ ظِلاَلِ
إذا احْتَجَبُوا لَمْ يَسْتُرِ الحَجْبُ نورَهُمْ وإنْ طَلَعوا كَانوا بُدُورَ جَمَالِ
أَوِ انْتَسَبوا في المَجْدِ كَانَ انْتِسَابُهُمْ لأَعْظَمِ عَمٍّ أَوْ لأكْرَمِ خَالِ
وإنْ وَرِثَ العَلْيَاءَ عَنْهُمْ عَلِيُّها فَلاَ بِدْعَ في عالٍ وِرَاثَةُ عَالِ
سَكينَتُهُ من «أَعْفُرٍ وَيَلَمْلَمٍ» وبَعْضُ رِجالٍ في سُكُونِ جِبالِ
إِلَيْكَ رَمَتْنَا العِيسُ حَتَّي كَأَنَّها مِنْ الوَهْنِ أقْواسٌ رمتْ بِنَبالِ

---

141) «الذخيرة» ق 2. الورقة 150، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

و من أمداحه في بني عشرة قوله :[142]

وَفِـتْـيَـةٍ من أعـاريبٍ كَـأنَّهُـمُ أُسْـدُ عَلَى أَعْـوَجِـيَّـاتٍ سَـرَاجِـيبِ
لا يَلْبَـسُـونَ جلُـود الرَّقْمِ سَـابِغَـةً حَـتَّى تُخَـاطَ بِأَجْرانِ اليَـعَـاسِـيبِ
وَلا تَبِـيتُ على قُـرْبٍ مـحلَّتُـهُمْ إلاَّ يَبِـيتُ حِـمَـاهُمْ غَـيْـرُ مَـقْـرُوبِ
فَكَم مَّضيـتُ وَصَوْتُ الهَوْلِ يَتْبَعُنـي وَكَمْ سَـرَيْتُ وسَـيْلُ اللَّيْلِ يَرْمـي بِـي
مُـلابِسـاً مـا تَـراه العَـيْنُ مُلْتَـبِسـاً لَيْـلاً مَعَ اللَّيْلِ أَوْ ذِيبـاً مع الذِّيَـبِ
و أطْـرِقُ الفَـتَـيـاتِ البِـيضَ لابِسَـةً بيضَ الجَلابيب في سُودِ الجَلابيبِ
والقُـرْطُ كَـالقَلْبِ من خَوْفٍ ومِنْ حَذَرٍ كَـأنَّهُ هُوَ في خَـوْفٍ وتَعْـذِيبِ
لَمْ ءاتِـهـا قَطُّ إلا نَمَّ بي وبِها وَاشٍ من الحَلْيِ أَوْ وَاشٍ مِنَ الطِّيبِ
وَلاَ انْتَـهَـيْتُ إلـى أَطْنَابِ قُـبَّـتِـهـا إلاَّ على ظَهْـرِ مَطْعُـونٍ وَمَـضْـرُوبِ
بأبيضٍ بِدَمِ الأجْـسـامِ مُـغْـتَـسِلٍ وأسْـمَـرٍ بِدَمِ الأكْـبَـادِ مَـخْطُوبِ
والطَّبْعُ أكْـرَمُ في تَكْوينِ خِلْقَـتِـهِ مِنْ أنْ أكُونَ مُـحِـبّاً غَيْـرَ مَـحْبُـوبِ
إنْ كُنْتَ يَا دَهْرُ لَمْ تُحْسِنْ مُعَاشَرَتي فِيمـا مضى فَلَقَدْ أحْسَنْتَ تأديبي
أُجَـرِّبُ النَّاسَ في ضَـيْقٍ وفي سَـعَـةٍ والنَّاسُ صِنْفَـانِ فِي حَدِّ التَّـجـاريبِ
وَمَـا على العُـودِ أن يُهْـدِي نَوافِـحَـهُ إلاَّ على لَهَبٍ بِالْجَـمْـرِ مَـشْـبُـوبِ
و يُطْلَبُ الجـودُ من قَـوْمٍ وجُـودُ بني عَـشْـرٍ يَجِـيـئُكَ عَـفْـوًا دُونَ مَطْلُوبِ
مَـحَـاسِنٌ ثُقِـفَتْ منْهـا أوائِلُـهُمْ كَـمـا تَثَـقَّفَ أُنْبُـوبٌ بِأُنْبُـوبِ

و من أمداحه فيهم قوله :[143]

مِن لَظى قَلْبِي اقْـتَـدِحْ لا مِنْ زِنَادْ وَدُمُـوعِيَ اسْـتَـقِي لا مِنْ غَـوَادْ
صَـرَفُـوا نَوْمي لِيَـدْنوا غَـيْـرَكُمْ وَهَنِيـئـاً مَّـا غَـصَـبْـتُم مِّنْ فُـؤَادْ
أَنْتُمُ الأحْـبَـابُ في حُكْمِ الهَـوى فَـارْفُـقُـوا لا تَفْـعَلوا فِـعْلَ الأعـادْ
جَـسَـدي أنْحَلُ مِنْ سِـرِّكَمْ في تناجِـيكُمْ بِهِ يَوْمَ البِـعَـادْ

142) «الذخيرة» ق 2. الورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

143) نفس المصدر، ورقة 150،

تَكْمُنُ الشَّحْناء في أحْشائِهِمْ ... كَكُمُونِ الْجَمْرِ في جَوْفِ الرَّمادْ
يَحْسُدُ النَّجْمُ الثُّرَيَّا ألْفَتِى ... ولَقَدْ يَبْكي سُهَيْلٌ لانْفِرادْ
مَا مُرادي أنْ أُرَى مُنْفَرِداً ... رُبَّ مَحْمُولٍ على غَيْرِ المُرادْ
لاَ سَقى الرَّوْضَ غَمَامٌ سَاكِبٌ ... لَيْسَ يَسْقي مَعَهُ شَوْكَ القَتادْ
إنَّ مِنْ بَعْدِ بَني الْقاسِمِ لاَ ... أحَدٌ يَمْلأُ عَيْناً من جَوادْ
نَسَبٌ مُطَّرِدٌ مِنْ شَرَفٍ ... كَكُعُوبِ الرُّمْحِ ذَاتِ اطِّرادْ
وَقَبِيلٌ كُلُّهُ مِنْ عِتْرَةٍ ... كَظُبَى الهِنْديِّ في يَوْمِ جِلاَدْ
وبَنُو الْعَشْرِ ذووا الْعَلْيَاءِ لَمْ ... يُخْلَقُوا إلاَّ لِكَفٍّ وَزِنَادْ
وعَفافٍ واعْتِكافٍ وتُقَى ... ووفاءٍ وعَطاءٍ وأيَادْ

و فيهم يقول أيضا :(144)

بَكَتْ وما أسَلَتْ دَمْعاً ولا هِيَ أعْرَبَتْ ... ولا أفْصَحَتْ مَعْنى بِلَحْنِ كَلامِ
وَ لَمْ أر أشْجى مِنْ بُكَاءٍ بعَثْنَهُ ... فَزِدْنَ بِهِ في لَوْعَتي وَغَرامي
نَوائحُ مَا غَاضَتْ دُمُوعُ جفونها ... عَنِ السَّكْبِ إلاَّ والضُّلُوعُ حَوامِي
وَمَا ذلكَ المُحْمَرُّ فيهِنَّ خِلْقَةٌ ... ولَكِنَّهُ مِمَّا بَكَيْنَ دَوامِي
سَقَى مَنْزِلاً بِالْغَرْبِ مُنْسَكِبُ الحَيا ... وَجَادَ عَلَيْهِ كُلُّ أسْحَمَ هامِي
بِحَيْثُ بَنُو عَشْرٍ تُنيرُ وُجوهُهُمْ ... كَمَا طَلَعَتْ لَيْلاً بُدُورُ تَمامِ
فَمَا أكْثَرَ المُثْنى عَلَيْهِمْ سَجِيَّةٌ ... وَمَا أشْبَهَ النُّعْمَى بِطَوْقِ حَمامِ
رَعَى اللّه فِيكُمْ ذِمَّةَ المَجْدِ والْعُلا ... فَلا خُلُقٌ أرْعى لَهُمْ لِذِمَامِ

ومات احدهم اسمه محمد، ولا نعرف عنه شيئا، فرثاه بقوله:(145)

مَا كُنْتُ أعْلَمُ عِلَّةَ الدَّهْرِ الرَّدِي(146) ... حَتَّى ثَوى فِي القَبْرِ جِسْمُ مُحَمَّدِ
خَطْبٌ ثَنى وَجْهَ الصَّباحِ كَأنَّهُ ... بِالْحُزْنِ مِنْ قِطَعِ الظَّلامِ الأرْبَدِ
وَرَزِيَّةٌ نَزَلتْ بِنَالِ مُحَمَّدٍ ... خَصَّتْ وعَمَّتْ آلَ دِينِ مُحَمَّدِ

---

144) «الذخيرة» ورقة 151، مخطوط الخزانة العامة بالرباط
145) نفس المصدر ورقة 153،
146) مِنْ رَدِيَ رَدَى مِنْ بَاب تَعِبَ إذا هلك

ومات لأحدهم ولد فقال فيه يرثيه :[147]

وَنا عٍ نَّعَى والقَلْبُ كـالقُلْبِ خَـافِقٌ ... مَّـرُوعٌ ومِـمَّـا رَابني لم أصْـدُقِ
بَكَتْ رَحْـمَـةٌ لي عَـيْنُ كُلِّ غَـمَـامَـةٍ ... وسـاعـدني نَوْحُ الحَـمَـامِ المُطَوَّقِ
فَـيَا حُـزْنُ لاتَذْهَب بِتَـسْكاب أدْمُـعِي ... فَلِي مَـدْمَعٌ مِن لُجَـةِ الحُـزْنِ يَسْـتَقِي
فَلَوْلاَ الْتِـهَـابُ النَّارِ مَـا بَيْنَ أضْلُعِي ... لأصْبَحْتُ في بَحْرٍ مِّنَ الدَّمْعِ مُـغْرَقِ
دَعُـونِيَ أشْكو الدَّهْرَ لِلدَّهْرِ مُـعْلِنًا ... عَلَى أنَّني أشْكو إلى غَـيْـرِ مُـشْـفِقِ
فَـمَـا فَـوْقَ هَذا الرُّزْءِ رُزْءٌ وإنَّمَـا ... رَمَى كَـبِدَ العَلْيَـا بِسَـهْمٍ مُّـفَـوَّقِ
قَضَى بِابْنِ عَشْرٍ كابن عَشْرٍ وأرْبَعٍ ... فَـهَلَّ هِلاَلٌ مِّـثْلُ نونٍ مُـعَـرَّقِ
مَـضَى بِفَـتىً تُـزْري أسِـرَّةُ وَجْـهِـهِ ... بِضَـوْءِ الصَّـبَـاحِ المُشْرِقِ الْمُـتَـألِّقِ

وممَّن مدح القاضي أبا الحسن ابن عشرة، وأشاد بفضله وجوده وكرمه من شعراء الأندلس، الشاعر الأديب الوشَّاح، أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعْمى التُّطيلي.

وهو من شعراء الدولة المرابطية، المقيمين بإشبيلية، ومنها كان يخاطب ممدوحيه لعجزه عن الاتصال بهم، لأنه كان مُصابا بالعَمى.

ويوخذ من بعض أشعاره، أنه عاش عيشة إقْلال، لِمَا عامله به الدَّهر من الحرمان والإهمال.

ومن أمداحه فيه قوله :[148]

تَنَاصُـرُ الشَّـيْب فِي فَـوْدَيْه خِـذْلانُ ... إنَّ الزِّيادَةَ فِي النُّقْـصَـانِ نُقْـصَـانُ
لا تَغْـتَـرِرْ بِعُـيُـونٍ يَنْظُرون بِهـا ... فَـإنَّمَـا هِيَ أحْـدَاقٌ وأجْـفَـانُ
كَمْ مُـقْلَةٍ ذَهَبَتْ في الغَيِّ مَـذْهَبَـهـا ... بِنَظْـرَةٍ هِيَ شَـانٌ أوْلَهَـا شَـانُ
رَهْنٌ بِأضْـغَـاثِ أحْـلاَمٍ إذا هَجَـعَتْ ... وَرُبَّمَـا حَلَمَتْ والْمَـرْءُ يَقْظَانُ
فَـانْظُرْ بِعَـقْلِكَ إنَّ الْعَـيْنَ كَـاذِبَةٌ ... واسْـمَعْ بِحِـسِّكَ إنَّ السَّـمْعَ خَـوَّانُ

---

147) «الذخيرة» الورقة 153، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

148) «ديون الأعمى التطيلي»، طبع دار الثقافة بيروت، ص 218

ولا تَقُلْ كُلُّ ذي عَـــيْنٍ لَهُ نَظَـرٌ إنَّ الرُّعـاةَ تَرَى مَـا لاَ يَرى الضَّـانُ
دَعِ الغِنى لِرِجَـالٍ يَنْصِبُـونَ لَهُ إنَّ الغِنَى لِفُضُـولِ الهَمِّ مَـيْـدانُ
وَاخْلَعْ لَبُـوسَكَ من شُحٍّ وَمِنْ أَمَلٍ لاَ يَقْطَعُ السَّـيْفُ إلاَّ وَهْوَ عُـرْيَانُ
وَصَـاحِبٍ لَمْ أَزَلْ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ كَـأَنَّنِي عِلْم غَـيْبٍ وَهْوَ حَـسَّـانُ
أَغْـرَاهُ حَظٌّ تَوَخَّـاهُ وَ أَخْطَأَنِي أَمَـا دَرَى أَنَّ بَعْضَ الرِّزْقِ حِـرْمَـانُ
وغَـرَّهُ أَنْ رءاهُ قَـدْ تَقَـدَّمَنِي كَـمَـا تَقَـدَّمَ «بِسْمِ اللَّهِ» عُنْوَانُ
إنِّي اسْتَجَرْتُ عَلَى رَيْبِ الزَّمانِ فتًى إلاَّ يَكُنْ لَيْثَ غـابٍ فَـهْـوَ إنْسـانُ
حَسْـبِي بِعُلْيَـا عَلِيٍّ مَـعْـقِلٌ أشِبٌ زمـان سَيْـري بِهِ في الأَرْضِ أزمـانُ
صَعْبُ المَـراقي ولَكِنْ ربَّمـا سَـهُلَتْ عَلَى المُنَى مِنْهُ أَوْطَارٌ وأوطـانُ
الواهبُ الخَيْلَ عِقْبـاناً مُسَـوَّمَـةً لَوْ سُـوِّمَتْ قَبْلَهَا فِي الجَـوِّ عِقْبَانُ
مِنْ كُلِّ سَـاعٍ أَمَـامَ الرِّيحِ يَقْـدُمُـهَـا مِنْهُ مَـهَـاةٌ وإنْ شَـاءَتْ فَـسِـرْحَـانُ
دُجُنَّـةٌ تَصِفُ الأَنْوارَ غُـرَّتُهـا ونَبْـعَـةٌ يَدَّعي أَعْطافَـهَـا الْبَـانُ
عَـصَـا جَـذِيمَـةَ إلاَّ مـا أُتِيحَ لَهـا مِنْ أَمْرِ موسى فَجَـاءَتْ وَهْيَ ثُعْبانُ
هِيمٌ رِوَاءٌ لَوْ أَنَّ الْمَـاءَ صـافَـحَـهَـا لَزالَ أَوْ زَلَّ عَنْهـا وَهْوَ ظَمْـآنُ
يَكَادُ يَخْلَقُ مُـهْـرَاقُ الدِّمَـاءِ بِهـا فَـلاَ تَقُلْ هِيَ أَنْصَـابٌ وَأَوْثَـانُ
مَـوْتَى فَـإِنْ خُلِعَتْ أَجْـفَانُهـا عَلِمَتْ أَنَّ الدُّرُوعَ عَلَى الأَبْطالِ أَكْـفَـانُ
نَفْسِي فِـدَاؤُكَ لاَ كُـفْـؤاً وَلاَ ثَمَناً وَ لَوْ غدا المُشْتَرِي مِنْها وَكِيـوَانُ
والتِّـبْـرِ قَـدْ وَزَنُوهُ بِالْحَـدِيدِ فَـمـا سَـاوَى وَلَكِنْ مَـقـاديـرٌ وأَوْزَانُ

وممن مدحه أيضا من جلّة الشعراء ومشاهيرهم، أبو محمد عبد الجبّار بن حمديس الصقلّي بقصيدة يقول فيها :[149]

لِكُلِّ مُـحِبٍّ نَظْرَةٌ تَبْـعَثُ الْهَـوَى وَلِي نَظْرَةٌ نَحْـوَ القَـتُـولِ هِيَ القَـتْلُ
تُـرَدِّدُ بِـالـتَّـكْرِيهِ رُسْلَ نَـوَاظِـرِي وَمِنْ شِيَمِ الإنْصَـافِ أَنْ تُكْرَمَ الرُّسْلُ

149) «ديوان ابن حمديس» ص 557، طبع دار صادر، بيروت.

ومنها :

رَكِـبَتْ نوىً جـوَّابةَ الأرْضِ لَمْ يَعِشْ لراكِـبِـهـا عـيسٌ تَخبُّ ولا رِجْلُ
أُسـائلُ عَنْ دارِ السَّـمـاحِ وأهلِهِ وَلا دارَ فـيـهـا لِلسَّـمـاحِ وَلاَ أَهْلُ
وَلَوْلاَ ذُرَى ابْنِ القَاسِمِ الواهِبِ الغِنَى لَمَا حُطَّ فِيـهَا عِنْدَ ذي كَرَمٍ رَحْلُ
تُخَـفِّضُ أقْـدارُ اللِّئـامِ بِلُؤْمِـهِمْ وقَـدْرُ عَلِيٍّ مِّنْ مَّكارِمِـهِ يَعْلو
فَـتًى لَمْ يُفـارِقْ كَـفَّـهُ عَـقْـدُ مِنَّةٍ ولا عِـرْضَـهُ صَـوْنٌ وَلاَ مَـالَـهُ بَذْلُ
لَهُ نِعَمٌ تَخْـضَـرُّ مِنْهـا مَـواقِعٌ وَلاَ سِـيَـمـا إِنْ غَـيَّـرَ الأُفُقَ المَـحْلُ
ورَحْبُ جَنابٍ حِـينَ يَـنْزِلُ لِلْقِـرَى وفَـصْلُ خِطابٍ حِينَ يَجْـتَـمِعُ الحَـفْلُ
وَوَجْـهٌ جَـمِيلُ الْوَجْـهِ تَحْـسبُ ضَـرَّهُ حُـسامـاً لَّهُ مِن لَّحْظِ سـائِلِه صَـقْلُ
مُـرَوَّعَـةٌ أمْـوالُهُ بِعَطائِهِ كَـأَنَّ جُنوناً مَـسَّـهـا مِنْـه أَوْ خَـبْلُ
وَأَيُّ أمـانٍ أَوْ قَـرارٍ لِخـائِفٍ عَلَى رَأْسِـهِ مِنْ كَفٍّ قـاتِلِه نَصْلُ

ومنها .

لَقَـدْ بَهَـرَتْ شُـهْبَ الدَّرارِي مُنيـرةٌ مـآثِرُ مِنْكُمْ لاَ يُكاثِرُهـا الرَّمْلُ
وَرِثْتُمْ تُراثَ الْمَـجْـدِ مِنْ كُلِّ سَـيِّـدٍ عَلَى مَنْكِبَيْـهِ مِنْ حُـقـوقِ العُـلا ثِقْلُ
فَـمِنْ قَـمـرٍ يُبْـقِي على الأُفْقِ بَعْـدَهُ هِـلالاً وَمِنْ لَيثٍ خَلِيـفَـتُـهُ شِـبْلُ
وَأَصْبَحَ مِنْكُمْ في سَلاَ الْجَوْرُ أَخْرَسـاً وَقـامَ خَطِيـبـاً بالذي فـيكُمُ الـعَـدْلُ
مَلَكْتُ القَـوافي إِذْ تَوَخَّـيْتُ مَـدْحَكُمْ وَيَـا رُبَّ أَذْوَدٍ تَمَلَّكَهـا فَـحْلُ

وفي «بغية الملتمس» للضَّبي زيادة على ما في الديوان.[150]

أيا قَـاضِـيـاً تُذْكِي بَصِـيرَةُ رأيه سِراجَ هُدًى يَجْلو مِنَ الظُّلْم ما يَجْلُ
ويا جَـبَلَ الْعِلْمِ الذي دُونَ سَـفْـحِـهِ يُقـابِلُنا من صَـفْـحِـهِ الخُلُقُ السَّـهْلُ

---

150) ص 521، طبع مدريد.

ومنها في مقابلة ممدوحه بالبحر :

تَغَيَّظَ من حِقْدٍ وأزْبَدَ مِثْلَ مَا رَمَتْ بلغامٍ من شَقاشِقِها البُزْلُ
لأنَّكَ تُبْخِي[151] وَهْوَ تَعْطَبُ سُفْنُهُ وتحلو لوُرَّادِ النَّدَى وَهْوَ لا يَحْلُ
وَتَفْتَحُ لِلآمالِ باباً وبَابُهُ عَلَيْهِ دَوَاماً مِنْ عَوَاصِفِهِ قُفْلُ
وتُقْطَعُ عَنْهُ رِجْلُ كُلِّ سَفِينَةٍ وعَنْكَ فَلَمْ تُقْطَعْ لِراجِلِهِ رِجْلُ
وَعِلْمُكَ دُرٌّ لايُبَاعُ بِقِيمَةٍ وذا دُرُّهُ بِالْبَيْعِ يَرْخُصُ أَوْ يَغْلُ
ولو أنَّهُ عَذْبٌ فُراتٌ لَّما اكْتَفَى بِدَلِّ صَيُوبٍ[152] في حِمَاكَ له سَجْلُ

والأمداح في أبي الحسن ابن عشرة كثيرة جدّاً، وإنَّما أثْبتْنا ما توفَّقنا إلى الوقوف عليه، حرْصا على بقائها، وعدم ضياعها، لما لها من القيمة الفنية والتاريخية، وأصلحنا ما أمكننا إصلاحه من ألفاظها، مع المحافظة التَّامة على أصلها، وحقائق معانيها، لأن النسَّاخ تلاعبوا بها، وصحفوها تصحيفا كادت تضيع معه بلاغتها وأساليبها وما قصده الشاعر منها، والله الموفق.

وفاة أبي الحسن ابن عشَرة

نصَّ ابن الابَّار في «تكميل الصلة»[153] على أنه توفي ببلده سنة اثنتين وخمسمائة (502/ 1108) رحمه الله تعالى، وخلَّف لنفسه وأسرته لما اتَّصف به من الجود والفضل والمروءة والحسب ذكرا مُخلَّدا، لا ينقطع خبره، ولا يعفى أثره.

وقد رثاه شاعر حضرته، ومدح أسرته، أبو بكر محمَّد بن سوار الأشبوني بقوله [154]

151) بخا غضبه : سكن وفتر
152) دل الماء انصبَّ، والصيُوب : الصائب، والسَّجْل : الدَّلْوُ العظيمة والعطاء والرَّجُل الجواد
153) ص 232، طبع مدريد
154) «الذخيرة» ص 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

الْعَيْشُ بَعْدَكَ يا عَلِيُّ نَكالُ　　لاَ شَيْءَ مِنْهُ سِوَى العَنَاءُ يُنَالُ

يَا عَثْرةً عَثَرَ الزَّمان بِأَهْلِه　　لَيْت الزَّمانُ مِنَ الْعِثَارِ يُقَالُ

ياعِصْمةَ الفُقَراءِ بَلْ يَا مالَهُمْ　　هَيْهَاتَ مَا لِلنَّاسِ بَعْدَكَ مَالُ

أَبْكِيكَ بِالدَّمِ لاَ بِدَمْعي إِنَّهُ　　يَبْكِي سِوَايَ بِهِ وَذاكَ مُحَالُ

دُنْيا ظَفِرْتِ وَما مَتاعُكِ كُلُّهُ　　إِلاَّ سَرَابٌ يَضْمَحِلُّ وَءالُ

قَدْ كُنْتُ مَشْغُولاً بِهِ مُتَوَقِّعاً　　ولِذِي الوَفَاءِ بِغَيْرِهِ أَشْغَالُ

فَالآنَ هَا أَنَا لاَ أُبالِي عَنْ أَسًى　　وَقَعَ التَّوَقُّعُ فَاسْتَراحَ البَالُ

قَدْ كُنْتَ ءامالِي الَّتي أنا طَالِبٌ　　جُهْدِي وَمُتُّ فَمَاتَتِ الآمَالُ

لاَ الظِّلُّ ظِلٌّ بَعْدَ فَقْدِكَ يَا أَبا　　حَسَنٍ ولا المَاءُ الزُّلالُ زُلاَلُ

ومنها :

كَيْفَ الصَّفُوحُ عَنِ المُسِيءِ وَلَمْ يَكُنْ　　إِلاَّ الجَمِيلُ لَدَيْكَ والإِجْمَالُ

حَطُّوا عَنِ الاكْوارِ قَدْ مَاتَ الذي　　يَتَحَمَّلُ الاعْبَاءَ وَهْيَ ثِقَالُ

قَدْ وُدِّعَ القَوَّالُ والفَعَّالُ مَا　　فِي الأَرْضِ قَوَّالٌ ولا فَعَّالُ

وتَهَدَّمَ الجَبَلُ المُنِيفُ فَزُلْزِلَتْ　　رُتَبُ العُلاَ وَمِنْ الرِّجَالِ رِجَالُ

فَلأَجْعَلَنْ حَجِّي لِقَبْرِكَ إِنَّهُ　　لِلْخَيْرِ فِيهِ وللتُّقَى أَوْصَالُ

أَيْنَ العَزاءُ فَقَدْ أُدِيلَ بِأَحْمَدٍ　　دُوَلُ الأَفَاضِلِ بِالْبَنِينَ تُدَالُ

ومنها :

طَوَّقْتَنِي النُّعْمَى فَصِرْتُ حَمَامَةً　　تَشْدُو وَغُصْنُكَ نَاظِرٌ مَيَّالُ

وإِذا الأيادي لَمْ تَكُنْ مَشْكُورةً　　لِّلْمنْعِمِينَ فَإِنَّها إِغْفَالُ

القاضي أبو العباس أحمد
ابن علي ابن عشَرة السلاوي

كان لأبي الحسن علي ابن عشرة عدة أولاد كلهم سيد سري في أسرته، وصلنا أسماء أربعة منهم، وهم :

- أبو العباس أحمد، و هو أشهرهم ذكرا، وأرفعهم قدرا.
- وأبو علي حسن أو حسّون.
- وأبو زكرياء، يحيى.
- وأبو يعقوب، يوسف.

ولما توفى أبو الحسن علي في التاريخ المتقدم، أسند أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين، ولاية قضاء سلا، إلى أبي العباس أحمد منهم، محافظة على مجد أسرتهم، وإبقاء لهذه الرياسة الشرعية الدينية في بيتهم. و قد كان حَقّاً سَيِّداً من سادات هذه الأسرة العشرية، و بدرا طالعا في سمائها، وصدرا من صدورها، و أديبا من أدبائها، ذا همّة عالية، ومكانة بين ذويه وأقرانه ممتازة سامية، موطأ الأكناف رقيق الحاشية، له صلة مع سلاطين وقته، وأدباء عصره، بالمغرب والأندلس، فكانوا يشدُّون الرحلة إليه، كما كانوا يشدُّونها إلى إبنه من قبله، و ينتابون منزله، ويتبوءون معقله، ويخصونه بأمداحهم، ويترنّمون بذكر جوده وكرمه في أشعارهم، وتجري بينهم في مجالسه الأنسية، مساجلات شعرية، ومطارحات أدبية، ومذاكرات علمية، أعذب من الزلال، وارق من السِّحر الحلال.

وقد ترجمه الضّبّي في «بغيته»[155] وحلاّه :

بِأنه فقيه أديب شاعر من أهل بيت وزارة وجلالة...

ولا نعرف أن بني عشرة كانوا وزراء، وإنما نعرف أنهم كانوا قضاة، اللّهم إلاّ أن يكون قصد أن منزلتهم من سلاطين الدولة المرابطية، ومكانتهم عندهم جعلتهم في صف الوزراء، موصوفين بالوزارة، تشريفا لهم ورفعا لشأنهم، فذلك ممكن.

---

155) ص 187، طبع مدريد.

وأنشد من شعره نقلا عن الفتح في «المطمح».

جَنَيْتُ بِالوَهْمِ وَرْدَ الخَـدِّ مُـجْـتَنِيـاً   وَنِلْتُ مـا أَشْـتَـهِي مِنْ رِيقِـهِ الشُّنَبِ
فَـعَلْتُ فِـعْلَ امْـرِيءٍ لاَ شَيْءَ يَحْـجُـبـهُ   قَدْ صَارَ مُـخْـتَرِقَ الأَسْتَـارِ والحُـجُبِ

و أبو العباس هذا هو الذي بنى القصر الدائع الصّيت و رفع سمْكه، و أجرى في بحر الشهرة فُلكه، وقد تقدَّم الكلام عليه مستوفى، وما قيل فيه من الشعر، ومن نزل به من الملوك والأمراء في الفصل الخاص به.

زواجه بابنة عمّه

ساق أبو يعقوب يوسف ابن الزيات في كتابه «التَّشوف، إلى رجال التَّصوف»، في ترجمة أبي الفضل ابن النَّحْوي خبر زواجه بابنة عمه فقال .[156]

حدثني يحيى بن عبد الرحمان، عن يحيى بن أبي بكر بن الأخنس، عن أبيه، عن أحمد ابن عشرة قال : تزوجت ابنة عمي، فلمَّا خرجتُ من عندها مررتُ بسوق الصيارفة، فرأيت سِلْكاً بين يد دلاَّل ينادي عليه بخمسمائة دينار، فاشتريته إلى أجل وحملتُه إلى ابنة عمِّي على عادة الناس في اتحاف العروس، و لم يكن عندي من أين أقضي ثمنه، فلمَّا بقي مِن أجْله يومٌ بقيت متحيِّراً، فاسبغتُ الوضوء وصليتُ، وجعلت أهتفُ طول ليلتي بدعاء كان علَّمنيه أبو الفضل، و كان لا يَقْبَلُ من أحد شيئا، وإنَّما يأكل ما يساق إليه من بلده، فاذا احتاج وتأخَّر عنه ماله، دعا بذلك الدُّعاء فيفرج عنه.

فلمَّا طلع الفجر سمعت قارعا يقرع الباب، فخفت أن يكون صاحب السِّلك، فاذا هو رسول أبي، فأردت أن أكتتم منه، فلم يكن بدٌّ من النهوض إليه، فلمَّا دخلت عليه، سألني عن حالي وأنسني وقال لي : ارفعْ ما تحت البِساط، فحملت خريطة، فاذا فيها ألف دينار، فقضيت الدَّيْن بنصفه، وأصلحتُ بعض حالي ببقيته.

و يؤخذ من هذه القِصَّة، أنه اجتمع بأبي الفضل ابن النحوى، وأخذ عنه، ولا ندري في أي بلد كان اجتماعه به.

---

156) ص 77، طبع الرباط.

كما يوخذ منها، أنَّ ءال عشرة، مع ما ءاتاهم الله من فضله، وما أسبغ عليهم من نعمه، كانوا يعيشون في بيوتهم عيشة اقتصاد وعفاف، لا عيشة تبدير وإسراف. و كانوا يربُّون أولادهم على ذلك، اقتداء بأهل الخير والصَّلاح الزَّاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، ليلا يشبُّوا على حب التَّرف المفسد للأخلاق، المستغرق لموارد الأرزاق، المضيق لمجال الإنفاق، على الوُرَّاد والزُّوَّار الوافدين عليهم من الآفاق. ولا شكَّ أنَّ ذلك يضيع سمعتهم التي اشتهروا بها في عالم الكرم والجود، بما لديهم بكل موجود.

فهذا أبو العبَّاس، وهو من فخر بني القاسم، وابن أبي الحسن زينة الأيام والمواسم، الذي كانت الدنيا خادمة له، و ينابيع الأرزاق متفجِّرة من بين يديه، ومن خلفه، لا يجد ما يؤدي به ثمن سلك اشتراه لعرسه، و يؤجل صاحبه إلى أجل، و يهتم به غاية الاهتمام، ويتوجه إلى الله تعالى أن يرزقه ما يؤدى به منه.

وفي ذلك دليل على أنهم كانوا يزهدون فيما يذهب وَيَفُوتُ، ويرغبون فيما يخلِّد ذكرهم ومجدهم بعد الموت، وقد حصَّلوا عليه بجودهم وكرمهم، وذهب ما بذلوه لقُصَّادهم ومدَّاحهم من الأدباء والشعراء، وبَقِيَ ما خلَّدوه من ذكرهم والثناء العاطر عليهم في بطون الدفاتر وأسرار المعاجم، منذ نحو تسعمائة عام، وانظر مايأتي بعد ذلك إلى ان يشاء الله سبحانه.

تِلْكَ المَكَارِمُ لاقَعْبَانِ مِنْ شِيَبا بِمَاءٍ فَعَادَ بَعْدُ

حلول الوزير أبي محمد بن عطية
بسلا في غيبة أبي العبَّاس عنها

ذكر الفتح في «قلائده» .[157] أنَّ الوزير الحافظ القاضي أبا محمد عبد الحق بن عطية حلَّ بسلا، والفقيه أبو العباس فخر بني القاسم، وزين الأعياد والمواسم، الذي تهمى من يديه للندى سحب تكف، وتطوف بكعبته الآمال وتَعْتَكِف، غائب عنها، فلم يُنِخْ فيها عيسَه، ولم يَرَ تخييمه فيها وتعريسه، ورحل من ساعته، وقال شعراً أخذ الناس في اشاعته واذاعته، وهو :ـ

157) ص 210، طبع بولاق.

يَا صَاحِبَيَّ انْزِلاَ قَصْرَ الحِمَى فَسَلاَ أَنَّى سَلاَ المَجْدُ عَنْ أَنْ تَحْتَوِيهِ سَلاَ
كَأَنَّمَا الرَّبْعُ لَمَّا غَابَ أَحْمَدُهُ مَنَازِلٌ ظَلَّ عَنْهَا الْبَدْرُ مُنْتَقِلاَ
جَادَ الزَّمَانُ بِلُقْيَا مِنْكَ سَرَّ بِهَا طَوْراً وَسَاءَ بِذَاكَ الْعَهْدِ إِذْ بَخِلاَ
فَاسْمَعْ مُنَاجَاةَ نَفْسٍ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مَضَى تُحَمِّلُهُ مِنْكَ النَّوى عِلَلاَ
وعُدْ إِلَيْهَا أَبَا العَبَّاسِ تَحْكِ بِهَا مَرَاتِبَ الشَّمْسِ لَمَّا حَلَّتِ الحَمَلاَ
لاَزِلْتَ فِي عِقْدِهَا وُسْطَى وَلاَعَدِمَتْ مِنْكُمْ حُسَاماً يُبَاهِي خَوْلَهُ خِلَلاَ

قصّته مع الوزير أبي محمد بن القاسم

كان الأمير أبو محمّد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن القاسم الفهري، من أمراء الأندلس، بحصن البُونْتْ، واستنزله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من حصنه كغيره من أمراء الأندلس، ولكنّه رعى له حقّه، وتدرجت به الأيام حتى أصبح وزيرا لولده أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. وفي أيام وزارته، حصل بين أمير المسلمين وأبي العباس بن عشرة، ما ترتب عليه شيء من الغض منه، فشدّ الوزير ابن القاسم عضده، ودافع عنه وحماه، وتأكدت أواصر الودّ والإخاء بينهما، واستحكمت عراها، وكان كل منهما يحفظها ويرعاها.

ثم إنّ أمير المسلمين، انقلب على وزيره ونكبه وعزله، فاختار ان يَتَّخِذَ بسلا مقامه ومنزله، فانقبض عنه أبو العباس وتنكّر له، وتناسى ما أسدى له من المعروف وبذله، فانتقد الناس عمله، وظنوا أنه خيب فيه أمله.

وقد ساق الفتح في «قلائده» هذه القصة احسن مساق فقال :[158] ولمّا نُفِّذَ في أمره ما نُفِّذَ، وانفصل عن أمير المسلمين وانْتُبِذ، خيّره في بلاد المغرب، فاختار سلا، واعتقد أنه يانس فيها ويسلى بمجاورة بني القاسم الذين غدوا بدور سمائها، وصدور أسمائها.

فلمّا حلّها، انقبض عنه أبو العباس انقباضا نُعِيَ عليه اقبح نَعْي ونسب فيه إلى قلّة الوفاء والرّعي، وكان بينهما أيام وزارته مودة محمودة التواخي، مشدودة الأواخي، واشتملت إذ ذاك

158) ص 132/131، طبع بولاق

على أبي العبَّاس مساع أدْجَت مطلعه، وحَنَتْ على الوجد أضلعه، فجذب فيها أبو محمد بضَبْعه، والقاه بين بصر العضد وسمعه، ثم قال الفتح :

فلمَّا وردت مشيت إليه ونقمت عليه صدوده، وايحاشه لمن كان وَدُوده، وعرَّفته بحُرُماته، وأوقفته على مواتِّه، فاعتذر بما يخاف من أمير المسلمين ويحذر، وكتب إليه :

وَاحَسْرَتا لِصَديقٍ مَّالُهُ عِوَضُ ... إنْ قُلْتَ مَنْ هُوَ لا يَلْقاكَ، مُعْتَرِضُ
أَلْقَاهُ بالنَّفْسِ لا بِالْجِسْمِ من حَذَرٍ ... لِعِلَّةٍ مَّا، رَأَيْتَ الْحُرَّ يَنْقَبِضُ

فكتب إليه أبو محمد مراجعا :

شَرُّ الْجِيَادِ إذا اجْرَيْتَ مُنْقَبِضُ ... مَا لِلْوَجِيهِ عَلَى المَيْدَانِ مُعْتَرِضُ
أنَّى تُضاهِيهِ فُرْسَانُ الكَلاَمِ وَمَنْ ... غُبَارُهُ في هَوَادِيهِنَّ مَا نَفَضُو
جَرَتْ عَلَى مُشْتَوٍ مِنْ طَبْعِهِ كَلِمٌ ... هي الْمَشَارِبُ لَكِنْ مَالَهَا فَرْضُ
كَأَنَّ مُنْشِدَهَا نَشْوانُ مِنْ طَرَبٍ ... أو بُلْبُلاً مِنْ سَقِيطِ الطَّلِّ يَنْتَفِضُ
تَحِيَّةٌ مِنْ أبي العَبَّاسِ زَارَ بِهَا ... طَيْفٌ مِنْ العُذْرِ في اثْنَائِهَا يَمِضُ
لاَ بِالْجَلِيِّ فَتُسْتَوْفَى حَقِيقَتُهُ ... ويُسْتَبَانُ بِعَيْنٍ مَّا بِهَا غَمَضُ
لَكِنْ أَغُضُّ عَلَيْهِ جَفْنَ ذِي مِقَةٍ ... كَمَا يَسُدُّ مَسَدَّ الجَوهَرِ العَرَضُ
يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنا أنْ نُعَاتِبَهُ ... إلاَّ عِتَابَ مُحِبٍّ لَّيْسَ يَمْتَعِضُ
نَاشَدْتُكَ اللّهَ والإنْصَافُ مَكْرُمَةٌ ... أَمَّا الوَفَاءُ بِحُسْنِ الوُدِّ مُفْتَرَضُ
هَبِ الْمَزَارَ لِمَعْنَى الرَّيْبِ مُرْتَفِعٌ ... مَا لِلْوِدادِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُنْخَفِضُ
أمَّا لِكُلِّ نَبِيهٍ في العُلاَ حِيَلٌ ... تُقْضَى الحُقُوقُ بِها والْمَرْءُ مُنْقَبِضُ
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَمِنْ دأْبِي مُحَافظةٌ ... عَلَى الذِّمَامِ وَعَهْدٌ لَّيْسَ يَنْتَقِض
وهِمَّةٌ لَمْ تَضِقْ ذَرْعاً بِحَادِثَةٍ ... إنَّ الكَرِيمَ عَلَى العِلاَّتِ يَنْتَهِضُ
وَالْحُرُّ حُرٌّ وَصُنْعُ اللّهِ مُنْتَظَرٌ ... والذِّكْرُ يَبْقَى وَعُمْرُ الْمَرْءِ يَنْقَرِضُ

وقد أخبر الفتح عن مآل هذا الوزير بعد تخلي الدولة عنه وتنكرها له بقوله :[159]

159) «القلائد» ص 127، طبع بولاق.

«وهو اليوم قد انقبض عن أنواع الناس وأجناسهم، واستوحش من إيناسهم، وأنِسَ بنتائج أفكاره، وهام بعيون العلم وأبكاره، وكلف بفنونه، وتصرف من سهوله إلى حزونه، ونبذ الدنيا نبذ النواة، وانتبذ من ملابسة الغواة، وصرف وجهه تجاه البر والتقوى، وترك رَبْعَ الحظوة عافيا قد اقوى، وعلم أنَّ اللّه به حفى، وأنَّه له صفى، حين اعلقه باسبابه، وصرفه عن باب الملك إلى بابه...»

ومن تأمَّل جوابه لصديقه عمَّا أبداه من أسفه وحسراته، علم أنه لقَّنه درسا جامعا في حياته. وقد بقي مقيما بسلا، إلى ان أدركه أجله بها، ولم نقف على تاريخه.

قال أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «اتحاف أشراف الملا» :[160]

وَبِسَــــلاَ غَـــابَ سَنَـــاءُ بَـــدْرِهِ   بَـابُ حُـسَـيْـنٍ ضَـمَّ نـورَ قَـبْـرِهِ

ولا نعلم محلَّه بالتعيين، والله اعلم .

هذا، ولاغرابة فيما صدر من أبي العبَّاس، فإنَّ الزَّمن كالزَّمن والنَّاس كالنَّاس، يظهرون وُدَّك، ويرعون عهدك، ويتأدبون معك، ويشتهون قربك، مادام الدهر رافعا قدرك، ناشرا ذكرك، ولاسيما إذا كنت مُتَّصفًا برياسة ولو موهومة، أوْ وظيفة ولو غير معلومة، فإذا تنكَّر لك الدهر، تنكَّروا لك، ونسوا عهدك، ونبذوا وُدَّك، وجحدوا إحسانك وفضلك، واستثقلوا ظلك، والْكَيس منهم يعاملك بالتَّقصير ولا ينبئك مثل خبير.

وأبو العبَّاس، كغيره من النَّاس، خاف من أمير المسلمين، فانكمش عن صديقه، وأمسك عن زيارته، ولو إلى حين، وإلاَّ فمقامه في الجود والكرم معروف، واعتناؤه بزُوَّاره وقُصَّاده بألْسِنَة الشعراء والأدباء موصوف، ولكن المحافظة على حياة الرياسة الدنيوية، كالمحافظة على الحياة الروحية، ومن عدم الأولى حسًا، عدم الثَّانية معنى، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

بعض ما قيل فيه من الأمداح

كان القاضي أبو العباس كوالده وأسرته مُمدَّحاً مقصوداً من شعراء عصره. وممن مدحه شاعر والده، أبو بكر محمد بن سوار بقوله :[161]

---

160) ورقة 92، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

161) «الذخيرة» ورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

بَعَثَتْ إِلَيْكَ مَعَ البُروقِ خَيالَهَا فَأراكَ شَكْلَكَ حَامِلاً أَشْكالَهَا
هَلْ يُنْكِرُ الغَيْرانُ مِنِّي وَقْفَةً وَقَفَتْ أماني النُّفوسِ حِيالَهَا
فِي لَيْلَةٍ عَبِثَ المحَاقُ بِبَدْرِها غَصْباً فَقَصَّرَ عُمْرَهُ وأطالَهَا
سَوْداءُ أَشْرَقَ نَجْمُهـا فَلَوَ انَّني أجْرِى على فَلَكٍ لَكُنْتُ هِلالَهَا
وَلَقَدْ فَتَكْتُ بِقُرْطِها وبِمِرْطِهَا حَتَّى هَتَكْتُ حُجولَهَا وحِجَالَهَا

ومنها في المدح :

ما الخُطَّةُ الْعَلْيَاءُ زانَتْهُ بَلَى هُوَ زانَها حَتَّى أَتَمَّ كَمَالَهَا
وَيَشُقُّ ماءُ الْعِتْقِ صَفْحَةَ خَدِّهِ شَقَّ الفِرِنْدِ مِنَ السُّيوفِ صِقالَهَا
وَبِأَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ قاسِمِ بْـ ـنِ مُحَمَّدٍ دَرَتِ المَكارِمِ حالَها
هُوَ لَفْظَةٌ مِّنْ مَنْطِقِ الدُّنْيَا بِهَا فَخَرَ الزَّمانُ عَلَى بَنِيهِ فَقالَ لَهَا
مِنْ كُلِّ مُكْتَمِلِ الوَقارِ وأزْهَرٍ لَبِسُوا الشَّبِيبَةَ واكْتَسَوْا سِرْبا لَهَا
يَمْشُونَ فَوْقَ الأرْضِ تَحْتَ حُلومِهِمْ فَتَخالُهُمْ أوتادَهَا وجِبَالَهَا
لَوْلاهُمُ لَتَحَرَّكَتْ جَنَباتُها من رَجْفَةٍ وَلَزُلْزِلَتْ زِلْزالَهَا

وقال في مدحه أيضا :[162]

أَمَعاهِدَ المَرْجِ الذي غادَرْتُهُ مَغْدًى لِبَارِقَةِ المَهَى وَرَوَاحَا
وَادٍ إذا ضَرَبَ الْهَجِيرُ رِواقَهُ أَهْدَى إلى مُهَجِ القُلوبِ رَوَاحَا
إِنْ كَانَت الأرواحُ مِن مَّاءٍ فَمِنْ ذَاكَ المَجَاجِ تَكَوَّنَتْ أرْواحَا
فَأَتَتْ تُقَبِّلُني فَقُلْتُ لَها امْسِكي عَنِّي فَإِنِّي لاَ أُقَارِبُ راحَا
فَمَضَتْ وَقَدْ أَخْجَلْتُها فَتَبَسَّمَتْ فَرَأَيْتُ في أرْضِ العَقِيقِ أقاحَا
حَتَّى إذَا مَا الرَّوْضُ نَبَّهَهُ النَّدى فَتَحَتْ عُيوناً كَالْعُيونِ مِلاحَا

وتخلص للمدح فقال :

162) «الذخيرة»، ورقة 152، مخطوط الخزانة العامّة بالرباط.

طالَبْتُهـا أدَبـاً فَسـالَ تَوَقُّـداً وَطَلَبْتُـهُ كَرَمـاً فَـذابَ سَماحَـا

وقال فيه أيضا :(163)

عَلَى طُولِ مَا أَبْكِي تُعاتِبُنِي عَتْبا فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَكُونُ لَهَا عُتْبا
سَرَى جَانِبٌ من جَانِبِ الْغَرْبِ خَافِقٌ خُفُوقَ فُؤادِ الصَّبِّ قَدْ فَارَقَ الحُبَّا
فما قَنِعَتْ في الْحَرْبِ بِيضٌ صَوارِمٌ بأَيْدي كُمَاةٍ يُكْثِرونَ بِها الضَّرْبا
تُكَلِّفُنِي نَظْمَ النُّجومِ قَلائِداً لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفَتْنِي مُرْتقىً صَعْبا
وهَبْنِي مَلَكْتُ الشَّمْسَ والْبَدْرَ في يَدٍ وسُقْتُ إلى جَنْبَيْهِمَا الأَنْجُمَ الشُّهْبا
إذا لَمْ أُعَلِّقْهَا عَلَى جِيدِ أَحْمَدٍ فَلاَ جِيدَ فِي الدُّنْيا يَكُونُ لَهَا حَسْبا
صَبَا بِالْغَوانِي مَنْ صَبا وهُو لَمْ يَزَلْ بِبِنْتِ المَعالي هَائِماً كَلِفاً صَبَّا
فتىً يَهَبُ الْبِيضَ الكَواعِبَ كالدُّمَى وَبيضَ الظُّبَا والسُّمْرِ والضُّمَّرَ الغُبَّا
لَقَدْ وَهَبَ اللّهُ الْجَمَالَ لأَحْمَدٍ وشَرَّفَ مِنْهُ الخَلْقَ والخُلُقَ الْعَذْبا
مُوَفَّقُ ءاراءِ القَضَاءِ كَأَنَّمَا بَصِيرَتُهُ في الْغَيْبِ تَخْتَرِقُ الحُجْبا
إذا اكْتَسَبَ النَّاسُ الدَّنانيرَ عُدَّةً فَأَحْمَدُ لاَ يَرْضَى بِغَيْرِ العُلا كَسْبا
كَذاكَ مَضَتْ في السَّالِفاتِ جُدُودُهُ كَمَا مَرَّ كَعْبُ الرُّمْحِ مُطَّرِداً كَعْبا

وله فيه :(164)

يَا رَاقِداً ثَمِلَ الْمَنَامُ جُفونَهُ إِنِّي بِحُبِّكَ سَاهِرٌ مَا أَرْقُدُ
إِنِّي لا أَرْحَمُ خَصْرَه مِنْ رِقَّةٍ وأَرِقُّ لِلْغُصْنِ الذي يَتَأَوَّدُ
وَغَدا يُطَمِّعُني الْوِصالَ تَمَنِّياً إني سَأَهْلِكُ قَبْلَ أَنْ يَدْنُو غَدُ
وَلَبِسْتُ أَثْوابَ الْمَلاحَةِ مِثْلَ مَا لَبِسَ السَّمَاحَةَ والرَّجاحَةَ أَحْمَدُ
لَوْ كَانَ خُلِّدَ فَاضِلٌ لِفَضِيلَةٍ فِيهِ لَكَانَ عَلَى الزَّمانِ يُخَلَّدُ
المَجْدُ والشَّرَفُ المُؤَثَّلُ والنَّدَى والْجُودُ والْعَلْيَا لَهُ والسُّؤْدَدُ

---

163) «الذخيرة»، ورقة 152 و 153 مخطوط الخزانة العامّة بالرباط.

164) «الذخيرة»، ورقة 152 و 153 مخطوط الخزانة العامّة بالرباط

وَبَلاَغَةٌ لَمْ أدْرِ حِينَ سَمِعْتُها ... أَفَصَاحَةٌ أمْ لُؤْلُؤٌ مُتَبَدِّدُ
لاَ نَاطِقٌ عَجِلُ الْكَلامِ بِهَا وَلاَ ... مُتَوَقِّفٌ فِيهَا وَلاَ مُتَرَدِّدُ
مِنْ مَعْشَرٍ طابوا مَنَاصِبَ في الْعُلاَ ... وإذا يَطيبُ الأَصْلُ طَابَ الْمَوْلِدُ

ومِمَّن مدحه من شعراء الأندلس الشّاعر الوشّاح، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هُريرة، المشهور بالأعمى التُّطيلي، ولم يرحل إليه بسلا، وإنما خاطبه من إشبيلية، لما كان مصابا به من العمى، حسبما تقدمت الإشارة إليه قبل هذا، قال :[165] وهي من أبلغ شعره.

صُدودٌ مُلِظٌّ أوْ فِراقٌ مُواشِكُ ... لَعَمْري لَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ المَسالِكُ
أتى دُونَ أسْمَاءَ العِتَابُ ودُونَنَا ... مَآخذُ أحْصَنَتْهَا النَّوَى ومَتَارِكُ
وَمَن لِّي بها والبِيضُ والسُّمْرُ دونَها ... وجُرْدُ المذاكي والقِلاَصُ الرَّوَاتِكُ
وكُلُّ طويلِ الرُّمْحِ طِبٌّ بِحَمْلِهِ ... إذا شاء أبْكَاهُ دَمًا وَهْوَ ضاحِكُ
أخو عزماتٍ لاَّ المَهَارَى أمامَهَا ... نَوَاجٍ ولا الْخَيْلُ العِتَاقُ مَسَاهِكُ
له مُقْلَةٌ شَوْسَاءُ أكْثَرُ نَوْمِهَا ... غِرَارًا إذا نَامَ العُداةُ الصَّعَالِكُ
إذا مَرَقَتْ بين الوَدائقِ والدُّجَى ... فلا حِجْلَ إلاَّ ما تُثيرُ السَّنَابِكُ
وَعَرْضُ فَلاةٍ مَّا تُعارِضُهَا النَّوَى ... ترى الْموتَ فيها وهْوَ أعْزَلُ شائكُ
وجُنْحُ ظَلامٍ لو تُثَارُ عَجاجَةٌ ... لَّما لَمَعَتْ فيها السُّيوفُ البواتِكُ
دُجًى لَّوْ سَرتْ فيها الشَّياطينُ تَرْتَقِي ... إلى السِّرِّ لم تَخلُص إليْها النَّيَازِكُ
خليليَّ هَلْ في أدْمُعي وانْحِدارِها ... جَلاَءٌ لِّعَيْنٍ دَمْعُهَا مُتَمَاسِكُ
ولي سَكَنٌ يَنْأى وَيَدْنو وحُبُّهُ ... بِصَبْرَى مُودٍ أو لِسِرِّيَ هَاتِكُ
سَلِ الخيلَ هل جَشَّمتُها كُلَّ غَايَةٍ ... يَهُونُ عليها شَدُّهَا المُتَدَارِكُ
وَهَلْ عرفَتْني رُبَّمَا بِتُّ مُغْرَمًا ... تُدافِعُهُ أكْفالُهَا والحَوَارِكُ
وما نَكَرتْ إلا التَّفانِي بالقَنى ... وقد شَرِقَتْ بالمُعْلِمِين المَعَارِكُ
وإلاَّ اخْتِيالي في ذُرَى صَهَوَاتِها ... وقد نَظَرَتْ شَزْراً إلَيَّ المَهَالِكُ

165) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 89 وما بعدها، طبع دار الثقافة ببيروت.

أيا رَحْمتَا للشِّعْــرِ أقْــوَتْ رُبوعُــهُ | علي أنَّهــا للمَكْرُمــاتِ مَنَاسِــكُ
وللشُّعراء اليوم ثُلَّــتْ عروشُهُــم | فلا الفَخْرُ مُخْتالٌ ولا العِزُّ تامِكُ
إذا ابْتَدَرَ النَّاسُ الحُظوظَ وأشْرَقَتْ | مَطالبُ قَومٍ وهْيَ سودٌ حوالِكُ
رَأيْتَهُمُ لَوْ كانَ عِنْدكَ مَدفَعٌ | كما كَسَدَتْ خَلْفَ الرِّئالِ التَّرائِكُ
فَيا دَوْلَةَ الضَّيْم اجْمِلِي أوْ تَجامَلِي | فقد أصْبَحَتْ تِلْكَ العُرى والعَرائِكُ
ويَا «قام زيد» أعْرِضِي أو تَعارَضِي | فقد حَالَ مِنْ دونِ المُنى «قال مالكٌ»
سَمَتْ «بأبي العبَّاسِ» تِلْكَ وهَذِهِ | إلى حَيْثُ لا تَسْمو النُّجومُ السَّوامِكُ
رَحيبُ مَجَالِ الْفِكْرِ والأمْرُ ضَيِّقٌ | صَليبُ قَناةِ الصَّبْرِ والأمْرُ ناهِكُ
ومُشْتَرِكُ الأكْفاءِ في السُّخْط والرِّضى | ولَيْسَ له في المَكْرُمَاتِ مُشَارِكُ
بقاضي قُضَاةِ الغَرْبِ وابْنِ قُضَاتِهِ | تَوَدَّدَتِ الآمالُ وهْيَ فَوارِكُ
فَتًى لَم يكُنْ يوماً لِيَنْساهُ مَطْلَبٌ | ولَوْ أنَّه في مَسْلَكِ البَحْرِ سالِكُ
يُطِلُّ على الأعْداءِ من كُلِّ جانِبٍ | وقد أفكَتْ عنه الخُطُوبُ الأوافِكُ
إزاءَ الْعَوالي وَهْوَ جَذْلانُ باسِمٌ | ودون المَعالي وَهْوَ شَيْحَانُ فاتِكُ
حَرِيٌّ بِأَنْ لا يَغْدُوَ الحَقَّ وجْهُهُ | لَدَيْهِ وقد زاغ الألَدُّ المُمَاحِكُ
وأنْ تَعْرِفَ الأقْوامُ سَوْرَةَ عَدْلِهِ | كما احْتَمَلَتْ نارَ القيون السَّبائك
وأنْ يَتَوَقَّى الضَّيْمُ جَانِبَ جَارِهِ | كما يَتَوَقَّى الْبَعْلَ عَذْراءُ عارِكُ
نَضَاهُ أمير المؤمنين[166] مُهَنَّداً | لكلِّ دمٍ منه وإن عَزَّ سافِكُ
وَتَاهَتْ به الأيَّامُ عِلْقَ مَضِنَّةٍ | تنازَعَهُ أمْلاكُهُ والمَمالِكُ
إذا الْتَقَتِ النَّارُ الفَراشَ تألَّقَتْ | أياديهِ فالتفَّتْ عليها الهَوالِكُ
إذا سَمِعَتْ أُذْناهُ حَيَّ على العُلا | فلا الجودُ مَتْروكٌ ولا الْبَاسَ تَارِكُ
وإن عَلِقَتْ كفَّاه حَبْلَ سِيَادَةٍ | فَلِلَّهِ مَسْمُوكٌ به المَجْدُ سامِكُ
وإن أسْعَرَتْ عَيْناهُ وَجْهَ صَنِيعَةٍ | رأيتَ عُيونَ الأسْدِ وهْيَ مَضَاحِكُ

166) كذا بالأصل والمعروف أن سلاطين المرابطين كانوا يتلقبون بأمراء المسلمين أدباً مع خلفاء بني العباس.

أَلْكْنِي إِليه في السَّلامِ وبَيْنَنَا مَخَارِمُ لا تَسْمو إِليها المَهالِكُ
بآيةِ ما يَكْفِي المُلِمَّ وَرُبَّما وَنَتْ فيه أَخْلافُ السَّحابِ الحَواشِكُ
أُجِدُّكَ لم توقظْكَ والنَّجْمُ هاجِعٌ هَواتِفُ لِلُّبِّ الأصيلِ هَواتِكُ
دَعَتْ فَأَشاعَتْ بَثَّهَا وسُرورَها وانضاهُ هَمِّي والدَّياجِي بَوَارِكُ
بناتُ الْهَوَى تُمليهِ أو تَسْتَمِلُّهُ لها الشَّجْوُ مِنِّي والأراكُ أرائِكُ
يَلُكْنَ حديثاً رُبَّما افْصَحَتْ بِهِ هَنَاتٌ لِحَبَّاتِ الْقُلوبِ هَوَاتِكُ
وأَحْسبُها غنَّتْ بِذِكْرِكَ موهِنًا وأيدي الْمَطايا بالرِّحَالِ بوَاشِكُ
لِذاكَ جَلاها مِنْ سَنا الصُّبْحِ شارِقٌ وصَاكَ بِها من مِسْكَ دارِينَ صَائِكُ
ورَاقَتْ رُباها كُلَّ حُسْنٍ كأنَّما تُنَشِّرُ فيما بَيْنَهُنَّ الدَّرانِكُ
فَفِي كُلِّ بَطْنٍ مَّشْرَعٌ مُتَلاَحِنٌ وَفي كُلِّ ظَهْرٍ مَرْتَعٌ مُّتَلاَحِكُ
إِلَيْكَ أبا العبَّاسِ غُرٌّ مدائحي تُصَلِّي عَلَيْهِنَّ العُلا وتُبارِكُ
إِلَيْكَ ورَيْعَانُ الرَّجاءِ يَؤُمُّهَا وقِدْمًا رَجَتْهَا البائِسَاتُ الضَّرائِكُ
قلائِدَ أعناقٍ وأَزْهَارَ أعْيُنٍ ومِنْهُنَّ في بَعْضِ الصُّدور حَسَائِكُ
فَحِكْ لِيَ مِنْ نُعماكَ بُرْداً أجُرُّهُ فَإِنِّي لأبْرَادِ المدائحِ حَائِكُ
بَنِي قاسمٍ قد زِنْتُمُ الدَّهْرَ كُلَّهُ كما زَانَتِ الصَّدْرَ الثُّدِيُّ الفوالِكُ
رَفَعْتُمْ لأَهْلِ الغَرْبِ أعْلامَ دينِهِم فأبْصَرَ مافوكٌ وأقْصَرَ آفِكُ
فَقُلْ لُسلا شُحِّي على ءال قاسمٍ ولا تَسَلِي بغدادَ أَيْنَ البرامِكُ
إذا الدِّيمُ الوُطْفُ انْتَحَتْكَ فلا تُبَلْ وقد عَرَّجَتْ عنك الذِّهابُ الرَّكائِكُ

وله فيه هذا الموشح ، وقيل إنه لابن بقي :(167)

أَعْيا علَى العُوَّدْ رهينُ بَلْبَالْ مُوَرَّقْ
أذلَّهُ الحُبُّ لا يُنْكِرُ الذِّلَّةْ مَنْ يَعْشَقْ
مَنْ لِّي بِهِ يَرْنو بمُقلتَيْ ساحِرْ إِلى العِبَادْ

167) «ديوان الأعمى التطيلي» ص 270 وما بعدها، طبع دار الثقافة ببيروت.

ينأى به الحُسْنُ فَيَنْثَنِي نَافِرْ صَعْبَ القِيادْ
وثارة يَدْنو كما احْتَسى الطائِرْ مساءَ الثِّمادْ
فجيدُه أغْيَدْ والخَدُّ بالخَالْ مُنَمَّقْ
تكْنُفُهُ الحُجْبُ فَلِي إلي الكِلَّةْ تَشَوُّقْ
عَطَا بِلَيْتِهِ ومرَّ كالظَّبْي لِبِيدِهْ
فَدَلَّ عليه تكسُّرُ الحَلْيِ بِجِيدِهْ
تَفْتيرُ عيْنَيْهِ يُسْرِع في بَرْيِي عَمِيدِهْ
فإنْ أكُنْ أقْصَدْ هل منه فأوْلى لي إذ يَرْمُقْ
هَلْ يَسْلَمُ القَلْبُ وأسْهُمُ المُقْلَةْ لا ترْفُقْ ؟
وددتُّ مِنْ خِلِّي ومِثْلُ نشْرِ الكَاسْ في شَعْرِهْ
لَوْ جادَ بالوصْلِ جودَ أبي العبَّاس بوفْرِهْ
في الجُودِ والنُّبْلِ وقُلْ أجَلُّ الناسْ في قَدْرِهْ
يا كعبةَ السُّؤْدَدْ حتَّى على المالْ لا تُشْفِقْ
فَمِثْلُكَ النَّدْبُ يسابِق الجِلَّةْ فيَسْبِقْ
يأيها الحائمْ هَلْ لَكَ في عَذْبِ مَلْءِ الدِّلاَ
يَمِّمْ بني القاسمْ واقْصِد من الغربِ إلَى سلا
واسْتَمْطِ رَواسِمْ تُخَادُ بالرُّكْبِ وَسْطَ الفَلا
سفائناً تَجْهَدْ في أبْحُرِ الآلْ ما تَغْرَقْ
يَسْتَبْشِرُ الرَّكْبُ وتَشْتَكي الرِّحْلَةْ الأيْنُقْ
أدْعُوهُ بالقاضي وأمْرُه يَقْضِي عَلِيٌّ لِي
أنا بِهِ راضي لأنَّه يُرْضِي لأمَلِي
قل غيرَ مُعْتَاضِ بِمَنْ عَلى الأرْضِ مِنْهُ مُلِي
أما تَرى أحمدْ في مَجْدِهِ العالي لا يُلْحَقْ
أطْلَعَهُ الغَرْبُ فَأرِنَا مثْلَهْ يامَشْرِقْ

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصبَّاغ الجُذامي في موشحته كما في «أزهار الرياض»[168] وذكرها بتمامها، واقتصر على البيتين الأخيرين في «نفح الطيب»[169] وكلاهما لأبي العباس المقَّري، ونسبهما لابن بقي، ولعله ضمنهما فقط.

رُسُومُ ظاهِرِ الْبِلى ... بِكُل رَسْم طَاسِمْ عُنْوانْ
ورَبْعُهم مَّا أشكلا ... منها لِكُلِّ حازم تِبْيانْ
قِفْ بالدِّيارِ واعْتَبِرْ ... إنْ كنتَ من أهْلِ العِبَرْ
وانْظرْ لها وازْدَجِرْ ... فإنَّ فيها الأجَرْ
كم مَّعْلَمٍ قد دَّثَرْ ... فَلَمْ يَبِنْ مِنْهُ أثَرْ
تبكيه وُرْقُ الفَلا ... وفي بُكا الْحَمَامِ أشْجانْ
فلنَنْتدبْ إلى الطَّلاَ ... فَفي فُؤادِ الْهائِمْ أحزانْ
سماعاً مِّنَ الوجودْ ... عَنْهُ تَفَاهَمَ العُقولْ
فَغَيْبَةٌ وشُهُودْ ... كِلاَهُمَا عَيْنُ الدَّليلْ
حتَّى متى يا مُريدْ ... تَخْتالُ في ثَوْبِ الخُمولْ
تَشْكُو لَنَا العِلَلاَ ... وأنْتَ بالمئاثمْ جَذْلاَنْ
فلُذْ بِعِزِّ العُلاَ ... فَعِنْدَنا للنَّادِمْ إحْسانْ
فَناءُ أهلِ الطَّريقْ ... هُوَ الوُجودُ المُطْلَقْ
فكُلُّ معنًى دَقِيقْ ... بِوَصْفِهِمْ يُحقَّقْ
أنْوارُهُمْ في شَرِيقْ ... بها اسْتَضَا المُوَفَّقْ
قَدْ أوْضَحوا السُّبُلاَ ... فَهُمْ لَنَا في العَالَمْ بُرْهانْ
فاجْنَحْ إليهِمْ ولاَ ... تَقْبَلْ لِلْمواسِمِ إبَّانْ
يا ناسِياً لِوصْلِنا ... أيْقِظْ من النَّوم الجُفونْ
سَلِّمْ إلينا فَعلَنا ... ما كان مِنْهُ أوْ يَكونْ

---

168) ص 233 من ج 2.

169) ص 996 من القسم 1، طبع بولاق.

لاَ حَـــوْلَ إلاَّ حــــولنـــــا	فـــانْفِ الشُّكُوكَ والظُّنــــــونْ
يـا غـــادراً قَـــــدْ ســــــلا	أقْصِـرْ فَلَيْسَ يَجْمُلُ سلْـــوَانْ
للَّـــــهِ مـــا أجْـــمـــــلا	منْ بات وهْوَ بِالْهــوى نَشْــوَانْ
يـا طـالبـــاً للنَّـــــــدَى	يَبْغِي السَّمـاحـــةَ والنَّـــوَالْ
يَمِّمْ فُـــديـتَ أحْـــمَـــدا	بَدْرَ العُـلا شَـمْـسَ الكَمَـــالْ
وَعَـــدِّ عـــــمَّـــنْ شَـــدَا	واسـتـغـرقَ المـدحَ وقَـــالْ :

البيتان مضمنان من توشيح الأعمى التطيلي في مدح يوسف، كما سياتي في ترجمته :

إنْ جِـــــــئْـتَ أرضَ ســـلا	تَلْقَـاكَ بالمكـــارِمِ فِـتْـيـــانْ
هُـمْ سُـطُـورُ الـعُــــــــــلا	ويُوسف بن القـــاسِمِ عُنْـــوانْ

ومن مشاهير شعراء الأندلس الذين مدحوه ومدحوا أسرته، الشاعر الوشَّاح أبو بكر يحيى بن بقي.

وقد كان كما حلاه الفتح في «قلائده»[170] رافع راية القريض وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعه وأظهر روائعه، وصار عَصِيُّه طائعه، إذا نظم أزري بنظم العقود، وأتى بأحسن من رقم البرود، وطغى عليه حرمانه، فما صفا له زمانه...

ولكنه لمَّا اتَّصل ببني عشَرة بسلا هلَّ هلاله، واطمأنَّ باله، وصلح حاله، وزال إقْلاَلُه، وأمِنَ سرْبه وعياله، على يد مجيره من الزمان، ومنقذه من الحرمان، ابي زكرياء يحيى منهم، كما سياتي التنبيه عليه في ترجمته.

وجاء في كتاب «أخبار وتراجم أندلسية» مستخرجه من «معجم السفر» للحافظ السلفي :[171] انه سَرَقُسْطَيٌّ النسب، إشْبيليٌّ الأدب، سلويٌّ النّشب، وادِيشِيٌّ العطب، يعني أن أصله من سرقسطة، وتأدَّب باشبيلية واكتسب المال بمدينة سلا من العدوة، وتوفي بوادي ءَاش، من مدن الأندلس.

170) ص 279.

171) ص 151.

ومما مدح به القاضي أبا العباس ابن عشرة قوله من قصيدة :[172]

ونوبةٍ مِّنْ صَهيلِ الخَيْـلِ يَسْمَعُهـا   بالرَّمْل أطيبُ أَلْحَاناً من الرَّمَـل
لا يَنْفُـذُ العـزمَ إلاَّ أن يُنَفِّـذَهُ   والسَّيْفُ يَكْهَمُ إلاَّ في يَدِ بَطَـل
ياكوكباً يَغْرِقُ العافـونَ في دُفَـعٍ   منه وتَحْـتَـرِقُ الأعـداء في شُعَـل
تَهْويمةٌ في بِسـاطِ البيد يَهْجَعُهـا   أشْهى إليْهِ مِنَ التَّهْويم في الكِلَـل
لاَ يَدْرِكُ النَّاسُ لَوْ رَامـوا وَلَوْ جَـهِـدُوا   بِالرَّيْثِ بعضَ الذي أدْرَكْتَ بالعَـجَل

ومما مدحه به أيضا هذه القصيدة :[173]

أمُصْطَبِـرٌ أنْتَ إن قَـوَّضُـوا   وأمُّـوا المَصِـيـفَ من المرْبَـع
سَتَجْـزَعُ إنْ سِـرْتَ في رَكْبِـهِمْ   وإن لاَّ تَسِـرْ فِـيـهِمُ تَجـزَع
تَخَـيَّـرْ لِنَفْسِـكَ في حـالَتَـيْـ   ـنِ فـأمْضِ بإحْـدَهُمـا واصْـدَع
فـإمَّـا على نِيَـةٍ فـاعـتـزمْ   وإمَّـا على ظَلَـعٍ فـارْبَـع
قَـدِ ابْتَكَروا واسْـتَـقَلَّتْ بِهِـمْ   قَـلاَئِصُ مَـشْـدُودَةُ الانْسُـع
فَسـَاروا إلى عَـقَـراتِ اللِّـوَى   إلى السُّـمُـراتِ إلى لَعْلَـع
فـأعْـلاَمِ نَجْـدٍ فـوادي القُـرى   فَبَطْـنِ تِهـامـةَ فـالأجْـرَع
فَمَـهْـلاً عَلَيْنـا فـإنَّـا علـى   أسىً مُّـولِمٍ وهوًى مُّـصْـرِع
نُشَـيِّـعُكُـمْ، ولَعَـلَّ العنـا   ءَ لِلصَّبِّ نظـرةُ مُسـتـمتِـع
وَلَوْ كَـبِـدٌ عُـذِّبَـتْ بالضَّنى   لَذابَتْ كَـذا الوُرْق لَمْ تَسْـجَع
وَجَـدْنا بِكُـمْ وعلى بَيْنِكُـمْ   وَمِنْ أجْلِكُمْ فَـوْقَ مـا ندَّعِـي
وأوْحَـشَنَـا رَبْعُكُـمْ إذْ عَـفَـا   فَـيَـا لَهْفَ نفسي عَلَى الأرْبُـع
تَبَـدَّلَ من بَعْـدِكُـمْ شُـرَّدًا   وقـد كـان آنِسَـةَ الرُّتَّـع
فَلَيْـتَ الأحِـبَّـةَ لم تحـتـمـلْ   وَلَيْتَ الرَّكـائِبَ لَمْ توضَـع

172) «القلائد» ص 283، طبع بولاق.

173) «القلائد» مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ورقة 261، وهذه القصيدة غير مَوْجُودَة في النسخة المطبوعة ببولاق

أجَلْ، والذي جَعَلَ النَّيِّرَاتِ هَوَادِيَ في الحِنْدِسِ الاسْفَعِ
سَتُوضِعُهُنَّ إلى أحمدٍ على كُلِّ دُوَيَّةٍ بَلْقَعِ
وإلاَّ فأشْباهُهَا المنشئاتُ على زاخِرٍ أخْضَرَ المَدْرَعِ
ترى المَوْجَ مُصْطَفِقاً فوقَهُ يُخيفُ بِمَرْجلهِ المُفْزِعِ
أُجَاجٌ يَعَافُ الورى شُرْبَهُ على شَطِّهِ طَيِّبُ المشْرَعِ
أبابْنِ عَلِيٍّ يُقَاسُ الحَيَا وإن لَمْ يَضِنَّ ولم يَمْنَعِ
وَهَذي سَحابُ الحَيا أقْلَعَتْ وسُحْبُ عَطاياهُ لم تُقْلِعِ
دَعَاهُ الأنامُ لِدَفْعِ الخُطُوبْ فلم يَتَبَلَّدْ ولم يَخْشَعِ
فَقَصَّرَ من خَطْوِهَا المُسْتَطِيلْ وسَكَّنَ من ريحِها الزَّعْزَعِ
وعَفَّى على رَسْمِ جَسْدٍ أتى عَلى عَهْدِ مَدْيَنَ أو تُبَّعِ
وأحْيَا بأحْكامِهِ سِيرَةً من العُمَرَيْنِ على مَهْيَعِ
بِمَنْ يَشْرُفُ المَدْحُ إلاَّ بِهِ فتًى أرْوَعاً أيَّما أرْوَعِ
فَلاَ بالشَّحيحِ ولا بالشَّحَاحْ وَلاَ بالهَبِيتِ ولا اليَلْمَعِ
ولا بالأسُوفِ على فائِتٍ ولا بالمُسِفِّ إلى مَطْمَعِ
فَمُذْ طَلَبَ المجدَ لَمْ يَتَّبِدْ ومُذْ لَبِسَ الحَمْدَ لَمْ يَخْلَعِ

وفي أبي العباس ابن عشرة، يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «اتحاف اشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا»[174].

مِنْهُمْ أبو العبَّاسِ ابْنُ عَشْرَةْ قاضي سلا مِنْ بَيْتِ قَوْمٍ بَرَرَةْ
وهُمْ بنو القاسم أهْلُ أدَبِ ذوُوا وزارةٍ وأهلُ حَسَبِ[175]
كان فقيهاً شاعراً أديبَا مُسْتَجْمِعاً مِنَ العُلا نصيبَا
أضْحَى بهذا الثَّغْرِ بَدْراً زاهرا أيامَ كان العِزُّ غُصْناً مُثْمِرا

174) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا ورقة 54.

175) لا نعلم أن بني عشرة كانوا وزراء، وإنما كانوا قضاة ذوي شرف ورياسة.

وقَـصَـدَتْ رُبُوعَـهُ الطُّـلاَّبُ   ونَفِـقَـتْ بِسُـوقِـهِ الآدابُ
تَرْجَـمَـهُ الضَّـبِّي لَـدَى بُغْـيَـتِـهِ   والفَـتْحُ أجْـرى الذِّكْـرَ في زُمْـرَتِهِ
وكَـان صَـدْراً سَـادِسَ المِـئِـيـنَ   أيَّامَ دَوْلَـةِ المُـرابِطِيـنَ
ثُمَّ قَـضَـى بِـهَـا فَـجَلَّ أثَـرَا   وصار من بَعْدِ العِيَـانِ خَبَـرَا

وفاة القاضي أبي العباس ابن عشَرة

لم يحفظ لنا التاريخ وفاة القاضي أبي العباس ابن عشرة بالضبط، والذي نعلمه أنه كان حيًا سنة خمس عشرة وخمسمائة (1121/515-1122)، لمًا مرَّ به المهدي بن تومرت وعبد المومن بن علي، ونزلا عنده. والصحيح أنه لم يدرك دولة عبد المومن، لأن الفتح، لما ذكره في «القلائد» في ترجمة الشاعر أبي بكر يحيى بن بقي، ترحَّم عليه[176]. ولا يخفى أن الفتح نقل في تعيين تاريخ قتله عدة أقوال، ما بين سنة تسع وعشرين وخمسمائة (1135/529) وسنة خمس وثلاثين وخمسمائة (1140/535)، وعبد المومن احتلَّ سلا المرة الأولى سنة أربعين وخمسمائة (1145/540). وعليه، فان أبا العباس ابن عشرة توفي ما بين التاريخين.

وقد ذكر ابن بَسَّام في ترجمة الشاعر ابن سوار، قطعة شعرية، رثى بها قاضيين من بني عشرة، ولم يعينهما. والظاهر أنه رثى بها أبا العبَّاس عند وفاته، وأشرك معه والده القاضي أبا الحسن على سبيل الذكرى والتفجُّع، وإن كان تقدَّم رثاؤه له، كما يُتلمَّح منها في قوله :

هذا شُريحٌ في القضاء وذا على[177]

والله أعلم. ونصها :

الصَّبـر أجْـمَلُ عند كُلِّ مُلِمَّـةٍ   لَكِنْ عَلَى فَـقْـدَيْهِـمـا لم يَجْـمُـلِ
قَـمَـرَانِ غُـيـبـا بالكُسـوفِ سَنَاهُمـا   لا تَـخْـسِـفُ الأقْـمـارُ إنْ لَّمْ تَكْمُلِ
من قـاضِـيَـيْـنِ مُـوَفَّـقَـيْـنِ كـأنَّمـا   هـذا شُـرَيْحٌ في القَـضَـاءِ وذَا علي

176) ص 283، طبع بولاق.

177) «الذخيرة» ورقة 152 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

بَبقيَّة من صبحَّة وسَجيَّة   من رَّوْضة وسَكينة مِنْ يَذْبُل
ورزانة مِّنْ حِكْمَة وقَضيَّة   مِّن فِّطْنة وبَديهَة مِّنْ مُّنْصُل

القاضي أبو علي الحسن (أو حسُّون)
ابن علي ابن عشَرة السلاوي

هو أحد أفراد الأسرة العشرية السلاوية، الموصوفين بالقضاء. وليس لدينا من أخباره إلا ماذكره ابن البيدق عرضا في كتابه «أخبار المهدي»[178]، من أن المهدي وعبد المومن، ومن كان معهما، لمّا وصلوا إلى مكناسة آتين من فاس، نزلوا بالسوق القديم، بمسجد بني تميم عند الحسن ابن عشرة، وكان الطلبة ياتونه لأخذ العلم عنه...

ثم ذكر :[179] انهم لمَّا وصلوا إلى سلا، ونزلوا عند قاضيها أبي العباس ابن عشرة المتقدم الذكر، كان ياتيه أفراد ياخذون عنه العلم، ومنهم القاضي حسّون ابن عشرة...

فهل هو حسن المتقدم الذكر ؟ وقد وصفه هنا بالقاضي، ولم يفصح عن محل ولايته. والظاهر أنها كانت بغير مكناسة، إذ لو كان قاضيا بها لحلاّه بهذا الوصف من أول مرة.

وبقي أمر آخر، وهو كيف تركه بمكناسة، ووجده أمامه بسلا. فهل تقدمه، أو جاء معه أو لحق به ؟؟؟ أمر مسكوت عنه.

وهل حسّون هذا، هو حسن الذي كان بمكناسة ؟ الغالب على الظن انه هو، لأن المغاربة شاع بينهم تغيير بعض الأعلام إلى هذه الصيغة. فيقولون مثلا : في حسن حسّون، وفي محمد حمّود، وفي عيّاش عيُّوش، وهلم جرّا.

وعلى كل حال، فهو أحد الأفراد الذين وُصفوا بخطة القضاء من هذه الأسرة العشرية.

ويظهر أنه كان من وجوهها البارزين فيها، ومن أهل العلم والفضل من رجالها، وإنْ كانت أخباره غامضة لم يصلنا شيء من تفاصيلها، ولا نعرف تاريخ وفاته ولا محلها، وإنما نعلم انه كان حيّاً سنة خمس عشرة وخمسمائة (1121/515-1122)، واجتمع بالمهدي وأخذ عنه.

---

178) ص 66.

179) ص 67.

أبـو زكريا يحيى بـن
علي ابن عشَرة السلاوي

أبو زكريا يحيى هذا، ثالث الأخـوة أبناء الحسن ابن عشـرة الذين سـادوا واشتـهروا، وكـانوا بسـلا بُدورَ سمـائها، وصُدورَ أسمـائها. وقد حـلاَّه ياقوت في «معـجم الأدباء»[180] بالإمـارة، ولا نعرف مـاهي هذه الإمـارة التي كـان متَّـصفاً بهـا، لأنه لم يصلنا من تفاصـيل أخبـاره، إلاَّ مـا وصـفه به الأدبـاء والشعـراء في أشعـارهم وموشـحـاتهم، من الفضل والنُّبل والنَّباهة، لأنه كان كوالده وإخوته جوادا فيّاضا معْطاء وهَّابا للشعراء، فانْحلَّت عُقَدُ ألسنتهم، وتدفَّقت بلاغتهم بمدحه ومدح أسرته بالشعر الخالد، المُسجِّل للمفاخر والمحامد.

وممَّن مدحه وأشاد بفضله ونبله، الشاعر الأندلسي أبو بكر يحيى بن عبد الرحمان بن بقي القرطبي المتقدم الذكر في ترجمة أخيه القاضي أبي العباس، وكان مَفْلوكاً، فاجتباه واصطفاه، وأسدى إليه من المعروف ما أسدى، وصيَّر نحسه سعدا.

قال ابن خلكان،[181] نقلا عن «المطمح الكبير» للفتح ابن خاقان :

«كان ابن بقى نبيلا في النَّثر والنَّظْم، كثير الارتباط في سلكه والانتظام، إلى أبعد أمد، وبنى من المعارف على أثبت عمد، إلاَّ أنَّ الأيام حرمته، وقطعت حبل رعايته وصرمته، ولم تُتِمَّ له وطراً، ولم تُسْجِمْ عليه من الحظوة مطراً، ولا نولتـه من الحرمة نصـيبا، ولا أنزلتـه مرعىً خصيبا، فصار راكب صهوات، وقاطع فلوات، لا يستقر يوما، ولا يستحسن قوما، مع توهم لا يظفره بأمـان، وتَقلُّبِ ذِهْنٍ كواهي الجمـان، إلاَّ أنَّ يحيى بن علي بن القـاسم، نزعه عن ذلك الطيْش، وأقطعه جانبا من العيْش، وأرقاه إلى سمائه، وسقاه صَيِّبَ نعمائه، وفيـأه ظلاله، وبوّأه أثرا لنعمة تجوس خلاله، فصرف إليه أقواله، وشرَّف بنو أمية نواله، وأفرده منها بأنفس در، وقلَّد لبَّته بقصائد غر...»

وقد عبَّر ياقوت في «معجم الأدباء» عن حالة هذا الشاعر، مع هذا الأمير العشري بقوله :[182]

---

180) ص 21 من ج 20.

181) ص 249 ج 5.

182) ص 21 ج 20.

«كان حرب زمانه، حبست حرفة الأدب عليه براعته من رزقه، فحكمت بإقلاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب، ووقف في البلاد على كل باب، فلم يستقرّ به النّوى، حتى اتّصل بالامير يحيى بن علي بن القاسم بسلا، فتفيّأ ظلاله، وحطّ في رحابه رحاله...»

ومن أمداحه فيه قوله من قصيدة طويلة :(183)

نُوران لَيْسا يُحْجَبانِ عَنِ الْوَرَى ... كَرَمُ الطِّباعِ ولاَ جَمالُ الْمَنْظَرِ
وَكِلاهُما جُمِعَا لِيَحْيى فَلْيَدَعْ ... كِتْمَانَ نورِ عَلائِهِ الْمُتَشَهِّرِ
في كُلِّ أُفْقٍ مِّنْ جَميلِ ثَنائِهِ ... عَرْفٌ يَزيدُ على دُخانِ المجْمَرِ
زِدْ في شَمائِلِهِ وَزِدْ في جودِهِ ... بَيْنَ الحَديقَةِ والْغمامِ المُمْطِرِ
نَدْبٌ عَلَيْهِ مِنْ الوَقارِ سَكينَةٌ ... فيها حَفيظَةُ كُلِّ لَيْثٍ مُخْدِرِ
مِثْلَ الحُسامِ إذا انْطَوَى في غِمْدِهِ ... أَلْقَى المَهابَةَ في نُفوسِ الحُضَّرِ
أرْبى علي الْبَحْرِ الخِضَمِّ لأنَّهُ ... في كُلِّ كَفٍّ مِنْهُ خَمْسَةُ أَبْحُرِ
أَقْبَلْتُ مُرْتاداً لجودِكَ إنَّهُ ... صَوْبُ الْغَمامَةِ بَلْ زُلالُ الْكَوْثَرِ
وَرَأَيْتُ وَجْهَ النجْحِ عِنْدَكَ أبْيَضاً ... فَرَكِبْتُ نَحْوَكَ كُلَّ لُجٍّ أَخْضَرِ
تَجْري إلَيْكَ بِنا سَفائِنُ أَتْلَعٍ ... مِثْلَ الْبَعيرِ مُخَزَّمٍ في الْمِنْخَرِ
وَبَناتِ أعْوَجَ قَدْ بَرَمْنَ بِصُحْبَتِي ... مِمَّا قَطَعْنَ من اليَبابِ المُقْفِرِ

ومن موشحاته فيه قوله :(184)

أشْكوا وأنْتَ تَعْلَمُ حالي ... أَلَيْسَ ذَا عَيْنُ المُحَالِ والضَّلالِ

لاَ والذي أمَاتَ وأحْيَا
مَا راقَ نَاظِري غَيْر يَحْيى
بِشِيمَةٍ لَهُ ومَحْيَا

فَلْيَهْنِه ولْيَهْن المَعالي ... مَا حازَ مِنْ عَظيم جَمال وجلال

---

183) ابن خلكان، ص 249، ج 5.

184) دار الطراز، ص 76.

ارتـاب فـي الـكـريـم الـعـلـي
حـــــتّـى أراكَ يا بْـنَ عـلـي
وقـــــد حَلَلْتَ وَسْطَ النَّدى

كَالْبَدْرِ طالعاً في كَمالْ كَالْبَحْر زاخراً في احْتِفالْ مـن نُـوالْ

وفي مدحه يقول الشاعر الوشّاح المشهور، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، المعروف بالأعمى التطيلي :[185]

صَبَرْتُ والصَّبْر شيمةُ العَانِي ولم أقُلْ لِمُطيلِ هِجْراني أَلَيْس كفاني

هلْ كان غَيْري يَعْتَزُّ بالذِّلَّة عشقته ينتمي إلى الحِلَّة
ملالة النَّاس عنده ملَّة لَمْ يَحْصُر الشِّعر وصفَه كلَّهْ

في كلِّ يومٍ أراه في شانِ أماتني هَجْرُه وأحْيانـي بأَشْنَبٍ سقاني

شهادتي أن أموتَ عليْه لمَّا جنى الوردَ مِلْءَ كفَّيْه
تشوَّفتْ وردتان إليْهِ فحلَّتا في رياض خدَّيْه

وأسكرتْه مُدام أجفاني فمَرَّ بي صاحيا كنشوانِ في رَبْرَبٍ غِزْلانِ

هذا زمان الرَّبيع يايحيى فَاسْقني من يَمينكَ العُلْيَا
مُدامةً ملَّكَتْني الدُّنيا أَمَا تَرى الأرضَ أُلْبِسَتْ وَشْيَا

والزَّهر في فضة وعقيانْ والماء يحكى انْسِياب ثُعبانْ في مِذْنَبٍ بستانْ

ياكَوْكَباً لاحَ مِنْ بني القاسمْ أَهْلاً وَسَهْلاً بسَعْدِكَ الدائمْ
أمَّا الأيادي فما أنا قائمْ بشُكْرِها ناثراً ولا ناظمْ

أنْسَيْتَنِي مَعْشَري وأوْطانِي وجُدتَ محْلي بِكُلِّ هَتَّانِ مُنْسَكِباً أرْوَانِي

---

185) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 269

بمِثْلِ ما دانَتِ الْمَهَا دِنْهَا انْهَى رسول الفتاة ما انْهَى
وقد بَلَغَتْ حَفيظَة منْها فأصْبَحَ الشَّوْقُ مُنْشداً عَنْها :
لابُدْ نَحْضُرْ من حيث يراني لعَلَّه بالسَّلامْ يَبْداني حبيبٍ يكْفاني

وله فيه موشح، آخر يقول فيه :(186)

ما لِلْفُؤاد مالهْ لم يَثْنِه هَوْلُ الصُّدودْ
عَنْ رَشا أحورْ لَمَّا رأي ذُلَّ العبيدْ تَاهَ واسْتَكْبَرْ
أساءَ بي صَنيعَا وما عَرَفْتُ ذَنْبِي
ولَمْ أجِدْ شَفيعَا إليه غيرُ حُبِّي
ياشاذنا قَريعَا أحْلُلْ كِناسَ قَلْبي
فَإنْ تَكُن مُطيعَا مُسْتأنِساً بِقُرْبِى
فالمَوْتُ لا مَحَالهْ يَعْذُبُ لي عِنْدَ الوُرُودْ
وَهْوَ بي أجْدرْ لاسيما الحَسودْ سعْيَه تبْصِرْ
هَيْهاتَ تستمالُ أوْ يُعْتدى عليها
ودونَها نِصَالُ مِنْ سِحْر مُقْلَتَيْها
وقد مَشَى الجمالُ حتَّى انتهى إليها
وصَفَتِ الحِجالُ منْها ما لَدَيْهَا
ونَمَّتِ الغِلالَةْ بِفَالِك مِن النُّهُودْ
فلن يَسْتَتِرْ إذا انْثَنى غُصْنُ البُرودْ في نقا المِئْزَرْ
لِلَّه أيُّ دُنْيا بِقُرْب مَنْ أحِبْ
كَمِثْلِ عَهْد يحيى وللنَّوال سُحُبْ
يُسْقِي العُفاة سَقْيَا فلا يخاف جَدْبْ

186) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 275.

الأرْوَعُ المُــحَــيَّـــا يَلْقـــاكَ مِنْـــهُ نَـــدْبْ
كــــالطَّوْد في جَـــلاَلِـهْ كــالْبَـحـر في إشـراف بُنُودْ
كــالمـحـيَّـا مَنْظَـــرْ كــالرَّوْضِ يُهْدى مِنْ بعـيـدْ نَشْــرَهُ الأعْطَرْ

يـا أيـهـــا الـسَّـــريْ مـن أشــرف الـقـضـــاة
قـــد حلَّـــكَ الـعَلِـــيْ بالحِلْـــم والأنـــــاةْ
فـكـم فَـــتَّ عـلـــــــي وأنـــت فـي الـحـيـــاةْ
فَـــجَـــدُّك الـعَـــشْـــري مُـقـــاتِـــلُ الـعُـــدَاةْ
يُنْمَى إلـى سُـــلالـــهْ قـــد وَرِثـوا عن الجُـــدُودْ
شَـرَفَ المَـــفْـــخَـــرْ هُمُ الدَّراري في السُّـعـودْ بَلْ هُمُ أَفْـــخَـــرْ

وظبـــيـــةٍ تَـهَـــابُ ضـــراغـــمَ العَـريـــنْ
وحــولهـــا الـشــبـــابُ والطِّيـــبُ في كَـمِـيـــنْ
إذا دَعَـتْ تُـجَـــابْ مــــن شِـــدَّةٍ وليـــنْ
فـــقلتُ حــين غـــابـــوا عَنْهـــا وخلَّفـــــونْ
فُـــمَّـــيْـسـكِ يا غــزالـــةْ بهـا دِمــا من الأسُـــودْ
كــيـــف تَغْـــدُرْ إذا بدا فَــخْــرُ الجنـــودْ وخَــدُّه أَسْـــمَـــرْ

ومن موشحاته في مدحه ومَدْحِ أخيه القاضي أبي العباس، هذا الموشح الذي جاء فيه ذكر شخص إسمه أبو بكر، كان خليفة لأبي العباس في النهي والأمر. ولعله كان نائبا عنه في خطة القضاء التي كان موطوقا بها، ولا نعرف عنه شيئا، قال :[187]

أدِرْ لنـــا أكـــوابْ يُنْسَى بها الوَجْـــدْ واسْتَصحِبِ الجلاَّسْ كمـا قـضى العَـهْـدْ
دِنْ بالْهَـوى شَـرْعَـا مـا عِشْتَ يا صــاحِ
ونَزِّه السَّـــمْـــعَـــا عن مَنْطِقِ الـلاَّحي
فـالحكمُ أن تَسْـعَى إليـــكَ بالـــرَّاحِ

187) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 267.

أنامِـلُ العُنَّـابْ ونقْلُـكَ الـوَرْدْ حقُّتُهُ بِصُدْغَيْ آسْ يَلُو بِهِمَا الخَدُّ
لِلَّـهِ أيَّـامُ دارتْ بهـا الخمـرُ
وَصْـلٌ وإلمـامُ وأوْجُـهٌ زُهْـرُ
والـرَّوْضُ بسَّـامُ وقـد بَكَى القَطْـرُ
ونحن في أحْـبَـابْ قد ضَمَّنَا عِقْـدُ فـيـا أبا العـبَّاسْ لا خَانَكَ السَّعْـدُ
خليفـةٌ منـكَ فينـا أبو بكـرِ
نابَ لنـا عنـكَ في النَّهْيِ والأمْـرِ
لم يُبْقِ لي ضَنْكَا من نُوبِ الدهْـرِ
فـأنْتُـم أرْبـابْ ما شَيَّـدَ المجـدُ وإن بَلَوْنَا الناسْ فَـهُمْ لَكُمْ ضِـدُّ
حَلَيْـتِ الدنيـا من بعـد تَعْطِيـلِ
وجاءنـا يحيـى بَيْـنَ البَهاليـلِ
أغـرُّ بالعلْيـا من فَـوْقِ تَحْـجِيـلِ
يختـال في أثـوابْ طِرازُها الحَمْـدُ وأفـرطَ الإينـاسُ فـمـا له حَـدُّ
بينـا أنا شـاربْ لِلْقَـهْـوَةِ الصِّـرفْ
وبَيْنَنـا تائـبْ لكن على حَـرْفْ
إذْ قـال لي صـاحبْ من حَلْبَـةِ الظُّـرْفْ
نديمُنا قَـدْ تـابْ غَنِّى لـه واشْـدُ واعْرِضْ عليه الكاسْ لَعَـلَّ يَرْتَـدُّ

وقد وصفه في هذه الموشحات بالجود والكرم والأريحية وطيب النفس والشرف والمروءة والسخاء، وانه من بيت عز، ومنبت فضل، وأشرف القضاة، تحلى بالحلم والاناة، وجده عشرة كان يقاتل العداة، وأنه ينتمي إلى سلالة عريقة في الفخر والسؤدد الموروث عن الآباء والجدود، ولعله يشير بذلك إلى أسلافه الأولين من ءال المدبر.

هذا ما وقفنا عليه من أخباره وآثاره، وهي قليلة جداً. ولم نقف على تاريخ وفاته.

أبو يعقوب يوسف بن
علي ابن عشَرة السلاوي

هو رابع الإخوة أبناء القاضي أبي الحسن علي ابن عشرة المتقدم الذكر.

ويظهر أنه كان سيدا في أسرته، معظما في عشيرته، كبقية إخوته. وقد مدحه كما مدح إخوته الشاعر الوشَّاح الأعمى التطيلي بموشحه الذي يقول فيه :[188]

كيفَ السبيلُ إلى صبري وفي المَعالِمْ أشجانُ
والرَّكْبُ وَسْطَ الفَلاَ بالخُرَّدِ النَّوَاعِمْ قَدْ بانوا

أقبلن يومَ الحِمَى في سُنْدُسيَّات الحُلَلْ
بيضُ مَطَلِّ الدُّمَا سودُ الفُروعِ والمُقَلْ
فيا مُعَنَّىً بِمَا لَوْ ناله نالَ الأمَلْ

دون ذَواتي الحُلَى لِلسَّيف بالصَّوارِمْ حِرْمَانُ
أَبْغِ النَّجاةَ ولا يَغْرُرْكَ بالضَّراغِمْ غِزْلاَنُ

لم يَدْرِ شيئاً سِوَى تَعْذِيبِهِ لِصَبِّهْ
وما شَكَوْتُ الْهَوَى إليْهِ خَوْفَ عَتْبِهْ
وكُنْتُ قَبْلَ النَّوَى مُكْتَتِماً لِحُبِّهْ

فَعِنْدَمَا رَحَلاَ فاضَتْ بِدَمْعٍ سَاجِمْ أجفانُ
أَطْلَعْنَ مِنِّي عَلَى سِرِّي وَهَلْ للهائمْ كِتْمَانُ

أَهْدَى إِلَيَّ السُّرورْ بَحْرٌ يَفيضُ بالمِنَنِ
إِنْ حاربَتْني الدُّهورْ فهو حُسامي والمِجَنْ
فقُلْ لكُلِّ فَخُورْ مِثْلَ أبي يعقوب

ذاك الذي كَمُلا وفي جميع العالمْ نُقْصَانُ
وطالَما عَدَلا وللزَّمانِ الظالمْ عُدْوانُ

188) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 272

ذو ســوددٍ لاَ يُنــالْ لو تَبِـعَتْـهُ الأ نجُـــمْ
إذا تَذَكَّـرتَ النِّـزالْ فهو الجرِيُّ المِقْـدَامْ
وإن طَلَبْتَ النَّـــوالْ فَهْوَ الجوادُ المُنْعِـــمْ
تَاللَّـهِ مُــذْ بَـــذَلا مـا قَـامَ للقـائـمْ مًـــيـــزانُ
اضْــرِبْ بِهِّ المَثَـلا فَـإنَّ جُـودَ حــاتِـمْ بُهْــتَـــانُ
ومُــزْمِــعٍ للسَّــفَـرِ لَمْ يَرْضَ غيري مُسْتَشارْ
فقـالَ تـدري سَـفَري هُمُ علَى البَـحْـرِ بِحَـارْ
فَـقُلْـتُ سِـرُّ الخَـبَـرِ عندي تَجِـدْهُ باخْـتِـصَارْ
إن جِئْتَ أرضَ سـلا وافَـــاكَ بالْـمَـكـارِمْ فِـــتْـــيَـانْ
هـم سُـطُـــــورُ ويوسـفُ بْنُ القاسـمْ عُـــنْـــوانْ

وهذا الموشح هو الذي اقتفاه ابن الصبَّاغ الجذامي بموشحه في مدح أخيه القاضي أبي العباس أحمد، وضمَّن فيه البيتين الاخيرين كما تقدم في ترجمته.

ولم نقف على تاريخ وفاته بالضبط، ولعله توفي قبل استيلاء عبد المومن على سلا.

عبد الرحمان بن يوسف
ابن عشرة السلاوي

هو ولد يوسف المتقدم، وكان رجلا زاهدا ياوي إلى أهل الخير والصلاح ويلازمهم. ولا نعلم عنه إلا ما ذكره في «التشوف» في ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سالم الشلبي.

وأصْل هذا الشيخ من شِلْب بعُدوة الأندلس، وانتقل منها عقب قتل الثائر أحمد بن الحسين، المعروف بابن قَسِي، سنة ست وأربعين وخمسمائة (546/1151).

فنزل أولا بمدينة سلا، ثم استقرَّ بفاس إلى أن مات بها رحمه الله.

وعليه، فإنَّ عبد الرحمان بن يوسف ابن عشرة، كان حيًا موجودا في التاريخ المذكور.

قال في «التشوف» :[189]

حدثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري قال :

وَاصَلَ أبو عبد الله بن سالم أربعين يوما، قال : وحضرتُ معه أنا ووالدي، وعبد الرحمان بن يوسف ابن عشرة بموضع يعرف «بدار أم القاضي» على ساحل البحر، فأهويتُ بيدي على نبات من الأرض لاقطعه منها، فنهاني عنه، وسمعته يقول لأبي : لِمَ يقْطعه عبثاً من غير حاجة إليه ؟ فكم من حيوان يأكل منه، وكم من حيوان يستظل تحته، ثم أكلنا طعاما، فلفَّ بقيته في منديل، فوصل إلى منزله وفتحه، فوجد فيه جماعة من النَّمل، فقال : غرَّبت هذا النَّمل عن مواضعها، فحملها حتى أعادها إلى المكان الذي كانت فيه.

عبد الله بن يوسف ابن عشَرة السلاوي

كان زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، وهو أخو عبد الرحمان المتقدم.

وقد ذكره في «التشوف» في ترجمة أبي علي الشريشي البكّاي، دفين الزاوية الدرقاوية السلاوية، قال :[190]

حدثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري، قال : كان أبو علي – يعني الشريشي – قد جال في البلاد المشرقية، وحجَّ نحو عشرين حجة، وقدم مراكش ثم خرج منها، فنزل على علي بن حمدون بمدينة سلا.

وحضر جنازة الزّاهد الفاضل عبد الله بن يوسف بن علي ابن عشرة رحمه الله، وهو من أهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

والظّاهر أن عبد الله بن يوسف هذا، هو صاحب الضريح والمسجد المنسوب إليه بحي باب حسين من سلا، إذ هو – كما يقال – من بني عشرة، وكذلك سيدي علي مليح، صاحب الضريح المتصل به، وسيدي قاسم غليظ، صاحب الضريح المشهور أيضا قبالته.

---

189) ص 281، طبع الرباط

190) ص 182، نفس الطبعة.

وأسرة غليظ بسلا، تُنسب لبني عشرة. وقد انقرضت، أوْ أوشكت على الانقراض.

وتعرف هذه الأضرحة برجال الحفرة بسلا، وبناؤها وطرزها يوحى أنها من الأبنية القديمة التي بُنيت في العهد المريني شكلا ومنظرا وهَيْأة.

فالمسجد على طراز المساجد المرينية بسلا، كمسجد المريني، ومسجد الزرقاء، وغيرهما، وكان يعرف فيما مضى - كما في الحوالة الحبسية القديمة - بمسجد الحفرة، وعليه أحباس مُهمَّة معلومة.

عمر بن الحسن بن داوود
ابن عشَرة السلاوي

لا نعلم من خبره إلاَّ ما ذكره في «التشوف» أيضا في ترجمة الشيخ الكبير أبي عمران موسى الدكالي، لمَّا حكى قِصَّة دفنه، وتنازع أهل سلا فيه فقال :[191] حدثني عمر بن الحسن ابن داوود ابن عشرة قال :

كنت فيمن حضر جنازة ابي عمران موسى، وأنا يومئذ شاب، وكانت لنا أرض مُحبَّسة لدفن موتى المسلمين، فحفرتُ فيها قبرا، وأتيت إلى نعشه -وقد غلب الظلام- فسللته من فوق النعش واعتنقته، وحملته إلى القبر فدفنته، والناس يظنون أنه باق على النعش، فأعلمتهم أني دفنته بالأرض الحبس، فأقاموا على قبره يسْمرون عليه باللَّيل، ويقرأون القرآن بالنهار. فلَمَّا كملت سبع ليال، غلبهم السَّهر، فناموا فما انتبهوا إلا وقد نُقِلَ من ذلك القبر إلى قبر حَفَرَتْهُ له ملالة بنت زيادة الله في رابطة القوْم، وعملت عليه قُبة أَنفقت عليها خمسمائة دينار...[192].

وهو من أهل القرن السادس الهجري، (الثاني عشر الميلادي)

ولا نعلم شيئا من أخبار والده الحسن، ولا جده داوود، ولا كيفية ربط انتسابه بنسب باقي الأسرة.

---

191) كتاب «التشوف»، ص 188، طبع الرباط.

192) القُبَّة التي على ضريح أبي عمران موسى الدكالي الآن، ليست هي القبة التي بنتها ملالة المذكورة في هذا الحديث، لأن السلطان المولى اسماعيل جددها وأعادها لما بنى قصبة العبيد قرب الضريح المذكور

القاسم بن عبد العزيز
ابـن عشَـرة السـلاوي

لا نعلم عنه إلا ما رواه عنه ابن الزيات في كتابه «التشوف» في ترجمة الشيخ أبي عمران موسى الدكالي أيضا قال :(193)

«حدثني محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري قال : حدثني القاسم بن عبد العزيز ابن عشرة قال : مررت بأبي عمران موسى و هو ياكل عسلوجا من عساليج الكلخ فناولنيه، فأكلته فوجدته طيبا ...»

وهو كذلك من أهْل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

وليست لدينا معلومات عن والده عبد العزيز ولا كيفية اتصال نسبه بنسب باقي الأسرة العشرية.

أبو الحجّـاج يوسـف بـن
علي ابن عشرة السـلاوي

ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل و التكملة» و قال فيه :(194)

أبو الحجاج يوسف بن علي ابن عشرة، روى ببلنسية عن أبي عبد الله ابن المواّق، ثم ذكره في ترجمة محمد بن يحيى بن أبي بكر بن خلف الشهير بابن المواق، وعدّه من جملة من أخذ عنه.

ولم نقف من أخباره على أكثر من هذا، ولا على تعيين تاريخ وفاته بالضبط.

وهـو من أهـل القرن السابـع، لأن شيخـه ابن المـواّق، توفى سنـة اثنـين وأربعيـن وستمـائـة (1244/642).

---

193) ص 188.

194) مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

قاضي سلا أبو علي
الحسن ابن عشَرة السلاوي

أبو علي الحسن ابن عشرة، ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة»، ولم نقف على ترجمته لفقدان حرف الحاء من النسخة المخطوطة التي بين أيدينا.

كان متوليا خطة القضاء بسلا سنة ثمان وخمسين وستمائة (1259/658) في أول عهد الدولة المرينية، ولعل المرينيين جبروا كسر الأسرة بولايته، لأن قضاء سلا كاد أن يكون مقصورا على العشريين في عهد المرابطين، وزُحْزِحُوا عنه، وغض منهم في عهد الموحدين، فاستردوه بولايته في عهد بني مرين.

ويظهر أنه كان سيدا فاضلا كريما نبيلا، جاريا على سنن أسلافه في الجود والكرم؛ فقد ذكر ابن رشيد في «رحلته»[195] أنه كان مألفا للفضلاء عليه ينزلون، وبفنائه يحطُّون، ومنهم القاضي أبو يحيى أبو بكر بن هشام القرطبي.

وذَكَرَهُ أبو العباس أحمد بن عذاري في «البيان المعرب» وقال:[196] إنه كان من جملة من أَسَرَهُ الأصبانُ من أعيان سلا لمَّا دخلوها في الوقعة المعلومة، وفداه السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني في جملة من فداهم من الأسرى السلاويين، واستنقذهم من أيدي أعدائهم.

ولعلَّه من حفدة القاضي أبي الحسن ابن عشرة الذي تقدمت ترجمته، المتوفي سنة اثنتين وخمسمائة (1108/502) إذ بينهما ما يزيد على مائة وخمسين سنة.

ولا ندري حلقات اتصال نسبه، ولا تاريخ وفاته بالضبط الآن رحمه الله تعالى.

ولعل أفراد بعض هذه الأسرة العشرية السلاوية انتقلوا من سلا إلى تونس لأسباب مجهولة عندنا واستقروا بها.

- منهم الرجل الذي لقيهُ ابن عرفة، وسأله عن سببه ونسبه، كما سيأتي في الفصل المعقود لما ذكره الفقهاء في أسطورة بني عشرة.

---

195) مخطوط الاسكريال 2 41.

196) ص 198 من ج 3، طبع الرباط.

– ومنهم شخص آخر اسمه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم السلاوي، يَمُتُّ إليهم بصلة نسب، أعرف أنه ذكره ابن رُشَيْد في «رحلته»، وأنه اجتمع به في تونس، ولم تحضرني ترجمته الآن.

وعلى كل حال، فإنَّ هذه الأسرة التي يُنْسب اليها عُمْران سلا، لم تزل مقصد القاصدين وملجأ اللاَّجئين، وملاذ اللاَّئذين بهذه المدينة، منذ نزل بها جدهم عشرة، في زمن اليفرانيين، مسموعة الكلمة، متبوعة العقب، معظمة الجانب، مرفرعة الرأس، مرموقة بعين الإجلال والاعتبار بالمغرب والأندلس، في عهد المرابطين، وابتداء دولة الموحدين، وحتى في دولة بني مرين زهاء ثلاثة قرون من السنين.

وقد ذكر القاضي عياض في «البغية» :[197] «أن العلامة أبا محمد عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي، المعروف بابن شبونة، نزل ببني عَشَرَة بسلا سنةً فأكرموه وتوسعوا له، ودرس عندهم، ثم انتقل الى أغمات. وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يعرف حقَّه ويكرمه...»

ولمَّا فاخر لسان الدين ابن الخطيب بين سلا ومالقة، وقابل بين قلة أعيان الاولى ووفرة الثانية قال:

«وسلا المسكينة، لا تعرف لعِشْرتها، إلاَّ ابناء عَشْرتها». وفي ذلك دليل على وجودهم بارزين فيها، معدودين من أعيانها في وقته، لمَّا كان ثاويا بها أوائل النصف الثاني من القرن الثامن الهجري.

والعِشرة، بالكسر، اسم من المعاشرة والتعاشر، وهي المخالطة.

وعليه، فإن عِشْرتها في الفقرة الأولى، (بكسر العين وسكون الشين)، اسم من المعاشرة والتعاشر، وعَشْرتها في الفقرة الثانية (بفتح العين وسكون الشين ايضا)، يعني بها بني عشرة، وفيها الجناس اللفظي التام، وهو اتفاق الكلمتين في انواع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، ولا يكون الاختلاف الا بالحركة لا غير، كقول الشاعر:

فَقُلْتُ لِلاَئِمي أَقْصِرْ فَإِنِّي   سَأَخْتَارُ المَقَامَ عَلَى المُقَامْ

فالأول بفتح الميم والثاني بضمها...

---

197) ورقة 84، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

وبعد هذا الظهور والشهرة والذكر الشائع الدائع، اختفت هذه الأسرة من ميدان التاريخ وعالم الظهور، وتقلّص ظلها، وخفت صوتها، وإن بقي أفراد منها يعيشون عيشة الخمول كعامّة الناس، مندمجين في غمارهم، يُعرفون في سلا على ما يقال بأولاد غليظ، وقد انقرضت أسرة غليظ أو أشرفت على الانقراض، ولم يبق منها في علمنا إلا شخص واحد، وبذلك أسدل الدهر عليها ستار الغموض والنسيان، فلم نر لها، منذ ذلك العهد، في سجل من سجلات التاريخ ذكرا، ولم نقرأ عنها في صحف الأيام سطرا، فذهب أعيانها وعيونها في الذاهبين الأولين، واتبعنا بعضهم بعضا، وجعلناهم أحاديث ومثلا للآخرين، والبقاء والدوام صفة رب العالمين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين :

وإنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعى

ورحم الله ابن الخطيب اذ يقول :

يَمْضِي الزَّمانُ وَكُلُّ فانٍ ذاهِبٌ إلاَّ جَميلُ الذِّكْرِ فَهْوَ باقي
لَمْ يَبْقَ مِنْ إِيوانِ كِسْرَى بَعْدَ ذا كَ الْحَفْلِ إلاَّ الذِّكْرُ في الأوْرَاقِ
هَلْ كَان للسَّفَّاحِ والمَنْصُورِ والْـ مَهْديَّ مِنْ ذكرٍ عَلى الإطْلاقِ
أوْ لِلرَّشيدِ ولِلأَمِينِ وصِنْوِهِ لَوْ لاَ شَبَاةُ يَراعَةِ الوَرَّاقِ
رَجَعَ التُّرابُ إِلَى التُّرابِ بِما اقْتَضَتْ في كُلِّ خَلْقٍ حِكْمَةُ الخَلاَّقِ
إلاَّ الثَّنَاءُ الخالِدُ العَطِرُ الذي يَهْدي حَديثَ مَكَارِمِ الأخْلاقِ

وحيث علمنا ممَّا تقدَّم، أصل هذه الأسرة العريقة في القدم، ومن أين جاءت، وما بلغته من الرفعة والظهور، فيما سلف من الأزمنة الغابرة والدهور، بهذه المدينة السلاوية، فلا باس أن نختم دراستنا هذه، بما ذكره الفقهاء فيها، ومازعموه من أنَّهم وُلدوا عشرة في بطن واحد، ولذلك سُمُّوا «ببني عشَرة» تتميما للفائدة واستيفاء للموضوع : وإن كانت القَوْلة في ذاتها أسطورة منقولة مَقُولَة، فنقول .

المبحث العاشر

ما ذكره الفقهاء في بني عشرة
وأنهم ولدوا في بطن واحد

ذكر العلامة الرهوني في «حاشيته» على شرح العلامة الزرقاني «لمختصر» الشيخ خليل، والعلامة ابو عبد الله محمد بن المدني جنُّون في «حاشيته» ايضا[198] عند قول المصنف : وَوُقِّفَ القَسْمُ للحَمْل، يعني قسم التركة، نقلا عن الإمام ابن عرفة، رحمه الله، وتبعهم على ذلك جماعة من الشُّراح والمحشِّين على فرائض «المختصر»، «وتحفة» ابن عاصم، يُقلِّد بعضهم بعضا، كل منهم يقول :

«سمعتُ من غير واحد ممَّن يوثق به، أن بني عشرة الذين بنى والدهم مدينة سلا بأرض المغرب كان سبب بنائه لها، أنه وُلِدَ له عشرة ذكور من حمل واحد من امرأة له، فجعلهم في مائدة، ورفعهم الى أمير المومنين يعقوب المنصور الموحدي، فأعطى كل واحد منهم الف دينار، وأقطع أباهم أرضاً بوادي سلا، فبنى بها مدينة تعرف الآن بمدينة بني عشرة، وبَنَى يعقوب المنصور الموحدي مدينة تسامتها، يفصل بينهما الوادي.

ثم قال . رأيت في هذا الوقت رجلا يعرف بابن عشرة، فسألته عن نسبه وسببه، فذكر لي مثل ماذكرته.»

ونقله ابن مرزوق وسلَّمه، واعترضه ابن غازي بقوله : «كأنه لم يقف على ما في رسم الحبُس من قسم الغرباء من «تكملة» ابْنِ عبد الملك، اذ قال :

---

198) ص 343 من ج 8 طبع القاهرة.

يقول بعض الأغمار، إن سبب هذه الشهرة أنهم كانوا إخْوة توائم، فسُئل عن ذلك أحد أعقابهم فقال : جعلوا أُمَّنا خِنزيرة تَلِدُ عشرة، حسيبهم الله.»

وهنا تصحيف فاحش يجب التنبيه عليه، وهو أنَّ كتاب «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»، وهو كتاب تراجم للاعيان والاعلام، مرتب على حروف المعجم، لا كتاب فقه وأحكام، وضعه مؤلفه ذيلا وتكملة لكتابي «الموصول» في تاريخ علماء الأ ندلس لابن الفرضي، المتوفى سنة ثلاث واربعمائة (1012/403)، وكتاب «الصلة» في أخبار أيِّمة الأندلس لابن بشكوال المتوفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (578 /1183)، ومن اصطلاحاته التي درج عليها في تصنيفه أنَّه يُعَبِّر عن ترجمة من ترجم لهم من الاعلام بقوله : رسم فلان، يعني تمثيله وتصويره، أوْ ذكر ما بقي من أثره، ومنها أنه يخصِّص قسما في كل حرف من حروف الهجاء التي رتب عليها كتابه للغرباء، يعني الذين ليسوا من أهل الأندلس، ولذلك قال في مستهل ترجمة ابي الحسن على ابن عشرة : وقد تقدم بيان هذه الشهرة في رسم ابي علي الحسن منهم، يعني في ترجمته.

وعليه، فليس المقصود بالرسم وثيقة حُبُسٍ على الغرباء، وإنَّما تصحَّفت لفظه رسم على الناسخ والناقل الأول، ولم يفهم معناها الاصطلاحي الذي درج عليه المؤلف، وظنَّها رسم وثيقة، وظنَّ أنَّ لفظ الحسن تصحَّف عن لفظ الحبس، ورأى لفظة الغرباء، فظنَّ أنَّ الحبس على الغرباء، أوْ تصحَّفت عليه لفظة حسن بلفظة حبس لتشابه حروفهما خطّاً، وأضاف لها لفظة الغرباء وظنَّ أنَّ الحبس على الغرباء، وليس تم حبس ولا غرباء. ونقله من أتى بعده من النَّقلة من غير تثبت ولا فحص ولا مراجعة للنصوص، وسرى ذلك التصحيف أو التحريف إلى الشارحين المحشّين يُقلِّد بعضهم بعضا. والتصحيف أسرع سيرا من الكهرباء في الأجسام الموصلة، وإلاَّ فليس في «ذيل وتكملة» ابن عبد الملك في رسم حسن ابن عشرة كلام على حبس الغرباء، وإنما فيها الكلام على الأسطورة التي يقولها بعض الأغمار على حَدِّ تعبيره، وهي أنهم إخوة توائم وُلِدوا في بطن واحد، حتى تبرأ أحد أعقابهم من ذلك قائلا :

«جعلوا أمنا خنزيرة تلد عشرة، حسبيهم الله».

ويوخذ من ذلك أن الناقل الأوَّل، وقف على حرف الحاء المفقود من الكتاب الآن، ونقل منه، كما يؤخذ أيضاً أنَّ هذه الأسطورة كانت رائجة شائعة متداولة في عهد ابن عبد الملك في القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وقد تكلم المحشُّون في صراحة هذا النفي وثبوته وإبهامه وعدمه، بما يُعْلم من الوقوف عليه في محله، وزادوا في تعضيد وقوع هذه القصة، بما نقلوه عن الذهبي في «تاريخ الإسلام»، وهو :

أن البريد أتى من اليمن في سنة ثمانين وستمائة (1281/680) مخبراً بأنَّ امرأة من اليمن ولدت عشرة أولاد في بطن واحد فسموهم «بنو العشرة»، بل وقع ما هو أغرب منه، وهو ما نَقَلَهُ الحافظ السخاوي عن «تاريخ بخاري» لغُنْجَار من حديث محمد بن الهيثم بن خالد البجلي، الحافظ قال : كان ببغداد قائد من قواد المتوكِّل، وكانت امرأته تلد البنات، فحملت مرة، فَحَلَفَ إنْ ولدت هذه المرة بنتا لَيَقْتُلَنَّها بالسَّيْف، فلمَّا قربت ولادتها، وجلست القابلة أمامها، ألقت مثل الجريب، وهو يضطرب، فشقوه، فخرج منه أربعون ابنا وعاشوا كلهم ؛ قال محمد بن الهيثم : وأنا رأيتهم ببغداد ركبانا خَلْفَ أبيهم، وكان اشترى لكل واحد منهم ظهرا.

وفي «تاريخ الإسلام» للذهبي أيضا : أنَّ امرأة ولدت ببغداد في ايام المامون شيئا كالجراب، فتحرَّك، ولمَّا فتحته القابلة، وجدت فيه اربعين ولدا كالأصابع، وكلهم ذكور، فرفع خبرها الى المامون، فأمر أنْ يجعل لها مراضع، وعزلها في دار، وأجرى عليهم النفقة الى ان ادركوا كلهم، وجعلهم في جملة جنوده، وزوجهم، واعطاهم الدُّورَ للسكنى بمحل واحد، وكانوا يسمونهم : «بنو الأربعين».

وفي «تاريخ الاسلام» أيضاً في حوادث سنة ست وسبعين وستمائة (676 / 1277) أنَّ امرأة ببغداد ولدت اربعة نفوس في بطن واحد فطلبهم الخليفة حتى رءاهم وتعجب منهم، وأمر لأُمهم بستمائة دينار.

ونقل هذه القصة الشيخ ابو عبد الله محمد بنيس في «شرحه» لفرائض «مختصر» الشيخ خليل، وعلَّق عليها مُحَشِّيه، العلامة ابو محمد عبد الله ابن خضراء السلاوي[199] بأن سلا من الأمصار القديمة وكلام الشارح محمول على قطعة من ارضها. ونقل نَصَّ ابن خلدون المفيد أنَّ قصر بني عشرة كان موجودا زمن عبد المومن، ونصَّ «نفح الطيب»، وأبيات الوزير ابن الحمارة في هذا القصر، كما تقدم في محله.

قلت : ومن هذا القبيل ما وقفتُ عليه قي كتاب «أخبار و تراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للحافظ السلفي»[200] راوياً ذلك عن أبي محمد عبد الله بن تويت ابن الوران اللمتوني، وكان رجلا صالحا من أمراء المرابطين قدم المشرق حاجّاً وطالبا للعلم، فحضر عنده وقرأ عليه، قال بعدما ذكر نوادر من شواذ المخلوقات الآدمية :

---

199) ص 228، طبع فاس.

200) ص 59، طبع بيروت.

وقد رايت بفحص الأندلس (إشبيلية) امرأة ولدت أول ولادتها ولدا، ثم في المرة الثانية ولدين، وفي الثالثة ثلاثة، وفي الرابعة أربعة، و في الخامسة خمسة، و في السادسة ستة، وقي السابعة سبعة، في بطن واحد. وأيِسَتْ من روحها، وأشرفت على الهلاك. ثم امتنعت عن زوجها، وأبت أن تطاوعه، واشتهر أمرها عند الناس بأقطار الأندلس.

و الذي يظهر لنا في هذه القصة – قصة بني عشرة السلاويين – أنها موضوعة، أو خرافة مصنوعة. والدليل على وضعها أو صنعها ليس استحالة ولادة عشرة في بطن واحد، وإنما هو أنهم يقولون إن والد هؤلاء العشرة حملهم في مائدة إلى يعقوب المنصور الموحدي... ما جاء في القصة، مع أن الثابت تاريخيا هو أن بني عشرة كانوا بسلا وأسسوا دورهم حول الجامع كما تقدم نقلا عن «الاستبصار»[201] ومصّروها و عمّروها، و عندهم نزل المهدي بن تومرت واضع أسس دولة الموحدين، وعبد المومن بعده نزل بقصرهم، ويعقوب المنصور إذ ذاك لازال في عالم الذر، ولم يكن شيئا مذكورا، والدولة الموحدية لازالت لم تبرز لعالم الوجود، والزمن الذي عينه المؤرخون لنزول عشرة جد الأسرة بأرض سلا، هو الربع الأخير من القرن الرابع الهجري الموافق لأواخر القرن العاشر الميلادي، و بينه وبين يعقوب المنصور الموحدي ما يزيد على قرنين من الزمن.

وهذا دليل قاطع على بطلان هذه الأسطورة.

و الحقيقة أنهم سُمُّوا «ببني العشرة» لأن جدهم كان يسمى عشرة، فنُسِبوا إليه، وما زال الناس يُسَمُّونَ بالأعداد قديما وحديثا، خصوصا بالأندلس كما تقدم تحريره في فصل سبب تسميتهم ببني عشرة.

أما ولادة أربعة، وخمسة، وستة، وسبعة، فما فوق إلى عشرة في بطن واحد، فليس بغريب، وقد يقع ويتحدث الناس به في كل زمان ومكان. ولكن، ولادة أربعين لم نسمع بها حتى الآن، إلا فيما نقله الفقهاء، كما تقدم عن «تاريخ الإسلام» للذهبي ؟

ومن هذا القبيل، ما نقلته الجرائد المحلية والخارجية أثناء اشتغالنا بتحرير هذا الموضوع.

– وهو أن امرأة فرنسية ولدت بإحدى مصحات باريس خمسة أولاد في بطن واحد، بعد أن كانت تتناول علاجا من الهرمونات للتغلب على العقم.

---

201) ص 140 طبع الإسكندرية.

– وأخرى بمدينة بنجارات «Punjarat» على بعد أربع وأربعين كيلو ميترا شمال شرق داكا «Dacca» بالباكستان، ولدت تسعة أولاد، في بطن واحد، والتعسة في حكم العشرة، ووالدهم ووالدتهم لا يتجاوز سنهما ثلاثا وعشرين سنة.

و قالت الجريدة الناقلة لهذا الخبر، إنه حدث غير طبيعي، ناشيء عن الأدوية التي يتعاطاها بعض النساء لأجل الولادة، كما يتعاطين أدوية أخرى لأجل العقم وتحديد النسل.

و بعد تسجيلنا لما ذكرأعلاه، صارت الصحف تعلن من حين لآخر، ولادة الثمانية والتسعة في بطن واحد.

ثم أعلنت الصحف أخيرا أن امرأة ايطالية بروما كانت حاملا من أربعة أشهر، وأجريت لها عملية جراحية مستعجلة، فوجد في رحمها خمسة عشر جنينا، عشرة ذكور وخمس بنات، وهو ما ألحقناه في الصحف المضافة لهذه الصحيفة.

والملاحظ هو أن هؤلاء التوائم لا تقَدَّرُ لهم حياة و يموتون إثر ولادتهم.

ونحن نقول : إن قدرة الله صالحة لكل شيء، ولا يعجزه سبحانه وتعلى شيء، وإنما نريد أن نثبت الحقائق التاريخية، وما خالف العادة الطبيعية البشرية، ولله سبحانه وتعالى في خلقه شؤون، وهو الخالق الباريء المصور القادر على كلّ شيء، ولا يعجزه شيء، ويفعل ما يريد، يهب لمن يشاء الذكور، ويهب لمن يشاء إناثا أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، وله الخلق والأمر، والله أعلم.

الفصل الثاني

عن سلا والقصبة وآثارهما
في عهد المرابطين

مبحث فريد

المرابطون بالعدوتين

* الضفة اليمنى

لمّا أدال الله الدولة للمرابطين، كانت سلا في عهدهم صارت مدينة عامرة مستكملة شروط التمدين والعمران بما أحدثه فيها بنو يفرن وبنو العشرة - السابق ذكرهم - من الأحياء، والقصور، والدور، والمنازل، وغير ذلك مما تستدعيه العمارة من مختلف البنيان، كالمساجد، والأرحاء، والأفران، فاهتمُّوا بها لموقعها الجغرافي من المملكة.

و أسّسوا عمالتها الواسعة النطاق، من المحيط الأطلانطيقي إلى بحر الزقاق، يعني مسافة نحو سبعة أيام.

وكانت منها تصدر الأوامر، وفيها تجتمع الجيوش المتنقلة بين شمال المغرب وجنوبه، والعابرة إلى الأندلس، مع اتِّصافها بالصِّبغة الدينية، والسُّمعة الجهادية، في الفئة الضّالة البَرَغْواطية.

و إلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في أرجوزته المسماة «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار العدوتين : الرباط وسلا» :[202].

ثُمَّ أدال الله للمرابطينْ ... وِلايةَ الغَرْبِ بِعِزِّهِ المَتِينْ

فأسَّسُوا عَمَلَهَا المَذْكورا ... ذَا السَّبْعَةِ الأيَّامِ عِ سُطورا

فَلَمْ تَزَلْ قُطْرًا عظيماً واسعاً ... والدِّينُ فِي الظِّلِ الوَرِيفِ رَاتِعا

202) مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

وفي أيام المرابطين، كان يتردَّد عليها أعيان الأندلس والمغرب الأوسط، واشتهر بها بنو عشرة، كما تقدم في أخبارهم بما هو أوعب وأبسط.

وخلَّف بها المرابطون آثارا تذكر، كالأسوار والحصون والمساجد، إلاَّ أنها عفا عليها الدَّهر، وطمست معالمها الأيام.

جامع الشهباء

ومن آثارهم الباقية بها جامع الشهباء، أُسِّسَ في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، لمَّا امتدت العمارة إلى ناحيته، وضاق المسجد القديم بحي الطالعة حول دور بني العشرة وقصورهم عن المصلين.

قالوا: وسُمِّي بِجَامِعِ الشهباء لكون امرأة شهباء، أو تسمى الشهباء كانت به تعلِّم النساء الضروري من أمور الدين.

والرَّاجح أنه سُمي بهذا الإسم لأن سقوفه كانت محمولة على أعمدة من الرخام الأصفر والأشهب، نقلت إليه من خرائب شالة، وكان بعضها ما زال موجودا إلى زمننا هذا، قبل إعادة بنائه. ولم يكن في بنائه الأول ضخامة ولا فخامة ولا فن ولا زخرفة، ممَّا يدلُّ على أنه بُنِيَ بسرعة للضرورة الداعية إليه في ذلك العهد بتلك الناحية من المدينة، لمَّا تناسق عمرانها، وكثر الازدحام بها، وهو – وان كان من المساجدالقديمة بسلا – فليس بالعتيق على التحقيق، لأن مسجد حي الطالعة كان موجودا قبله من عهد بني يَفْرَن، وحوله نزل بنو العشرة كما تقدَّم.

وقد كان تخرَّب وصار أطلالا بالية، وبقي مهجورا مُعطَّلا دهرا طويلا، إلى زمن السلطان المولى يوسف، رحمه الله، فأُصلِح ورُمِّمَ ما تلاشى من سقوفه وحيطانه، ولم يغير شيء من هيكله وهيئته، وأحدثت فيه خطبة الجمعة، وهل كانت فيه قبل ذلك ؟ لا ندري، وليس لدينا الآن نص صريح نعتمد عليه في الإثبات أو النفي. والظاهر أنه لمَّا تخرب المسجد الأول بحي الطالعة، نُقلَتْ إليه الخطبة مؤقتا، حتى أعاد أبو يوسف يعقوب المنصور بناءه، وأدمج فيه المسجد الأول، فعادت الخطبة إليه.

ولذلك لمَّا رُمِّم وأُصلح ما تلاشى من حيطانه، وأراد بعض أهل سلا إحداث الخطبة به، اختلفوا فيها، فكتبوا سؤالا لأهل العلم يستفتونهم في ذلك، فأفتاهم جماعة من الأعلام، مبيِّنين لهم حكم الشرع في تعدد الجمعة في الأمصار، الكبيرة والصغيرة.

وقد رأينا أن نثبت هذا السؤال والجواب عنه هنا لارتباطه بالموضوع، واتصاله به اتصالا محكما خشية ضياعه.

فتوى أهل العلم في حكم إحداث الخطبة بجامع الشهباء

السؤال :

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله، وكل من اهتدى بهداه.

سادتنا العلماء الاعلام، أئمة الهدى ومصابيح الظلام .

جوابكم الشافي، ونصحكم المُقْنِع الكافي عن مصر صغير، تُقام فيه جمعتان : إحداهما بمسجد قديم أُسس بنيانه صدر المائة الخامسة ولم تزل الجمعة قائمة فيه منذ بُني الى زمننا هذا.[203]

وقد كان جُدِّد بنيانه في المائة السادسة، لانهدام وقع فيه، وهو مسجد كبير جدا بحيث يسع اهل المصر وغيرهم كما هو معلوم[204].

والاخرى بمسجد اخر محدث بعده بكثير.[205] ثم إن ناظر الوقف أراد إحداث جمعة ثالثة من غير حاجة داعية لذلك ولاضرورة،[206] فهل أيها السادة الأجِلَّة يجوز إحداث ما ذكر لغير حاجة ولا ضرورة، وتَصِحُّ فيه الجمعه أم لا يجوز ولا تصح فيهِ ؟ أجيبوا جوابا شافيا ولكم الأجر والثَّواب من الملك الوهَّاب.

الجواب :

الحمد لله رب العالمين، وعليه اعتمد، وبه أستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين، وعلى ءاله وأصحابه أجمعين، وعلى من انتهج نهجهم، وطرق طريقهم من التابعين، الى يوم الدين.

---

203) المراد به المسجد الذي بنى بنو العشرة دورهم حوله.

204) المراد به المسجد الأعظم الموجود الآن.

205) المراد به مسجد الشيخ سيدي أحمد حجي.

206) المراد به جامع الشهباء.

أمَّا بعد، فالجواب بتوفيق الله ومعونته عن السؤال أعلاه، أنَّ إقامة الجمعة في أكثر من مسجد واحد من غير ضرورة داعية الى التعدد مِمَّا أجمع على منعه الأئمة الاربعة الذين استقرَّ اجماع المسلمين على تقليدهم : مالك، والشافعي، واحمد بن حنبل، وأبو حنيفة.

بل مَنْعُ التعدد حينئذ لم يخالف فيه من أيمة المذاهب كلها، ولو غير الاربعة، الا داوود الظاهرى، وعطاء، ومحمد بن الحسن في احد قَوْلَيْه، كما حكى ذلك أصحاب خلاف الأئمة واتفاقهم، كالحفيد في البداية، والشعراني في الميزان، وفي خصوص نصوص أئمة مذهبنا قال ابن الحاجب : «وفي تعددها بالمصر الكبير، ثالثها إنْ كان ذا نهر أوْ معناه مما فيه مشقة.»

ومثله لابن جزى في «قوانينه»، ونصه : «وفي صلاة الجمعة في مسجدين في مصر واحد ثلاثة اقوال، يُفَرق في الثالث بين أنْ يكون بينهما نهر من ماء وما في معناه أمْ لا، واذا قلنا بالمنع صحَّتْ جمعة الجامع الاقدم». وقال الشافعي: «من جمع اولا صحَّت صلاته». قال ابن عبد السلام : «والتوضيح المشهور المنع برعاية لفعل الأولين وطلبا لجمع الكلمة، والجواز ليحيى بن عمر، والتفصيل لابن القصَّار». وما نسباه ليحيى بن عمر من الجواز، ليس على إطلاقه، بدليل كلام ابن عرفة، و نصه ·

و لا تقام بموضعيْ مصر، ابن عبد الحكم و يحيى بن عمر، ان عظم كمصر فلا باس بها بمسجدين، ابن القصار إذا كانت ذات جانبين كبغداد، اللخمِي، إنْ كثروا وبَعُدَ من يصلي بأفنيته، فأنت ترى مذهبنا انحصر في ثلاثة أقوال :

– **الأول** : المنع، و لو في المصر الكبير جدا كمصر، وبغداد، وهو المشهور كما رأيت لإبن عبد السلام، و تبعه خليل في التوضيح، و لذا اقتصر عليه في المختصر، الذي هو مبين لما به الفتوى بقوله · بجامع متحد.

– **الثاني** : إذا عظم البلد كمصر و بغداد، جاز تعددها بمسجدين، وإلاَّ فلا. وظاهر هذا القول، أنه لا يجعل ثالثاً أصلا، وهو الذي صرح به القاضي عبد الوهاب في المعونة ونقله في المعيار جازما به، قائلا : لم أرَ جواز أكثر من اثنين و لو للضرورة، إلاَّ لابن بشير في تنبيهه. و صرَّح العلامة سيدي الطالب بن الحاج بِأنَّ جواز الثالث فَمَا فوق إنما هو قول خارج المذهب.

– **الثالث** : إنْ كان المصر الكبير ذا نهر أوْ نحوه من حاجز يعسر معه الذهاب للمسجد جاز التعدد في مسجدين، وإلاَّ لم يجز إلاَّ في المصر الكبير، فان قلت :

إذا مشيْنا على القول من عدم التعدد، وكان المسجد الواحد لا يكفي أهل البلد أو على القول الثاني، الذي هو جواز جعل جُمُعتين فقط في المصر الكبير جدا، وكان الإثنان لا يكفيان أهله، أو على الثالث وهو أنه إذا كان هناك فاصل تحصل معه المشقة جاز التعدد في مسجدين فقط وإلاَّ فلا، وكان الواحد لا يكفي اهل كل جهة من جهتي البلد، فلا محيد حينئذ عن التعدد على قدر الحاجة من غير تقييد بالواحد ولا بالاثْنين، وإلاَّ لَزِمَ ان لا يصلي الجمعة جميع من تَلْزَمُه، قلت .

إن بَنَيْنا على المشهور وَجَبَ توسيع المسجد بما حوله من ربا ع الأحباس او ملك الناس، ويُجْبرون على بيعها بالقيمة، إذ هذا مما يُجبر فيه المالك على بيع ملكه، وإنْ بنينا على القول الثاني، وجب توسيع المسجدين كذلك، على ماجزم به صاحب المعيار من عدم جواز الثالثة فما فوقها، وانتصر له، وردَّ على من خالف فيه بعد أسئلة وأجوبة على منع ما زاد على اثنين ولو للحاجة، أخذا من كلام القاضي عبد الوهاب، و هو ظاهر كلام ابن جُزي في «القوانين»، وقد قدَّمتُ لك نصَّه، وكذلك يقال إذا ضاق مسجد كل جانب عن أهله، وأما عَلَى ما أفتى به الإمام سيدي محمد السَنوسي في نوازل الجمعة من المعيار، من انه لا بأس بإقامة الجمعة بثالث، وما زاد عليه على حسب الحاجة والضرورة فلا اشكال.

وبعد تبييض هذا، وجدتُ في المعيار من جواب لصاحبه، فان قلت :

إذا وقع التفريع والبناء على المشهور من منع تعدد الجمعة في المصر الكبير، فما الحكم اذا ضاق المسجد الجامع ورحابه عن حمل اهله، قلت : الحكم في ذلك وجوب الزيادة في الجامع حتى يحمل أهلَه، فإن كان ما حواليْه من الرَّبْع والعقار مملوكا جبر أربابه على بيعه بالقيمة، رشيداً كان مالكه أوْ سفيها. المراد منه، فالحمد لله على الوفاق، ولا يخفى أنَّ البناء على القول الثاني والثالث يجري فيه هذا كما ذكرناه.

وفي جواب لصالح المعْيار عن السؤال محصلُه : هل تصح الجمعة بجامع القرويين على وجه مشهور أوْ راجح في المذهب المالكي، ما نصُّ المراد منه : مقتضى النصوص المذهبية، المنعُ من تعدد الجمعة في المصر الواحد مع السعة والاختيار، وانتفاء الضرورة والاعذار.

وممَّن نصَّ على ذلك من شيوخ المذهب المالكي : اللَّخْمي والمازرى وابن الجلاب، وعبد الوهاب، وابن بشير، وغيرهم ممَّن لا يُحصى كثرة، ثم ذكر نصوصهم، ثم قال : فاذا تقرَّر المنع من تَعَدُّدِ الجمعة في الموضوع الواحد مع الاختيار، هل يجوز إنْ دَعتْ الضرورة إليه أم لا.

اختلف المذهب فيه على ثلاثة اقوال: فذكر الاقوال الثلاثة المتقدمة عن ابن الحاجب، وابن جزى، وقال : إنَّ القول الاول بالمنع في المصر الكبير كالصغير هُوَ المشهور المعلوم من المذهب عند الكثير، والجم الغفير من علماء الامصار، رعيا لفعل الاولين، وذكر له قبل ذلك توجيهات واعتبارات من كلام الأئمة، وأنَّ القول الثاني الجواز اذا دعت الحاجة الى ذلك في الامصار العظام، كمصر ودار السلام، ونسب هذا القول لأحمد بن حنبل، ومحمد بن الحسن، واختاره محمد بن عبد الحكم، واللخْمي، وبه العمل، وأنَّ القول الثالث : الجواز اذا كان البلد ذا جانبين كواسط، وبغداد، ولم يكن بينهما جسر، وهو قول الأبْهري وابن القصَّار، وابي يوسف، ووجَّهه اللخمي بانه يصير بذلك كالمدينتين، ومن هذا القبيل عدوتا الرباط وسلا، فلا تجوز اقامة الجمعة بهما معا الا على مقابل المشهور في المذهب، والحمد لله على جريان العمل به ايضا.

فأنتَ ترى صاحب المعْيار جعل موضوع الاقوال الثلاثة الضرورة والحاجة لا الاختيار، وعليه حملْنا كلام ابن الحاجب، وابن جزى أخْذًا من كلام ابن عرفة كما قدمتُه قبل أن أرى ما في المعيار، فلله الحمد.

وأمَّا قول صاحب العمل المطلق :

وألْغِ فيها شرطَ أن تَتَّحِدا في المِصْرِ بل يجوز أن تَتَعدَّدا

فهو مقيد بالحاجة والضَّرورة، وقد ساقه العلامة سيدي الطالب ابن الحاج في حواشي ميارة مساق التقييد، وصرَّح شيخنا ابو عبد الله جَنُّون في الاختصار بتقييده، وهو الذي يدلُّ عليه ما احال عليه ناظمه في شرحه من اجوبة الأئمة في المعيار، فانَّها كلها مقيدة بالحاجة كما يعلم من مراجعتها، فالتقييد مراد له قطعا، وقد تقدَّم قريبا قول صاحب المعيار في القول الثاني الذي هو جواز التَّعدُّد للحاجة، وبه العمل.

فبان بهذا، عدم جواز إحداث الجامع الثالث في صورة السؤال بحال، وأنَّ إحداثه من الحدث في الدين الذي يجب رده ونبذه، وقد قال صاحب الشرع ﷺ، من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، وانَّ الخلاف انما هو مع الضرورة والحاجة، وحيث لا حاجة ولا ضرورة، فلا يجوز الاحداث قولا واحدا في المذهب المالكي وغيره، ومن صلَّى الجمعة في هذا المسجد الثاني الذي أُريدَ إحداثه فصلاته باطلة تجب إعادتها ظهراً أبداً إنْ فات تداركها جمعة .

فإنْ قُلْتَ : هذا بعينه يجري في المسجد الثاني الذي أُحْدث بعد الاول في نازلة السؤال، قُلتُ : نعم هو كذلك بلا ريب بالنِّسبة الى زمن إحداثه، غير انه لمَّا طال عليه الحال، ومرَّت عليه السنون والأجيال يقال إنَّ الجُمعة صحيحة فيه بعد الوقوع والنزول، على مذهب عطاء، وداوود

الظاهري، واحد قَوْلَيْ محمد بن الحسن لا غير. لا يقال يشترط في ذلك نية التقليد عند الاقدام، ومن اين لنا ذلك، لأنّا نقول : قال في المعيار من جواب صاحبه المشار اليه قبل : يحملُ امرهم على التقليد، حتى يدل دليل على خلافه. قال بعض كبار مشايخ المذهب، الاوْلى عندي في كل مسألة يكون فيها لعلماء المذهب قولان، فيعمل الناس فيها على موافقة احدهما، وان كان مرجوحا في النظر ان لا يتعرَّض لهم، وان يُجْرَوْا على انهم قلدوه في الزمان الاول وجرى به العمل، بانهم ان حملوا على غير ذلك كان في ذلك تشويش على العامة، وفتح لابواب الخصام، ثم قال صاحب «المعيار» : لا يقال : انما يتنزل ماذكرتم عن ذلك الشيخ على نازلة القرويين، لأنّها جمعة ثانية، وفيها من الخلاف المذهبي ما قدمتم، والعمل فيها موافق للمرجوح في المذهب، يعني حيث انها بنيت في جانب مستقل من البلد، مفصول عن الجانب الاخر، بنهر لا جسر عليه اذ ذاك، والتعدد حينئذ جائز على القول الثالث في المذهب.

وأما نازلة الطالعة، يعني العنانية من فاس، فلا يتنزل عليها لأنَّ الخلاف فيها خارج المذهب، ولم يذكرها ذلك الشيخ لقوله يكون لعلماء المذهب قولان، وهذا القول فيها بالجواز لغير علماء المذهب، لأنا نقول : موجب الصحة إنَّما هو التقليد، وهو يرفع الخلاف، ولا علينا كان المقلد مذهبيا ام لا، الا ان يكون التقليد مما ينقض به حكم الحاكم، انتهى المراد منه.

ولا يخفى أنَّ المسجد الثاني في صورة السؤال لم يبق للحاجة، فيجري عليه حكم العنانية من فاس، وهو تقليد قول خارج المذهب لا حكم القرويين، لأنَّ الاقامة فيها على قول في المذهب، وانْ كان ضعيفا، فالاحوط في صورة السؤال هو الصلاة في المسجد العتيق، حيث إنّه يسع كل اهل البلد، وغيره أُحدث على وجه غير جائز عند جمهور المذهب، وقد علمت حكمه بعد الوقوع.

فان قلت : ما قررته في الثاني ، يجري بعينه في هذا الثالث الذي اريد احداثه، فاذا اراد مُحْدِثه تقليد قول عطاء ومن معه، جاز إِحداثه، وصحَّت صلاة الجمعة فيه على ما نَقلَته عن صاحب المعيار في المدرسة العنانية من باب لا فارق.

قلت : ليس كذلك، فانَّ كلام صاحب المعيار فيما بعد الوقوع والنُّزول وليس كلُّ ما صحَّ بعد الوقوع والنزول، جاز الاقدامُ عليه أولاً كما هو بين من فروع في الفقه لا تحصى، فتقليد المشهور أوْ الراجح واجب، والخروج عنه لغير ضرورة ممنوع كما هو مقرر في مَحلِّه، وقول صاحب المعيار بحمل امرهم على التقليد... لا يدُلُّ على جواز تقليد الضعيف من اول الامر كما لا يخفى، فنقول بلسان العلم لمن يريد احداث مسجد للجمعة غير محتاج اليه : إنه ءاثم، عاص بذلك، ثم اذا تمادى على فعله كان إثمه عليه، ووباله في الاخرة راجعا اليه، حيث خالف جمهور مذاهب المسلمين، ونقول لمن يريد الصلاة فيه : لا يجوز لك الاقدام على الصلاة فيه،

ثم اذا وقع ذلك ونزل، نقول : تصح الصلاة بعد الوقوع والنزول، على ما مشى عليه صاحب المعيار من ان تقليد قول ولو خارج المذهب يرفع الخلاف، وليت شعري اي محوج لنا الى تضييق الحكم في هذه العبادة العظيمة التي امر الشرع فيها بالاجتماع، وعدم الافتراق، فما هو الا الجهل او العناد، فلو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، وفي الحديث، لا يومن احدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به، وقد قال الشيخ خليل في مختصره المبين لما به الفتوى : بجامع مُتَّحد، والجمعة للعتيق، فقوله والجمعة للعتيق، هو حكمٌ لمفهوم قوله متحد بمعنى انه اذا خولف حكم الاتحاد، وعُددت الجمعة، فانما صحة الجمعة للعتيق، لا لغيره، وهو فقه مسلَّم عند الشراح والحواشي، ومن راجع كلام صاحب المعيار في جوابه المشار اليه، تَروَّى من زُلاله، وعرف الحق برجاله، وناهيك به، فقد قال فيه الامام ابن غازي : انه جبل من علم يمشي على وجه الارض.

وقد ذكر محصل جوابه في تقييده الذي اعاده في المسئلة، وسمَّاه : "تنبيه الغبى النُّدُس، على خطإ من سوى بين جامع القرويين والاندلس" بقوله : وكان حاصل جوابي من ذلك، أنَّ مشهور الاقوال عدم صحتها في القرويين لكونها ثانية، وأنَّ الجمعة لا تصح في العنانية من فاس، والحلوية، وجامع القصر من تلمسان، إلاَّ على قولٍ خارج المذهب.

وقوله الا على قول خارج المذهب، هو راجع للعنانية وما بعدها، لا للقرويين، لانَّها أحدثت فيها الجمعة، لكون عدوتها منفصلة بالنهر عن عدوة الاندلس قبل جعْل الجسْر عليه، فتقرُّر الجامعين كان قبل بناء الجسر كما علم من التاريخ، وما كان كذلك، فالقول فيه داخل المذهب كما علمت، هكذا ينبغي فهم كلام المعيار.

ثم ان النفس قد تتشوَّق هنا لامرين : احدهما، حَدُّ المصر الذي يجوز التعدد فيه على أحد الاقوال المذهبية، وان كان ضعيفا، حتى نعرف هل بلدة سلا من المصر الكبير الذي يجري فيه الخلاف المذهبي، أو الصغير الذي يتَّفق فيه عدم التعدد في المذاهب كلها إلاَّ على مذهب عطاء ومن معه، ثانيها: ماهي الضرورة التي تبيحُ في المصر الكبير التعدُّدَ على القول المذكور.

والجواب، أنَّ نصوص الأئمَّة تدلُّ على ان المصر الكبير، ما كان كمصر وبغداد والشام،[207] كما هو صريح تمثيلهم، وقد تقدَّم هذا، في كلام صاحب المعيار، وكذلك هو في كلام غيره من أئمة المذهب، حيث يذكرون القول الثاني من الاقوال المذهبية.

207) لعل المراد بالشام مدينة دِمَشق منه لأنه قطر كما هو معلوم.

وبلدة سلا كلها لاتكون كمحلَّة واحدة من محلات مصر وبغداد.

وأمَّا الضرورة، فقد وقعت مبينة في كلام لبعض الأئمة بعُسْر وصول بعض اهل البلد للمسجد، وبكثرتهم جدّا، حتَّى انهم اذا اجتمعوا في المسجد الواحد لاَ يضْبِطُ من في آخر المسجد صلاة الامام.

قال الامام مالك : اذا لم يسعهم جامع واحد، جاز أنْ تُصَلَّى في جامعين. وقال اللخمي : وإقامَتُها بمسجدين أوْلى اذا كثر الناس وبعد من يصلِّي بالافنية من الجامع، لان الصلاة لهم حينئذ لا ياتون بها على حقيقتها، وقد يكون الامام في السجود، وهم في الركوع.

وقال يحيى بن عمر وابن عبد الحكم: يجوز ايقاعُها بالموضعين اذا عظم المصر، نقلها صاحب المعيار، فاذا عظم المصر، شق الوصول للمسجد على من هو بعيد منه، وهذا كله مفقود في نازلة السؤال.

فالحاصل، أنَّ إحْداث المسجد الثالث للجمعة في صورة السؤال، لا يجوز الاقدام عليه بحال، والعلم لله الكبير المتعال.

قاله عبد ربه : احمد بن المامون البلغيثي الله وليه ومولاه.

وبمضمنه يقول عبد ربه، الفقير الجاني، عبد العزيز بن محمد بنَّاني، لطف الله به وبالمسلمين :

الحمد لله، وحسبنا الله ونعم الوكيل

الفقه المُسطَّر صدره في جواب السؤال، وافٍ بجميع فصوله، واغني عن المزيد، إذ قد جمع أطراف المسألة، بحسن انتساقه وبديع قيله.

ولله دَرُّ أبي العباس الوانشريسي في تحريره وتحصيله، فلا يعدل عنه، بل يتعين المصير إليه، وإنْ نقل سيدي الطالب، رحمه الله، ان العمل جرى بالتعدد في المصر بحسب الحاجة في مشارق الأرض ومغاربها، فقوله : بحسب الحاجة هو مركز القول بالتعدد ومبناه الذي بني عليه، ولا حاجة تدعو حسبما قرر في السؤال، والله أعلم.

وكتبه عبد ربه تعالى : عبد القادر بن قاسم لطف الله به.

ومـمن كتب في هذه النازلة، شيخنا العلامة مفتي سلا أبو المسك سيدي الطيب بن المدني الناصري السلاوي، وألف كتابه المسمى «رفع القناع، عما في تعدد الجمعة من الإجماع»، سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف (1939/1358)، وانفصل فيه على القول بالتعدد، وجواز الخطبة المتنازع فيها بجامع الشهباء.

وبمقتضى هذا رجح صوت القائمين والمطالبين بأحداث الخطبة فيه، فأحدثت، وجرى العمل بها من ذلك العهد إلى الآن.

* * *

وفي عهدنا هذا، وهو سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وألف (1964/1384) تداعت جل جدرانه وسقوفه الى السقوط، فتعطل، ونقلت الخطبة التي كانت به الى الزاوية الدرقاوية مؤقتا.

ثُمَّ تولت وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية تجديده، فهُدِّم كله حتى لم يبق فيه حجر على حجر، ورُدمت أرضه وسويت مع الطريق لأنه كان ينزل اليه عند الدخول بعدة درج، وأعيد بناؤه من جديد على هيئة غير التي كان عليها، روعي فيها روح العصر الجديد وتقليد بعض المعابد الأروبية، وزُلِّج صدره ومحرابه بالزليج الفاسي، وأضيف إليه دار وضوء جيدة ومحلات للطهارة، وألحق به حوانيت ومخازن للتجارة صارت حُبُساً عليه، وشيد مناره على شكل لطيف فيه هَيَفٌ و رقة وجمال.

وفي عشية يوم الإثنين ثالث ذي الحجة عام أربعة و ثمانين وثلاثمائة وألف الموافق لخامس أبريل سنة خمس وستين وتسعمائة وألف (3 ذي الحجة 5/1384 أبريل 1965) احتفل باتمام بنائه وتدشينه بمحضر سعادة وزير عموم الأوقاف والشؤون الدينية، أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بركاش، وعامل العدوتين الدكتور بن بو شعيب، وباشا المدينة وناظر أحباسها ونخبة من علمائها وأعيانها. فصلوا به صلاة العصر، وألقى معالي الوزير كلمة عبر فيها عما للمساجد من أثر بليغ في رفع المستوى الديني بين المسلمين، وما أعدَّ الله من الأجر و الثواب لبانيها ومصلحها، والمعين على مصالحها، وأشاد بأعمال وزارته في بناء المساجد وإصلاح ما تلاشى منها بسائر المملكة المغربية بأمر من صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني أيده الله ونصره.

ومن ذلك اليوم فُتحت أبواب مسجد الشبهاء بسلا في وجوه المصلين لأداء الصلوات الخمس، وإقامة شعيرة الجمعة، وتَمَّ احياء أثرٍ قديم بهذه المدينة، من عهد المرابطين، وان

كان لم يبق منه إلاّ الإسم. لان البناء الموجود اليوم، هو غير البناء الاثري الذي خربه الدهر، واعفته الايام، ولا مناسبة بين القديم والحديث في شكل ولا هيكل.

جزى الله السّاعي في الخير واحياء معالم الدين احسن الجزاء في الدارين ءامين.

* الضفة اليسرى

علمنا مما تقدّم كيف نشأ العمران أولاً على الضفة اليمنى لنهر أبي رقراق، وتكوّنت منه مدينة سلا الحديثة تدريجيا، إلى أنْ صارت مصرا زاهرا مزدهرا على يد أربابها العشريين، في عهد اليفرانيين والمرابطين بعدهم.

وقد كانت الضّفّة اليسرى المقابلة لها، لا شيء فيها، إلاّ أنها يجتمع فيها المرابطون والمجاهدون في برغواطة، حسبما سياتي بيانه.

القصبة : (وهي قصبة الودايا اليوم) في عهد المرابطين

وفي عهد المرابطين نشأ العمران بها ايضا، وابتدأ من القصبة. وتاريخ نشوء هذا العمران يستدعي بحثا طويلا، للْجَمع بين اقوال المؤرخين والجغرافيين الاقدمين، واستنتاج الحقائق التاريخية منها. وهو موضوع خاص يضيق عنه بحثنا هذا، وانما نريد ان نلم به الماما لنبني عليه كيف تدرجت حالتها العمرانية الأولى في عهد الدول السابقة الى ان نزل بها الاندلسيون المهاجرون وصيّروها قاعدة بحرية قرصانية، كما سياتي تفصيله في محله. ولا تخفى حصانةُ موقعٍ هذه القصبة، ووَضْعُه الجغرافي الطبيعي من البحر والنهر.

موقع القصبة الاستراتيجي واهميته

قال ليون الافريقي :[208] إنّ قصبة الرباط بنيت على مصب نهر ابي رقراق، ويكتنفها النّهر من جانب، والبحر من جانب آخر. وعليه فهي إذاً شبه جزيرة.

---

208) ص 164 من ج 1.

وقال جاك كاي : «JAQUES CAILLÉ» في «تاريخ الرباط»[209] ما خُلاصته : ان الموقع الغريب، والوضع الطبيعي العجيب، الذي انفردت به هذه القصبة بين البحر والنّهر، يؤذن بانها كانت مسكونة منذ العصور الاولى والازمنة العريقة في القدم، وطُوبُوغْرَافيتها تدل على انها تصلح ان يُتخذ منها حصنٌ او معسكر مخندق بالصخور العالية الصعبة المرتقى. ثم ابدى احتمالا وقال ٠ انه ممكن الوقوع – لاسيما إذا عضدته بعض النقول – او العثور على آثار قديمة.

وهو انه لا يمكن للرومان الذين كانوا بشالة، أن يهملوا هذا الموقع الحربي الطبيعي الغريب الفريد، المهيمن على مصب النهر، والحاكم على مدخله واتصاله بالبحر المحيط.

ولابد انهم على الاقل، كانوا اتخذوا به مركزا حربيا، او مرقبا بحريا، لحراسة الملاحة والسفن المترددة بين شواطئ مستعمراتهم بافريقية الشمالية. والغالب على الظن انها كانت تاوي اليه، وتحتمي به، لِمَا اختصَّ به من صلابة ومتانة الصخور المخندقة على شواطئه، والمحدقة به، لان خطوط المواصلة في العهد الروماني الافريقي، كان الاعتماد فيها على السفن البحرية، اكثر من القوافل البرية. ثم قال : ويغلب على الظن أنه كانت هناك طريق خاصة تصل بينها وبين مدينة شالة، يقال انه عثر على بعض اثارها...؟ كما عثر على بعض القطع من المسكوكات الرومانية بساحل البحر بالقصبة، بل بالقصبة نفسها.

وعقَّبَ على هذا بانه مجردُ احتمال، لا يثبت الا بما يؤيده ويعضده من الاكتشافات الأثرية الناطقة به، والمفصحة عنه، ولكن الوقوف عليها متعذِّر الآن، لاتصال العمران بالمحل الذي يظن أنَّها توجد به.

قصر بني تاركة وحصن تاشفين بن علي المرابطي

أمَّا في العهد الاسلامي، فاول ما ظهر محلُّ القصبة في التاريخ، بَلْ وأرض الرباط الحافة به ظهر مقرونا بصفته رباطا للمجاهدين في برغواطة. وعليه فيُعتبر ان اول عمران ظهر بمحل القصبة في العهد الاسلامي، نشأ عن نزول المجاهدين به للجهاد في الفئة الضالة البرغواطية. والظاهر أنَّه وقع الاختيار عليه، لاتصاله بدون فاصل طبيعي بالبلاد

209) ص 32 وما بعدها من المجلد الأول، لخصناه تلخيصا.

المُجَاهَدِ فيها، وكذا أرض الرباط المتصلة به. ولحصانته وموقعه الجغرافي الفذ، يمكن ان تشيد به قصبة او حصن حربي ءامن محروس.

وهو ما يؤخذ من نص ابن حوقل، وان كان عامًّا في سائر الاراضي الحافة بشالَّة على العدوتين، وقد جاء فيه :

"... ومن ورائه (يعني وادي سبو) الى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد من وادي سلا، واليه تنتهي سكنى المسلمين، وهي رباط يرابط فيه المسلمون، وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة، (المقصود بها شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يَحُفُّ بها، وربما اجتمع في هذا المكان، من المرابطين مائة ألف انسان، يزيدون وينقصون، ورباطهم على برغواطة، وهي قبيلة من قبائل البربر على المحيط، متصلين بهذه الجهة التي شقت بلاد الاسلام، اليها يعزون وينتسبون..."

وقد تضمن هذا النص الصَّراحة بأنَّ شالة، في عهد ابن حوقل، في الربع الاخير من القرن الرابع الهجري، الموافق للربع الاخير من القرن العاشر الميلادي، كانت خربة، وانَّ ارض الرباط كانت في ذلك العهد رباطا ومجتمعا للمجاهدين، وهي شاملة لارض القصبة وداخلة فيها، ومعدودة منها.

كما تضمن انه كان يجتمع بهذا الرباط مائة الف مجاهد، يزيدون وينقصون، مرابطين على برغواطة.

ولكن ليس لدينا نص يصرح بِأنَّ هؤلاء المجاهدين شيدوا حصنا او بناء حربيا بارض القصبة، وان كان من لوازم اجتماعهم ومرابطتهم.

إلاَّ أنَّ الجغرافي الفزاري، الذي زار الاندلس، كما اخبر بذلك عن نفسه سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة (533 / 1138) اشار لوجود قصر يعرف بقصر بني تاركة، قال : على ضفة وادي اسمير، وهو احد اسماء ابي رقراق.

ثم قال : وهذا القصر مُشَيَّد بالمحل الذي توجد به اليوم مدينة المهدية التي بناها الخليفة عبد المومن على الضفة اليسرى للنهر، والمهدية هي القصبة.

واذا كان هذا الجغرافي زار الاندلس في التاريخ المذكور، وذكر قصر بني تاركة، فلاشك انه كان موجودا في وقت زيارته، ولكن لا يفهم منه هل وُجد قبل ذلك، ولا متى وُجد.

وبنو تاركة المنسوب اليهم هذا القصر، من صنهاجة اللثام، ولعل المرابطين جاءوا بهم، وانزلوهم بمصب ابي رقراق.

وجاء في «تاريخ البيان المغرب، في اخبار ملوك الاندلس والمغرب»، لابي العباس احمد ابن عذاري ما ملخصه[210] ان عبد المومن، لمَّا وصل الى مدينة سلا، تغلَّب عليها من ساعته، وفتحها قبل راحته، وانْضَافَتْ له قصبتها التي كان بناها تاشفين في الرباط.

ومثله في «الحلل الموشية» :[211] انه لما وصل الى سلا، وتغلب عليها من ساعته، وفتحها قبل نزوله، طاعت له قصبتها التي كان بناها الأمير تاشفين بالرباط.

فقد اتَّفَقَ هذان المؤرخان، على ان تاشفين كان له حصن بالرباط. وحيث إنه كان ثالث ملوك المرابطين، ولم تدم دولته الا نحو ثلاث سنين، من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة (1142/537) الى سنة اربعين وخمسمائة (540 / 1145)، فلعل هذا البناء التاشفيني، او الحصن المرابطي شُيِّد في ذلك العهد.

ويحتمل ايضا انه كان أَمَرَ ببنائه قبل ذلك، لمَّا كان أميرا بالاندلس عدة سنين قبل سنة احدى وثلاثين وخمسمائة (531 / 1136)، أوْ لمّا صار ولي عهد أبيه، والْتَحَقَ بالمغرب، وتخلَّى له والده عن مباشرة الاعمال، لاشتغاله بنفسه.

وعلى هذا فان هذا الحصن بُني ما بين سنتي احدى وثلاثين وخمسمائة (1136/531) واربعين وخمسمائة (1145/540). أوْ على ما يوخذ من نص ابن عذاري، ونص «الحلل الموشية» المتقدمين ما بين سنتي سبع وثلاثين وخمسمائة (537 / 1136) واربعين وخمسمائة (540 / 1145).

وذكر عبد المالك بن صاحب الصلاة في كتابه «المن بالامامة على المستضعفين»[212] أنَّ موضع المهدية، وهي القصبة، كان به برج للسكنى. وحيث انه كان يطلق عليه تارة قصر بني تاركة، وتارة حصن تاشفين، مع انه – على مايظهر – بناء واحد، في محل واحد، فلعله أُطْلِقَ عليه قصر بني تاركة بالنسبة لأوليته او النازلين به، وحصن تاشفين، بالنسبة لبانيه او مجدده. لأنَّ الغالب على الظن أنَّ قصر بني تاركة كان موجودا قبل تاشفين بن علي، وإنَّما جدَّده وأعاد بناءه وصيَّره حِصنا او قصبة.

وإلى هذا الحصن يشير ابو عبد الله محمد بن علي الدكالي في أرجوزته «اتحاف اشراف الملا، ببعض اخبار الرباط وسلا»[213] بقوله :

---

210) ص 20 طبع تطوان ج 3.

211) ص 102 طبع تونس .

212) ص 446 طبع بيروت .

213) مخطوط الخزانة الناصرية.

وَبِالرباط خَطٌّ تاشَفِينُ   قَصَبَةً بِرَبْوَةٍ تَزِينُ
فكان أَوَّلَ اخْتِطَاطٍ يُعْرفُ   لَدَى رباط الفتح وَهْوَ انْصَفُ

وقال ايضا :

وأَسَّسَ الحِصْنَ بِحَلْقِ الوادي   قَصَبَةً ذَاتَ ارْتِفَاعٍ عادي
أَميرُها تَشْفِينُ من أَهْلِ اللِّثَامْ   مُحَصَّنًا وادي المَجَازِ أَنْ يُسَامْ

وما جاء في جغرافية ليون الافريقي[214] تعليقا، مِنْ أَنَّ عبد المومن بنى اول بناء له بارض الرباط، في محل قصر كان ينسب الى بني كنانة، فلعله تصحيف بتاركة، لاننا لم نقف على هذه النسبة الكنانية في محل آخر.

هذا، وليست لدينا معلومات خاصَّة، ترجع الى الغاية التي قصد منها تاسيس قصر بني تاركة على القول باقدميته، وبناء الحصن الثاني، المنسوب إلى تاشفين على القول بأنَّه بُني بعده، أو على انقاضه، في وقت خاص، أو ظروف مُعيَّنة، إلاَّ ما يُفْهَمُ عموما من ان المراد باولهما، الجهاد في البرغواطيين، وثانيهما، الدفاع عن الدولة لمَّا اصبحت مُهَّددة بخطر الموحدين.

بناء على ما نصَّ عليه ابن البيدق في كتابه «اخبار المهدي»[215] من ان المرابطين، لمَّا استفحل امر الموحدين، وتدفَّقت عليهم جيوشهم من كل صقع من الاصقاع المغربية، هبُّوا للدِّفاع عن حوزتهم ومملكتهم بكل ما لديهم من وسائل الدفاع، ومن جملتها، ما اسَّسوه من الحصون والقلاع في المعاقل والجبال والمواقع الستراتيجية تحصينا وحماية للمدن والقبائل من عادية العدو، ولعلَّ مصبَّ ابي رقراق من جملتها لأهميته وموقعه الجغرافي من المغرب الجنوبي والشمالي، خوفا من اساطيل العدو أن تطرقهم من البحر، كما فعلت في محلاَّت أخرى من اطراف المملكة وسواحلها.

والحاصل من هذا كله، أنَّ موقع القصبة عند مصب النهر في المحيط الاطلانطيقي، كان منذ ازمنة الفتح الاسلامي الاول وما بعدها رباطاً ومُجتمعاً يجتمع فوق ضخوره البحرية مئات ءالاف المرابطين والمجاهدين في البرغواطيين.

---

214) ص 165 من ج 1.

215) ص 128، طبع باريس 1928.

ومن لوازم هذا الجهاد والمرابطة، بناء الحصون وتشييدها، اتِّقاءً للهجمات المتوقعة براً وبحراً، إلاَّ أنَّ ءاثار هذا القصر التاركي، او الحصن المرابطي التاشفيني، عفت واختفت بما بني فوقها من المباني والآثار الموحدية، والعمران الذي نشأ بعد ذلك بالقصبة، بعد نزول المهاجرين الأندلسيين بها. ولم يبق الا بعض الاسوار والاسس الغائصة في اعماق الارض يقال إنها من بقايا ءاثار السور المرابطي الذي رفع على هيكله السور الموحدي، وربَّما تُمْكِنُ معرفته و تمييزه من مواد بنائه الحجرية والآجورية والطينية، ومقابلتها بالمواد التي بنيت بها الحصون المرابطية الأخرى بأطراف المملكة المغربية في ذلك العهد.

وهذا من خصائص علماء البحث قي الأثار القديمة الأركيولوجية وفحصها وتعيينها، وتمييز بعضها عن بعض.

وعلى كل حال، فإن عمران القصبة ابتدأ بعد خراب شالة، كسلا، بقصد الجهاد والدفاع عن الدين، وفي عهد المرابطين، بقصد حماية الدولة وصيانة كيانها، من هجوم المعتدين. ويظهر انهم كانوا اول من سارع وشرع في تحصين هذه الصخرة العظيمة الجاثمة كالاسد، او المركز الحربي المهم، على ساحل هذا المحيط الواسع المظلم، المجهول ما وراءه في ذلك العصر. واستبحر عمرانها بعد ذلك في عهد الموحدين، ابتداء من دولة عبد المومن بن علي، منهم، حسبما سياتي بيانه في محله.

الفصل الثالث

عن العُدوتين : سلا والقَصَبة ومآثرهما في عهد الموحدين

المبحث الأول

الموحدون بسلا

لما نسختْ دولة الموحدين دولة المرابطين بالمغرب، اهتمت بمدينة سلا اولا اهتماما كبيرا، لموقعها الجغرافي منه. لاسيما وقد كان عمرانها في امتداد وزيادة متواصلة لأهميتها الحربية في ذلك العهد، بالنِّسبة الى شمال المملكة وجنوبها، ولقربها من البوغاز ومراسي العبور للاندلس، كالقصر، وطنجة، وسبتة.

ولا يخفى علينا أن عبد المومن الطَّموح البعيد النظر، كان ينظر من أول يوم برز فيه للمطالبة بالاستبداد بالحكم والسياسة والرياسة العظمى إلى الضفة الشمالية للبوغاز، نظر المتحفز للوثوب، المتربص بمن فيها الدوائر، لأنها في ذلك الوقت جزء من الامبراطورية اللّمثونية، وقطعة تكميلية للمملكة المغربية، ولذلك وجّه عنايته لسلا بعد فاس، وقبل مراكش.

احتلال عبد المومن لمدينة سلا

جاء في تاريخ "البيان المغرب، في أخبار ملوك الأندلس والمغرب" لأبي العباس أحمد ابن عذاري[216] أن عبد المومن، لما فرغ من أشغال فاس وترتيبها، ورتب على حصار مكناسة عسكرا يقيم عليها، اخذ في الحركة على تَوْءدة واستعداد إلى منازلة مراكش.

ولمّا وصل إلى مدينة سلا، امتنع أهلُها منه، وحين وقف على مجاز الوادي الفاه بسعده في آخر مده فأمر عساكره أن يَعْبُروه بأجمعهم. وتغلّب على سلا من ساعته، وفتحها قبل راحته، وأمّن أهلها، ورتب أحوالها، وانضافت لها قصبتها التي كان بناها تاشفين في الرباط.

216) ص 20 والتي بعدها من ج 3 طبع تطوان سنة 1380/1960.

وكان دخوله لسلا في السابع من ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة (7 ذي الحجة 540 /22 ماي 1146).

وقال ابن خير : كان فتحها على يد رجل يُسمى بيورك وابنيه : محمد وعلي. وذلك أنهم أرسلوا إلى الموحدين، فوصلوهم ليلا وصنعوا السلاليم، فصعدوا بها على السور، وقتلوا كل من وَجَدُوهُ على السور، ودخلوا سلا، فوجدوا فيها أناسا، وهرب آخرون في حلق الوادي، فرجع عليهم البحر فغرقوا.

وعيَّد فيها عبد المومن عيد الأضحى، وولَّى عليها عبد الواحد الشرقي.

وأقامت على طاعة الموحدين إلى أن ظهر الماسي، المعروف بابن هود، ببلاد السوس، فقتل أهل سلا عاملهم، وقدَّموا عليهم والده هودا، فبقي بها إلى أن قُتِلَ ابنه وعادت إلى طاعة الموحدين إلى انقضاء دولتهم...

وقد كان هذا الثائر سوقة من أهل سلا، وأبوه سمساراً بها يبيع الكنابيش.

ولمَّا فتحها عبد المومن في هذه المرة الثانية، ثَلَّمَ سورها[217] كفاس وسبتة وغيرها من قواعد المغرب لِئَلاَّ تستعصى عليه مرة أخرى.

وهناك احتمالٌ آخر، وهو أن سلا لم يكن لها سور قبالة الوادي، منذ انتشار العمران بها، لأن الأقدمين كانوا يعتبرون الأودية والأنهار الجارية الكبيرة والاجراف العالية بمنزلة الحصون والأسوار لما يؤسِّسونه من المدن والقرى حولها، مثال ذلك مدينة الرباط أمامها، فإنَّ الأسوار الموحدية، وقفت عند أجراف الوادي، ولم تتجاوزه اكتفاء به.

وحيث أنَّ تثليم عبد المومن لأسوار بعض المدن الكبرى، ومنها سلا، ذكره بعض المؤرخين، فربَّما كان هدمه بسلا للسور القبلي بناحية باب فاس، و قد كان موجودا في ذلك العهد، وهو على طريقه من مكناسة إلى سلا، واتَّصلت ثلمته بالناحية المقابلة للوادي، ومنها وَلَجَ الإصبان إلى المدينة كما سياتي الكلام عليه في عهد بني مرين.

وقد اتخذ عبد المومن مدينة سلا بعد افتتاحها مركزا حربيا تجتمع فيه وفي الفضاء الواسع على ضفة النهر اليسرى حول القصبة، جيوشه وقوته العظيمة المسخرة لفتح افريقية الشمالية كلها والأندلس، وتكوين وحدتها التاريخية، أو ما يُطلق عليها اليوم اسم المغرب الكبير.

---

217) «ابن خلدون» ص 310 من ج 1، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 11 من ج 2 طبع القاهرة وص 26 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة.

ثم صارت تجتمع بها وحولها برباطها في عهد أولاده من بعده الجيوش والغزاة بقصد العبور للجهاد والمرابطة بالثغور الأندلسية.

وكان يُطْلَقُ على محل اجتماع هذه الجيوش في ذلك العهد "رباط سلا"، منذ كان يجتمع بها المجاهدون، ويرابط المرابطون لمحاربة البرغواطيين ببلاد تامسنا وما وراءها كما تقدم، وربما بلغ عدد هؤلاء المجاهدين مائة ألف أو يزيدون. وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في رجزه المتقدم :

واشْتَهَرَتْ في عَهْدها القَديمِ ... بِمَرْبِط الجهادِ في الإقْلِيمِ

في رَابعِ القُرونِ كانت مُجْتَمَعْ ... لمائةٍ من الألوف قَدْ وَقَعْ

لِغَزْوِ كُفَّارِ البَرَابِرِ وقَدْ ... عَمَرُوا تامَسْنا وشَرُّهُمْ وَقَدْ

فاقْتُلِعَتْ جُرثومَةُ الأغْمَارِ ... مِنْ كُلِّ بَرْغَاطٍ بِلاَ إنْكَارِ

وطَهَّرَ اللهُ بلادَ المغربِ ... بِمَنْ بِها رابَطَ مِنْ كلِّ أبِي

وبعدما كانت سلا ورباطها في أول عهدها، قصبة الجيوش البرية، اصبحت في عهد عبد المومن وآله من بعده، مرسى من مراسي الدولة الموحدية البحرية، تُجهز منها الأساطيل الجهادية بقصد غزو افريقية، وفتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين.

فكانت تُصنع بها السفن، وكذلك بوادي سبو، ويُجلب إليها العود من غابة المعمورة، وتُرسل في الوادي بعد تجهيزها.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله الدكالي السلاوي في رجزه المذكور :

ثُمَّ أتاها فَاتِحُ الأقْطارِ ... ومُنْزِلُ الرَّوْع بكل دَارِ

أبو مُلُوكِ الدولةِ المُوَحِّدَةْ ... فاتَّخذَ الرباط دَارًا مُنْجِدَةْ

ثم قال :

وجَعَلَ المَعْبَرَ دارَ صَنْعَةِ ... لِسُفْنِ الأسْطُولِ خَيْرَ مَنْعَةِ

ثُمَّتَ أسَّسَ لَدَى وادي سَبُو ... مَعَامِلَ الأجْفَانِ مِنْهَا يُعْجَبُ

فَأُنْشِئَتْ لَهُ بِها المِئُونَا ... وَطَالَ عِزُّهُمْ بها سِنُونَا

واسْتَرْجَعوا بها الثُّغُورَ الشَّاسِعَةْ ... وافْتَتَحوا الأقاليم المُتَّسِعَةْ

وَحَصَدُوا الجُمُوعَ بِالأرَاكِ وهاجَموا الحُصُونَ بِالْعِرَاكِ
وكان جَيْشُهُم مَّعَ الأسْطولِ يُرْهِبُ أهْلَ العالم المَفْعُولِ

وكان سبب اختيار عبد المومن للعدوتين، هو موقعهما الجغرافي على مصب النهر في البحر، لكونه حاجزاً للسفن عن الاغارة من البحر على الاسطول، بخلاف سبتة التي لم يتوفر فيها هذا الشرط[218] وهكذا، فإنه لما غزا افريقية كان معه لما احتل تونس، سبعون قطعة من أسطوله تحت إمرة أميراله عبد الله بن ميمون[219].

ثم صاحبه هذا الأسطول، محاديا له في البحر، ينتقل بانتقال الجيش، كما كانت عادة الموحدين في حركاتهم وتنقلاتهم، حتى حاصر المهدية وانتصر على الأسطول الصقلي، مع أنه كان متفوقا عليه في العدد، إذ بلغ مجموعه مائة وخمسين قطعة.

وبكلمة جامعة فقد كان للعدوتين ذكر كبير وأهمية كبيرة ملحوظة في تاريخ دولة الموحدين، وكانوا يعتبرونهما كعاصمة من عواصم مملكتهم أو إمبراطوريتهم الواسعة الشاسعة للشمال الافريقي كلّه، من المحيط الأطلنطيقي إلى حدود مصر والأندلس إلى حدود جبال البيريني من وراء البحر.

وفي سلا، وفد على عبد المومن أهل الأندلس، وقد مرت أخبار وفاداتهم المتعددة عليه مستوفاة، وأين كان استقبالهم في أخبار بني عشرة.

وفي عهد عبد المومن أطلق على الرباط إسم "رباط الفتح" تفاؤلا بالفتوح الأندلسية، وكان قبل ذلك يدعى "رباط سلا" كما تقدم.

---

218) «الموحدون» لروني ميلي "René Millet" ص 80-81.

219) الأميرال عبد الله بن ميمون، أصله من مدينة دانية من الأندلس وكان من رؤساء الأسطول المرابطي في عهد الدولة المرابطية. وبنو ميمون كلهم رؤساء، ولما سقطت، فر بأسطوله إلى قادس، وانضم إلى الموحدين بأسطوله، وبسببه كانت مدينة قادس أول مدينة بالأندلس خطب بها لعبد المومن، وساعد عبد المومن في فتح افريقية وأعانه.

انتقال بعض الأسر الشهيرة إلى سلا في عهد الموحدين

لما نازل أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن قفصة سنة ست وسبعين وخمسمائة (1180/576) وتغلَّب على صاحبها علي بن عبد العزيز، أشخصه إلى مراكش بأهله وماله، ثم استعمله على الأشغال، بمدينة سلا إلى أن هلك بها، وفنيت دولة بني الرِّند، والبقاء لله وحده[220].

وقد صحبه في انتقاله هذا جموع كبيرة من حاشيته وذويه، واستقروا معه بها، ومنهم آل القلعي، نسبة إلى القلعة، وبنو حماد.

وكان نزولهم في أرباضها واجنتها، وعنهم اخذ السلاويون في ذلك العهد فَنَّ الزراعة، وكيفية ري البساتين واستغلالها، وتجند منهم بعد ذلك جمهور كبير في الجيوش السلطانية.

قلت : ومازال بقية من اعقاب ءال القلعي من الاسر المعروفة بسلا إلى الآن.

ويقال : انه في ذلك العهد، انتقل إلى سلا، من تونس وافريقية أسر أخرى، منهم ءال التونسي، وآل البغدادي، وكان نزولهم حول جامع الشهباء، والله أعلم.

هذا، وقد خلَّف الموحدون بسلا آثارا مهمة ·

منها إحْداثُ دار صناعة الأساطيل البحرية بها، وسياتي الكلام عليها مفصلا في مآثر المرينيين بسلا، لأنهم هم الذين شيدوا معالمها وابرزوا للوجود مآثرها الخالدة الباقية المشاهدة بالعيان إلى اليوم.

ومنها :

المسجد الأعظم بطالعة سلا

من مآثر الموحدين الخالدة بسلا، وهياكلهم الشاهدة بعظم شانهم، وضخامة ملكهم على ممر الأجيال والدهور، المسجد الأعظم بطالعتها.

---

220) «ابن خلدون» ص 214 من المجلد الأول طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 162 من ج 1، طبع القاهرة. وص 106 من ج 3، لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

وهذا المسجد هو العتيق بسلا، القديم جِداً، أول مسجد أُسس بها قطعا يوم ابتداء عمرانها، أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري، الموافق لأواخر العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي، يعني منذ ما يزيد على ألف ومائة سنة تقريبا، بعد خراب شالة وانتقال بعض سكانها إلى العُدوة الشمالية لنهر أبي رقراق وتكتلهم على ضفتي الوادي لجهاد البرغواطيين كما تقدم.

ولا شكَّ أنَّ الذين أسَّسوه، هم أولئك المهاجرون السلاويون، إذ أول ما تهتم به جماعة تكتلت بموضع بقصد الاقامة والاستيطان : الأرحى والفرن، للضرورة الحيوية والإجتماعية، والمسجد لإقامة الفروض والشعائر الدينية. والدليل على وجود هذا المسجد في ذلك العهد، هو أن عشرة، جد بني عشرة، لما نزل بأهله وحشمه بسلا، بقصد الاستقرار – كما تقدم – أواسط الربع الأخير من القرن الرابع، وجده مبنيا، وبنى أهله وذووه وشيعته ديارهم بحومته كما في «الاستبصار».[221]

ولعلَّه كان مسجدا صغيرا بسيط البناء، حسبما تقتضيه الحاجة عند حدوث العمران الأولى، ولذلك أعيد تاسيسه وجدد بناؤه في زمن بني يفرن، وعهد إمارة الأمير أبي الكمال تميم بن زيري بن يعلى منهم، حسبما هو مكتوب بأعلى قوس العنزة المقابلة للمحراب والموالية للصحن الكبير الواسع المزلج.

وعليه، فهو أقدم من جامع الشهباء المتقدم ذكره ووصفه، المؤسس في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وبمقتضى هذا، فهو العتيق، على التحقيق.

وقد زاره صاحب «الاستبصار» سنة أربع وسبعين وخمسمائة (574 / 1178) وأخبر عنه بأنه لم يبق منه سوى المنار، وأمَّا السقف كله، فمتهدم، واحتمى الغرباء بفنائه.[222]

والغالب على الظن انه لما تخرَّب وتهدَّم، نُقِلَت الخطبة منه إلى جامع الشهباء موقتا، ولما تم إعادة بنائه وتجديده وأدمج في المسجد الأعظم الجديد، أعيدت الخطبة إليه من جديد، كما كانت في العهد الأول.

وكان الاهتمام بإعادة بنائه وتجديده، لمَّا مرَّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بسلا في إحدى تنقلاته الجهادية بِالْعُدْوَة الأندلسية، وشاهد انتشار العمران بالمدينة، ولاحظ

---

221) ص 140، طبع الاسكندرية.

222) ص 140، طبع الاسكندرية.

احتياجها إلى مسجد كبير يناسب تزايد سكانها المستمر، ولا تضيق رحابه بالمصلين، وخصوصا في الجُمَعِ والأعياد، وأيام اجتماع الغزاة والمجاهدين، لاسيما وقد كانت هي ورباطها في ذلك العهد مجتمع الجيوش الجرارة، البالغ عددها في بعض الأحيان، مائة ألف أو يزيدون، مع من ينضم إليهم من المرتزقة والجنود المتنقلة بين جنوب المغرب وشماله، والعابرة إلى الأندلس بقصد الجهاد والمرابطة في الثغور، زيادة على أنها كانت ملتقى الرُّكبان والقوافل الصادرة منها والواردة عليها من سائر الأقطار، لأن عبد المومن وآله كانوا ينظرون إلى مصب أبي رقراق نظرة خاصَّة، ويعتبرون موقعه الجغرافي من امبراطوريتهم الواسعة الأطراف اعتبارا سَتْراتيجيا ظهر أثره في اعتناء عبد المومن بالقصبة، وتأسيس حفيده يعقوب مدينته العظيمة رباط الفتح، حسبما تقدمت الإشارة إليه في موضوع آخر، فأمر حينئذ ببناء المسجد الأعظم الموجود اليوم، وأضاف إليه مدرسته الجوفية، وأدْمج فيه المسجد القديم العتيق، الخرب المتهدم. وكان الشروع في البناء سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (593 / 1196)، وهي السنة التي أمر فيها بتأسيس مدينة الرباط.

ومن تأمل الآن الجانب الموالي منه للزقاق المؤدي إلى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الله ابن حسُّون، تبين له أثر المسجد القديم الأول، وشاهد شواهده الظاهرة البارزة للعيان إلى الآن، وهو الجانب الخاص اليوم بالنساء. كما أدمج فيه من ناحية القبلة، قبالة الصّحن الذي به المنار، ضريح الشيخ أبي محمد المُراسي عبد الحليم الغَمَّاد، من رجال «التشوف»، المتوفى عام تسعين وخمسمائة (590 / 1193)، يعني قبل الشروع في بناء المسجد بنحو ثلاث سنوات فقط. وجعل مساحته باعتبار صحونه الواسعة، تزيد على خمسة آلاف وسبعمائة متر مربع، ورفع أقواسه وحناياه على مائتين وثلاث وثلاثين سارية مربعة الشكل، فجاءت أقواسا عالية فارهة، قُلِّدَ فيها الفن المعماري الگوتي الذي كان العمل جاريا به في معابد أوربا وهياكلها الضَّخمة، في القرون الوسطى، لأن العملة والمهندسين الذين كانوا مسخرين في بنائه ونقل حجارته وترابه، من الأسرى النصارى والأندلسيين البالغ عددهم سبعمائة أسير من أسارى غزوة الأرك في قيودهم وأغلالهم[223].

وفي «الرَّوض المعطار»، أنَّ المنصور لمَّا غزا بلاد الجوف، وحاصر ترجالة ونزل على بلنسية، وفتحها عنوة، قبض على قائدها يومئذ مع مائة وخمسين من كفارهم ووجههم الى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أُسَارى الارك.[224] ولعله اراد ان يقابل عمله في هذا المسجد، بعمله في مسجد حسَّان في العدوة الاخرى المقابلة له.

---

223) «الاستقصا» ص 180، من ج 1 ، طبع القاهرة. والاستقصا، ج 3 ص 161، طبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

224) ص 13، طبع القاهرة.

واضاف له عند بابه القبلي، في المحل الذي فيه اليوم بيت الاموات، محكمة القاضي، إذْ كان من عادة القضاة بالاندلس والمغرب ان يحكموا بالمساجد او بمحلات ملاصقة لها، ومضافة اليها، ولذلك كتب على واجهة الباب المذكور نقشا في الحجر، كما هو مشاهد إلى اليوم : «الحكم لله».

واتّصل به من ناحية القبلة، مقصورة الخطيب، ودار الإمام، وخزانة الكتب ومستودع المنبر .

واتخذ بناحية باب الجوْف بيوتا للطهارة مستكملة الشروط، جلب لها الماء كما قيل، من عيون البرْكة، خارج سلا، في قنوات خاصة، وسياتي الكلام بمزيد بيان على هاته القنوات. واستمرَّ العمل به متواصلا مدة ست سنين، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (593 / 1196) إلى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة (598 /1201). فجاء ءاية في الضخامة والعظمة والمهابة والجلل و سعة الرُّقْعة، لا نظير له في افريقية الشمالية كلها.

و ممَّا امتاز به، أن المتعبد والجالس فيه يجد انشراحا وخشوعا في قلبه وإقبالا زائدا على ربه، لا يجده في غيره من المساجد الأخرى، ﴿وإنما يَعْمُر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

و لمَّا تمَّ تشييده، و تحسينه وتنجيده، استدعى الخليفة، رحمه الله، العلامة أبا محمد عبد الله بن سليمان بن داوود ابن حَوْط الله، وولاَّه قضاء سلا وَأسْند إليه الخطبة به، والتدريس بمدرسته الجَوْفية المضافة إليه، فكان أول خطيب تسنَّم منبره وخطب به. وبعد ثلاث سنين نقله إلى ميورقة، ووَلَّى مكانه في الخطبة والقضاء، العلامة أبا الحسن علي بن الحسن الصدِّيني الفاسي. ثم توالى الخطباء فيه من الأعلام قرنا فقرنا وجيلا فجيلا.

و لم يزل محلَّ اعتناء الملوك في كل دولة وزمان يزورونه ويزيدونه تحْسينا وتزيينا، ويجددون ما تداعى من بنيانه، ويُبادرون إلى إصلاح ما احتاج إلى الإصلاح في زواياه وأركانه.

ومن ذلك أنَّ السلطان أبا الحسن المريني، لما بنى مدرسته الشهيرة المتصلة به، أدخل فيه إصلاحات وتحسينات مهمَّة :

– منها تَخْريم محرابه وقُبته، وتزويقهما بالجبس الملون بالألوان الجميلة، على عادة بني مرين في تحلية محاريب مدارسهم ومساجدهم بفاس وغيرها.

– و منها أنه لمًّا بنى سور الأقواس المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا، وأوصله إلى مدرسته، جدَّد قنواته الداخلة إلى المسجد، وأصلح ما تلاشى منها، سواء بالحوض الرخامي (الخصّة) الذي بوسط صحنه القبلي، أو بيوت دار الوضوء المتصلة به.

ولأهمية هذا السور، والقنوات الجاري فيها الماء الداخل إلى سلا وهذا المسجد الأعظم، حبَّس السلطان المولى اسماعيل رحمه الله، دَخْل الحوت الشابل المصطاد بأبي رقراق على إصلاحها وتعاهدها كما سياتي.

وقد تبارى أهل الخير والإحسان، والثروة وصحيح الإيمان، من السلاويين في تحبيس الأحباس النافعة، والضِّياع المُغلَّة، على هذا المسجد، حتى أصبح من أغنى مساجد المغرب، ليُصْرَفَ ريْعُها في إصلاحه، كُلَّمَا دعت الحاجة إليه، ولتقوم بأداء أجور الموظفين الدينيين به، كالخطباء، والأئمة والمدرسين والمؤذنين وقُراء أحزاب القرآن الكريم، وتنوَّعت أحباسهم في ذلك، جزاهم الله خيرا.

ومن هذا القبيل أن أحد قواد بني حسن في العهد العزيزي، الساكنين بسلا، أبا عبد الله مَحمد الگدَاري، كان تبرَّع بقدر من ماله الخاص، في حدود سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف (1322 /1904) بقصد تزليج صحنه الكبير المواجه للقبلة، واشترك معه في هذا العمل المبرور، جلُّ أعيان سلا وكبار الموظفين بها، على يد قاضيها، الخطيب بها، العلامة أبي الحسن علي بن مَحمد عواد، حسبما وقفت على قائمة اسمائهم بخط يده، فتبرَّع كل واحد منهم بما طابت به نفسه، فزُلِّج وأُصلح، وزاد تزليجه المسجد رونقا وبهجة وجلالا وجمالا.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف (1353 / 1939)، حصل في سقوفه تلاشٍ من طول الزمن، وتوالي القرون والأجيال، فأمر جلالة الملك المقدّس أبو عبد الله محمد الخامس بإصلاح المتلاشي، وتجديد المتداعي للسقوط منها، فأُصلحت وجُدِّدت، ورُمِّمت حيطانه كلُّها، وجُبِّست، وفُتح فيه باب جديد في صحنه الموالي للزُّقاق المؤدي إلى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسُّون، وتم ذلك كلُّه على أحسن وجه وأكمله، فصارت الأبواب الكبرى ستة بعد أن كانت خمسة. وهناك أبواب أخرى صغرى كباب المقصورة، والباب الذي في صحن المنار، وباب بيت الأموات؛ ولا تفتح إلاَّ عند الحاجة في أوقات خاصَّة.

كما أُصلح ضريح الشيخ عبد الحليم الغمَّاد، وجُدِّدَ بابه وكُتب عليه أن وفاته كانت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة (592 / 1195)، مع أنَّها كانت قبل ذلك سنة تسعين وخمسمائة (590 / 1193)، كما في «الاستقصا»، وقد تقدم ذكر ذلك عند الكلام على التأسيس، وكان الصائر على ذلك كلِّه من الأحباس.

وفي عهد جلالة ملكنا، محيي معالم الدين، والمعتني بتشييد المساجد وعمارتها بسائر مملكته، أبي علي الحسن الثاني، أُعيد تجبيسه، وطلاء سقوفه، وجُعلت لأبواب أصْحُنه المتعددة الواسعة دفف زجاجية، تمنع المصلين من الحر والقر، ولا تمنع الضوء، ولا تحجب المنظر.

وأحدث بالصحن الموالي للمسجد القديم الذي هو مسجد بني عشرة، وهو الجناح الخاص بالنساء اليوم، بيوت للوضوء، خُصِّصت لهنَّ، وأُجْري بها الماء.

وغرس بالصحن الموالي للزقاق المؤدي لضريح الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون بعض الأشجار الطيبة، فعطَّرت جوه، وزينت منظره، وقد جرى العمل بذلك قديما بالأندلس والمغرب، وتَمَّ إنجاز ذلك كله، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وألف (1381/1961).

وأعيد النظر في كتبه المُحبَّسة بخزانته العلمية، فجُمع ما كان مُفَرَّقا منها بأيدي الناس، وأُعيد إحصاؤها، وجُدد نظامها.

وحيث كان هذا المسجد بهذه المثابة العظيمة والجلال، فقد كان الملوك يقدسونه، ويتبركون بالصلاة فيه، ويحترمونه ويزورونه كلما زاروا سلا وتَبرَّكوا بمشاهدها المباركة.

وممن حفظ التاريخ زيارته من الملوك لهذا المسجد وصلاته فيه :

– السلطان أبو عنان المريني لمَّا ارتحل إلى سلا، سنة سبع وخمسين وسبعمائة (757/1356) بقصد زيارة الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، والاقتباس مما يفتح الله به عليه من وعظه وإرشاده، فحرص على الاجتماع به، وتردَّد عليه، ووقف ببابه مرارا فلم يأذن له، وترصَّده يوم الجمعة، بعد الصلاة بهذا المسجد.

ولما انفضَّ الناس تبعه على قدميه، والناس ينظرون إليه وهو لا يراه، فقال أبو عنان عند ذلك : لقد مُنعنا من هذا الولي، وأرسل إليه ولده مستعطفا، فأجابه بما قطع رجاءه من الاجتماع به، وكتب له نصيحة نصحه بها...[225]

– ومنهم السلطان المولى سليمان، رحمه الله ، فقد جاء في «الاستقصا»[226] أنه جاء من مراكش سنة ست وثلاثين ومائتين وألف (1236/1820)، ووصل إلى رباط الفتح، فعبر

225) «تحفة الزائر، ببعض مناقب الشيخ ابن عاشر»، لأبي العباس الحافي السلاوي، مخطوط الخزانة الناصرية، و«الاستقصا» ص 90 من ج 2، طبع القاهرة. وص 177 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

226) ص 161، من ج 4، طبع القاهرة. وص 190 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

إلى سلا، ونزل براس الماء، ولما حضرت الجمعة، دخل المدينة، فصلى بالجامع الأعظم منها، ودخل دار الحاج محمد بن عبد الله معنينو من أعيان أهل سلا، واستصحب معه الفقيه الموقت أبا العباس أحمد بن المكي الزواوي من أهل سلا.

وأخبرني أخونا العلامة القاضي الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب العلوي السلاوي، أن السلطان المولى سليمان لما زار سلا في التاريخ أعلاه، وصلى الجمعة في مسجدها الأعظم، دخل دار ابن عمه الشريف مولاي إدريس بن المرتجي بن اسماعيل التي كان بها سكنى أولاده، وأكبرهم مولاي الحسين الذي هو جدهم. وكانت هذه الدار تسمى دار معنينو بدرب معانة بسلا، قال : هذا هو المنقول والمقول في أسرتهم منذ القديم، يلقنه السلف للخلف.

– ومنهم السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله، فإنه لما قدم إلى الرباط سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف (1876/1293) دخل سلا[227] وزار أولياءها، ودخل مسجدها الأعظم، وصلى الظهر به، وأَمَّهُ في صلاته العلامة أبو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء السلاوي.

ودخل خزانة الكتب العلمية، وتأمَّلها، وكان معه قاضي سلا، العلامة أبو بكر بن محمد عواد، فطلب منه أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة، فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه مائة ريال، ففعل، وهي يومئذ بهذه الخزانة، ووصل علماء سلا ومجاهديها على العادة في ذلك.

وبمناسبة هذه الزيارة، مدحه والدنا العلامة مؤرخ المغرب أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، مؤلف كتاب «الاستقصا»، بقصيدته السينية التي يقول في مطلعها :

قَلْبٌ كَـوَاهُ مِنَ النَّوَى مِـقْـبَـاسُ　　فَـغَـدَا بِهِ الْوَسْـوَاسُ وَالْخَنَّاسُ

إلى أن قال في المدح :

سَعِدَتْ بِمَقْدَمِهِ سَلاَ وَتَقَدَّسَتْ　　مُـرَّاكِشُ الحَمْـرَاءُ مِنْهُ وَفَـاسُ

– ومنهم الملك المقدس، أبو عبد الله محمد الخامس، فقد صلى فيه الجمعة مرارا متعدِّدة قبل الاستقلال وبعده، لما تَمَّ إصلاحه، وجُددت سقوفه، وكان ينتابه منفردا مختفيا في أوقات مختلفة من ليل أو نهار، متبركا بالصلاة به والدعاء فيه.

---

227) «الاستقصا»، ص 248 من ج 4، طبع القاهرة. وص 170 من ج 8 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

– وكذلك جلالة نجله ملكنا المعظم، أبو علي مولانا الحسن الثاني، فقد أدّى فيه صلاة الجمعة، بعد انعقاد بيعته، وصلاّها فيه مرة أخرى بغير صفة رسمية.

وهكذا كان هذا المسجد الجامع، منذ أُسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان، مقصد الملوك والأمراء والأعيان، على ممر الدهور والأزمان.

وقد درج فيه، وتخرَّج منه خلق لا يحصى، ولا يحصر عدده ولا يستقصى، من العلماء وأئمة الدين، وحملة الشرع، بهذا البلد الأمين، وءاوى إليه، وصلى بين أساطينه، واعتكف في زواياه وأركانه، الجَمُّ الغفير، والجمهور الكثير من الأولياء والصالحين، ذوي المرتبة العليا في التَّصوُّف، والقدم الراسخ في الدين، أمثال أبي العباس ابن عاشر، وابن عبَّاد، وأبي سرحان مسعود أجَمُّوع، وأبي محمد عبد الله بن حسُّون، وأبي العباس أحمد حجي، واضرابهم. وقرأ به وأَقْرأ الجهابذة الاعلام، مثل ابن حوط الله، وأبي علي الصدِّيني، وابن العجوز، وابن الخطيب السلماني، وأبي عفَّان عثمان بن أحمد التَّواتي، وأبي عبد الله بن قاسم زنيبر السلاوي، وأبي العبَّاس أحمد السَّدراتي.

ومن المتأخرين : أبو عبد الله محمد بن العزيز محبوبة، وأبو بكر بن مَحمد عواد، وأبو العبَّاس أحمد بن خالد الناصري، وأبو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء، وأبو الحسن علي بن محمد عوَّاد، وأبو العبَّاس أحمد الجريري، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة، وكلهم درَّس فيه أنواع العلوم الشرعية، من فقه وأصول، وحديث وتفسير وسيرة نبوية، وغير ذلك من الفنون العربية، والرياضية والفلسفية.

وتعاقب على منبره، الخطباء العلماء والوُعَّاظ والمرشدون اللُّسْنُ الفصحاء، فنصحوا للّهِ ورسوله، وفتح الله بهم قلوبا عميا، وءاذانا صُمّا، وكتب الله ذلك في سجلات حسناتهم المبرورة، ومساعيهم المشكورة.

وكان لا يتولَّى الإمامة في محاريبه، منذ تأسيسه إلاَّ من عُلِم عِلْمه، وثبت فضله واستقامته، واشتهر بالنزاهة والعفاف والتقوى، والتمسُّك من الدين، بالحبل المتين، والسبب الأقوى، حسبما وقفنا عليه في تراجم بعضهم وظهائر توليتهم الشاهدة لهم بذلك.

وزيادة على هذا، فقد كان هذا المسجد الأعظم، بهذا الثغر السلاوي، منذ وجوده، ملجأ اللاَّجئين، ومأوى الخائفين، ومثوى السَّاجدين والرَّاكعين، ومجتمع المدبِّرين بسلا لأمور الدنيا والدين.

فكانوا إذا نزل بهم حادث، أو طاف بساحتهم طائف، فزعوا إليه واعتصموا به، واحترموا بحرمه.

وقد نَصَّ ابن عذاري في تاريخه[228] على أن الإصبان لما احتلوا سلا واستباحوها في الوقعة العظيمة الشهيرة، سنة ثمان وخمسين وستمائة (658/ 1259)، التجأ السلاويون إلى المسجد الأعظم، واعتصموا به إلى أن فَرَّج الله عليهم.

وهكذا، كانت عادتهم إذا حزبتهم حوازب الخطوب، لجئوا إليه إمًّا للاستشارة، أو الدعاء والاستخارة، وإمَّا لإحْكام الخُطة التي يجب اتباعها، والطريق التي يتعيَّن سلوكها، وتجديد التَّوبة، واستجلاب رضا الله سبحانه في كشف الحوْبة، فيستجيب الله دعاءهم، ويفرج في أقرب وقت كربتهم.

وقد كان هذا المسجد – وما بالعهد من قدم، أيام المحنة الأخيرة – مجتمع السلاويين، وناديهم الأمين، وحصنهم الحصين، يجتمعون فيه، ويتداولون فيما ياتونه ويدرونه، ولا تقدر الشرطة أن تنتهك حُرمته.

ويكفي أنه لما ظهر الظهير البربري، وتألم الناس منه، وتكلَّموا فيه، ولم تكن لهم قدرة على المقاومة، إلا التَّوسل أو الدُّعاء، كان هذا المسجد الأعظم دار ندوتهم، وبرلمان نوابهم.

وفيه تقرر ذكر اسم الله تعالى اللطيف، فذكر فيه، وأمَّتْهُ الجموع، وسكبتْ فيه الدموع، وابتهل إلى الله سبحانه بذل وخشوع، وإنابة وخضوع، وإقلاع عن الذنوب ورجوع، مع صدق التوجه في السجود والركوع، فثبَّتهم الله بالقول الثابت في موقفهم الحاسم، ولم تمتدَّ إليهم يد شرطي ولا حاكم، ومنه برز واشتهر، وعمَّ مساجد المغرب كلها وانتشر.

وبقول جامع، فإن هذا الجامع، بيت من بيوت الله، التي اذن الله أن تُرفع، ويُذكر فيها اسمه تعالى، وتُصان حرمتها وتُمنع، ﴿يسبح لله فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

---

228) ص 224 من ج 3 طبع تطوان

المنـار

كان المنار الموحدي الذي شُيد مع المسجد، قائما صالحا، تعلى فيه كلمة الله، ويؤذن فيه للصلاة، مدة قرون وأجيال متطاولة، إلى أن أصابته صاعقة في عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، رحمه الله، تداعت لها أركانه، وتزعزع بنيانه، فأمر، رحمه الله، بنقضه وإعادته جديدا، فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم.

وأُنْفِقَ عليه بواسطة أُمناء مرسى العدوتين، ثلاثة آلاف مثقال وأربعمائة مثقال وأربعة وعشرون مثقالا، وست أواق، وثلث الأوقية، والريال الكبير يومئذ من سعر عشرة أوقية. وكان جل الصائر من بيت المال، وأقله من مال الحبس، سنة ست وخمسين ومائتين وألف (1840/1256) .

وكان يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء، عامل سلا، الابر الأخير، السيد الحاج أحمد بن محمد ابن الهاشمي عواد[229].

وفي العهد الأخير أصلحت درجه وأعيد تسويتها.

المدرسة الجوفية
وهي المحمدية اليوم

أمَّا المدرسة الجوفية التي بناها بانيه، السلطان أبو يوسف يعقوب، رحمه الله تعالى، وأضافها إليه، فقد كانت قائمة برسالتها في عهده وبعده.

ومن جملة من كان يُدَرِّس العلم بها، العلامة القاضي، الخطيب به، أبو محمد عبد الله ابن حوط الله، كما تقدم، ودرَّس بها «كتاب» سيبويه و«المستصفى» للشيخ أبي حامد الغزالي، وغير ذلك من الكتب النافعة المهمة، وكان يميل إلى الاجتهاد، ويُغَلِّب جانب الظاهرية، وإلى ذلك يشير الشيخ أبو عبد الله ابن علي الدكالي في رجزه بقوله :

يَدْرُسُ أَعْلاَ الْكُتْبِ فِي كُلِّ سَنَنْ   وَمَالَ لِلظَّاهِرِ عَنْ قَصْدٍ حَسَنْ
وَكَانَ ذَا تَمَسُّكٍ بِالسُّنَّةِ   مُجَانِبًا كُلَّ هَوًى وبِدْعَةِ

229) «الاستقصا»، ص 194 من ج 4. طبع القاهرة. وص 57 من 8 طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

تم تعطَّلت بعد ذلك وأُهمِلت، فتداولتها الأيدي، وصارت مربطاً للدَّواب.

وفي السِّنين الأخيرة من عهدنا هذا، انتزعها أولو الأمر ممَّن كانت بيده، وجُدِّد بناؤها على هيئة المدارس العصرية، وصارت مدرسة حُرَّة تدرس فيها مبادئ العربية للصِّبيان في الطَّور الابتدائي، وأُطلق عليها اسم «المدرسة المحمَّدية».

وكان ابتداء خرابها لما نزل الإصبان بسلا في الوقعة المعلومة سنة ثمان وخمسين وستمائة (658 / 1259).

تحبيس الحوت الشابل على إصلاح قنوات الماء الداخل للمسجد الأعظم بسلا

الشَّابل، بصيغة إسم الفاعل، في اللُّغة، الاسد الذي اشتبكت أنيابه، والغلام الممتلئ نعمة وشبابا، وولد الأسد، إذا أدرك الصيد، جمع أشْبَال وأشْبُل، وشُبُول وشِبَال.

وفي عُرْف المغاربة، يُطْلق على سمك بحري، يَقْصِد الماء الحُلْو بالأوْدية في فصل الربيع. قالوا : وربَّما بَلغت الواحدة منه نحو المتر طولا. وهو موجود بكثرة في أودية المغرب، كأم الربيع وسَبُو، وأبي رقراق. والمغاربة يستطيبون أكله. ويرغبون فيه، لأنَّه لذيذ، شهي، ولحمه قوي طري.

ويبتدئ موسم اصطياده عادة في شهر أكتوبر، ويمتدُّ إلى آخر فصل الشتاء، بكيفية معلومة عند المختصين باصطياده، بالشباك والحواجز والسدود التي يقيمونها في المشارع التي يكثر فيها في مجرى الوادي بقبيلة السهول.

وقد تقَدَّم لنا أن السلطان أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي، لما أتم بناء المسجد الأعظم بسلا، جلب له الماء من عيون البركة خارج سلا، في قنوات خاصة.

وسيأتي أن السلطان أبا الحسن المريني، لما بنى مدرسته الملاصقة له، وجَلَبَ إليها الماء من عيون البركة المذكورة أيضا بواسطة سور الأقواس المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا، جدَّد قنوات المسجد الأعظم و أجراه به.

والظاهر أنَّ هذا الماء الداخل إلى سلا، في عهد بني مرين، كان خاصًا أو مقصورا على المسجد والمدرسة، ولم يعمَّ المدينة كلها، بدليل قول ابن الخطيب في مقامة «المفاخرة بين مالقة وسلا» :[230]

230) ص 59 طبع الاسكندرية.

و«الماء بها معدوم (يعني بسلا) وليس له جُبٌّ معلوم، ولا بير بالعذوبة مرسوم».

وقد كان هذا الماء جاريا بالمسجد الأعظم، إلى زمن السلطان المولى إسماعيل. إلاَّ أنَّه كان يحصل فيه انقطاع، ويتعذَّر الوضوء على المصلين والمتعبِّدين به، بسبب فساد القنوات الجاري فيها، لقلَّته، أو لعدم إصلاحها وتعاهدها من حين لآخر.

وحيث كان هذا الإصلاح أو التَّعاهد يتطلَّب نفقات أو أحباسا خاصَّة يُنفق من وفرها عليه، كلما احتيج إلى ذلك، خصَّص رحمه الله، أولا على ما يظهر، ربع دخل الحوت الشابل المصطاد بالمشارع التي بوادي أبي رقراق لإصلاحها، وكان كثيرا جداً.

قد ذكره في «الاستبصار»، لمَّا وصف الجسر الموحدي على أبي رقراق، فقال :[231] وحوله يتصيد أنواعُ السَّمك والشَّابل .

وقال ابن الخطيب في «معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار» :[232] "وكفى بالشابل رزقا طريا، وسمكا بالتفضيل حريا. يبرز عدد قطر الديم، ويعم حتى المدا شر النائية والخيم..." إلخ.

وقد كان هذا في زمن ابن الخطيب وبعده، إلى زمن المولى إسماعيل وبعده. أمَّا في زمننا هذا، فقد قلت كمية الشابل المصطاد بِأَوْدِيَةِ المغرب على العموم، بالنسبة لما تقدم، بسبب بناء القناطر والسدود الحابسة للمياه، والمحركات الكهربائية، كما هو مشاهد.

ولا ندري، كيف كان تخصيص الرُّبع الأول، هل بتحبيس خاص أَوْ باتفاق مع أهل سلا والمنتفعين باصطياد الشابل من واديها، لأن الأودية ومجاريها من الاملاك العامة التي ينتفع بها سائر المسلمين.

ثم انه لمَّا رأى، رحمه الله ، قلة الماء في المسجد، واحتياج قنواته إلى الإصلاح والتجديد المتجدد، وعدم كفاية ما خُصص لها من الرُّبُعِ من رَيْعِ حوت الشابل، أمر بإضافة الأرباع الثلاثة الباقية إلى الربع الأول، وحبَّس الجميع بظهير شريف على إصلاح قنوات المسجد المذكور بسلا خاصة، وجلب الماء إليه في قادوس خاص، وأمر بأن يصلح ويتعاهد بالبناء وغيره.

وبسط النظر والتصرف في هذا الحُبُس، لناظر الأحباس العامة والخاصة بسائر مملكته، الأمين أبي عبد الله محمد الكاتب الأندلسي.[233]

231) ص 141، طبع الاسكندرية.

232) ص 105، طبع الاسكندرية.

233) كان هذا الكاتب في الدولة الإسماعيلية بمنزلة وزير عموم الأوقاف اليوم.

ونص الظهير الشريف المذكور

كما هو مسجل بالحوالة الإسماعيلية ، للأحباس الكبرى السلاوية :[234]

الحمد لله.

نسخة ظهير كريم، وكتاب مولوي جسيم، وأمْرٍ مؤكَّد صميم، والطابع الشريف الذي ضمن إسمه المبارك المنيف، بين سطري الحمدلة والافتتاح، نصه :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

عن الأمر العلي، والاذن المولوي، الامامي، السلطاني، المؤيدي، المنصوري، أمير المومنين، إسماعيل بن الشريف الحسني، أيد الله أوامره، وخلَّد في الصَّالحات مآثره الدينية، ومعالمه الزكية، ومفاخره، آمين.

يتعرف من يقف على مسطورنا هذا، المحفوف باليمن والاقبال، الطالع في سماء معالي التعظيم ومراقي الإجلال، من القضاة والنظار، وأهل المعرفة بالأحباس ومصارفها، ومرافقها، أنَّنا لمَّا ثبت عندنا، أنَّ من المرافق الكبيرة، والمصالح الأثيرة الخطيرة، بمحروسة سلا، كلأها الله وصانها، جلْب الماء الخارج عن سورها، من العين التي هنالك إلى مسجدها الأكبر بأعلاها، بقادوس يخُصُّه، وأنَّ ذلك يتوقَّف على التعاهد بالبناء والعلاج بالاتقان.

اقتضى نظرنا السديد، أنْ صرفنا على ذلك كله، جميع مستفاد المشارع التي بوادي مرساة سلا، الفاصل بين عدوتيها، المعداة لاصطياد الحوت في جميع الأماكن المعروفة هنالك بالوادي المذكور، على أن يكون جميع ذلك قبالة الماء المذكور، للمسجد المذكور، بالرُّبع الذي كان قبل هذا لإصلاح السَّاقية التي هنالك، يُضاف للثلاثة أرباع الباقية للماء المذكور، ويُصْرَف الجميع المذكور خاصة في إيصاله وإصلاحه وتعاهده بالبناء وغيره، من جملة أوقاف المسجد المذكور، محترم باحترامها، حبسا مؤبَّدا، ووقفا مخلَّدا، لا يبدل عن حاله، ولا يُغَيَّر عن سبيله، ومن بدَّل أو غيَّر، فالله حسيبه وسائله، وولي الانتقام منه.

وما كان من إصلاح الساقية من ربع المشارع المذكورة، يصير الآن من أوقاف المسجد المذكور، حيث أضفناه للأرباع الباقية، وجعلناها مصرفا واحدا.

---

234) مخطوطة.

وبسطنا لناظر الأحباس، العامّة والخاصّة لسائر ايالتنا السّعيدة، الأمين، العارف، الفقيه، السيد محمد الكاتب الاندلسي، يَدَ الحَوْز والتّصرف فيما حبّسناه، يُصرف خراجه فيما عيّناه، بسطا كليا من غير منازع ولا معارض.

وحسب الواقف عليه من القُضاة والعُدول إمضاؤه، والاشهاد بما فيه، وتدارك تسطيره بديوان الاحباس، وحياطته بتلافيه.

والسلام.

في فاتح جمادى الأولى من عام ثلاثة عشر ومائة وألف (1 جمادى I 1113 / 14 أكتوبر 1701)

وبعده :

انتهت. قوبلت بأصلها فَمَاثَلَتْهُ، واطلعها (كذا) الفقيه الاجل، العلامة الأكمل قاضي عدوة سلا ونواحيها، وخطيب جامعها الأعظم، وهو : محمد بن سعيد المصوري (بشكله) أعزه الله وحرسها، وعاين حفظه الله الاصل المنتسخ منه، فثبت عنده، وصحّ لديه، ونقلها إلى هنا من عاين الرسمَ المنتسخ منه، وشاهد في صدره الطابع الكريم فعرفه وتحقّقه من غير شك ولا ريب. وهو وفقه الله ودامت كرامته، بمجلس حكمه وقضائه، ومحل نظره، وبحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي أواخر جمادى الأولى عام ثلاثة عشر ومائة وألف (أواخر جمادى الأولى 1113 / أكتوبر 1701) : العدلان بشكليهما.

وبعدهما :

الحمد لله.

رفع على خط الشاهدين لموتهما عدل فقبل. وأعلم به عبد الله تعالى : بناصر معنين، (بشكله)

وبعده :

الحمد لله.

الشكل بالخطاب أعلاه للفقيه السيد بناصر معنين، كان رحمه الله متوليا خطّة القضاء بسلا حرسها الله، يفصل بين خصومها، ويخاطب على رسومها، إلى أن تُوفي بوصفه

المذكور، في علمه. قاله عارف شكله مُعرِّفًا به في ثامن عشر شعبان المبارك عام خمسة وثمانين ومائتين وألف (18 شعبان 11/1285 دجنبر سنة 1868) شكل العدل المعرف.

وبعد صدور هذا الظهير الشريف، المتضمن لإضافة الأرباع الثلاثة للربع الأول، من ريْع الحوت الشابل المصطاد من مشارع أبي رقراق، وقع الشروع في إصلاح القناة وبناء قادوس خاص لجلب الماء إلى المسجد، ثُمَّ تبين أن دخل الشابل المذكور لا يفي بالنفقة الكبيرة التي يتطلبها عمل كبير كهذا، فاجتمع أعيان سلا من ذوي المعرفة والرأي، ورفعوا موجبا للسلطان المولى إسماعيل بمكناس يطلبون فيه منه الاذن لهم في صرف ما يفضل من دخل الأحباس بعد أداء أجور الموظفين الدينيين بالمسجد المذكور على إتمام عمل جلب الماء إليه.

ونص الموجب الذي رفعوه :[235]

الحمد لله.

وقف شهوده الموضوعة اسماؤهم عقب تاريخه، وهم جماعة أعيان سلا... وغيرهم على عين خدمة بناء الماء المجلوب من القبة خارج المدينة المذكورة الذي أمر بجلبه سيدنا أدام الله نصره، وأطلع في سماء المعالي شمسه وبدره، للمسجد الأعظم من مدينة سلا المذكورة، وسعى في وصوله إليه، رجاء تحصيل ثوابه العظيم، تقبَّل الله منه ذلك، وجعله عليه حسنة جارية لا تنقطع إلى يوم الدين، فنظروه نظرا شافيا، واختبروه اختبارا كافيا، وعاينوا ذلك البناء المتقن البديع الذي جئ به على أحسن هيئة وأفضل صنيع، وتَطوَّفوا به يمينا وشمالا، فاقتضى نظرهم السديد، ورأيهم الموفق الرشيد، وظهر لهم أن هذا البناء الموجود الآن في غاية ما يكون من الصلاح والإتقان والاستقامة، وأنَّ استمرار الخدمة على هذا العمل بالمال المعين من الجانب العلي بالله من مستفاد مشرع الحوت، يُرْجى بلوغ الماء معها لا محالة للمسجد المذكور. وأنَّ من الصلاح والسداد الذي اتفقت عليه آراؤهم أن يستعان على ذلك بوفر الأحباس لينتفع به إن شاء الله الخاص والعام من الناس، وأن كل ما فضل عن إقامة المسجد، ومُرَتَّب أهل الوظائف، أولى وأحق أن يصرف في ذلك زيادة على ما ذكر، ومنفعته أعظم إن استعمل هنالك، وأنَّه لا ضرر على المسجد في صرف وفره فيه.

كل ذلك في علمهم وتحققهم لا يشكُّون فيه. وقيدوا على ذلك شهادتهم مسؤلة منهم.

---

235) الحوالة الاسماعيلية للأحباس الكبرى بسلا، مخطوطة.

وفي الثاني عشر من ذي الحجة عام سبعة عشر ومائة وألف (12 ذو الحجة 1117/27 مارس سنة 1706).

- السيد عبد العزيز فنيش
- المكرَّم أحمد بن علي امْعَدَّل
- المُسِنُّ الحاج عبد الرحمان مَعْنِينُ
- الأمين الحاج أحمد الصبايحي
- المكرَّم الحاج علي المديوني
- المكرم الحاج عبد الله العَوْفي
- الفقيه السيد مسعود الزمُّوري
- السيد علي بن الفقيه السيد محمد الشَّمَّاخ
- المكرم الحاج عبد الرحمان بوحميدة
- المكرم الحاج محمد جغالف
- المكرم عبد العزيز بنعيسى
- السيد الحاج عبد الرحمان يشُّو
- المكرم الحاج الخضر ولَعْلُو
- المكرم الحاج عبد الله بن الحسن
- المكرم الحاج عبد الرحمان المريني
- المكرم الحاج موسى النجار
- المكرم الحاج حَدُّو زنبير
- الارضى السيد محمد بن فارس الشَّريف
- المكرم الحاج أحمد بوشنتوف
- المكرم محمد بن سعيد الماسِّي
- الحاج حَمُّو بن الحسن

شهدوا لدى من قدّم لذلك بموجبه فثبت

الحمد لله .

أشهد الفقيه الاجل العلامة الأكمل، المدرس البركة، قاضي مدينة سلا وخطيب جامعها الأعظم في حينه وهو. . .

أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التّام بصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر، وفي التاريخ أعلاه، العدلان بشكليهما.

الحمد لله

أعلم باستقلاله بعد الأداء عبد ربه تعالى...

ولمّا رُفع هذا الموجب للحضرة السلطانية بمكناس، أحالته على قاضي الجماعة بها العلامة أبي عبد الله محمد أبي مدين بن حسين السُّوسِي، فوافق على ما طلبه أهل سلا من صرف ما يتوفَّر من أحباس سلا على إكمال إجراء الماء إلى مسجدها الأعظم وحَرَّرَ بذلك وثيقة شرعية نصها :[236]

الحمد لله.

لمَّا طولع الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المدرس البركة، الحافظ الحُجَّة، المحدث الراوية، الخطيب البليغ، قاضي الجماعة بالحضرة الهاشمية محروسة مكناسة، ومفتيها وإمامها، وهو : محمد أبو مدين بن حسين السوسي أعزه الله تعالى وحرسها بما سطر بمحوّله من شهادة الجم الغفير، والعدد الكثير، من أعيان محروسة سلا، أمّنها الله تعالى، من أعيان العدول وغيرهم، بأنّ في تصيير وفر حبس مسجد الثغر المذكور عمَّره الله تعالى بدوام الذكر فيه، في الماء المجلوب لها، حسبما ذكر وسطر بمحوله صلاحا وسدادا، وذلك من الأمر الواجب المتعين لما فيه من المصلحة العامَّة، خصوصا وظيفة الدين التي يجب القيام بها شرعا، وأمعن النظر فيه كما يجب، وثبت لديه حفظه الله تعالى بموجب الثبوت، أَذِنَ سدَّده الله تعالى لمن له القيام بذلك فيما ذكر من تصيير الوفر المذكور فيما ذكر على الوجه المذكور، لما ثبت عنده حفظه الله تعالى من المصلحة المذكورة المشهود بها حيث أُشير، ووافق

236) الحوالة الإسماعيلية للأحباس الكبرى السلاوية، مخطوطة.

على ما يصير فيه إذْناً وموافقة تأمين، شهد به على من ذكر، دامت كرامته، وهو أكرمه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي أواسط المحرم الحرام فاتح عام ثمانية عشر ومائة وألف (أواسط المحرم 1118/ أواخر مارس 1706).

عبد الوهاب العرائشي وفقه الله، مسعود بن عبود وفقه الله.

انتهت. قابلها بأصلها فَمَاثَلَتْهُ، وأشهده الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المدرس البركة، قاضي الجماعة بمدينة سلا، وخطيبها وهو...

أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم عنده الثبوت التام، لصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي السادس من صفر الخير من العام الثامن عشر بعد المائة والألف (06 صفر 22/1118 ماي 1706).

ولمَّا اطَّلع قاضي سلا على إذن قاضي الجماعة بمكناس، في استعمال وفر الأحباس، في النفقة على إتمام العمل في جلب الماء إلى المسجد في قادوس أو قناة خاصة، أقام موجبا من اشياخ البصر، والمعلِّمين البنَّاعين والنجَّارين، بأن العمل الجاري في جلب الماء من المصالح العامة، وان الخدمة فيه تسير باستمرار وإتقان، جاء فيه :[237]

الحمد لله.

وقف شهوده الآتية أسماؤهم عقب تاريخه، وهم من أشياخ البصر المعلِّمين البنَّائين والنجَّارين لأحجار البناء وخُشُبه على عين بناء الماء الجاري المجلوب من القبة خارج مدينة سلا، حاطها الله تعالى، الذي أمر بجلبه مولانا أمير المومنين، أدام الله له النصر والتأييد، وأعلا في منار العز أُفُقَه السعيد، للمسجد الأعظم من المدينة المذكورة، وسعى في وصوله إليه، ورجا أن يكون ثوابه قاصرا عليه، تقبل ا لله ذلك منه، وجعله عليه حسنة إلى يوم الدين.

وسُئل منهم اختبار البناء المحدث الآن لجلب الماء، وهل في ذلك صلاح وسداد، واتقان ورشاد، فأجابوا إلى ذلك، ونظروه نظرا شافيا، واختبروه اختبارا كافيا، فظهر لأهل المعرفة المذكورين، بدليل معرفتهم، وما أدَّاه إليه اجتهادهم، وإليهم المرجع في علم ذلك بمحروسة

237) الحوالة الإسماعيلية، للأحباس الكبرى السلاوية، مخطوطة.

سلا المذكورة، أنَّ صنيع الخِدْمة التي جيء بالماء عليها الآن في غاية ما يكون من الصلاح والإتقان والمداومة على العمل المشكور، يُرجَى بلوغ الماء معها للمسجد المذكور، وأنَّ من الصَّلاح والسَّداد الذي اتفقت عليه آراؤهم، أنْ يُستعان على ذلك بفاضل أوقاف المسجد المذكور بعد إخراج مرتب أهل الوظائف، وما يَخُصُّ المسجد في إقامة ضرورياته، وهو أوْلى وأحق بأن يُصْرَف في مجرى الماء للمسجد المذكور، زيادة على ما عُيِّن له من الجانب العالي بالله تعالى من مستفاد مشرع الحوت، وأنْ لا ضرر ولا غرر على المسجد في صرف وفره فيه، لأنَّ العمل مامون، يُرْجى بلوغه بحول الله وقوته، مع استمرار الخِدْمة على ذلك بالمال المذكور.

كل ذلك في علمهم وتَحَقُّقَهم، وقيَّدوا على ذلك شهادتهم بجماعة من العدول على الوجه المذكور.

وفي الثاني عشر من المحرم الحرام سنة ثمانية عشر ومائة وألف (12 محرم 26/1118 مارس 1706).

- المعلم محمد الراضي البنَّاء أدَّى
- المعلم منصور بن أحمد فلُّ البناء أدى
- المعلم أحمد بن عبد الرحمان حصّار البنّاء أدّى
- المعلم الحاج الطاهر بن علي بن محمود البنّاء أدّى
- المعلم عزُّوز بن موسى البنّاء، أدّى
- المعلم عبد السلام مهدي النجار، أدّى
- المعلم محمد بن الجناوي المالقي النجّار، أدّى
- المعلم بوغابة بن علي الغزواني النجّار، أدّى
- المعلم محمد بن محمد النجّار البنّاء، أدّى
- المعلم الحاج العياشي بوحموش البنَّاء، أدّى
- المعلم أحمد الطيبلي البنَّاء، أدّى
- المعلم الحاج الصغير بن داوود البنّاء، أدّى

– المعلم الحاج علي النجار، أدّى

– المعلم ابن عاشر بن عبد الرحمان اصواف النجّار، أدّى

– المعلم إبراهيم بن عياد النجّار، أدّى

– المعلم عبد الرحمان اصواف النجّار، أدّى

الحمد لله.

أشهد الفقيه الاجل، المدرس الأكمل، قاضي مدينة سلا وخطيب جامعها الأعظم في حينه وهو........... اعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التام، لِصِحّته عنده وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي التاريخ أعلاه. عبد ربه تعالى : (بشكله) وعبد ربه تعالى : (بشكله).

هذا وقد علمنا مما تقدّم أن السلطان المولى إسماعيل، رحمه الله، حبّس بمقتضى ظهيره الشريف الصادر بتاريخ فاتح جمادى الأولى عام ثلاثة عشر ومائة وألف (1 جمادى الأولى 03/1113 أكتوبر 1701) مستفاد الحوت الشابل المصطاد من مشارع أبي رقراق على جلب الماء إلى المسجد الأعظم بسلا، وإصلاح قناته وتعاهدها.

وترتب على ذلك الشروع في العمل، واضافة وفر ما يفضل من دخل الأحباس السلاوية إلى ما يتحصّل من ثمن الحوت المذكور، ليُصْرف الجميع على إنجازه، كما أفْصحت عنه الوثائق الشرعية المتقدمة، لأنه عمل ديني، وفيه مصلحة عامّة.

إلاّ أننا نجده يتصرف في الحوت المذكور بالبيع، وتنفيذ بعض ثمنه في سبيل مبارك بالرباط، حَسَبَما أفْصح عنه كتابه الذي خاطب به عاملي الرباط وسلا بتاريخ سادس رجب عام واحد وعشرين ومائة وألف (6 رجب 11/1121 شتنبر 1709).

ولم نقف الآن على ما يفسر ذلك بعد التحبيس الصادر منه، وإسناد التّصرف فيه لناظر الأحباس العامة والخاصّة بسائر الإيالة الشريفة أبي عبد الله محمد الكاتب الأندلسي كما تقدم، مع التأكيد في إيصال الماء إلى المسجد قبل فصل الشتاء.

ونص الكتاب الشريف المذكور كما هو مسجّل «بحوالة الأحباس الكبرى السلاوية» :

الحمد لله.

نسخة ظهير كريم، وكتاب إسماعيلي مبارك، وأمر مولوي صميم، بطابعه الشريف الذي تضمن ذكر اسمه المنيف، بين الحمدلة والافتتاح، نصه :

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا :

اسماعيل بن الشريف الحسنى رعاه الله.

خُدّامنا حج مرين، والحاج محمد بن علي مَعْنِينُ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فنأمركم أن تختاروا ستة عشر رجلا منكم : ثمانية من أهل الرباط، وثمانية من أهل سلا، وتقبضوا منهم أربعمائة مثقال، قيمة مشرع الشابل، فقد بعناه إليكم بها، بشرط أن تدفعوا قيمته عندما يصلكم مسطورنا هذا اسماه الله تعالى، من غير بُطْئٍ ولا توان ولا تراخ في ذلك. وعلى كل حال، تَرْبَحون فيه إن شاء الله هذه الأربعمائة مثقال. فادفعوا ستين مثقالا منها لذلك السبيل المبارك الذي بالرباط على العادة المألوفة، وما بقي اجعلوه عند الحاج أحمد أحدٍ على وجه الأمانة.

وناظر أوقاف الحُبُس، نأمره أن يَجِدَّ ويجتهد في خدمة ذلك الماء المبارك إلى أن يُسدِّد من هذه الدراهم قيمة هذا المشروع، ولا يفعل فعلا قبل وصول هذا الماء إن شاء الله في هذا الفصل المبارك قبل اتيان فصل الشتاء واقباله، فليشدّ روحه فيه، وليبالغ مجهوده في خدمته، فالعزم، ثم العزم به ولا بد، وإن أنتم تراخيتم في خدمة هذا الماء المبارك إلى أن دخل عليكم فصل الشتاء، وأنتم ما زلتم تخدمون فيه، فلا تَلُوموا إلا أنفسكم، فاعرفوا ما قلناه لكم، وانجزوا بأرواحكم والسلام.

وكتب في سادس رجب الفرد المبارك عام واحد وعشرين ومائة وألف (06 رجب 11/1121 شتنبر 1709).

وبعده :

انتهت، قوبلت بأصلها فماثلته، واطلعها الفقيه الاجل المدرس العلاّمة الأمثل، قاضي عدوة سلا وما والاها في حينه، وخطيب جامعها الأعظم وهو........ أعزه الله تعالى وحرسها، وبعد أن طالع حفظه الله الأصل المنتسخ منه، فثبت عنده، وصحّ لديه بموجبه، ونقلها إلى هنا من عَايَنَ الرسم المنتسخ منه، وشاهد في صدره الطابع الكريم، السلطاني الجسيم، فعرفه وتحقَّقه، وهو دامت كرامته بمجلس حكمه، ومحل نظره، بحيث يجب له ذلك.

وفي عاشر رجب الفرد من عام واحد وعشرين ومائة وألف (10 رجب 15/1121 شتنبر 1709).

وبعد هذا كلَّه، فقد استمرت الخدمة متواصلة في تجديد القناة المائية وإصلاحها عدة سنين، منذ صدر الظهير الإسماعيلي الأول سنة ثلاث عشرة ومائة وألف (1701/1113) إلى سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف (1712/1123)، يعني نحو عشرة أعوام، وفيها وصل الماء إلى المدينة، وتفجّرت ينابيعه بالمسجد الأعظم.

قال العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان الحافي السلاوي في بعض مُقَيَّداتِه :

كان وصول الماء الجاري لمحروسة سلا، وجريه بِخَصَّة جامعها الأعظم عمَّره الله بدوام ذكره، يوم الإثنين سادس ذي الحجة متم عام ثلاثة وعشرين ومائة ألف (06 ذو الحجة 1123/ يناير سنة 1712)، بأمر من مولانا إسماعيل بن الشريف، وأنفق عليه جملة وافرة من المال نفعه الله بذلك.

وحينئذ جدَّد السلطان المولى إسماعيل المذكور، رحمه الله، التحبيس، وأصدر ظهيرا شريفا آخر بذلك، نَصَّ فيه على أنَّ ما يفضل من المستفاد المُعَدِّ لإصلاح مجاري الماء الجاري يُصرف في مصالح المسجد ومنافعه. وقدَّم للنظر في أمر الوادي وتنفيذ وتطبيق ما نصَّ عليه الظهير الشريف المذكور خديمه أبا عبد الله الحاج محمد مَعْنِينُ.

ونصُّ الظهير الشريف المذكور :[238].

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا مباركا فيه.

حبَّسْنا بحول الله وقوته، وشامل يُمْنِهِ وبَرَكَتِه، جميع الوادي، المشرع المعهود لصيد الحوت الشابل بعدوة سلا حرسها الله، علىَ الماء الذي تفضَّل الله علينا باجرائه إلى المسجد الجامع من الحضرة المذكورة، ليصرف ما يستفاد من الوادي المذكور في إصلاح مجاري الماء المذكور، ومنافعه.

وقدَّمنا للنَّظر في أمر هذا الوادي، وقبض ما يجب قبضه منه، وصرف ما يصرف في مصارفه المذكورة، خديمنا الانجد الارشد، السيد الحاج محمد مَعْنِينُ، لثقته وأمانته عندنا، وبسطنا له اليد عليه، وفوَّضنا له فيه، دون معارض ولا منازع. وعليه في ذلك بتقوى الله

---

238) حوالة الأحباس السلاوية، مخطوطة.

العظيم، وأداء الأمانة فيما أسندناه إليه تحبيسا مُؤَبَّدا، ووقفا مُخلَّدا، لا يبدل عن حاله، إلى أن يرث الله الأرض، وهو خير الوارثين.

قصدنا بذلك نفع المسلمين، والله لا يضيع أجر المحسنين، بفضله وكرمه.

والواقف عليه، يعمل به، ولا يحيد عن جميل مذهبه. والسلام.

في أول صفر الخير عام أربعة وعشرين ومائة وألف (01 صفر 10/1124 مارس 1712).

وبعده،

انتهت، قابلها بأصلها فماثلته، واشهده الفقيه الأجل العلامة الأفضل المدرس المحدث البركة، قاضي مدينة سلا وما والاها في حينه، وخطيب جامعها الأعظم، وهو : محمد بن قاسم زنيبر (بشكله) أعزه الله تعالى وحرسها باعمال الرسم أعلاه الاعمال والثبوت التام لصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر، دامت كرامته وصحته وعافيته، وفي التاريخ أعلاه. العدلان : (بشكليهما).

وبعده :

الحمد للَّه.

الشكل بالخطاب عرضه للفقيه العلامة البركة السيد محمد بن قاسم زنيبر، كان رحمه الله متوليا خطة القضاء بسلا حرسها الله، يفْصِلُ بين الخصوم، ويخاطب على الرسوم، إلى أن توفي بوصفه المذكور.[239]

في علمه، قاله عارف شكله، معرفا به، في متم شعبان عام خمسة وثمانين ومائتين وألف (متم شعبان 1285/منتصف دجنبر 1868) (العدل المعرف بشكله).

وبعده :

الحمد لله.

أدّى المعرف فقبل، وأعلم به عبد الله تعالى : «أبو بكر عواد» (بشكله)[240].

---

239) أبو عبد الله محمد بن قاسم زنيبر، تولى قضاء سلا سنة (1711/1122)، وبقي متوليا إلى أن توفي سنة (1715/1126)

240) أبو بكر بن محمد عواد تولى قضاء سلا في جمادى الثانية عام 1285(أكتوبر 1868) إلى أن توفي في صفر عام 1296 ابراير سنة 1878) رحمهما الله.

وبعد هذا التحبيس، استمرَّتْ أحباس المسجد الأعظم بسلا تتصرف في حُبُس الحوت الشابل، وتنفق منه على إصلاح مجاري الماء الداخل إليه ومصالحه، مدة مائة عام كاملة، منذ جدَّد المولى إسماعيل تحبيسه بظهير أول صفر عام أربعة وعشرين ومائة وألف (فاتح صفر 10/1124 مارس 1712) إلى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف (1808/1223) في عهد السلطان المولى سليمان رحمه الله، فصار الحُبُس مقسوما إنصافا بين المسجد الأعظم بسلا والجامع الكبير بالرباط، حسبما يوخذ من سجلات الأحباس الكبرى الرباطية.

ولم نقفْ على أيِّ صكٍّ رسمي من ظهير شريف، أو وثيقة شرعية تبين كيفية هذه القسمة أو الانتقال الحُبُسي.

ولعلَّ السلطان المذكور، لاحظ عجزا في أحباس الرباط في ذلك العهد عن القيام بمصاريف الوظائف الدينية بالجامع الكبير بها، لقلة دخلها، فاقتضى نظره تشريكها في حبس الحوت الشابل الذي كان خاصًا بالجامع الكبير بسلا قبل ذلك، إعانة لها على القيام بما هو مطلوب منها.

ومن ذلك التاريخ جرى العمل بهذه القسمة النصفية بدون معارض ولا منازع إلى الآن.

وقد كان دَخْل الشابل يتوفَّر منه قَدْرٌ له بال يصرف في مصالح المسجد وتنظيف قناته المائية وغيرها من المصالح العامة بالبلد، حسبما وقفت عليه في محاسبة أحد نظار سلا، وهو السيد الحاج بنسعيد بن الناظر السيد محمد حركات السلاوي بتاريخ سنة أربع ومائتين وألف (1789/1204) : وهي السنة التي توفي فيها السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله، فكان من جملة ما دخل عليه في مدة سنتين من مستفاد الحوت الشابل، ما يزيد على ألف وخمسمائة مثقال، وهو قدر له اعتبار في ذلك الوقت، صُيِّر منها في بناء قواديس الماء الجاري وإصلاحها داخل المدينة وخارجها ما أدرجه مُفصَّلا في حسابه، والباقي صدر الاذن السلطاني لأعيان سلا بصرفه في إصلاح أسوار المدينة، ودفف أبوابها، وتصويب كراريط مدافع أبراجها، وغير ذلك من المصالح العامة... الخ.

كما وقفت على جواب صادر من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، رحمه الله، لابن عمه الشريف النقيب سيدي محمد بن الحبيب العلوي، وكان من الأشراف ذوي الوجاهة والظهور والنفوذ بالعدوتين في ذلك العهد، وتوفي في وقعة غياثه مع السلطان المولى الحسن الأول رحمه الله سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف (1876/1293)، يؤخذ منه أنه كان أَعْلَمَ السلطان بأنَّ أحباس سلا، لها وفر كثير كبير في ذلك الوقت، وأنَّ النظار يتصرفون فيها بحسب شهواتهم، وأنَّ السَّمك الشابل، تَحَصَّلَ فيه وَفْرٌ له بال في تلك السنة، وطالب

بإحصائه، وقال : إنَّه اعتيد أكْله، وضياع الأحباس فيه، ولا بأس بإثبات هذا الجواب هناً لارتباطه بالموضوع وفائدته، وهو :

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محمد بن عبد الرحمن الله وليه.

ابن عمنا الارضى محمد بن الحبيب وفقك الله، وسلام عليك ورحمه الله تعالى وبركاته.

وبعد، وصلنا كتابك، أخبرت فيه أنَّ لمساجد سلا، غير المسجد الأعظم، وفْراً كثيرا، وأراد بعض المتولين وأقاربهم مدً اليد فيه للتجارة به وغيرها، مع كوْن جلِّهم مفلسين، وطلبت منعهم منه، بجعل ناظر عليه مستقل، خيِّر ديِّن، صلْب في الحق، كما طلبت إصدار أمرنا الشريف، باحصاء الوفر الداخل من سمك هذه السنة لأنه كثير، واعتيد أكله، وضياع الآحباس فيه، وصار بالبال. والله يعينك، والسلام.

في سابع ربيع الأول عام ستة وثمانين ومائتين وألف (07 ربيع الأول 17/1286 يونيه 1869).

وفي عهد السلطان المولى الحسن الأول رحمه الله، حصل ضعف في دخل الحوت الشابل بأسواق العدوتين، لكثرة المصطادين له وللحوت البوري بمشارع وسدود أبي رقراق، افتياتا على الاحباس المحبَّس عليها، وتشكَّى ناظرا العدوتين من ذلك. فأصدر رحمه الله ظهيرا شريفا سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف (1876/1293) لم يحضرني الآن، تضمَّن نظاما جديدا لصيد السمك بالأودية، وخصوصا أبي رقراق والمشارع المنصبة فيه، وهو :

إنَّ ما يُصطاد من السمك البوري من مجرى الوادي بقبيلة السهول، وبنهر سبو أيضا يؤدي ضريبة لأحباس العدوتين السلاوية والرباطية، قدرها خمسة وعشرون في المائة، تَنْمية لها، زيادة على القدر المتحصِّل من ثمن الحوت الشابل المصطاد بواسطة السدود والحوافز التي تقيمها الاحباس في المشارع المعلومة بالوادي. وبمقتضى ذلك، صار عامَّة الناس، وسكَّان ضفاف الوادي إذا اصطادوا سمكا بالصَّنارة وباعوه بالاسواق أدُّوا رُبُعَ ما يتحصَّل في ثمنه لأحباس العدوتين وجرى العمل على ذلك.

ثم استبدَّت الاحباس بجميع الحوت الشابل، واختصَّت ببيعه، والتصرُّف فيه، عملا بالظهائر الحبسية التي تعتمد عليها، وبقيت الضريبة على الحوت البوري. وكان لا يسوغ لأحدٍ أن يأخذ من الشابل شيئا إلاَّ بالثمن إلى سنة خمس وثلاثمائة وألف (1888/1305)، فحدثت التنفيذة.

التنفيذة

والتنفيذة، هي أن السلطان كان ينفذ، أي يُعْطي لبعض الاشراف والوُلاة كالقُضاة والعُمال حوتة أو حوتتين من الشابل كل يوم مدة موسمه.

ثمَّ اتَّسع الخرق في عهد السلطان المولى عبد العزيز، فصار الحوت الشابل المحبَّس يُنفَّذ حتى لغير الاشراف والوُلاة الرسميين كالأئمة والقُرَّاء والتلاميذ وغيرهم، وكثرت التنافيذ واتَّسع الخرق على الرَّاقع، وتضررت الأحباس من ذلك، لكثرة ما تنفقه، وقلة ما تربحه، فكتب نظار أحباس العدوتين إلى السلطان المولى عبد العزيز يعلمونه بذلك، ويطلبون منه سَنَّ ضابط لهذه التنافيذ الحوتية يكون عملهم عليه.

فأجابهم بكتاب شريف يقول فيه :

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

خدامنا الأرضين، نُظَّار أحباس العدوتين حرسهما الله، السلام عليكم ورحمة الله.

وبعد، وصل كتابكم مخبرين بأنَّ السمك الطالع من الوادي لا يحصل منه نفع لِجانِبِ الأحباس إذا لم يكن كثيرا، وربَّما كان الدرك على الأحباس في صائره. فصرتم تقدمون ما خرج من الصائر أولا بمقتضى أمرنا الشريف، والباقي كله لأهل التنافيذ بل قد لا يفي بهم، فيكثر عليكم الكلام في ذلك، طالبين تعيين قَدرٍ مخصوص كثلث أو ربع لجانب الأحباس، ليحصل لها شيء في الجملة، والباقي إن كان قليلا يُجعل له ضابط بين أهل التنافيذ، وصار بالبال.

فالضابط الذي تتمشون عليه، هو أنكم أولاً لا تدفعون حوتة واحدة حتى تَسْتَوْفوا ثمن الشباك وصائرها، ثم بعدها ما يطلع كل يوم بعد اسقاط صائره اليومي من خبز وغيره، تأخذ الأحباس الرُّبع، وتفرق الثلاثة أرباع على نحو ما سيذكر :

أما دار عم مولانا المقدس مولاي الرشيد، فلتدفعوا لها تنفيذتها اليومية، لأنه كذلك في ظهيرنا الشريف ولو لم تطلع إلاَّ هي.

وأمَّا وُلاة العدوتين، كالقاضيين، وشبههما، فإن كانت الثلاثة أرباع توفي بالتنافيذ، فهم في جملتهم في مُياوَمَتهما، وإن لم توف بالجميع، فلتعطوهم مرتين أو ثلاثة في الجمعة، ثم خذوا سدس الثلاثة أرباع لأئمة المساجد المؤذنين بها، والعلماء والشرفاء إن لم يكن لأحد

منهم تنفيذ، وإلا فَيُدْرج مع ذوي التنافيذ، ويُفَرَّقُ ذلك السُّدس على من ذُكر بعد تقييد عددهم عند الناظر، وابتداؤه لهم من أول التَّقْييد إلى آخر عددهم فيه، ولو تعدَّدت الأيام، والباقي من الثلاثة أرباع، يُفرق على أرباب التنافيذ متتابعين كذلك، من أول عددهم إلى آخره. ولو تعدّدت الأيام أيضا، ثم يرجع لأولهم في تفريق هذا القدر المعيّن لهم إلى أنْ يأتي عليهم، وهكذا العمل فيهم في خمسة أسدادهم، وفي أرباب السُّدس المذكور في الأيام التي لا يطلع بها ما يوفي بالجميع.

فلتمضوا عليه حَذْواً بِحَذَرٍ، ولا يكون التفضيل لأحد، ولا يبقى لكم نزاع مع أحد قط.

والسـلام .

في ثاني عشر شعبان عام أربعة عشر وثلاثمائة وألف (12 شعبان 16/1314 يناير 1896).

ويوخذ من منطوق هذا الكتاب الشريف ومفهومه أن الأحباس التي كانت صاحبة المستفاد الحوتي كله، أصبحت لا تأخذ إلا الربع، بعد إسقاط الصوائر، وذلك الربع، يقسم بين أحباس العدوتين، فينال كل واحدة منهما الثُّمُن فقط...؟ والباقي ثلاثة أرباع يقتسمها المنفذ لهم، أو توزع عليهم... وقد جرى العمل على مقتضى هذا الكتاب الشريف بقية دولة السلطان المولى عبد العزيز، ومدة دولة السلطان المولى عبد الحفيظ، وازدادت التنافيذ في عهده كثرة، فاستغرقت الباقي من الحوت باذن خاص منه.

مثال ذلك الكتاب الشريف الصادر منه بتنفيذ زوجة من الحوت الشابل لقائد الرباط في ذلك العهد. ونصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

نأمر ناظري أحباس العدوتين المحروستين، أن ينفذا لماسكه خديمنا القائد أحمد السويسي الزوجة من الحوت الشابل التي كانت منفذة لأخيه القائد محمد، ويكونا يدفعانها له مُيَاوَمَةً، عند اصطياده من وادي العدوتين، كما كان يحوزها أخوه المذكور، ويردَّان له كتابنا هذا يتمسك به والسلام.

في ثاني وعشري رمضان عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف (22 رمضان 29/1325 أكتوبر 1907).

كما كانت العادة جارية أنَّ أول حوتة تصطاد في ابتداء موسم الصيد، تُوجَّه كباكورة السنة للمطبخ السلطاني حالا إنْ كان بالرباط، وإلاَّ شُرحت وملحت ووُجِّهَت له مع مبعوث خاص حيث يوجد، مصحوبة بكتاب من الناظر إلى الوزير مُعْلِماً له بذلك.

ومنه كتاب ناظر الرباط، إلى وزير عموم الأوقاف، معلما له بأنه وجه باكورة الصيد الشابلي للمطبخ السلطاني السعيد، يقول فيه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

محبنا الأعز الأمجد، وزير عموم الأوقاف الأنجد، السيد الحاج أحمد الجاي، امنك الله، وسلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا المؤيد بالله.

وبعد، فيوم تاريخه، قدم إلينا رئيس الحوت الشابل بحوتتين اثنتين اصطادهما من وادي الأحباس، وساعَتَهُ وجهناهما لِكُشّينَة[241] سيدنا السعيدة، باكورة العام على العادة، وأعلمنا بذلك سيادتك. وعلى المحبة والسلام .

في سادس عشر ذي الحجة عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (16 ذو الحجة 05/1332 نونبر 1914).

بنعيسى بن مسعود وفقه الله.

وفي عهد السلطان المرحوم، المولى يوسف، لما ازداد أمر التنافيذ تفاحشا، والصيادون في الوادي تنافسا، وكادت فائدة الأحباس أن تنعدم، وعادة الاصلاحات المنوطة بها أن تنخرم، أصدر - رحمه الله - كتابا شريفا مؤرخا بعاشر رمضان عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف (10 رمضان 13/1331 غشت 1913) باسقاط جميع التنافيذ.

وكتب بمقتضاه وزير الأحباس اذ ذاك، أبو العباس أحمد الجائي لناظريْ العدوتين بتاريخ الثاني والعشرين من المحرم فاتح عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (22 محرم 21/1332 دجنبر سنة 1914) ليطبقوه ويكون عملهم عليه.

وبعد ذلك بنحو ثلاث سنوات، أصدر، - رحمه الله -، ظهيرا شريفا ضمَّنه نظاما جديدا لصيد السمك المحبس على المسجدين الكبيرين بالعدوتين، وجرى العمل بما تضمَّنه بعد ذلك، ونصه :

241) الكشينة : لفظة اسبانية، معناها المطبخ، وهي مستعملة عند المغاربة.

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

يُعلم من كتابنا هذا أعز الله أمره، وخلَّد في الصالحات ذكره، أننا بحول من له الحوْل، والعزة والطوْل، لمَّا اطلع علمنا الشريف بما في حوالة الأحباس السلاوية، من النسخة العدلية، المسجلة بظهير شريف لجدنا الأكبر مولانا إسماعيل، نور الله ضريحه، مؤرخا بفاتح جمادى الأولى عام إحدى عشرة مائة وثلاثة عشر (1701/1113).

ومن جملة ما تضمنه أنَّ الرُّبع من مستفاد الحوت الذي يصطاد بعدوة سلا، وكان قبل التاريخ، تُصلح به الساقية التي يجري فيها الماء إلى مسجدها الأكبر، أضاف إليه رحمه الله، الثلاثة أرباع الباقية من مستفاد الحوت المذكور. وجعل الجميع من أوقاف المسجد المذكور، يُصرف على جلب الماء الكائن خارج سور سلا، من العين التي هنالك حُبُساً مؤبدا، يحترم باحترامها.

ثم أصدر – قدَّس الله سِرّه – ظهيرا شريفا آخر بفاتح صفر الخير عام أربعة وعشرين ومائة وألف (1712/1124) بإقرار الحُبُس المذكور الشامل للحوت الشابل على ما كان عليه.

كما اطلع علمنا الشريف، على ما تبين من تصفح ما وُجد من كنانيش الأحباس الرباطية، من تاريخ عام ثلاثة وعشرين ومائتين وألف (1808/1223) إلى الآن، أنَّ مستفاد حوت وادي العُدوتين تَسْتَغِلُّه أحباسهما على الشياع بينهما، وما صدر بعده أمر مولوي يخالف ذلك.

فنظرا لما ذُكر، ولكتاب سيدنا الوالد المقدَّس بالله، المؤرخ بتاسع ذي الحجة عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف (09 ذو الحجة 26/1293 دجنبر سنة 1876)، الصادر لناظريْ العدوتين بتنفيذه لأحباس هاتين المدينتين الرُّبع من مستفاد الحوت البوري الذي يصطاده الملاحون.

ونظراً لكون الملاَّحين من القبائل المجاورة لوادي العدوتين يُسلِّمون للأحباس ربع الحوت الذي يصطادونه منه.

ونظراً لاتِّفاق العلماء على كون الحِيازة والتَّصرُّف بوجه الحبُس مدة طويلة تثبت التحبيس بدون التفات للرسوم المجعولة فيه.

ونظراً لما صار من تنفيذ الانتفاع بمستفاده في هذه المدة الأخيرة نحو ثلاثين سنة.

ولكتابنا الشريف المؤرخ بعاشر رمضان عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف (10 رمضان 13/1331 غشت سنة 1913)، الصادر بإسقاط جميع التنافيذ المرتب عليه كتاب خديمنا الأنجد وزير عموم الأوقاف الطالب أحمد الجاي لناظريْ العدوتين في الثاني

والعشرين من محرم عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف (22 محرم 21/1331 دجنبر سنة 1914) بأنّ الحكم في كتابنا يعم تنافيذ الحوت.

ورغبةً في ضبْط أمر اصطياد الحوت بوادي العدوتين، وبما ينصب فيه من الأودية تحسيناً لمدخولات أحباسهما، أصدرنا أمرنا الشريف بما يأتي :

الفصل الأول

اقررنا بحول الله وقوته أحباس الرباط وسلا على ما لهما من الحق في اصطياد الحوت بوادي العدوتين وبالأودية التي تصب فيه، من غير مشاركة أحد لهم في ذلك، ولجانب الأحباس المذكورة الحق في ذلك من حاجز الوادي بالبحر، وعلى قسم الحوت المذكور إنصافا بين أحباس مدينتي الرباط وسلا، كما كان عليه العمل من قبل.

الفصل الثاني

لناظريْ أحباس العدوتين أن يباشرا معاً عمل اصطياد الحوت الشابل بالوادي المذكور على عملهما السابق.

ولهما أن يدفعاه بالسَّمسرة لمن يقوم بما ذكر إن رأيا في ذلك مصلحة لجانب الأحباس.

الفصل الثالث

يسوغ للقبائل المجاورة لوادي العدوتين والأوْدية المنصبَّة فيه أن يصطادوا أنواع الحوت التي هي غير الشابل، ويسلمون للأحباس رُبع الحوت الذي يصطادونه.

الفصل الرابع

سيصدر قرار[242] وزيري يضبط صيادة المولعين بذلك، والملاحين المحترفين بصيادة الحوت بالوادي المذكور، وما ينصب فيه من الأودية، مع بيان ما يجري على من يخالف الأوامر الصادرة في ذلك من العقوبات.

242) لم نَقِفْ على هذا القرار الوزيري الموعود بصدوره فيما وقفنا عليه من الصكوك والوثائق الشرعية والرسمية المتعلقة بالحوت الشابل وتحبيسه على مَسْجِدَيْ العدوتين واصطياده بنهرهما.

فنأمر ناظريْ العُدوتين وعامليْهما وقواد القبائل المجاورة للوادي المذكور أن يعلموه ويعملوا بمقتضاه.

صدر به أمرنا المعتز بالله، في خامس عشر جمادى الأولى عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف (15 جمادى الأولى 20/1334 مارس سنة 1916).

قد سجل هذا الظهير الشريف بالوزارة الكبرى بتاريخ سادس عشر جمادى الأولى عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف (16 جمادى I 21/1334 مارس سنة 1916)

صح به

محمد الجبَّاص وفقه الله.

وفي وقتنا هذا، وهو عام خمسة وثمانين ومائتين وألف (1965/1285)، وما قبله في أواخر دولة السلطان المقدس أبي عبد الله محمد الخامس، استقر الأمر لدى ناظريْ الأحباس السلاوية والرباطية، على أنه إذا وصل موسم اصطياد الحوت الشابل بنهر أبي رقراق، أَعْلَنَا عن سمسرته، في يوم معلوم، وساعة معينة، باحدى نظارتيْ المدينتين المذكورتين، ويحضر الراغبون في شرائه، ويُسَمْسر حتى يقف على آخر زائد. ويستوفي الناظران الواجب انصافا بينهما من المشترين.

وهم الذي يقومون بصوائر الشِّباك وسائر ما يتوقف عليه الاصطياد من فلك وحبال وغير ذلك من الأدوات الأخرى .

ويبيعونه أحراراً في الأسواق لحسابهم، ربحوا أم خسروا فيه.

وقد بلغني أن الأحباس باعته في السنة الماضية بمليون ونصف من الفرنك، وربما زاد ذلك أو نقص، حسب الكثرة والقلة والرغبة في الشراء في بعض السنين.

والظاهر أن هذه المداخيل الحوتية، صارت تتصرَّف فيها أحباس العدوتين بما تقتضيه مصلحة المساجد، لأن قنوات الماء التي كانت مُحبَّسة عليها دخلت في المصالح البلدية العامة، وتولَّت أمرها الشركة المختصة بها، وهي المطوقة والمكلَّفة بتموين المدن والقرى بالمياه الصالحة للشرب والعادة والعبادة، وهي المسؤولة عن ذلك، وعن كل ما يتعلق بإصلاح القنوات والقواديس والمجاري الخاصة والعامّة وغيرها .

رؤساء اصطياد الحوت الشابل

لَمَّا كان اصطياد الحوت الشابل بوادي أبي رقراق بهذه المثابة من الأهمية الدينية، لكونه مُحبَّسا على مسجدين كبيرين بالعدوتين : السلاوية والرباطية، ولكونه يتحصَّل من بيعه مال عظيم، مُخصَّص لاصلاح مجاري الماء الجاري إلى المسجد الأعظم بسلا، وغير ذلك من مصالحه ومصالح المسجد الأعظم بالرباط، فقد كان لا يتولَّى رياسة اصطياده إلاَّ من ثبتت أهليته واستحقاقه وأمانته، ولا يتولى إلاّ بعد استئذان السلطان في ولايته، وصدور ظهير شريف بالمساعدة عليه وتسميته.

وقد وقفتُ على عدة ظهائر شريفه بتسمية بعض الرؤساء للقيام بهذه المُهِمَّة الهامة، وإن شئت فقل : المصلحة العامة، ولاب أس أن نسجلها هنا إتماما للفائدة، وليعلم منها اهتمام أولي الأمر فيما سلف بأمور الدين والمصالح التي تعود بالنفع على أحباس المسلمين.

فمن ذلك أنه لمَّا توفي الرايس ابن المحجوب السلاوي، كتب قائد سلا في ذلك الوقت، أبو محمد عبد الله بنسعيد السلاوي إلى السلطان المولى عبد العزيز يُعْلمه بوفاته، ويستأذنه في تعيين خلفه، الرايس محمد بن بناصر السلاوي لأهليته للقيام بهذه المصلحة.

فأجابه السلطان المذكور بالكتاب الشريف الآتي :

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

(الطابع الشريف)

خديمنا الأرضى القائد عبد الله بنسعيد السلاوي، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله،

وبعد،

وصل كتابك مُعلماً بأن أحد المكلفين باصطياد الحوت بوادي العدوتين ابن المحجوب السلاوي، صار إلى عفو الله، وانك عينت مكانه، محمد بن بناصر السلاوي لأهليته لذلك، وطلبت المساعدة على اقراره عليه، وصار بالبال.

فقد ساعدناك على جعله مكانه وأقررناه على ذلك، فلتستعمله فيه، والسلام.

في سابع رجب عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف (7 رجب 17/1321 شتنبر سنة 1904).

وفي سنة ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف (1905/1323) أعلم أُمَناء مرسى العدوتين، بأنه أقر الرئيس الحاج محمد العلمي على الرياسة بكتاب شريف يقول فيه :

الحمد لله وحده　　　وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خدامنا الأرضين أمناء مرسى العدوتين، حرسهما الله، وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد،

فقد أقررنا الحاج محمد العلمي على الرياسة بقارب الحوت بمجاز العدوتين، وكلَّفناه بشئونها، لأهليته لذلك واستحقاقه لتلك الخدمة.

فنامركم أن تسلكوا معه الضابط المقرر فيها، والسلام.

في فاتح ربيع النبوي الأنور عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف (1 ربيع النبوي الأنور 05/1323 ماي سنة 1905).

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف (1908/1326) جدَّد له الاقرار السلطان المولى عبد الحفيظ بظهير شريف آخر قال فيه :

الحمد لله وحده　　　وصلى الله على سيدنا محمد وآله

(الطابع الشريف)

أقررنا بحول الله وقوته، وشامل يمنّه ومنته، ماسِكَهُ الحاج محمد العلمي على رياسة اصطياد الحوت الشابل بمجاز العدوتين، كما أقررناه على قبض ما هو معين في راتبها الشهري، إقرارا تامًا.

نأمر أُمناء المرسى المذكورة أن يجروه على مقتضاه، والسلام.

في ثاني وعشري شعبان الأبرك عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف (22 شعبان 1326/ 19 شتنبر 1908).

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف (1910/1328) أصدر ظهيرا شريفا آخر، باقرار السيد محمد بن بناصر، المتولي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف (1904/1321) ونصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(الطابع الشريف)

أقررنا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنته مَاسِكَهُ، محمد بن بناصر السلاوي على ما هو مكلف به من اصطياد الحوت بوادي العدوتين، مادامت فيه الأهلية لذلك.

ونأمر من له النظر في ذلك أن يعلمه، ويعمل بمقتضاه، والسلام.

في ثاني وعشري محرم عام ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف 22 محرم 1328 (13 أبريل سنة 1910).

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة وألف (1912/1330)، جدَّد السلطان المولى يوسف بظهير شريف، للسيد الحاج محمد العلمي، حكم ما تضمَّنته الظهائر الشريفة التي بيده، ونصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

جدَّدنا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنته لِمَاسِكِهِ الطالب محمد العلمي حكم ما تضمنه الظهير الذي بيده برياسة اصطياد الحوت الشابل بمجاز العدوتين المحروستين، وعلى حيازة الراتب الشهري المعين لَهُ في ذلك من مرسى العدوتين، وأقررناه على ذلك، تجديدا وإقرارا تامًّا.

فنأمر أمناء المرسى – حاطها الله – أن يجروه على مقتضاه، والسلام.

صدر به أمرنا المعتز بالله في سابع ذي الحجة الحرام عام ثلاثين وثلاثمائة وألف (07 ذو الحجة 17/1330 نونبر سنة 1912) .

هذه قصة الحوت الشابل المحبَّس على إصلاح قنوات الماء الداخل للمسجد الأعظم بسلا، والذي صار يُقسم بعد ذلك إنصافا بين أحباس العدوتين على السواء، وما تطورت فيه من الأطوار، منذ عهد المولى إسماعيل إلى الآن، جمعنا اخبارها، والتقطنا وثائقها وأصولها الشرعية والإدارية التي كانت مفرقة مبعثرة في الحوالات الحُبُسِية، والأوراق المُهْمَلَة المنسية، وسجلناها هنا خشية ضياعها بالكلية، لأنها تتعلق بقضية حبسية، على مصلحة دينية، تدل على اهتمام ملوك الدولة الشريفة العلوية، منذ عهدهم الأول، بالمساجد وتعاهدها،

وتسهيل وسائل الطهارة على الملازمين لها، والقائمين فيها، والمعتكفين بها، جزاهم الله خيرا، ولقاهم مثوبة وأجراً، ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾.

ومن آثار الموحدين بسلا :

بناء طرف من أسوار سلا[243]

لما تضاعف عُمران مدينة سلا في زمن المرابطين والموحدين، وتجاوز البناء نطاق السور القديم، بني طرفا منه السلطان أبو عبد الله محمد الناصر بن المنصور. وأدخل فيه العمران الجديد، ولم يتمه من الناحية الغربية، وكانت المدينة مكشوفة منها، منذ ثلم سورها جده عبد المومن كغيرها من الامصار المغربية، ليلا تستعصي عليه مرة أخرى، حسبما تقدمت الاشارة إليه.

وسنرى ما نشأ عن ذلك من احتلال الإسبان لها من تلك الثلمة في أخبار عُمران سلا في عهد بني مرين.

243) كتاب «المُدُن والقبائل المغربية. الرباط وناحيته» ص 29

"Villes et tribus du Maroc Rabat et sa région" Tome I page 29

المبحث الثاني

القصبة
(وهي قصبة الودايا)
وما أسسه عبد المومن بها

عبد المومن بالقصبة

تقدَّم لنا فيما سبق في الفصل المعقود لحالة القصبة في عهد المرابطين، أنه لم يكن بها إلاَّ قصر بني تاركة، ثم حصن تاشفين بن علي.

وعلمنا مما جاء في «الحلل الموشية»[244] أن عبد المومن بن علي لمًّا وصل إلى سلا، تغلب عليها من ساعته، وفتحها قبل نزوله، وطاعت له قصبتها التي كان بناها الأمير تاشفين في الرباط.

وكان نزوله عقب هذا الفتح بقصر بني عشرة بمدينة سلا، حسبما فصلناه عند الكلام على هذا القصر وموقعه في محله.

ولم يكن في ذلك العهد عمران بالقصبة زيادة على ما ذكر.

لماذا اختار عبد المومن القصبة دار إمارة ؟

لا يبعد أنَّ عبد المومن لمًّا استولى على سلا، لاحظ موقع قصبتها التاشفينية على مصب النهر والبحر، وأدرك قيمتها الحربية والسياسية، بالنسبة للمملكة المغربية، وهو أدرى بذلك وأعرف.

---

244) ص 102، طبع تونس.

ولاشك أنَّه تبيَّن له بعد القضاء على الفئة الضالة البَرَغواطية، القضاء المبرم، ولم يبق فيها عرق ينبض، أن الرباط الذي كان يجتمع فيه المرابطون المجاهدون للجهاد فيها، قد تمَّ عمله، أو انتهت مُهمَّته، وعليه، فينبغي أن يحذف، أو يحول لعمل جهادي آخر.

ولاشك أيضا أن ثورة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (1147/542) بسلا نبَّهته على الاحتفاظ بالحصن التاشفيني بالقصبة، وتعزيزه بحصون أخرى صيانة للدولة الناشئة ومحافظة على كيانها.

والغالب على الظن أنَّه كان ينظر إلى هذا الحصن والقصبة وما احتفَّ بها من أرض الرباط، نظر اعتبار وتقديس لما تقدم فيها من اجتماع المجاهدين والدفاع عن الدين وحمايته ونشره.

وحيث أنه هو حامي الدين، وحامل راية الدفاع عن حصنه الحصين، في كل وقت وحين، فقد تعين عليه أن يُحَوِّل رباط المرابطة للجهاد في البرغواطيين، إلى اجتماع الجيوش والعساكر لغزو البلاد الأندلسية، والجهاد بها في سبيل رب العالمين.

ولا يعزُبُ عن الفكر أنَّه كان من أول يوم تمَّ له فيه الأمر، ينظر إلى العدوة الاندلسية، نظر المستوفز المتحفِّز للوثوب بمجرد ما يتفرغ لها، ويَتمُّ له الاستعداد للانقضاض عليها، لأنه يعلم أن دولة المرابطين بها، لازالت فيها بقية حياة، وأن من فيها من الأمراء والأعياص، يمكنهم أن يستجمعوا قوتهم، ويلمُّوا شعثهم، فيسترجعوا ملكهم، وربما يستعينوا عليه بالعدو الكافر، المتربص به وبهم الدوائر.

ومن لوازم استعداده، قبل انقضاضه، احتفاظه بحصن القصبة ورباطها، وتحويله لمركز حربي تجتمع فيه جيوشه الجرَّارة، وعساكره المختارة، لغزو البلاد الأندلسية، وافريقية الشمالية، لموقعه الجغرافي، وحصانته الطبيعية برًا وبحرا، لاسيما إذا اعتبرنا أنَّ هذه النقطة الجغرافية، هي الجامعة بين قسمي المملكة المغربية جنوبا وشمالا. وهي المهيمنة على قبائل الغرب، وقبائل تامسنا والحوز كله، ومنها تستمد الجيوش أقواتها المادية والمعنوية.

ومن مصبِّ هذا النَّهر الرقراقي تتوجَّه بسهولة إلى داخلية البلاد، وتنحدر إلى مراسي المجاز، بالقصر، وطنجة وسبتة، فهي إذاً مرحلة لازمة متعينة بين مراكش والبوغاز.

مؤسسات عبد المومن بالقصبة

بمقتضى هذه الاعتبارات الجغرافية، والحربية، والسياسية، اختار عبد المومن القصبة دار إمارة، وأمر بعد القضاء على برغواطة بعامين، سنة خمس وأربعين وخمسمائة (545/1150) ببناء القصر والقصبة المنسوبة إليه على الضفة اليسرى لمصب النهر في البحر.

وقد كان هذا القصر أو القصبة، نقطة انطلاق، على الإطلاق، تكونت منها مدينة الرباط التي تمّ تمصيرها وعمرانها في عهد حفيده أبي يوسف يعقوب المنصور، كما سياتي.

وبعد تشييد أسوارها وحصونها وأبوابها، جلب إليها الماء من عين غبولة التي تبعد عنها بتسعة عشر كيلوميترا من الناحية الجنوبية الغربية، وسماها بالمهدية تذكاراً وإحياءً لاسم مؤسس الدولة، المهدي بن تومرت، ولكنها لم تحتفظ بهذا الإسم مدة طويلة، وربما تغير بعد وفاته كما سياتي التّنبيهُ عليه.

وجاء في كتاب «المشترك وضعا، المختلف صقعا»، لياقوت الحموي : أن المهدية مدينة قرب سلا في أقصى المغرب، اختطها عبد المومن بن علي، ونسبها إلى المهدي بن تومرت صاحبه القائم بالأمر هناك.

وقال أيضا في «معجم البلدان»[245] :

"وفي غربي هذا النهر (يعني أبا رقراق) اخْتطَّ عبد المومن مدينة سماها المهدية، كان ينزلها إذا أراد إبرام أمر وتجهيز جيش."

وقال أبو الفدا في «تقويم البلدان» :[246]

"وبنى عبد المومن أمامها (يعني سلا) من الشط الجنوبي على النهر والبحر المحيط قصرا عظيما، واختط خاصتّه حوله المنازل، فصارت مدينة سمّاها المهدية."

ونصَّ في «الاستبصار»[247] على أن القصبة المتصلة بالرباط، أحدثها عبد المومن، وقال : وفي هذه القصبة جامع وقصور، وصهاريج ماء أمام الجامع، وهو مجلوب من نحو عشرين ميلا.

---

245) ص 100، من ج 5.

246) ص 131، طبع باريس.

247) ص 140، طبع الإسكندرية.

وقال ابن البيدق في كتابه، «أخبار المهدي بن تومرت»، أثناء الكلام على توجه عبد المومن لفتح بجاية :(248)

"وأمر بساقية غبولة أن تحفر وتهبط إلى سلا (المقصود الرباط) والخليفة ساكن فيها.

وأمر برباط الفتح (المقصود القصبة) أن يحفر أساسه. وبنى فيه قصرا، ومكث في خدمة الساقية والأساس، وبناء القصر خمسة أشهر، ثم أقلع إلى بجاية والساقية لم تتم، والقصر كذلك، وترك على الاشتغال فيهما، عبد الحق بن إبراهيم بن جامع..."

وقال عبد الملك بن صاحب الصلاة في «تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين» :(249)

"لما وصل أمير المومنين الخليفة إلى سلا عام خمسة وأربعين وخمسمائة (545 / 1150) لاستطلاع أحوال جزيرة الاندلس واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين وثوارها الاندلسيين على ما تقدم الذكر به في هذا التاريخ، أمر ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا، وأقام بمحلاته المؤدية على عين غبولة والفعلة معه والمهندسون، فأجْروا لها الماء من عين غبولة المذكورة، في سرب تحت الأرض، حتى وصل إلى قصبة مهدية المذكورة، ودام اشتغال الأمر بذلك شهورا، وهو مقيم بعسكره، حتى وصل الماء المذكور إليها، فصنع له سقاية لشرب الناس والخيل، وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنات المغروسات، ثمَّ اتَّصل الأمر العزيز بسُكْناها بالناس، وببناء الديار حولها والأسواق."

وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في «اتحاف اشراف الملا ببعض اخبار الرباط وسلا» :(250)

ثُمَّ أتاها فَاتِحُ الأقْطَارِ ... ومُنْزِلُ الرُّعْبِ بِكُلِّ دَارِ
أبو مُلُوكِ الدَّوْلَةِ المُوَحِّدَةْ ... فاتَّخَذَ الرِّبَاطَ دَارًا مُنْجِدَةْ
ونَدَبَ الجُمْهُورَ لِلبِنَاءِ ... وأسَّسَ القَلْعَةَ فِي اعْتِنَاءِ

وقال أيضا :(251)

ثُمَّ ابْتَنَى القَصْرَ البَدِيعَ المُعْتَبَرْ ... بِظَاهِرِ الحِصْنِ مُؤَيَّدَ الأثَرْ...

248) ص 113، طبع باريس.

249) ص 448.

250) ص 21، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

251) نفس المصدر، ص 28.

وعلى كل حال، فقد كان لعبد المومن اهتمام كبير، بموقع هذه الصخرة العظيمة المطلة على البحر، والمسيطرة على مصب النهر، ولذلك اختارها لإقامته، وجعلها إحدى دور إمارته، وشيَّد بها قصوره الفاخرة، ومنازله الزاهرة، وقصده بها الأدباء والشعراء، مَادِحينَ مهنِّئين مُنوِّهين بها وبعظمة دولته. ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد.

قال في «المغرب في حلى المغرب»، وأنشده وهو بقصره بالرباط أمام سلا على البحر المحيط قصيدة منها :[252]

تَكَلَّمْ فَقَدْ أصْغَى إلى قَوْلِكَ الدَّهْرُ ... ومــا لِسِــوَاكَ الآن نَـهْيٌ وَلاَ أمــرُ

ومنها في وصف القصر :

أَلاَ إِنَّ قَصْرًا قَدْ بَدَى لِي بِأُفْقِــــهِ ... مُـحَـيَّـاكَ أهْلُ أَنْ يَخِرَّ لَهُ الْبَــــدْرُ
أَطَلَّ على الْبَحْرِ المُحِيـطِ مُرَفَّعــًا ... فَـخَتَّـمَـهُ الشِّعْرَى وتَوَّجَـهُ النَّشْــرُ
ووَافَتْ جُـيوشُ الْبَحْرِ تَلْثِمُ عِطْفَهُ ... مُـرَادِفَةً لَمَّا تناهى بِــهِ الكِبْـــرُ
وَمَا صَوْتُهَــا إِلاَّ سَــلاَمٌ مُــرَدَّدٌ ... وَفي كُلِّ قَلْبٍ مِّن تَصَـعُّـدِهَا ذُعْـرُ
أَلاَ قُــلْ لَّهُ يَعْلُــو الثُّـرَيَّـا فَـإِنَّـهُ ... أَطَلَّ على بَحْـرٍ وحَلَّ بِهِ بَحْــــرُ
مُـحِيطَـانِ بِالدُّنْيَـا فَلَيْسَ لِفَـخْـرِهِ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ طَلْقَ اللِّسَانِ بِهِ عُذْرُ...

وهذه القصبة الموحدية، والقصور العبد المومنيــة، هي المعنية بقول ابن الخطيب في «رسالة المفاضلــة»[253]

"... ذهب الملوك لاتخاذها دارا، واستيطانها من أجل الاندلس قرارا ".

وقال أيضا :[254]

"... بها للملك دور وقصور، ولأهل الخدمة بناء مشهور ..."

252) ص 165 من ج 2.

253) «رسالة المفاضلة بين مالقة وسلا»، ص 60، طبع الاسكندرية.

254) نفس المصدر، ص 63.

ويوخذ من ذلك، أن حاشيته وغاشيته وشيعته واتباعه من رجال دولته، بنوا بها دورهم ومنازلهم، فتكونت منها عمارة صغيرة داخل الأسوار تشتمل على كل ما يتطلب وجوده في المدن الكبرى، كالمسجد، والأسواق، والسقايات، والصهاريج مثلا.

كما يوخذ ذلك صراحة من نص أبي الفداء، وابن صاحب الصّلاة المتقدمين.

وكان تشييدها وما اشتملت عليه من الدور والقصور، على الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة الرباطية اليوم، ولم تكن في هندستها الأولى على شكل خاص مربع أو مثلث، لأنّها بُنيت على حسب الوضع الطبيعي للصخور البحرية المتراكمة على الشاطئ البحري، والمصب النهري، ولم تتجاوز مساحتها أربعة هكتارات.

وعليه، فقد كانت دار إمارة صغيرة معدة لإقامة الخليفة ورجال حكومته، تنزل جيوشه حولها، برباطها وأرباضها المقدسة لما سبق لها في عهدها الأول من الاختصاص بالمرابطة الجهادية.

ومنها كانت تصدر الأوامر لِعُمَّال الاقطار المغربية والأندلسية، أمراء الجيوش المتنقلة بأطراف إفريقية الشمالية.

أمّا مدة إقامة الخليفة بها، فقد كانت تختلف في الطول والقصر بحسب الظروف والأحوال الموجبة لذلك، فتارة تكون بضعة أشهر، وتارة أكثر، ورُبَّما بلغت سنة أو سنتين، ليكون قريبا من الأندلس، متطلعا لأحوالها، وحركة جيوشه بداخل مملكته الواسعة المترامية الأطراف، وأساطيله الماخرة على سواحل البحرين . الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلانطيقي.

وفي أثناء تردده عليها، وإقامته بها، أصدر أوامره منها، بعقد ولاية العهد لابنه أبي عبد الله محمد الذي لم يتم له الأمر، وقَسَّم مملكته الشاسعة على عمالات بافريقية والأندلس، وخصَّ كل واحد من أولاده بعمالة منها.[255] وهو ما يقصده أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه المتقدم بقوله :[256]

---

255) «الاستقصا»، ص 149 من ج 1، طبع القاهرة. و ص 73 من ج 3 لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

256) ص 19 مخطوط الخزانة السلاوية الناصرية.

ثُم بَنَى القَلْعَـةَ عَـبْـدُ المـومِـــنِ وأمَّـــهُ النَّاسُ بِـهَــا فِـي سَنَـــنِ
مَــا بَيْنَ قُطْرِ الغَـــرْبِ والأندلُسِ وَوَزَّعَ الأعْـــمَـــالَ في تَـأنُّـــسِ
عَلَى بَنِيــهِ السَّـادَةِ الانْجَـــادِ وقَــصَــدَتْهُ سَـادَةُ البِــــلاَدِ
وَحـالُــهُ كَـانَ بِهَــا مَـعْـروفَــا وهَمُّـهُ لِخَـيْـرِها مَـصْـرُوفَـــا
وكُلُّ أعْـمَـالِ الْجِـهَـادِ والفُـتُـوحْ يَصْـدُرُ مِنْهَـا وَلَهَـا بَعْـدُ يَرُوحُ

ومن تصفَّح مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرها ليڤي بروڤنصال (E. Levy-Provençal) بالرباط، وجد من بينها عدّة رسائل صادرة عن عبد المومن من الرباط، والمقصود دار إمارته بالقصبة، لأنها هي التي كانت موجودة في عهده، وخصوصا الرسائل : الحادية عشرة، والثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والثالثة والعشرين.

وبينما عبد المومن مقيم بقصبته، في إحدى قدماته إليها سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (1163/558) هانئ البال، واسع الآمال، يعمل بِجِدٍّ لإنجاز ما قرره من الأعمال، وقد تمهّدت له البلاد، وخضعت لسيطرته الرقاب، ولم يبق منازع ينازعه علانية في إفريقيا والأندلس، وانصرفت هِمَّته لتجهيز الجيوش وانشاء الأساطيل بمراسي مملكته، فاجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة، ومن قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس، ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس، ومائة ألف راجل، فضاقت بهم الأرض، وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا من عين غبولة، إلى عين خميس إلى حلْق المعمورة، وبينما الحالة هذه، إذ فاجأه مرض موته، وأدركته منيته بقصره بها، ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة عام ثمانية وخمسين وخمسمائة (08 جمادى الأولى 558/ ماي سنة 1163).

فَحُملَ منها في تابوت إلى تِينْمَلْ، ودفن إلى جنب قبر شيخه وإمامه المهدي رحمهما الله :(257).

فكانت مدة تردد عبد المومن على القصبة، ونزوله بقصره بها، منذ بناه ورفع سمكه، سنة خمس وأربعين وخمسمائة (1150/545) إلى أن أدركه أجله به، ثلاث عشرة سنة.

وقَبْلَ بناء قصره، كان ينزل بقصر بني عشرة بسلا، المشيد بطالعتها حول الجامع، كما نص عليه صاحب «الاستبصار».

257) ابن خلدون، ص 195-196، ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 158 من ج 1، طبع القاهرة وص 94 من ج 3 لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

وقد بينا عند الكلام على هذا القصر وموقعه، الوفود الأندلسية التي استقبلها به والتي استقبلها بقصره بعد بنائه بالقصبة، والتي لحقت به بمراكش.

مثال بناءات عبد المومن بالقصبة

قال جاك كاي (Jacques Caillé) في كتابة «تاريخ الرباط» ما حَاصِلُهُ :[258] لقد حفظ الدهر وحوادث الأيام، بقايا، أو شظايا آثار خالدة من مباني عبد المومن بالقصبة.

وأهمّها، القسم الأعظم من مجموع أسوارها العادية، وان كانت دخلت عليها بعض التغييرات التي اقتضاها اختلاف العمران وتجديده بحسب تجدد الدول وتناسخ الأجيال.

القصر الخليفي

ثم قال : أما القصر الخليفي الذي كان بناه الخليفة عبد المومن، وكان ينزل به أثناء إقامته على مصب أبي رقراق، فالغالب على الظن، حسبما عُلم من فحص ودرس مواد بنائه وأحجاره المنحوتة وآجره الضخم الخاص ببناءات الدولة الموحدية، فَقَدُم وتهدّم وتخرّب، ولم يبق منه دالاً عليه إلا آثار بابه الشاهق قبالة المسجد.

وجاء في كتاب «مدن وقبائل المغرب» «Villes et tribus du Maroc»[259]، أن الذي هدّمه هو السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وهو ما ذكره القنصل شينيي "Chénier" في تاريخه[260] قال :

"إن القصر الموحدي هدمه الإمبراطور الجالس على العرش في وقته، وهو سيدي محمد ابن عبد الله، ولم يبق منه إلا بعض المخازن الصحيحة البناء، وقد رأيته قبل هدمه، وكان يحتوي على سائر وسائل الراحة والزينة، وكل ما يُحْتَاجُ إليه..."

---

258) ص 60 والتي تليها.

259) ص 10 من ج 1، الرباط وناحيته.

260) ص 27 من ج 3.

ولعلَّ هذا القصر هو الذي قصده الضعيف في مجموع مقيداته التاريخية، لما ذكر بناء سيدي محمد بن عبد الله أبراجا بالقصبة فقال :[261]

"وهدَّم دار الحرة وما يليها من الدور".

ودار الحرة هذه، هي التي آلت إلى دار خاصة بالمرضى المصابين بداء البرص[262].

المسجد

لما تكلم كايِّي "Caillé" على المسجد قال :[263]

«شيَّد عبد المومن مسجده بالذروة العليا من القصبة، ما بين الزقاق المعروف بزقاق الجرارة، من الناحية الشمالية الغربية، وزقاق الجامع من الناحية الجنوبية الشرقية، وفي قبلته انحراف نحو الشمال أكثر من الشرق، والمصلون به يعلمون ذلك، وينحرفون في صلاتهم نحو القبلة».

وكان تأسيسه سنة خمس وأربعين وخمسمائة (1150/445)، وهو العتيق بالرباط، إذ لم يكن به مسجد ولا بالقصبة قَبْلَهُ، وعُرف بعتاقته منذ القديم.

كما أنه من أقدم مساجد الدولة الموحدية بالمغرب، ولم يتقدمه إلا المسجد الاعظم بتازا، ومسجد الكتبيين بمراكش.

ومنذ ابتدأ العمران الموحدي بالقصبة، والصلاة تقام به، واستمرت إقامتها فيه بدون انقطاع في عهد الدول التي تَوالَى وُلاتُها على القصبة بعد ذلك.

وحيث إنَّه أول مسجد أُسِّس على التقوى بمحل المرابطة والجهاد، خصَّه الملوك بزيارتهم له، والاحتفال بإقامة الجمعة فيه، كلما مَرّوا بالرباط، أو كانوا مقيمين به.

كما أن أهل العلم والفضل من الرباطيين وغيرهم يقصدون صلاة الجمعة به لقدسيته وأقدميته، ولو كانوا ساكنين أو نازلين بعيدين عنه.

---

261) ص 39 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

262) «تاريخ الرباط» لِكَايِّي (Caillé)، ص 315.

263) نفس المصدر، ص 114.

ثم قال : وليس لدينا معلومات تفصيلية عن كيفية بنائه الأول ونشأته، والهيأة التي كان عليها، إلا ما جاء في «الاستبصار» من إضافته إلى القصور الملكية حيث قال :[264] وفي قصبة عبد المومن جامع وقصور، وهذه الإضافة تقتضي أنه كان له شأن من الناحية الفنّية، ولذلك أضيف للقصور. وعنه نقله من بعده من المؤرخين.

وفي القرن الثامن الهجري، الموافق للرابع عشر الميلادي، سقطت بعض حناياه، وتعذر في ذلك الوقت إصلاحها.

ونصّ الضُّعَيِّف في مجموعة مقيداته التاريخية[265] على أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله جَدَّدَ بناءه كغيره من المساجد التي جدّدها أو أحدثها بالرباط في حدود سنة سبع وثمانين ومائة وألف (1187/1775).

وكان المتولي لإنجاز هذه الأعمال، المعلم أحمد الإنجليزي، من العلوج الذين أسلموا، وكانت له حظوة عنده.

وقد أدخلت عليه الأحباس بعد ذلك إصلاحات أخرى متعدده في أزمنة مختلفة، وخصوصا منذ سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1331/1912) .

وشملته إدارة المحافظة على الآثار القديمة بالمغرب برعايتها وعنايتها فازداد الاعتناء به.

وحالته اليوم ليس فيها فخامة وزخرفة أثرية تدل على أقدميته، ولا ما يقارن بينها وبين المساجد القديمة الأثرية الأخرى، لصغر رقعته، وهيأته الشبيهة بهيأة المساجد التي بنيت في الأزمنة المتأخرة، إلاّ أنّ البناء الموجود اليوم قائم في البقعة التي كان فيها قديما، والمحراب لم يتحول عن محله، وإنما أحدث فيه تزويق بالجبس لم يكن في الزمن الماضي.

وكذلك صومعته، أُدخل عليها إصلاح وتغيير كبير، وهي بسيطة بالنسبة لغيرها من الصوامع القديمة، سواء بالرباط أو بغيره من المدن المغربية الأخرى، ولكن وضعها في تلك الذُّروة من القصبة، جعلها تُرى بارزة متجلّية كالعروس، مَرْئِية من بعيد، كمنار حسّان، ومنار المسجد الأعظم المقابل لها بسلا، وخصوصا إذا كانت هذه الصوامع الشامخة البارزة على المصب الرقراقي مُزينة مُنارة بالأضواء الكهربائية بمناسبة الأعياد والأيام الممتازة، فيكون لها منظر بهي زهي خلاّب ليلا.

---

264) ص 140، طبع الإسكندرية.

265) ص 39 من ج 2 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

عين غبولة

أمّا عين غبولة، التي جرها عبد المومن لهذه القصبة ومسجدها، قد نص عبد الملك ابن صاحب الصلاة في كتاب «المَنّ بالإمامة على المستضعفين»(266) على أن ولده السلطان أبا يعقوب يوسف بن عبد المومن، لمّا حلّ بالمهدية، دار إمارة أبيه، سنة ست وستين وخمسمائة (1170/566)، وجد الماء الجاري المسرّب الذي جلبه أبوه في عام خمسة وأربعين وخمسمائة (1150/545) فسد جَرْيه، وأسِنَ ماؤه، وتعطّل في البطاح والبحائر سقيه، فأمر بإعادته إلى حالته الأولى، وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع، يجتمع فيه الماء، ثم يجري من ذلك الصهريج إلى الساقية المذكورة حيث شرب الخيل والعساكر ومواشيهم، ومواشي الناس وشربهم.

وذكر كايّي "Caillé" في تاريخه(267) وأشار له ليون الافريقي في جغرافيته(268) أن تهديم هذه الساقية، وقع أواسط القرن السابع الهجري، الموافق لأواسط القرن الثالث عشر الميلادي، أثناء الحروب الطاحنة التي كانت قائمة بين الموحدين والمرينيين. ثم أصلحها السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور المريني، ووصل ماؤها إلى قصبة رباط الفتح سنة ثلاث وثمانين وستمائة (1285/683) على يد المهندس أبي الحسن علي ابن الحاج كما في «القرطاس».(269)

ونصّ كايّي "Caillé" أيضا على أنّ بلدية الرباط في عهدها الأول لما كانت مشتغلة بإنجاز بعض الأشغال البلدية بالمدينة في شهر جمادى الآخرة عام أربعين وثلاثمائة وألف (جمادى الآخرة 1340 /أبريل سنة 1932)، عثرت على آثار ساقية هذه العين مارة داخل وخارج السور بناحية باب شالة، وتبيّن لها بعد الفحص والدرس أنها كانت ممتدة على نحو عشرة امتار شمال هذا الباب، واتّضح أثرها بزقاق شالة، وانحرفت نحو الغرب، ثم نحو الشرق، قرب الجامع الكبير، ومن مفرق الطرق بين باب شالة وشارع السّويقة، يظهر أنها وُجهت صعوداً نحو القصبة.

وفي عهد دولتنا الشريفة العلوية، حُول مجراها إلى القصور السلطانية بأكدال.

---

266) ص 449، طبع بيروت سنة 1964/1384

267) ص 150 .

268) ص 165، من ج 1.

269) ص 296 ، طبع فاس.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف (1913/1332) جر منها الماء إلى باب التبن بالرباط.

الصُّهريج

وأما الصُّهريج الذي ورد ذكره في «الاستبصار»[270] وفي كتاب «المن بالإمامة»[271] أنه كان يَنْصَبُّ فيه ماء هذه العين أمام الجامع، فقد اضمحلَّ ولم يبق له في زمننا هذا اسم ولا رسم، فيما اكْتُشف من الآثار الموحدية بالقصبة حتى الآن.

حالة القصبة الحربية بعد الموحدين

وصف الاسير مويط "Mouette" في قصة أسره[272] حالة القصبة في عهده وما فيها من الحصون والابراج والمدافع والعدة الحربية في دولة السلطان المولى الرشيد سنة إحدى وثمانين وألف (1670/1081) وأهميتها الحربية، وموقعها من البحر والنهر، وما تهدَّم منها، وما بقي قائما شاهدا بعظمة بانيها ومنشئها، ولكنه خلل ذلك بالدلالة على عورتها، وكيفية الاستيلاء عليها، لمن كان يحاول ذلك من أبناء جنسه.

وكذلك القنصل الفرنسي شينْيي "Chénier" الذي أقام بالرباط ما يزيد على ثلاث عشرة سنة، من سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف (1768/1182) إلى سنة ست وتسعين ومائة وألف (1781/1196) في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ذكر هذه القصبة في تاريخه المُسمَّى «أبحاث تاريخية تتعلق بالمغرب والمغاربة» :

"Recherches historiques sur les Maures, et histoire du Maroc" ووصف آثارها الموحدية في زمنه[273]، وما دخل عليها من التغيير والتخريب والتهديم، بسبب اختلاف عناصر الجيوش التي كانت تتوارد عليها، وتنزل بها، وكلها لا تحترم الآثار القديمة وتعبث بها، وتبدل شكلها ومنظرها.

---

270) ص 140، طبع الإسكندرية.

271) ص 449.

272) ص 32 وما بعدها، طبع باريس سنة 1927

273) ص 27 من ج 2 طبع باريس.

تسجيل القصبة ومبانيها الأثرية
في الآثار التاريخية المغربية

لمَّا كانت هذه القصبة وما احْتفَّ بها من المباني الأثرية بالمثابة التي وصفناها في الميدان التاريخي، والفنِّ الصناعي والمعماري التي تتعين المحافظة عليه وصيانته وابقاؤه عبرة للسواح والزائرين، ومثلا يحتديه ويقتبس من عظمته وجلاله وجماله من ياتي من المتأخرين، فقد أصدر السلطان المرحوم أبو يعقوب المولى يوسف بن الحسن ظهيرا شريفا بتسجيلها في الآثار التاريخية التي يتحتَّم على الدولة صيانتها وحمايتها من التغيير والتبديل والتشويه.

وبمقتضى ذلك، أُجريت فيها أبحاث اركيولوجية، شملت أسوارها وما حفظه الدهر من مبانيها العادية، وأدخلت عليها إصلاحات جدية، أبرزتها لعالم الظهور، بعدما اختفت تحت الأنقاض في غابر الأزمنة والدهور، وأزيل ما الصق بها من المباني الحقيرة التي غيرت منظرها، وشوهت محاسنها، فتجلت للباحثين والدارسين والمعتبرين من جديد ناطقة بما كان لها من الضخامة والفخامة في عهدها السابق، لتكون أية في الفن المعماري الموحدي في عهدها اللاحق.

ونص الظهير الشريف المذكور.[274]

(وعليه الطابع اليوسفي)

الحمد لله وحده.

يُعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، أنه نظرا لما يتعلق بصيانة قصبة الودايا بالرباط من الفائدة الفنية والتاريخية.

وبناء على ظهيرنا الشريف المؤرخ في السابع عشر من ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (17 ربيع الأول 13/1332 أبريل سنة 1914).

وعلى استشارة رئيس إدارة الآثار القديمة والفنون الجميلة، والأبنية التاريخية.

وبناء على طلب الصدر الأعظم، قد أصدرنا أمرنا الشريف بما يأتي :

274) ص 251 من الجريدة الرسمية العربية المغربية، عدد 59، الصادر في 22 رجب عام 1332 (19 يونيه 1914).

فصل فريد

يُقيَّد في عدد الأبنية التاريخية الأماكن الآتية الكائنة في قصبة الودايا بالرباط، وهي :

– الباب الكبير.

– والبناء المعروف بالمدرسة مع ملحقاته[275].

– والسور والحصون والأسوار المنيعة، والزوايا المحصنة للقلعة، والجدران، وعلى العموم كل بناءات القصبة المذكورة التي هي ملك المخزن الشريف.

والســـــلام.

وحرر برباط الفتح في الحادي عشر من رجب عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف 1332 الموافق لسادس يونيه سنة 1914.

وقد سُجل هذا الظهير الشريف بالوزارة الكبرى بتاريخ 12 رجب عامه. صح به.

مَحمد بن محمد الجبَّاص

أسماء القصبة في التاريخ

لما كانت هذه القصبة بمنزلة الجملة الابتدائية الخبرية من نشوء العمران بالعدوة الشمالية، من مصب أبي رقراق، والحصن الحصين الذي تحصَّن به ملوك الدول الماضية، والميدان الفسيح، الذي تسابقت فيه خيولهم، وجالت جيوشهم، وامتدت إليه أعينهم، ونشأ فيه أمراؤهم، وانصرفت إليه هممهم، ومنه صدرت أحكامهم ومراسيمهم، فقد تعددت أسماؤها بتعدُّد الدول التي استولت عليها، والأجيال التي درجت منها، واختلاف الأوضاع ومقاصد السلط الحاكمة التي سيطرت على ضفتي النهر ومصبه في البحر.

و لذلك يتعيَّن على المؤرخ والباحث والدارس أن يعرفها، ويفرق بينها ليفهم نصوص المؤرخين للأعصار والدول السالفة، والحوادث المترادفة، المتخالفة، فيطبقها عليها، أو على الرباط الناشئ بعدها، أو سلا، البارزة للوجود قبلها.

لاسيما ونحن نجد بعض المؤرخين لدولة عبد المومن مثلا، إذا ذكروا حركاته وانتقالاته ووصوله إلى سلا يقولون : إنه نزل بها، أو أصدر أمره منها، ولا يفرقون بينها وبين القصبة،

---

275) سيأتي الكلام على بناء المدرسة وملحقاته، ومن أسسه في محله.

مع أننا نعلم أن عبد المومن كان في أوّل عهده ينزل بقصر بني عشرة بالعدوة السلاوية. ولمّا بنى قصره بالقصبة، انتقل إليه، وصار ينزل به.

ولذلك ينبغي لنا أن نُفرق بين القصرين، والحوادث التي وقعت، والأوامر التي صدرت في أوّل الدولة وأواسطها وأواخرها، بسلا، أو بالقصبة، ولا يعرف ذلك إلا بالتاريخ، وتطبيق كل اسم على البقعة التي أُطلق عليها بعد عمرانها على الضفتين.

وعليه، فإننا إذا ألقينا نظرة عابرة على سالف القصبة، نجد أنها كانت في عهدها الأول، قبل المرابطين، داخلة في أرض الرباط لمّا كان رباطا للمجاهدين في البَرَغْوَاطِيِّين معدودة منها، غير متميزة عنها.

إلى أن سكنها بنو تاركة، وأحدثوا بها قصرهم، فصارت من ذلك الوقت تعرف بقصر بني تاركة.

ولما نزل بها تاشفين بن علي، وأسس بها حصنه كما تقدم، أطلق عليها حصن تاشفين، وقصبة سلا.

واستمرت تعرف بذلك إلى أن تبوّأها عبد المومن دارا، واتخذها دار إمارة وقرارا، في فجر الدولة الموحدية.

وأنشأ بها قصوره ودوره، وحصونه وأسواره وأبراجه المنسوبة إليه، وهو ما قصده ابن الخطيب في رسالته التفاخرية، بين مالقة والمدينة السلاوية، بقوله : "... وإن كان بعض الملوك ذهب إلى اتخاذها دارا، واستيطانها من أجل الأندلس قرارا..."[276] فمراده القصبة، لأنها هي التي اتخذها عبد المومن دارا وقرارا، وكذالك قوله في الرسالة المذكورة :[277] "...وإن كان بها للملك دور وقصور، ولأهل الخدمة بناء مشهور" فالمقصود به القصبة أيضا.

ولقد كانت حقيقة في عهد عبد المومن عاصمته الصغيرة، يدير ويدبر فيها شؤون دولته، ويصدر منها أوامره إلى كافة أطراف مملكته، كما تقدم، وهي فاتحة ما خلّده وشيّده من المآثر والآثار بعد النصر والفتح، ونشأ عنها رباط الفتح.

وكان يطلق عليها الرباط، اعتبارا لسابقها، ولمرابطة الجيوش الموحدية حولها، حسبما يوخذ من بعض الرسائل والصكوك الرسمية الصادرة منها، كما تقدّمت الإشارة إليه.

---

276) «رسالة المفاضلة بين مالقة وسلا»، ص 61، طبع الإسكندرية.

277) نفس المرجع ص 63.

ويقال لها رباط عبد المومن، تمييزا لها عن الرباط الأول، فسمَّاها المهدية إحياء لذكر شيخه ورفيقه، مؤسس الدولة الموحدية المهدي بن تومرت، إلاَّ أنَّها لم تحتفظ بهذا الإسم بعده إلاَّ مدة يسيرة.

ولم تكد تظهر مدينة الرباط لعالم الوجود حتى اختفى هذا الإسم، وأضيفت إليها، وصارت معدودة من جملة حصونها ومعاقلها وقصباتها الحصينة العسكرية.

وبعد ذلك لمَّا تحطَّم صرح الدولة الموحدية، وارتفع على انقاضه هيكل الدولة المرينية، وضعفت أهمية رباطها الناشئ حولها، بقيت القصبة المركز الوحيد الاجتماعي الذي تكتل السكان بداخله وحوله، لأنَّ بني مرين كانت همتهم منصرفة إلى فاس وشمال المغرب أكثر من جنوبه، وكان يطلق عليها إذ ذاك قصبة الرباط.

ولمَّا نزل بها المهاجرون الأندلسيون أوائل القرن الحادي عشر الهجري، الموافق للسابع عشر الميلادي، وحَمِيَ وطيس القرصنة الجهادية السلاوية الرباطية، وأسَّسوا بها ما يُسمِّيه الأوربيون "بالجمهورية السلاوية"، كما سياتي تفصيله في محله، صاروا يطلقون على العمران الثلاثي المتكون على مصب النهر في البحر أسماء :

- سلا القديمة وهي مدينة سلا.
- وسلا الجديدة وهي مدينة الرباط.
- وقصبة سلا، وهي القصبة.
- وكانوا يُسمّونها أيضا القصر.
- وربما سَمّوها قصبة الأندلسيين.

وبها كانت إقامة القواد، ورجال الديوان الحكومي، وقناصل الدول الأجنبية.

وكم من مرَّة قصدتها الاساطيل الاروبية، وحاصرتها ورمتها بقنابلها. وفيها كانت تعقد المعاهدات، وتَتِمُّ الاتفاقات على فداء الاسرى، وتبادل المصالح السياسية والتجارية.

وفي عهد الدولة الشريفة العلوية، ضَعُفت أهميتها بالنِّسبة لماضيها الاول، لانتقال السلطة التي كانت حاكمة بها للدولة الجديدة، في عواصمها الكبرى كمكناس، وفاس، ومراكش، وانصراف الملوك الى بناء دورهم الجديدة بالرباط، باكدال وحي المحيط.

ومع ذلك فقد كان الملوك يهتمون بها، ولم ينزعوا عنها الصفة العسكرية، منذ عهد المولى الرشيد ومن بعده، وأنزلوا بها طرفا من عبيدهم، ومَيَّزوها عن الرباط بقائد خاص بها، مستقل في أحكامه بدائرتها، كما سيأتي بيانه وتفصيله في محلِّه.

وفي دولة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله، أنزل بها فرقة جيش الودايا[278] عقابا لهم لمَّا ثاروا عليه سنة ثمان واربعين ومائتين والف (1248/1833)، وأقطعهم بعض الاراضي بنواحي تمارة، فسكنوها وعمَّروها وصارت من ذلك التاريخ تُسمَّى قصبة الودايا، وتُنوسيت أسماؤها المتعددة السابقة. وبها الآن عدة دروب وأزقة تنسب اليهم، كزقاق اولاد دليم وأولاد جرَّار، وأولاد مطاع والدرابكة...الخ.

وهي الان مندمجة في مدينة الرباط، تحت إمرة واليها، مشمولة بمزيد العناية والإصلاح من الحكومة، لِقِدَمِ عُمرانها، ومآثرها الخالدة، وما سبق لها من ذكر مجيد في التاريخ، حسبما تقدَّم وسيأتي أثناء الكلام على عمرانها في عهد الدول الأخرى، وما تعاقب عليها من الأجيال في القرون الماضية.

---

278) قصة الودايا مع السلطان المولى عبد الرحمان مبسوطة في «الاستقصا» · ص 187 وما بعدها من ج 4، طبع القاهرة. وص 44 من ج 8 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

الفصل الرابع

عن رباط الفتح وتأسيسها وعمرانها
وابتداء هجرة الأندلسيين إليها

المبحـــث الأول

الربـاط والرباطـات

قال في لسان العرب في مادة ربط :

الرِّباط والمُرابطة، أن يربط الفريقان خيولهم في ثغر، و كل منهما يُعِدُّ لصاحبه، وسُمي المُقام في الثغور رباطا. و منه قوله تعالى : ﴿وصابروا ورابطوا﴾، وقوله ﷺ : "فَذَالِكُمُ الرباط"، أي الانتظار والمواظبة. الخ.

وأصل الرباط من مرابط الخيل، ومنه رباط الجيش. وسُمِّي المكان الذي يُخَصُّ بإقامة حَفَظَةٍ فيه رباطا.

والرباط أيضا واحد الرباطات المبنية ....

وعرَّفه الشيخ الرصاع في حدوده بقوله :[279]

«الرباط المُقام حيث يُخْشى العدوُّ بأرض الإسلام لدفعه»، وزاد الباجي : «ولو بتكثير السَّواد...»

والرباطات كثيرة بالمشرق والمغرب والأندلس ، منذ عهد الفتوح الإسلامية الأولى. ولها تاريخ طويل في سبب إحداثها ونشأتها، والأطوار السياسية والحربية والدينية التي تقلبت فيها، ليس من موضوع بحثنا هذا.

279) «حدود الرصاع» طبع فاس.

وهي نوعان :

– **الأول** : رباطات العُبَّاد والزُّهَّاد والمنقطعين للعبادة، ويُطلق عليها في المشرق خانقاه.

قال الخفاجي في «شفاء الغليل، فيما في كلام العرب من الدخيل»[280] "خَانْقَاه : رباط الصوفية معرب مولد، استعمله المتأخرون.

الثاني : رباطات المُصابرة والمُثابرة والمُرابطة في سبيل الله دفاعا عن ثغور المسلمين وحدود بلادهم المتاخمة للعدو أنْ يطأها، أوْ يخترق حرمتها، ويتعدَّى حدودها.

ومنها رباطنا هذا؛ فقد كان منذ القرون الأولى محل مرابطة المجاهدين في البَرَغْواطيين، وبعد ذلك، صار مجتمع الغُزاة بالديار الأندلسية، كما تقدمت الإشارة إليه، وسياتي مبسوطا في محله.

ولذلك سُمِّي بالرباط.

وبعد الفتح الكبير الذي حصل عليه المنصور في غزوة الأرك سُمي برباط الفتح. وعرف بهذا الإسم، واشتهر به عند مؤرخى المسلمين وجغرافييهم وكُتَّابهم منذ ذلك العهد.

إلاَّ أنَّ الكُتَّاب والمؤرخين الأوربيين في القرنين : العاشر، والحادي عشر الهجريين، الموافقين للقرنين : السادس عشر، والسابع عشر الميلاديين، كانوا يطلقون اسم سلا على مجموع العمران المتكون على ضفتي نهر أبي رقراق عند مَصبِّه في البحر، وإذا أرادوا زيادة بيان أو تفرقة قالوا. سلا القديمة على الضفة الشمالية للنهر، وسلا الجديدة على الضفة الجنوبية، وهي مدينة الرباط.

لأنَّهم كانوا يعتبرون ذلك العمران مدينة واحدة، وأنَّ الرباط إنَّما هو رَبَضٌ أو امْتداد لمدينة سلا السَّابقة الوجود عن مدينة الرباط.[281]

وقد تُنوسي هذا الإطلاق بعد ذلك، وصارت سلا تعرف باسمها القديم، والرباط، يعرف برباط الفتح.

---

280) ص 77 طبع القاهرة.

281) ص 25 من العدد الأول من مجلة هيسبريس «Hespéris»، الصادرة في سنة 1347/1928.

المبحث الثاني

تاسيس مدينة رباط الفتح

الظاهر أنَّ موجب إحداث مدينة رباط الفتح، هو أنَّ رباط عبد المومن، أوْ قصبته، قامت بواجبها في ميداني السياسة والرياسة في حياته، ولكن لمَّا ءال الامر لأولاده من بعده، ورسخت قواعد الدولة بعد وفاته، وكانت رقعة الامبراطورية الموحدية قد اتَّسعت شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، وتخطَّت البحر من وراء البوغاز إلى العُدوة الاندلسية، وكَثُر رُوَّاد وَوُرودُ وتَرَدُّدُ الجيوش عليها، ومرابطتها حولها المدة الطويلة أثناء حركاتها وانتقالاتها بين القارتين : الإفريقية والأوربية، وما انضاف إليهما من بعض جزر البحر الابيض المتوسط، دَعَت الضرورة إلى إحداث مرسى لمرابطة الأسطول، ورباط واسع فسيح أعظم من القصبة، تقف بمرساه الأساطيل، وترابط فيه الجيوش، وتجتمع العساكر ءامنة مطمئنَّة، كُلَّما دعت الضرورة إلى اجتماعها قبل توجُّهها للغزو بساحات القتال.

ومن لوازم إقامتها ومرابطتها، وجودُ ما تتوقَّف عليه الحياة الاجتماعية في الإقامة المستمرة من وسائل الراحة والعمران التي لا توجد إلاَّ في المدن والعواصم الكبرى.

ولعلَّ فكرة تأسيس مدينة مستوفية لهذه الوسائل على الضفة اليسرى للمصب الرقراقي في البحر، كانت تخالج أفكار الملوك المتقدِّمين حتَّى جاء أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن فأظهرها، ثم أنجزها وأبرزها لحيز الوجود ولده أبو يوسف يعقوب المنصور، حسبما يوخذ صريحا من نصوص بعض المؤرخين التي سنسوقها فيما سياتي :

ويقال إنَّ المنصور كان يريد اتخاذ سبتة مركزا لجيوشه الغازية بالاندلس لقربها منه، ولَكِنَّه رجع عن هذه الفكرة، لعدم توفر شروط إقامة الجيوش بها في أمن وعدم احتياج،

وخصوصا مسالة التموين واتّصال مَدَد الأقوات بنظام لعُقْم أرضها، ولِمَا في إقامة الجيوش بها الشهور المتوالية من الحَرَج على أهلها.[282]

وبعد هذا كله، فان مدينة رباط الفتح، هي الكتلة الثالثة من العمران الذي تَكَوَّنَ ونشأ على ضِفَّتي مصبٍّ أبي رقراق، بعد مدينة سلا أوّلاً، و القصبة ثانيا، حسبما تقدّم بسطه مفصلا محصلا.

وقد كانت أرضها - كما ذكرنا - في أول عهدها، محلَّ مرابطة المجاهدين في البَرَغْواطيين، واستمرَّت على ذلك في عهد اليفرنيين، ومدة دولة المرابطين، إلى أن أسَّس عبد المومن بها قصره وقصبته على الصخور المطلة على النهر والبحر.

و من هذه القصبة، لَمَعَ أوَّل شعاع للحضارة المغربية الأندلسية التي زهت وازدهرت، وتَأَصَّلَتْ وانتشرت بهذا الرباط منذ نحو ثمانمائة سنة.

و قد نصَّ عبد الملك بن صاحب الصلاة في كتاب «المن بالإمامة على المستضعفين»[283] على أن أرض مدينة الرباط، - يعني قبل اختطاطها - كان فيها برج للسُّكنى، (ولعله أراد به حصن تاشفين بن علي الذي تقدّم الكلام عليه)، وما حواليه أرض محرث براح ومَسْرَح، متملك للمخزن ولأهل سلا، ولابن وجّاد من أهل اشبيلية، فاشتراه الخلفاء من أربابهم وخَلُصَ لهم... وبها أسَّسوا مدينة الرباط بعد القصبة.

وزاد المعلِّق : أنَّ الذين كانوا يملكون أرض الرباط من أهل سلا : هم بنو القاسم، من بني عشَرة، ثم قال : "ولعلَّه كان مِلكا للقاضي أبي الحسن علي بن محمد بن عشرة، منهم".

ثم قال ابن صاحب الصلاة :

"ولم يزل الخلفاء يخصُّونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات، يلمُّون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظّاً وافرا من التشريف لها بالاختصاص بها والمقام، حتى غدت عِراقا، وتلاحق الناس بها لِحاقا، وأشرقت الآمال فيها إشراقا."

وأمير المومنين، بن أمير المومنين هو الذي مصَّرها ومهَّدها، وابتدأ بناء أسوارها من جهة الجوف والغرب.

---

282) «جغرافية ليون الإفريقي» ص 164 من ج 1، طبع باريس سنة 1956.

283) راجع كتاب «المن بالأمامة» ص 447 أصلا وتعليقا.

وهذا يقتضي أنّ ابتداء تأسيسها كان في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن بن علي.

وهو ما ذكره أبو محمد عبد الواحد بن علي التَّميمي المراكشي في كتاب «المُعْجِبْ»، لمَّا تكلَّم على أقاليم المغرب وتعيين مدنه قال :[284]

ومدينة سلا على ساحل البحر الأعظم المُسمَّى : أقنابس (الاطلانطيقي)، وهي في الجنوب - كما ذكرنا - ينصب إليها نهر يُسمَّى : وادي الرمان (هو أبو رقراق) ينصبّ في البحر الأعظم المذكور.

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر، مِمَّا يلي مراكش، مدينة عظيمة سمُّوها رباط الفتح.

كان اختطَّها أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن، وأتمَّها ابنه يعقوب، و بنى فيها مسجدا عظيما (هو حسَّان).

ثم قال :

«إنهم إنَّما بنوْها بأمر من ابن تومرت إياهم بذلك. و ذلك أنَّه قال لهم : ستبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر، يعني البحر الأعظم، ثم يضطرب أمركم، وتنتقض عليكم البلاد، حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة، ثم يفتح الله عليكم، ويجمع كلمتكم، ويعود أسركم كما كان، فلهذا سمُّوها رباط الفتح. وبين هذه المدينة، وبين سلا العتيقة، النهر المذكور.»

والذي يظهر لنا، إنْ صحَّ ما نُقل عن المهدي من أنَّه أمرهم ببناء مدينة على ساحل البحر المحيط ... هو أنَّ عبد المومن نفَّذ وصيته أو أمْره ببناء القصبة وتسميتها بالمهدية أحياء لاسمه وذكره كما تقدَّم.

وأمَّا الرباط، فقد كان يُسمَّى بهذا الاسم قبل المهدي والموحدين، وأُضيفت إليه لفظة الفتح، تذكارا لفتح غزوة الأرك، أو تفاؤلا بما يفتح الله به على الغزاة المرابطين به في جهادهم بالثغور والأقطار الأندلسية.

وما نُقل عن المهدي من التَّنبُّئات في حقِّ هذه المدينة، فلم يصح منه شيء ولا عبرة به.

284) ص 146، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية

وقال المراكشي أيضاً مُصرِّحا بأن المنصور إنَّما أتمَّ ما بدأه والده يوسف،[285] ثم شرع (يعني أبو يوسف يعقوب المنصور) في بنيان المدينة العظمى التي على ساحل البحر والنهر من العدوة التي تلي مراكش.

وكان أبو يعقوب يوسف رحمه الله، هو الذي اختطَّها، ورسم حدودها، وابتدأ في بنيانها، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها، فشرع أبو يوسف - كما ذكرنا - في بنيانها، إلى أن أتمَّ سورها...

ثم قال :

«ونمت في حياته، وكَمُلت أسوارها وأبوابها، وعمر كثير منها. وهي مدينة كبيرة جدا، تجيء في طولها نحوا من فرسخ، وهي قليلة العرض.»

قلت : بلغت مساحة الرباط داخل الأسوار الموحدية : ثمانية وعشرين وأربعمائة هكتار(428 هـ).

ثم قال :

«وخرج أبو يوسف يعقوب من سلا، بعد أن رتَّب أشغال هذه المدينة، وجعل عليها من أُمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقتها، وما يصلحها، فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور، طول مدة ولايته، إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة (594 /1197).»

و جاء في «الاستبصار» :[286]

«أنَّ الخليفة أبا يعقوب يوسف أمر ببناء مدينة كبيرة مُتَّصلة بالقصبة التي أحدثها الإمام أمير المومنين...»

وحيث ثبت بالنصوص التاريخية أن فكرة إيجاد مدينة الرباط، كانت لأبي يعقوب يوسف ابن عبد المومن أولا، وولده أبي يوسف يعقوب، إنَّما أنجزها وأبرزها للوجود، فإنَّ ابتداء هذا الإيجاد كان في عهد أبي يعقوب يوسف، وإتمامه كان في عهد ولده أبي يوسف يعقوب المنصور.

---

285) نفس المصدر، ص 109.

286) ص 140، طبع الإسكندرية.

وهذا هو الشأن في المشارع العظيمة. فربّما شرع ملك في اختطاطها وتأسيسها، واقتفى أثره من أتى بعده من الملوك في إتمامها، وإلاّ بقيت على حالها ولم يكمل القصد منها[287].

وعليه، فإن المدينة تقرّر تأسيسها وإنشاؤها وابتداء العمل فيها قبل غزوة الأرك، وكانت تُسمّى الرباط، وأظيفت إليها لفظة الفتح بعد غزوة الأرك كما تقدّم.

وقد كان المنصور – رحمه الله – عالي الهمة، بعيد النظر، اجتمع فيه خلقان :

– حب العظمة، والضخامة في كل شيء.

– و التمسُّك بحبل الدين المتين، والعمل على ما يظهره ويرفع من شأنه.

ولذلك كان يستصغر أعمال وآثار من تقدّمه من الملوك، وإن كانت عظيمة في ذاتها، ويرى أن الجمال والأُبّهة لا نهاية لهما، ويحاول دائما أن يتجاوز في سائر أعماله ومنجزاته من تقدّمه إلى حدّ بعيد.

قلت :

ولا غرابة أن يكون المنصور بهذه المثابة من علو الهمّة، وحب الفخر والإعتناء به، لأنه تبوّأ كرسيّ الملك بعد والده و جدّه، والدولة الموحدية في عنفوان شبابها، قد بلغت أشُدَّها، وحازت رشدها، واستكملت قوتها، وهي في أوج عزها وعظمتها. وامتدّ سلطانها، وعمّت سلطتها وسطوتها الشمال الافريقي كله، وتخطت البحر إلى الاندلس، وسَخَّرَت لها أيدي العملة والفعلة وذوي الانتاج في ميادين العلم والصناعة وتخليد الآثار والهياكل الضخمة.

ولايخفى ان آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها[288]، وأنّ الأثر يدل على قوة المؤثر أو ضعفه.

ولذلك كان المنصور – رحمه الله – يتحدّى من سبقه من الملوك، ويستصغر آثارهم، ويريد أن يفوقهم، ولا دليل على ذلك أعظم من منشآته الخالدة بالمغرب والأندلس، كقصبة مراكش، وقصورها، وبابها المعروف بباب أَكْنَاوْ، ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه، والجامع

---

287) ابن خلدون«المقدمة»، ص 289، طبع بولاق

288) المصدر السالف الذكر، ص 289.

الأعظم المنسوب إليه، ومناره ومقصورته العجيبة، وجامع الكتبيين، ومناره، والمسجد الاعظم بسلا، ومسجد حَسَّان، ومناره العظيم الشان، الذي سياتي الكلام عليه، ومسجد إشبيلية، ومناره. ومن جملة هذه الآثار العظيمة، مدينته الرباطية، بأبوابها وأسوارها، وحصونها وأبراجها، التي سياتي وصفها، وقد نوه بها ابن خلدون، وعدَّها من الآثار المهمة الخالدة. (289)

كما أن ابن الخطيب في «رقم الحلل»، أشار إلى ما شيَّده المنصور من الآثار بقوله . (290)

وَشَـيَّـدَ الآثَارَ وَالمَـدَارِسَـا وَنَوَّهَ القُـصُـورَ وَالمَـجَـالِسَـا

وكل هذه المنشآت العظمى، شاهدة ناطقة معبرة بلسان الشُّموخ، والافتخار للأجيال التي درجت والدارجة حولها، منذ نشأتها إلى ما شاء الله، بعُلُوِّ همة المنصور وبُعْدِ نظره، وشغفه بالإنشاء والتعمير، مدة حياته، وخصوصا في المساجد والمشاهد والمعاهد الدينية، والرباطات الجهادية.

وكل مَنْ وقف عليها واعتبر بها، استوحى منها الجلال والمهابة، ولاسيما إنْ قابلها بغيرها من آثار ملوك الدول الأخرى السابقة واللاحقة.

مثال ذلك، أنَّ من وقف وتأمَّل الباب القبلي المسجد الاعظم بسلا، وقابله بباب المدرسة الحسنية المرينية المقابل له، أدرك البوْن الشاسع بين الأثرين الماثلين المتقابلين.

فالأول عليه روْعة وجلال، ودلالة واضحة على قوة بانيه، وعظيم سلطانه، والثاني يظهر صغيرا بالنسبة اليه، وان كان مثالا يُحْتَذى ويُقْتدى في الفن المعماري والزخرفة التي تمتاز بها آثار الدولة المرينية، ولكنه يدل دلالة واضحة على أنها دون الدولة الموحدية في القوة والغنى والثروة واتِّساع الرُّقْعة ورفعة الشأن. والكُلُّ له طابع خاص يمتاز به عن غيره، ويشير بل يُفَسِّرُ مابلغ إليه الفن والهندسة والحضارة في عصره. لأنَّنا اذا قابلنا هذه الآثار الباقية، منذ تلك العصور الخالية، بما يُشيَّد في عصرنا هذا من المباني والهياكل الدينية، كالمساجد والمدارس ونحوها، والمنشآت القومية كالقصور والدور والعمارات، والمصالح العمومية، كالقناطر والسدود والانفاق المخترقة للجبال، لا نجد نِسْبة ولا قياسيا بين الماضي والحاضر،

289) ص 288 من «المقدمة» طبع بولاق.

290) فصل دولة الموحدين من مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية

لان الهندسة والفنَّ المعماري يتجلَّى في كل عصر ومصر ودولة بحسب تقدمها في العلم، وسَبْقها في ميدان الرُّقِيِّ والحضارة، وهي لا نهاية لها، ما دامت الدنيا والبشر بشرا.

هذا، وحيث استقرَّ في ذهن المنصور أنَّ بعض علماء الملوك قبْله، أسَّسُوا مُدُنًا عظيمة وعواصم خاصة بهم، نسبت اليهم، بعد وفاتهم، وخلَّدت اسمهم في سجلات تاريخ دولهم، فقد تاقت نفسه الى إتمام أوْ بناء عاصمته الرباطية، مقتفيا أثرهم، ومتحدِّياً لهم، وبادلاً غاية المجهود أن تكون من أجمل وأحسن العواصم الاسلامية في المغرب، وقلَّد في تخطيطها أشهر مدينة في الشرق، وهي مدينة الاسكندرية لموقعها من البر والبحر، وحرص كُلَّ الحِرْص على أنْ تكون شاهدا حيًا قائما دالاً على ضخامة ملكه، وعظمة سلطانه في الاجيال الاتية.[291]

قال ابن خلكان في ترجمته :[292]

«إنَّه بني بالقرب من مدينة سلا، مدينة عظيمة سمَّاها رباط الفتح، على هيئة الاسكندرية في الاتساع وحُسْن التقسيم، وإتقان البناء وتحصينه وتحسينه، وبناها على البحر المحيط الذي هناك، وعلى نهر سلا مقابلة لها من البرِّ القبلي...»

وفي «تاج العروس» في مادة ربط:

«ورباط الفتح، مدينة قرب سلا على نهر بالقرب من البحر المحيط، بناها الامير المنصور يعقوب على هيئة الاسكندرية.»

وفي «القرطاس»[293]

"أنَّ المنصور لمَّا مرَّ بسلا متوجِّهاً الى الأندلس لغزاة الأرك، أمر ببناء عِدَّة مَبَانٍ أثرية بمملكته، منها مدينة رباط الفتح من أرض سلا..."

وزاد كايي "Caillé" في «تاريخه»[294]

«أنَّ الشُّروع لم يقع في البناء إلاَّ بعد شهرين أوْ ثلاثة بعد الانتصار في وقعة الارك.»

---

291) «تاريخ الرباط» لكايِّي (Caillé)، ص 69.

292) ص 9 من ج 6.

293) ص 164، طبع فاس.

294) ص 67.

ولمّا أدار أسوارها، جعل القصبة زاويتها الشمالية الغربية، وامتدّت مساحتها من الجنوب الى الجنوب الشرقي.

وكان يعمل في بنائها، ونقل ترابها وأحجارها، كالمسجد الاعظم بسلا، أسرى الأرك في قيودهم وأغلالهم.

وكانت النّفقة عليها من خُمُسِ الغنائم، ومن بيت مال المسلمين.

وفي أقل من أربعة أعوام، تَمَّ العمل في بناء المدينة، ما عدا جامع حسّان.

وقال في «الاستقصا» :[295]

«لمّا اجتاز المنصور بأرض سلا، أمر ببناء مدينة رباط الفتح، فأُسِّست سنة ثلاثة وتسعين وخمسمائة (593/1196)، وأُكْمِل سورها، وركُّبت أبوابها.»

ومِمَّن نَسب تَأْسِيسَ رباط الفتح ليعقوب المنصور، ولم يذكر والده يوسف قبله، مرمول (Marmol) في «جغرافيته»، وشينيي (Chénier) في «تاريخه»[296]، وآخرون ممن أتى بعدهما وقلدهما.

عمران الرباط في عهد المنصور

تَمَّ بناء مدينة رباط الفتح في عهد المنصور، وبرزت للوجود بحصونها وأسوارها الضّخمة الفخمة العالية، وأبوابها الشاهقة الفارهة، شاهدة بعلو همة بانيها وعظمة ملكه، وقوة دولته.

وكانت مُحصَّنة براً وبحراً بقصبتها وأبراجها الدّالة على أنَّ المقصود من إيجادها بذلك الموقع الواقع على مصب النهر في البحر، والجامع بين شمال المغرب وجنوبه، والمُعبَّر عنه بسُرته، هو أنْ تكون قبل كل شيء مدينة حربية عسكرية مُسَيْطرة على القبائل المغربية والحوزية، ومُهَيْمنة على المعبر البحري إلى الاندلس، تُبْرمُ فيها الأمور، وتَصْدُر منها الاوامر إلى الغزاة المرابطين بالتخوم القشتالية الإصبانية والثغور.

295) ص 180، من ج 1، طبع القاهرة. وص 160، ج 3 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

296) ص 140 والتي بعدها، طبع الإسكندرية.

وكان رُبَّما اجتمع فيها منذ أول نشأتها كتلة بشرية تتماوج داخلها وحولها تتجاوز نصف مليون من عساكر الموحدين والمرتزقة من قبائل العرب والبربر وزناتة خيلا ورجلا، فينتشرون فيها حتى تضيق بهم، وتتدفّق جموع أمواجهم على ضِفَّتي النهر الجنوبية والشمالية.

وقد كان رسم المدينة يتضمَّن شوارع كبرى، وساحات عمومية فسيحة، ومنتديات وقصورا ودورا للسادات، وأسواقا وحمَّامات، ومساجد ومنتزهات، إلاّ أنَّ ذلك لم يتم كله في حياته، ولم يبرز لعالم الوجود لوفاته.

والظاهر أنَّ العمران الأولي في عهد المنصور، انتشر حول القصبة وما اتَّصل بها من المدينة الحالية إلى ناحية حسَّان.

لأنَّ المعروف من بناء المساجد الجامعة الكبرى بالعواصم الاسلامية ان تكون في وسط عمران المدينة، تقريبا على المصلين، وحِرْصاً على عمارتها في كل وقت وحين، كما هو مشاهد في وضع القرويين بفاس، وابن يوسف بمراكش، والزيتونة بتونس، والجامع الاموي بدمشق، وجامع بني أمية بقرطبة بالاندلس، وغيرها من المساجد الاخرى بالحواضر الاسلامية شرقا وغربا.

أمَّا باقي الأرض داخل الاسوار العتيدة الجديدة، فقد كانت فارغة لا بناء فيها، وإنَّما خُصِّصَت للبساتين وبعض القصور والمنشآت الأميرية.

وقد وصف صاحب «الاستبصار» عمران الرباط في عهده الأول فقال :[297]

«في هذه المدينة المُحْدثة قيصارية عظيمة وحمَّامات وديار كثيرة، ومياه مُطَّردة وسقايات، ومنافع أعِدَّت لوُرود المحلاَّت عليها، إذْ أنَّ وضعها على المجاز والمعبر إلى حضرة مراكش كلأها الله...»

ثم قال :

"وهذه المدينة شرَّفها هذا الامر العزيز وكرَّمها بما أحدثه فيها من المباني الرفيعة، والمنارة البديعة، (حسَّان) وما هي وقت مرور المحلاَّت عليها إلاَّ من عجائب مُنْتزهات الدنيا، ولاسيما في الأعوام الخِصْبة والفصول المعتدلة. وناهيك من ساحل طوله نحو

297) ص 140 والتي بعدها، طبع الإسكندرية.

الميلين، وعرضه نحو الميل، مملوء بالبشر والزّوارق في الوادي بُركّابها، والمنارة المطلّة (حسّان) وعلاقات الثمار، وعقد الزيتون، وجدر الكرمات، وقبب الجلوس للسّادات، أيدهم الله ظاهرة، وقبلة الجامع، (جامع حسّان) وأكثر منارة ذلك الحصن المشرف ظاهرة من المدينة (يقصد بمنارة الحِصْن منارة جامع القصبة).

وما هي في أوقاتها إلاّ أملح من ديار مصر، وما يحكى عن دجلة والفرات، فإنّا للّهِ على الفناء والممات، وللّهِ درُّ القائل :

النَّـاسُ مِـثْـلُ حُـبَـابٍ   وَالدَّهْـرُ بِرْكَـةُ مَـاءِ
فَـعَـالَـمٌ فِـي طُـفُـوٍّ   وَعَـالَـمٌ فِـي انْطِفَـاءِ

ولعلّه يشير (بِقِبَبِ السّادات لِلْجُلوس) إلى قصورهم ومنازلهم التي يقال إنها كانت بناحية حسّان بالموضع المشرف على الوادي المعروف الآن بالمنتزه.

و هذا الوصْف الكاشف الذي وصف به صاحب «الاستبصار» رباط الفتح في زمنه، ينطبق على ما قدّمناه من أنّ العمران كان ممتداً متّصلا من القصبة إلى ناحية حسّان، والباقي كان أجِنّة وبساتين مرصّعة ببعض المنتزهات وقِبَب قصور الأمراء والسّادات من الموحدين.

كما أنّ الحسن الوزّان، المشهور بِلِيُونْ الافريقي، وصف عُمْران الرباط في جغرافيته في زمن المنصور بقوله :[298]

«لما بنى المنصور مدينة الرباط، زيّنها بما أحدثه فيها من المساجد والمدارس والقصور والدور والمنازل والحمّامات والمخازن التجارية المتنوعة، وزوّدها بمياه عين غبولة، وفجّر ينابيعها في المساجد والقصور الملكية، والسِّقايات العمومية المحدثة في أحيائها.

ولأجْلِ التّرغيب في عمارتها برجال المعارف والفنون الجميلة، والصُّنّاع والتُّجار، أصدر أوامره بأنَّ كُلَّ من سكن بها منهم يأخذ جُعْلا من الدولة زيادة على أرباح صناعته ومداخله التجارية.

---

298) ص 164 من ج 1، طبع باريس سنة 1376/1956.

فانْسال إليها أصناف الناس من ذوي المعارف والصَّنَائِع والحِرَفِ والتُّجَّار من كلّ صوب وحدب، طمعا في الجُعْل المضمون، والرِّبح المظنون، فأصبحت بسبب ذلك في مدة قصيرة من الزمن معدودة في جملة المدن العامرة الغنية بإفريقية الشمالية، لأنَّ سكَّانها كانوا يربحون مرتين: مع الدولة بما يقبضونه من الجُعْل المخصَّص لكل واحد منهم، وما يربحونه من المعاملات التجارية مع الجيوش المرابطة برباطهم، ومع رجال البلاط وحاشية الملك».

وجاء في ابن خِلِّكان :[299] أنَّ يعقوب المنصور، انتقل إلى سلا (المقصود الرباط) من مراكش بعد رجوعه من الاندلس أواخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (1197/593) وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدَّة له.

والحاصل من مَجْمُوعِ النصوص التاريخية التي سُقْناها، هو أنَّ عمل يعقوب المنصور في بناء مدينة رباط الفتح أنتج أمرين مهمين :

الأول :

إيجاد مدينة عظيمة ءاوى إليها أهل الأندلس، وأسَّسوا بها وبسلا حضارة أندلسية وأسطولا بحريا تردَّد صدى أعماله القُرْصانية في العالمين الافريقي والأربِّي أحقابا متطاولة من الدَّهر، كما سياتي تفصيله في محلِّه.

الثاني :

إثبات قاعدة عسكرية جهادية على الشاطئ الجنوبي للمصبِّ النهري في البحر. والباعث الحقيقي للمنصور على إيجاد هذه المدينة هو الجهاد في سبيل الله بالاندلس وتَيْسير أسبابه على المجاهدين بما يحتاجونه من رجال وعتاد.

ولا شكَّ أيضا أنَّ حُبَّه للفخر والمباهاة حَمَلَه على أن تكون مدينته هذه من أعظم وأفخم وأجمل المدن المغربية.

وقد قام هذا الرباط بواجبه الجهادي الذي أُحْدِثَ من أجله أحسن قيام براًّ وبحراً، كما كان قائما به في أول عهده.

وحيث كان الجهاد باعثا على إيجاده وعمرانه وازدهاره من أول يوم ظهر فيه، فقد كان فُتور حركته بالاندلس عَقِبَ معركة العِقاب سبباً في تراجع ازدهاره، و تناقُصِ عمرانه.

---

299) ص 9 من ج 6.

ولذلك نجده في الحِقْبَة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية، بعد ظهور علامات الانحلال في جهازها الإداري، مجرَّد قلعة للدفاع عن كيانها الذي أُصيب بمرض الضُّعف المهدد بالزوال، والتدهْور والاختلال، وعدم القدرة على مقاومة الدولة المرينية الناشئة في الشمال، والمنذرة لها في كلِّ وقت وحين بالسقوط والاضمحلال.

تخوف المنصور من عدم عمران الرباط

علمنا، مما تقدَّم، ما بذله المنصور من الجهود الجبَّارة، وما اتَّخذه من الوسائل الفعَّالة لتكون مدينته من أعمر المدن وأجملها، وما كان له من الاعتناء والاهتمام التَّام بِجلْب الناس إليها، وترغيبهم في السكْنى بها، ومع ذلك، فإنه في آخر حياته، توقَّع عدم عمرانها، وأظهر النَّدم على بنائها.

قال في «القرطاس»:[300]

"لما اشتَّد المرض بأبي يوسف يعقوب المنصور قبل وفاته قال: ما نَدِمْت على شيء فعلته في خلافتي إلاَّ على ثلاث، وَدَدْتُ أنِّي لم أفعلها:

- أولها: ادخال العرب من إفريقية الى المغرب، لأنِّي أعلم أنَّهم أهل فساده.
- ثانيها: بناء رباط الفتح، أنفقت فيه من بيت مال المسلمين، وهو بعد لا يعمر.
- ثالثها: إطلاق أسرى الارك، ولابُدَّ لهم أنْ يطلبوا بثارهم."

وتعقَّبه في «الاستقصا» بقوله:[301]

«ما ذكره، رحمه الله، في رباط الفتح من أنَّه لا يعمر، تخلَّف ظنُّه فيه، فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها، حرسه الله، وحرس سائر أمصار المسلمين من آفات النُّقْصان، وطوارق الحدثان». اهـ.

ما عَدَا إذا اعتبرنا ما حَلَّ بالرباط من تناقص العمران، في عهد الدولة المرينية، إلى أنْ ءاوى إليه وعمره المهاجرون من الديار الاندلسية.

---

300) ص 164، طبع فاس.

301) ص 185 من ج 1 طبع بالقاهرة. وص 172 من ج 3، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

لأنَّ مدينة الرباط لم تنقص عمارتها ولا أهميتها بمجرد وفاة المنصور، بل استمرت محل اجتماع الجيوش العابرة إلى الأندلس، إلى أنْ قلّت الحركة الجهادية به، وبها جمع الناصر بن المنصور جيوشه التي عبرت البوغاز الى الاندلس في غزوة العقاب التي محّص الله فيها المسلمين سنة سبع وستمائة (1210/607).

وكان الناصر مع جيوشه مقيما بها مدة.

و بها أدركته منيته بعد مرجعه من الاندلس ليلة الثلاثاء عاشر شعبان عام عشرة وستمائة (1213/610)، فانحلَّ العزم وتفرّقت الجموع، والبقاء لله وحده[302].

وبعد ذلك كان ملوك الموحدين لا يقيمون بها إلاَّ عَرَضاً أوْ مُرورا.

قلت : لو اطّلع المنصور على رباطه اليوم لسرَّه حاله، واطمأنَّ عليه باله، لِمَا ءال إليه مآله، وأنه في زمننا هذا عَظُمَ شانه، واستبحر عمرانه، وامتدَّ خارج الأسوار الموحدية بنيانه، وأصبح عاصمة المملكة المغربية، ومن أرقى مدنها الراقية، الجامعة بين الحضارتين : الأندلسية والعصرية، وحُقَّ له الآن، لا فيما مضى، أنْ يُشبَّه بالإسكندرية.

رباط الفتح بعد ضعف الدولة الموحدية

إنَّ ازدهار رباط الفتح وزيادة انتشار عمرانه، لم يستمر بعد وفاة الناصر بن المنصور زمنا طويلا، وسرعان ما تناقصت أهميته العمرانية بقدر تناقص عظمة الدولة الموحدية.

فتهدّمت بعض الدُّور والمنازل لإهمالها، ونزوح سُكَّانها عنها.

وقد حدَّث شنيّي "Chénier" في تاريخه[303] أنَّ بعض الأسرى من الإصبان الذين كانوا مستعملين في بنائها ارتكبوا الغشَّ والخديعة في إتقان عملهم لتسقط الدور على السُّكَّان انتقاما منهم، وهو ما حدث وتم في أمد قريب، وكان جزاؤهم أن قُتلوا في مشهد وملإٍ من الناس بأحد أبواب المدينة.

---

302) «رقم الحلل»، فصل الدولة الموحدية، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

303) ص 28 من ج 3 طبع باريس.

ومن أسباب تناقص عمران الرباط بعد وفاة الناصر، فتور حركة الجهاد بالاندلس بعد وقعة العقاب كما تقدَّم. فنشأ عن ذلك قِلَّة اجتماع المجاهدين فيه كما كان الشان فيما سبق.

ثمَّ ضعفت الدولة الموحدية وكثر تناحر ملوكها على المُلْك، وتوالت الفتن في المملكة، فانحلَّت عُراها. وأُهمل الرباط، ونزح عنه سكانه وقُطَّانه الذين عَمَرُوه من أجل الجهاد في سبيل الله، والربح مع الجيوش التي كانت ترابط فيه، لاسيما وقد انقطعت عنهم الأرباح والأموال التي كانوا يتقاضوْنها من الدولة ترغيبا لهم في سكناه. ولا يخفى أنَّه إنَّما أُحدث لأجل اجتماع الجيوش ومرابطتها به، فلمَّا قلَّت، أوْ انقطعت بقي كجسد بلا روح، واصبح مُجردَّ حصن يُقيم به قائد يمثل السلطة، وشرذمة قليلة من العسكر لِلْمُحافَظةِ على الامن، وجماعة قليلة من السكَّان مُتَكَتِّلُونَ بالقصبة وما جاورها محافظة عليها.

إلاَّ أنَّه كانت تحدث به حركة حربية من حين لآخر، ناتجة عن المدِّ والجزر في الحروب الداخلية، بين سادات الدولة الموحدية وملوكها والثوار القائمين عليها بالمغرب والاندلس.

ومن ذلك، أنَّه لمَّا حاول عمر بن أُقاريط - أحد رؤساء هسكورة، بعد انضمامه إلى ابن هود الثَّائر بالاندلس - النُّزول بمصبٍّ أبي رقراق في أسطول ابن هود، منعه السيد أبو العلاء صِهْر الرشيد الموحدي، ودافعه عن الرباط، فرجع عنه بالخَيْبَةِ سنة اربع وثلاثين وستمائة، (634/1237)،[304] وحينئذ تنبَّه الموحدون لحماية القصبة ورباطها، ولكن بعد فوات الإبَّان، لأنَّ خطر المرينيين تجلَّى بصفة مزعجة في شمال المغرب كله.

وكان عمران مصب أبي رقراق من المراكز المُهمَّة التي تتوجَّه إليها أنظار رجال الدَّولتين، وصار الموحدون من ذلك الحين لا يولُّون على القصبة ورباطها إلا أقاربهم، وذوي الثقة من رجالهم، مثل السيد أبي العلاء صهر الرشيد بن المامون.

ولما تجهَّز السعيد علي بن المامون سنة ثلاث وأربعين وستمائة (643/1245) لقتال بني مرين الذين استفحل أمرهم بشمال المغرب، أسند قيادة مصب أبي رقراق إلى أخيه السيد أبي حفص عمر المرتضى. فلم يزل وليا عليه، مقيما بقصبته، حتى قُتل السعيد، سنة ست وأربعين وستمائة (646/1248)، واجتمعت كلمة الموحدين عليه، فبارح الرباط إلى مراكش في التاريخ المذكور[305].

---

304) «الاستقصا»، ص 202 من ج 1، طبع القاهرة. وص 229 من ج 3، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

305) «الاستقصا»، ص 203 من ج 1، طبع القاهرة. وص 238 من ج 3، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ومن آثاره الباقية بالرباط إلى وقتنا هذا، أجزاء مصحف مزخرف مكتوب بخط يده، تناستها الأيام فبقيت محفوظة في متحف قصبة الوداية، ولعلَّه كتبه لمَّا كان متوليا عليها مقيما بها.

وأعْرِفُ أنَّ بقية أجزاء هذ المصحف كانت محفوظة بالخزانة اليوسفية بالحضرة المراكشية.

وفي دولة المرتضى هذا، إستفحل أمر بني مرين بشمال المغرب ودان لهم، ولم يبق للمرتضى إلاَّ بلاد الحوز من جنوب أبي رقراق الى السُّوس.

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة (1251/649)، استولى الأمير أبو بكر المريني على العدوتين : سلا ورباط الفتح.

ولكن بعد حوادث وحروب، استرجعهما المرتضى من يده سنة إحدى وخمسين وستمائة (1253/651)، وأنزل بالقصبة شرذمة من الجيش لحمايتها وحماية مدينة سلا المقابلة لها على الضفة اليمنى للنهر.

واستمرَّ الحال على ذلك بالعدوتين، الى أنْ نزل برباط الفتح، السيد أبو العلاء، المعروف بأبي دبُّوس، بعد انفصاله عن عمِّه المرتضى، والتحاقه بالأمير أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وطلبه الإعانة منه وإمداده إياه بالجيش والأسلحة.

ومن الرباط كتب الى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة يعلمهم بثورته، ويدعوهم إلى بيعته، ويَعِدهم ويُمنِّيهم، فانضمُّوا إليه سنة أربع وستين وستمائة (1265/664).

وفي عهده استولى المرينيون على سلا ورباط الفتح، وطردوا منه الموحدين الذين أسَّسوه وعمروه وغرسوا فيه جذور الحضارة الاندلسية، ومَصَّروه، وغربت شمسهم في أفق محيطه، ولم يبق لهم أمر ولا نهي في دائرة محيطه، وحلَّ بذلك العَرِينَ، ليوث بني مرين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

المبحث الثالث

بعض الآثار الموحدية برباط الفتح

إنّ المغرب هو القطر الاسلامي الوحيد بافريقية الشمالية، الجامع الشامل للآثار الموحدية الشاخصة في مدنه وعواصمه، المتجلية في الأسوار الضخمة والأبراج والحصون الفخمة، والأبواب الفارهة، والصوامع المرتفعة، والمساجد الواسعة، المُسجِّل في هياكلها وأشكالها عبقرية الفنِّ والهندسة المعمارية الأندلسية المغربية، وما نتج عنها، وتولَّد من امتزاجها من جمال وجلال.

ولذلك نوَّه بها، ونبَّه عليها، ووصف بعض مناظرها وفخامتها المؤرخون والوصَّافون والرسَّامون لمآثر الدول الكبرى والملوك العظام، وألفتوا نظر الأجيال الآتية إليها في مؤلفاتهم، بعبارات مختلفة، وأساليب في استيعاب الوصف والكشف عنها متنوعة، ليقتبس منها الفنَّانون، ويتحدَّاها بعدهم المهندسون والنقَّاشون والمزخرفون.

ومن أعظم هذه الآثار الخالدة القائمة البارزة الشاهدة، مدينة رباط الفتح، وكلُّها كُتلة أثرية موحدية، بأسوارها، وحصونها وأبراجها، وأبوابها، ومصانعها وصوامعها ومعابدها. وسنطرق في هذا الفصل وصف البعض منها :

أسوار مدينة رباط الفتح

تَمَّ إنجاز الأسوار الموحدية المحيطة بمدينة رباط الفتح في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور بعدما استمر العمل جاريا فيها مدة أربع سنين.

وقال المراكشي في «معجبه» :[306] إنَّ المنصور تولّى بنفسه تصميمها وتعيين حدودها.

وجاء في «القرطاس» :[307] أنَّ الرباط كانت سنة اربع وتسعين وخمسمائة (1197/594) محاطة بالأسوار، مفتَّحة الأبواب.

وقد كان طول هذه الأسوار في أول نشأتها خمسة آلآف ومائتين وثلاثة وستين مِتْراً (5263م) والباقي منها الآن خمسة آلاف ومائة وتسعة وثمانون مِتْراً (5189م)[308].

وتبتدئ من المحيط إزاء بُرج الصراط، وتمتدُّ نحو الجنوب مارَّة بالعلُو، نحو حيٍّ الليمون، ومنه الى المشور، والقصور السلطانية، ثم تُكَوِّنُ زاوية وتنحرف منعرجة نحو الشمال الشرقي مواجهة أبا رقراق، وتبقى شالة أمامها على بعد نحو مائة وستين مترا.

وقد بُنيت هذه الأسوار كلها بمواد صلبة: طينية كلسية حجرية ءاجُرِيَّة، يمكنها أنْ تقاوم الحوادث والسنين أعْصَاراً ودهورا متطاولة، كما هو الشَّأن في سائر البناءات الموحدية.

والغالب فيها أنْ يتجاوز غِلَظُهَا أوْ عرضها ميترين و نصف، وارتفاعها عشرة أمتار ونصف، وثمانية أمتار ونصف، وسبعة أمتار ونصف، بحسب انخفاض الارض وارتفاعها.

وقد كانت مساحة المدينة الموحدية الداخلة في دائرة هذه الأسوار تتجاوز تقريبا أربعمائة وثمانية وعشرين هكتارا (428 هـ)، حسبما هو مرسوم في تصميمها الطبوغرافي الذي رُسِمَ لها سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة والف (1913/1331).

ويخترقها أبواب للمرور، ويتخلَّلها أبراج وحصون مربعة أو مسدسة أو مثمنة، أو هرمية الشكل، متوجة بشرفات، وكُوَّات للرَّمي سيأتي الكلام عليها، وطريق مفروزة منها تصل بعضَها ببعض.

وقد أُلحق بهذه الأسوار، أو تفرَّع عنها، وامتدَّ منها بعد العصرالموحدي، أسوار ثانوية أخرى : كالسور الأندلسي المُمتدً من باب الأحد إلى الوادي، والأسوار التي حدثت بموجب إحداث القصور السلطانية العلوية باكدال وما وراءه.

---

306) ص 280 مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

307) ص 386، طبع فاس.

308) «تاريخ الرباط» لكايِّي "Caillé"، ص 125-126.

كما أنَّ منتهى سور الناحية الجنوبية المواجهة لأبي رقراق، هُدِّم بعد الاحتلال لاتِّساع المدينة خارجه .

وقد كان سكان الرباط فيما مضى، يتعاهدون من وقت لآخر بالإصلاح بعض هذه الاسوار الموحدية، على حسب طاقتهم وحاجتهم واستطاعتهم، لأجل الدفاع عن حوزتهم ومصالحهم، ولذلك لم يشمل هذا الإصلاح الاسوار الموحدية كلها، لعدم الاحتياج إليها.

ولمَّا اهتمَّ ملوك الدولة الشريفة العلوية بمدينة رباط الفتح، اواخر القرن الثاني عشر الهجري، (الثامن عشر الميلادي)، وصاروا يتردَّدون عليها، واتَّخذ بعضهم بها دورا وقصورا بأكدال ونواحيه، تناولوا بالإصلاح الأسوار الموحدية المجاورة لقصورهم ودورهم، ودور خدمهم وحشمهم وأتباعهم، وخصوصا بناحية المشور الحالي وما جاوره واتَّصل به، والطرف الممتدّ من باب الرواح الى باب زعير، وبقيت الأسوار الاخرى البعيدة عن عمران المدينة وعن القصور السلطانية على حالتها الاولى، لم يشملها إصلاح، ولم يطرأ عليها تغيير في الهيكل والمنظر، كما هو مشاهد، وبمجرَّد القاء نظرة عابرة عليها، ومقابلة ما غُيِّر وأصلح منها بما لم يُغيَّر ولم يصلح يُدْرَكُ الفرق بينها، سواء في الحالة والهندام، أو المواد التي بُنيت بها الأولى، وأُصلحت أو غُيِّرت بها الثانية، تبعا للعصر الذي أُجْرِيَتْ فيه تلك الإصلاحات، بحسب تطور البناء في هندسة الحصون والأبراج طبقا لمقتضيات الأحوال والحوادث. ولا شك أنَّها مخالفة للعصر الموحدي الذي رُفع فيه هيكل تلك الأسوار وأبراجها. وقد كانت النَّفقة على إصلاحها وتعاهدها بعد ذلك من مداخيل المرسى، حسبما وقفتُ عليه مُدرجا في جداول مصارفها وخرجها.

و في عهدنا هذا، فُتحت في هذه الاسوار العادية العاتية أبواب وممرَّات متعدِّدة زيادة على الأبواب الأصلية، التي سياتي الكلام عليها لمَّا امتدَّ عمران المدينة خارجها في العهد الأخير، لمرور السيارات واتِّصال الأحياء الجديدة بعضها ببعض.

أبراج و حصون وأسوار

مدينـة ربـاط الفتـح

حيث كانت الأسوار الموحدية، المحيطة بالمدينة الرباطية، والمحصَّنة لِمَا أُنشئ فيها من المباني والقصور السلطانية والأميرية، يبلغ طولها ما يزيد على خمسة كيلومترات كما تقدم، وكانت المدينة مُعدَّة لإقامة الجيوش المتنقِّلة بين أقاليم الامبراطورية الموحدية

المترامية الأطراف شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، ومن وراء البحر بالاندلس، مدة طويلة أو قصيرة حسبما تستوجبه الأحوال الحربية، والحركات العسكرية، وكانت مستودعا هاماً تحتاجه وتتوقّف عليه تلك الجيوش من عدة وسلاح، وميرة وأقوات، فقد خلّلها منشئها بالأبراج والحصون والمتارس، لتكون عامرة بالحامية العسكرية المستعدّة للدفاع عنها في كل وقت وحين.

وقد بلغ عدد ما أُحصي من الأبراج والحصون الباقية القائمة، أوِ التي هُدِّمت أو أعدمت لسبب من الأسباب أربعة وسبعون برجا أو أثر برج وحصن،[309] منها :

– سبعة أبراج، بين بُرج الصراط وباب العلو.

– وتسعة، بين باب العلو وباب الأحد.

– وخمسة وعشرون، بين باب الأحد، وباب الروّاح.

– وسبعة، بين باب الروّاح، وقشلة الحرس الملكي.

– وأربعة عشر، في المسافة المواجهة لأبي رقراق.

واثنا عشر، في المسافة الممتدة بشارع رين "Reine".

والغالب على الظن أن هذه الأبراج كانت أكثر من هذا العدد.

وقد حُذِف في العهد الأخير واحد منها، بين باب الأحد و باب الرواح، وفُتِح في محله باب جعل ممرا يصل بين شارعين .

كما أنّ ثلاثة أبراج أخرى هُدِّمت بين باب العلو وباب الأحد للغاية المذكورة.

ولا شك أنّ عددا آخر من هذه الأبراج الموحدية، هُدِّم للاستغناء عنه في القسم الممتدّ من السور بناحية قشلة الحرس الملكي.

ومنها ما هُدِّم ولم يبق له أثر بالكلية.

والعبرة بما هو باق الآن، قائم مُشاهد بالعيان، وكفى به دليلا على ما أصبح منها في خبر كان.

309) «تاريخ مدينة الرباط» لجاك كايّي "Jacques Caillé" ص 127 والتي بعدها.

الأبواب الموحدية الرباطية

تشتمل الأسوار الموحدية الرباطية، زيادة على الأبراج والحصون، على خمسة أبواب موحدية وهي :

1 – باب العلو.

2 – باب الأحد.

3 – باب الرَّواح.

4 – الباب المدرج في حظيرة القصور السلطانية.

5 – باب زعير.

ويلحق بها باب القصبة الكبير، وهو باب السَّاباط.

و قد كانت هذه الأبواب، تُسمّى في القديم بأسماء أخرى، حسبما ورد في مؤلفات بعض الاوروبيين في القرنين : السابع عشر، والثامن عشر الميلاديين (الحادي عشر، والثاني عشر الهجريين).

و من ذلك أن القنصل المؤرخ شيني "Chénier"[310] كان يُسمّي باب العلو :«باب البحر»، وباب الأحد : «باب مراكش»، و باب الرَّواح «باب الجبل»، والباب المدرج في القصور السلطانية : «باب الحديد» و باب زعير :«باب شالة».

كما أنَّ أبا عبد الله الضُّعَيِّف، كان يطلق على باب الأحد : «باب مراكش»، و على الباب المدمج في القصور السلطانية : «باب الحديد»، و ذكر أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، سمَّاه : «باب الرِّيْح» و نصَّ على أن باب الرَّواح كان يُسمَّى : «باب الأرباح»[311] فَصُحِّفَ بباب الرَّواح، كما أنَّ باب الأحد كان يُسمّى في أوائل هذا القرن : «الباب الجديد»، و لعله سمي بهذا الاسم لتجديده في ذلك العهد.

وأطلق بعض الاوروبيين أيضا اسم باب الحديد على باب زعير، و علَّله بما كان يُقَعْقَعُ فيه من السلاح الحديدي في مدافعة قبيلة زعير التي كانت تحاول مهاجمة المدينة الرباطية منه.

---

310) ص 28 من ج 3

311) ص 39 من ج 2 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية

والظاهر أنه سُمِّي باب زعير لأنه فُتح أمام الطريق المؤدية إليها.

ولعلَّ أسماء هذه الأبواب تعدَّدت بتعدُّد موجباتها، واختلفت باختلاف أزمنتها وأحداثها.

* باب العلو

باب العلو كاسمه، غاية في العلو والسموِّ والارتفاع.

وقد نُقش على حيطانه الداخلية في الحجر المنحوت صُوَرٌ، منها : سيف مُصلَت وخنجران مُحَدَّدَان معقَّفان.

و نُقشت عدة خناجر أخرى على الصفحة الوسطى للواجهة الغربية، و قوس موتر بسهمه نحو العلو في غاية الوضوح.

* باب الأحد

يبعد عن باب العلو بنصف كيلومتر، وهو الذي يسميه ابو عبد الله الضعيف باب مراكش. ولعله سُمي بعد ذلك بباب الأحد، لانعقاد سوق أسبوعي به كل يوم احد.

وقد جُدِّد بناؤه في عهد السلطان المولى سليمان رحمه الله، وكتب عليه:

الحمد لله، جدَّد هذا الباب السعيد أمير المومنين، مولانا سليمان عام (1814/1229)

ونُقش على جدرانه أيضا صُوَر سيوف وخناجر وأقواس موترة.

وهو مع ما أُدخل عليه من التَّغيير والتَّجديد في البناء لا زال على ضخامته المعروفة في الأبواب والآثار الموحدية بالرباط ومرَّاكش.

* باب الرواح

الرَّواح في اللغة العشى، أوْ من الزوال الى الليل، يعني الباب الذي يخرج ويدخل منه وقت العَشِيِّ أو بعد الزَّوال.

وهو على مسافة تزيد على كيلومتر جنوب باب الأحد. ويُعد من أعظم أبواب الأسوار الموحدية الرباطية، وأفخمها وأجملها وأكثرها زخرفة ونقوشا في الأحجار المنحوتة.

وقد أُدخل عليه بعض التغيير في زخرفته زمان السلطان سيدي محمد بن عبد الله، حسبما ذكره الضُّعيف في مجموعة مقيداته التاريخية.[312]

ونُقش على عصابة واجهته الأمامية بالخط الكوفي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد و........

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله، ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيرا لهم. منهم المومنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضروكم، إلاَّ أذى، وإن يقاتلوكم يولُّوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾.

كما زُيِّنَتْ بعض النقوش المُحَلاَّة بها واجهتُه بأسماء الجلالة، وكلمة التوحيد... ما كان مكتوبا وتناثر بعض حروفه.

ورُسم على جدرانه الداخلية، كغيره من الأبواب الرباطية الموحدية، عدة صور، تمثل سيوفا مصلته طويلة أو مُعقَّفة وخناجر، وقوسا موترا كالقوس المرسوم بباب العلو.

ويوخذ من رسم صور هذه الاسلحة على أبواب الرباط الموحدية، ومنار حسّان، أنها كانت شعار الموحدين، ودعاية الى الجهاد في سبيل الله. وفيها إشارة واضحة إلى أنَّ المقصود من بناء مدينة الرباط، هو أن تكون مدينة حربية عسكرية جهادية، كما تقدَّمت الاشارة إليه.

وباب الرَّواح أعظم وأفخم من باب العلو، وباب الأحد، وأقواسه أكثر زخرفة ونقوشا. ولذلك كان له منظر بهي يستوحي منه الناظر المعتبر المتبصِّر، المهابة والجلالة ، ويُعدَّ من أعظم وأكبر المآثر الموحدية الخالدة، كباب القصبة بمراكش، وباب القصبة بالرباط، المعروف بباب السَّاباط.

---

312) ص 16 من ج 2 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

ولمَّا كان بهذه المثابة من الفخامة والجلال، فتحت فيه الحكومة في العهد الاخير، قوسين كبيرين جدًا في السور إزاءه لمرور السيارات، وأقواس أخرى صغيرة لمرور المشاة، وجعلت له دفقا وأغلقته محافظة عليه، وصار لا يُفتح إلاَّ في أوقات معلومة للسواح والزوار من الأجانب المتقاطرين على المغرب.

ولحُسن موقعه من حي أكدال العامر الآن، وقربه من القصور الملكية، والبناءات العلمية، ككلية العلوم، والخزانة العامة، ووزارة المعارف والتربية الوطنية، والشبيبة والرياضة، والفنون الجميلة، صارت تُقام أمامه الاحتفالات الرسمية، لاستعراض الجيوش ونحوها، فتمر أمامه مخترقة ساحة النصر، بمحضر جلالة الملك، في بعض المناسبات والأحيان، ورجال الدولة والسفراء والاعيان.

كما أنَّ رجال الفنّ والرسم والتصوير، يعرضون فيه ألواح ما يرسمونه من مناظر المغرب الخلاَّبة، ومآثره الجميلة الجذّابة.

وبالجملة فهو الآن الشاهد القائم المفصح بأفصح لسان، عن علو همة بانيه ومنشئه على مَرِّ الأزمان.

وفي وقتنا هذا، وهو آخر سنة ست وثمانين وثلاثمائة والف (1386/1967)، شرعت وزارة المحافظة على الآثار القديمة، والفنون الجميلة بالمغرب، في إدخال تغيير عليه، وإصلاح جديد، لا يمس هيكله الخارجي، ولا يغير شيئا من منظره التاريخي بتجديد قَبْو إحدى قاعاته الداخلية، وتغطيتها بسقف مشبك بالقضب الحديدية، المعمورة خلاياها بالقطع الزجاجية، لتزداد إشراقا وضياء، إذا عرضت فيها الواح الرسوم الاثرية، وصور المناظر التاريخية المغربية.

وحوِّلت الدَّرج التي كان يُصعد منها الى السَّطح، وطريق السور العليا، الى الواجهة المقابلة لها.

وأحدثت إدارة البلدية الرباطية بازائه مُتَّصلا به بواسطة دهليز من دهاليزه، من الناحية الموالية لحي تواركة، المتصلة بجامع السُّنَّة، الذي هو دار الحديث اليوم، معملا كهربائيا، لتوليد الكهرباء، لإمداد القصور الملكية، والدوائر الرسمية بحي أكدال بما يقويها، ويكفيها منها، وخصوصا في أيام الأعياد الدينية والقومية، والاحتفالات الرسمية.

* البـاب المدرج في دار المخزن، وهو باب الحديد

هذا البـاب هو الذي أطلق عليه ابو عبد الله الضـعيف :[313] «باب الحديد» وذكر أنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان سمَّاه «باب الربح». يبعد عن باب الرَّواح بنحو كيلومتر من ناحية الجنوب.

وقد أُدمج في دائرة حرم القصور السلطانية، وكان لا يمر أحد منه إلاَّ خَدَمٌ وحشم القصر الملكي من أهل الدار الملكية، ثم أغلقه السلطان المولى اليزيد بن محمد، ومنع المرور منه بالكلية.

وموقعه الآن، بناحية الدار التي كانت خاصَّة بسكنى الصدر الاعظم فيما سلف، وصارت الآن معدودة في جملة القصور الملكية الخاصة. ويلاحظ أنَّه أُدخل عليه تغيير وتحوير في الهندسة والشكل، تبعا لتطور البناء وتجديده في القصور الملكية المذكورة المتَّصلة به، و ذلك منذ زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كما ذكره الضعيف[314]، بل و في زمن من أتى بعده من الملوك.

* باب زعير

هذا الباب مفتوح في الناحية الجنوبية من السّور الموحدي، وله شبه في الهيئة والشكل ببَابَيْ : العلو، والأحد.

و سُمّي بباب زعير لأنه مقابل للطريق المؤدِّية لهذه القبيلة، قُبَالَة شالة. ولا يفصله عنها، إلاَّ نحو مائة وستين مترا.

وَ قد أُدْخِلَ عليه تغييرات وإصلاحات متعدّدة في واجهتيه الداخلية والخارجية منذ عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله لقربه من داره بأكدال، وهي دار المخزن الحالية، وقُرْبِهِ من حي تواركة النازلين حوله.

---

313) ص 39 من ج 2 مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

314) ص 16 من نفس الجزء والمخطوط.

ويلاحظ أنَّ بناءه مختصر بالنسبة للأبواب الأخرى، وليس فيه صور سيوف ولا خناجر كما هو بباب الرَّواح وباب العلو، أو كانت فيه وذهبت بما وقع فيه من التغيير والتحوير. وهو أصغر منهما هيكلا، وأبسط شكلا.

وبكلمة جامعة، فإنَّ الاسوار الموحدية الرباطية وأبوابها، روعي في تصميمها ورسمها وهندستها، الدفاع عن المدينة عند الحاجة والمقاومة والمطاولة في حالة الحصار والحروب والفتن، التي تستوجب المحافظة على المدن وسُكّانها، وخصوصا إذَا كانت عواصم دولة، أو محل مرابطة الجيوش كما هو الشان في مدينة رباط الفتح من أول يوم من عُمرانها.

وإلى هياكل أبواب وأسوار الرباط، يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «إتحاف اشراف الملا» بقوله :[315]

وَانْظُرْ إِلَى هَيَاكِلِ الأَبْـــــوَابِ	بِسُورِهَا بِعَيْنِ ذِي الإِعْجَابِ
تَرَى الجَمَالَ وَالكَمَالَ وَالعِظَمْ	وَقُدْرَةً تُعْرِبُ عَنْ أَعْلَى مَقَامْ...

و لمَّا كانت أسوار الرباط وأبراجها وأبوابها من المباني التاريخية التي تتوفَّر الدواعي على المحافظة عليها وصيانتها كما قلناه، فقد أصدرت الحكومة المغربية، ظهيرا شريفا يوسفيا، يتضمَّن تسجيلها في الأبنية الأثرية التاريخية، و أُدرج بالجريدة الرسمية الصادرة في ثالث وعشري شعبان عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (23 شعبان 17/1332 يوليوز 1914) عدد 63. صفحة 301.

ظهير شريف بشأن تقييد أسوار مدينة الرباط في عدد الأبنية التاريخية.

الحمد لله وحده

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعزَّ أمره.

أنَّه بمقتضى ما يظهر من المنفعة الفنِّية والتاريخية، عن صيانة أسوار مدينة الرباط وأبوابها.

و بمقتضى ظهيرنا الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الاول، عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (1332).

---

315) ص 11 مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وبناء على استشارة مدير إدارة الآثار القديمة، والفنون الجميلة، والابنية التاريخية.

وبناء على طلب وزيرنا الصدر الأعظم.

أصدرنا أمرنا الشريف بما يأتي :

فصل فريد

يُقيَّد في عدد الأبنية التاريخية الكائنة بالرباط ما يأتي :

أولا : الأسوار والحصون والبناءات ذات جانبين ووجهين الكائنة على شاطيء البحر بين قصبة الودايا والمجزر.

ثانيا : الأسوار التي تبتدئ من المجزر، وتتَّجه نحو الجنوب، وهي تتألف من :

باب العلو، وباب الأحد، وباب الرَّواح

والباب القديم الذي حول دويرة في قصر السلطان.

ثالثا . الأسوار التابعة للأسوار المذكورة. الممتدَّة من الجنوب الغربي، إلى الشمال الشرقي، وهي تتألف من :

باب الحديد.

وتنتهي بحصن صغير واقع فوق الصخور على شاطيء وادي «بو ركراك».

رابعا : السور الصغير الذي يبتدئ من رحبة باب الاحد (316). و يتألف من باب التِّبن، والبويبة، وباب شالَّة.

والباب الجديد المعدُّ للتلغراف اللاَّسلكي[317] والبرج الكائن بسيدي مخلوف.

خامسا · الباب المعروف بباب البحر، الكائن على شاطيء وادي "بو ركراك"، قبالة المحل الذي كان يُخرج منه سابقا إلى البحر. وأيضا البرج والأسوار التابعة له.

و الســــلام.

---

316) المقصود به السور الأندلسي الذي بناه الأندلسيون لما نزلوا بالرباط، بعد هجرتهم من الأندلس وسياتي الكلام على تاريخ بنائه مفصلا في أخبار الأندلسيين الذين عمروا الرباط عقب الجلاء الأخير من البلاد الأندلسية.

317) هو المعروف الآن بباب المَلاَّح، المؤدِّي إلى زقاق وقَّاصَة

وحرر برباط الفتح في سابع وعشرى رجب عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (1332)، الموافق لثاني وعشرى يونيه، سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (1914).

قد سجل هذا الظهير الشريف، في الوزارة الكبرى بتاريخ ثالث شعبان عامه. صح به

مَحمد بن محمد الجبَّاص

* الباب الكبير بالقصبة

وهو باب السَّاباط

من جملة الأبواب التاريخية الموحدية العظيمة برباط الفتح، الباب الكبير بالقصبة بقوْسيْه، المواجه أحدهما لساحة سوق الغزل، والآخر لداخل القصبة، وهو باب السَّاباط. من بناء أبي يوسف يعقوب المنصور كغيره من الابواب الرباطية الموحدية الاخرى.

طول واجهته ثمانية وثلاثون مترا وستون سانتيمتراً، وعرضها ستة عشر مترا، وعلوها، ما يزيد على ثلاثة عشر مترا.

وهو زيادة عن كونه باب قصبة، أو حصناً من الحصون المهمَّة بالرباط، فقد كان باب ساباط يولج منه الى القصور الخليفية العبد المُومنِيَة.

وكانت القاعة الأولى منه مُعَدَّة لإيواء حرس السلطان الملازمين لأعتابه، الواقفين ببابه، لحراسة قصوره، ومنازله ومنازهه ودوره، كما كانت القاعتان الأُخْرَيَتَانِ يجلس بهما الخلفاء لاستقبال الوفود، والنظر فيما يتعلَّق بالجيوش، وفصل قضايا الجنود.

وقد بقيت هذه العادة جارية مُتَّبعة في المغرب من ذلك العهد إلى أوائل هذا القرن، قبيل استبدال أوضاع الحكم فيه كما هو معلوم، فكان القُّواد والعُمَّال يجلسون تحت سوابط المدن الكبرى والعواصم كفاس الجديد ومكناس، ومُرَّاكش وغيرها، فينظرون في المظالم وينصفون المظلوم من الظالم.

وكلٌّ من وقف على هذا الباب وتأمَّل فيه من واجهته الداخلية والخارجية، تشخَّص فيه قوة المُلْك وأُبَّهة الخلافة اليعقوبية العبد المومنية، وتحقَّق من هيئته وشكله، أنَّه بُني من أول يوم لِمَقْصَدٍ حَرْبِيٍّ عَسْكَرِيٍّ، لأنه يُشبه في وضعه وهيكله هياكل الأبراج الكبيرة في المواقع السِّتراتيجية، ويُمثِّل في زخرفته ما بلغه الفنّ والإبداع في العهد الموحدي.

وقد نُقِشَ على واجهتيه عدة آيات قرآنية، وجُمَل تتضمَّن الحمد والشكر لله.

منها بالخط الكوفي :

الشكر لله وحده، والملك لله وحده.

ومنها قوله تعالى .

﴿ يدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبُّونها نصر من الله وفتح قريب، وبَشِّرِ المومنين ﴾.

وقوله تعالى :

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك، ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا. هو الذي أنزل السكينة في قلوب المومنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والارض وكان الله عليما حكيما ﴾.

وفي زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كان من جملة ما تناوله الإصلاح والتَّجديد من المباني التاريخية بالقصبة، فحوَّله بَيْتَ مال الدولة بالعدوتين، وأحكم بناءه، وجلَّد بابه بالحديد[318]. وكان رحمه الله قد اتَّخذ بيوت أموال في كل مرسى من مراسي المغرب، تُفتح كل ثلاثة أشهر، وتُعطى منها لعسكر ذلك الثغر رواتبه، وقدرها ثلاثون أوقية للرَّأس حضروا أم غابُوا، إعانة لهم على عيالهم[319]. وقد وقفت في الدفتر المالي البحري[320] للأميرال الحاج الهاشمي عوَّاد السلاوي، على قوائم دخْل الأموال التي كانت تودع فيه وقوائم خرجها وما تصرف فيه، وقد افْتُتِح هذا الدفتر بمقدمة نصها :

الحمد لله وحده :

هذا زمام مبارك سعيد، يستفاد منه بحول الله وقوته، ما يدخل بيت مال المسلمين عمره الله، بوجود مولانا أطال الله عمره، مولانا أمير المومنين، ناصر الدين، الكائن بقبة باب القصبة التي بثغر الرباط، جعله الله نكاية للاعداء الكافرين.

---

318) «تاريخ الضعيف»، ص 16من ج 2 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

319) «الاستقصا»، ص 117 من ج 4 طبع القاهرة. وص 80 من ج 7، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

320) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وقـيَّـده في الرابـع عـشـر من شوال عـام سـبع وثمـانـين ومـائـة والـف (14 شـوال 29/1187 دجنبر 1773).

ثم صار يذكر مقادير الأموال التي دخلت، ومن أين جُبِيت، مُقدَّرة بالقناطير والمثاقيل والرِّيال، وما صُرفت فيه، وأسماء رؤساء الأساطيل القُرصانية السلاوية الرباطية، وقوائم البحَّارة من أهل العدوتين، وبيان أُسَرهم، ومقادير أعطيتهم ومكافئـاتهم ...الخ

ثم عَدَتْ على هذا السَّاباط، أو الخزينة المالية، عوادي الدَّهر، وتعاقب الأحداث والدول، فأُهْمِلَ إصلاحه، وتغيَّر صبّاحه، وغُلِّقَت أقواسه، ونزح عنه جُلاَّسه وناسه، وانطمست معالمه، واختبتْ محاسنه، بما أُحدث من البناء الحقير ملاصقا له، حوله وداخله، ولم يبق به مال مخزون، ولا كنز مصون.

ثم ءال أمره في آخر عهده الى أنْ صار سجنا يُسجن به أرباب الجرائم الكبرى، ومن سَخِطَه السلطان من القواد والعمال ورؤساء القبائل. وكانت النفقة عليه وعليهم، من مداخيل مرسى العدوتين، حسبما وقفتُ عليه مثبتا في قوائم خرجها في كل شهر.

واستمرَّ على ذلك الحال إلى سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة والف (1915/1334) فتنبَّهت له إدارة المحافظة على الآثار القديمة والفنون الجميلة بالمغرب، في عهد السلطان المقدَّس، أبي يعقوب يوسف بن الحسن الأول، فاهتمَّتْ بإصلاحه، بعد نقل السجن منه الى القصبة التي كان بها طابور البوليس المخزني القريبة منه. وهدَّمت جميع البناءات الحقيرة التي حدثت بإزائه وأُلصقت به، وفتحت أبوابه، وأعادت ممرَّاته ومسالكه لِمَا كانت عليه في عهدها الأول. وردَّت ما انزلق أو تدحرج من أحجاره، وعُقِّدِ أقواسه إلى محلها. ورتقت ما انفتق من جدرانه ومدارجه، فعادت إلى أصلها، ووصلت ما انفصل من نقوشه وزخارفه، فازْدهى منظرها، وبرز في حلَّة قشيبة للوجود من جديد، وتجلَّى منظره البهيُّ للناظرين من بعيد.

وكان يوم الاحتفال بإتمام إصلاحه، وفتحه للعموم يوما مشهودا، رابع عشر صفر عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة والف (14 صفر 01/1333 يناير 1915). وذلك تَنْفِيذاً للظهير اليوسفي الشريف، الصادر بالمحافظة على الآثار القديمة بالقصبة وأحيائها، المؤرخ بحادي عشر رجب عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة والف (11 رجب 19/1332 يونيه 1914)، المدرج بالجريدة الرسمية المؤرخة بثامن وعشرى شعبان، عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة والف (28 شعبان 19/1332 يونيو 1914)، عدد 59 صفحة 251.

وقد تقدَّم نصُّه عند الكلام على القصبة وتفصيل ما اشتملت عليه من الآثار التاريخية.

وهو الآن كعبة السُّوَّاح والرسَّامين لمناظر المغرب الجميلة، ومآثره الخالدة، بالريشة والقلم، في الصحف والكتب والألواح.

* * *

هذا، وقد شخَّصنا في الفصول السابقة مدينة رباط الفتح منذ ميلادها وطفولتها ونشأتها. وما كان يُؤمِّله مُنشئها في استبحار عُمرانها وازدهارها، لأنه أراد بها أن تكون نقطة انطلاق للحركة الجهادية بالديار الأندلسية، وواسطة عقد مدن المملكة المغربية، فارتسمت في أفكارنا، شاخصة أمام اعيننا، بأسوارها وأبراجها وحصونها الضَّخمة، وأبوابها وقصورها الفخمة، تزخر في ربوعها وأرباضها الجيوش والجنود، وتخفق في ساحاتها الرَّايات والبنود.

وسنطرق في الفصول الآتية، وصف ما بقي من آثارها الموحدية الخالدة. وأعظمُها مسجد حسَّان ومناره العظيم الشان، الراسخ البنيان، وما أدرك بهما وبشهرتهما في كل زمان ومكان، فنقول

المبحث الرابع

مسجد حَسَّان[321]

لعل مسجد حسّان ومناره الأعظم من أعظم وأبرز الآثار الموحدية القديمة القائمة المشاهدة بالعيان، بهذه المدينة الرباطية، منذ القرون الماضية، والأزمنة الخالية.

يراه القادم الى العدوتين من البحر، على بضعة اميال، ومن البر، على مسافة عدة كيلوميترات، فيلفت الأنظار إليه بشبحه القائم المطلِّ على الوادي، والمشرف على العُدوتين، فتتشوَّف نفسه إلى الوقوف عليه، والاطلاع على ماضيه الغابر، ومعرفة حاله في العصر الحاضر، وهو ما سنطرقه في الفصول الاتية :

اسم حسَّان

أُطلق هذا الاسم على هذا المسجد، منذ عهد قديم، لأنه سُمِّي به في كتب الأقدمين. وإنْ كان المراكشي لم يطلقه عليه في «معجبه» ولا صاحب «الاستبصار» في مؤلفه الجغرافي، ولا ابن صاحب الصلاة، في «المنّ بالامامة»، وهم من مؤرخي الدولة الموحدية ومعاصيرها، فقد أطلقه عليه صاحب «القرطاس» في تاريخه[322] وابن الخطيب في «مقاماته البلدانية»[323] وصاحب «الذخيرة السنية»،[324] وهم من مؤرخي ومعاشري الدولة المرينية.

---

321) لقد اعتمدنا في تحرير هذه الفصول المتعلقة بحسّان ومناره على ما كتبه فيهما المؤرخ الباحث السيد جاك كايّي "Jacques Caillé" وخصوصا بما يتعلق بالناحية الفنية.

322) ص 164، طبع فاس.

323) ص 105، طبع الاسكندرية.

324) ص 66 و70 طبع الجزائر.

وعليه فقد كان يُسمّى بهذا الإسم منذ عهد بني مرين، في القرنين (السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلادين).

وكذلك نجد جماعة من المؤرخين الأوروبيين كشنيي "chénier" وغيره يطلقون عليه هذا الإسم، وقالوا : إنه منسوب إلى قبيلة بني حسّان العربية، أو لمالك الأرض التي بُنى فيها.

مع أنَّ ابن صاحب الصلاة، ذكر في كتابه «المن بالامامة»[325] أنَّ أرض الرباط قبل بنائه، كانت مِلْكا للمخزن ولأهل سلا، ولابن وجّاد الإشبيلي، كما تقدَّم ولم يذكر حسّان في جملتهم.

وقالوا أيضا : إنه منسوب لاسم المُعلم الذي كان مُكلَّفا برسم تصميمه وبنائه، ولا نعرف له ذكرا ولا ترجمة، وربما يكون ذلك لأنه تُسمّى بعض الأبنية الأثرية باسم المهندس الذي بناها، كما سُمِّيَ مثلا باب منصور العلج بمكناس باسم المهندس الذي بناه، وهذا مجرد احتمال فقط. وأما نسبته لحسَّان النبطي صاحب المنارة، فهي بعيدة جداً. ولا علاقة له بها سوى الاتفاق في الإسم وبينهما من البعد في الزمان والمكان، كما بين النبط في العراقين، ورباط الفتح بالمغرب الاقصى.

ولا يمكن الجزم بأيِّ قول من هذه الأقوال، حتى يقوم الدليل على صحته بنص صريح، وهو غير موجود الآن.

موقع مسجد حسّان

بُني مسجد حسّان في الناحية الشرقية الشمالية لمدينة رباط الفتح، فوق نَشْزٍ من الأرض فسيح السّاحة، واسع المِساحة، مقابل لمدينة سلا، فيه انحدار من الجنوب إلى الشمال، مُطلّ على نهر أبي رقراق، ويعلو عن سطح البحر بنحو تسع وعشرين مترا (29م).

ولأجْلِ الحصول على تسوية ذلك الانحدار، ليكون البناء مستقيما متساويا، رُدِمَ بالأحجار والتراب حتى استوت الأرض المُعدَّة للبناء، وصارت لا عوج فيها ولا أمتا.

ثم قوي هذا الرَّدْم ببناء جدار قوي صحيح حوله من الناحية الشمالية. وأمَّا من الناحية الجنوبية، فَقد وقع الاعتماد في البناء على الصخور المساوية لصحنه الغربي.

---

325) ص 446، طبع بيروت.

ولذلك صارت مساحته التي بني فيها متساوية ليس فيها علوّ ولا انحدار. وأمّا في وسطه وشماله، فإنّ أسُس البناء اعتمدت على طبقات من المواد القوية التى تتصلّب : كالجير والطين اللازب.

وقد اتُّخذت هذه الاحتياطات التأسيسية في بناء مخازن مياهه التى سيأتي الكلام عليها بناحيته الشمالية، وفي المجاري والقنوات الجالبة للمياه الطاهرة الصالحة للعادة والعبادة، والدافعة للمتغيِّرة التي لا تصلح للعادة ولا للعبادة. ويكتنفه اليوم من ناحيته الشرقية، شارع أبي رقراق، المار فوق الصخور النهرية، والمشرف على مرسى الرباط، والضفة اليسرى للوادي.

ويحيط به من الناحية الجنوبية الغربية شارع منار حسّان على مسافة قريبة منه.

وتفصله عن شارع أبي رقراق من الناحية الشمالية، مساحة واسعة الفناء، لعلها كانت قديمة جدًا.

المواد المستعملة في بناء مسجد حسان

كانت المواد التي استعملت في بناء مسجد حسان على العموم من أجود المواد البنائية وأحسنها. وهي المستعملة في المباني والهياكل التاريخية بالمغرب والأندلس، من الطين المعجون، والحَصَى الجيِّد، والصخور المنحوتة، والآجر، والجير، والرخام، والقرمود، والرصاص والعود...الخ.

وتبيَّن من البحث أنَّ الطين المعجون المستعمل فيه، هو نفس الطين المعجون الذي استعمل في بناء أسوار مدينة الرباط وأبوابها، من النوع المختار القوي الذي إذا التحم صار كالصخرة الصمَّاء الطبيعية.

كما أنَّ الرُّخام المستعمل في أعمدته إمَّا أشهب، وإمَّا أزرق، ولا شك أنه استُخرج من معدن وادي عكراش القريب من الرباط. والخشب والعود من نوع الأرز الجيد المجلوب من غابات الأطلس. وهكذا كانت جميع موادّه البنائية من أجود الأنواع وأرفعها، كما هي عادة الموحدين في سائر منشآتهم التاريخية الأثرية[326].

---

326) «مسجد حسّان» لكايّي "Caillé"، ص 31 والتي بعدها.

هل كان في محل مسجد حسّان مسجد صغير وسّعه المنصور ؟[327]

استنتج السيد كايّي "Caillé" من دراسته لتصميمات مسجد حسّان، وتطبيقها على الأنقاض، وبقايا السواري والاسطوانات المكتشفة، وماهو موجود، ممّا برز للوجود، من الأروقة والصحون واتساعها وضيقها، وطولها وقصرها، بحسب وضعها الحالي فكرة غريبة، وهي أنّه ربّما كان قبل هذا المسجد الكبير الواسع الفناء، المتقن البناء، في ساحته التي بني بها مسجد آخر صغير، لعلّه من بناء ابي يعقوب يوسف، والد المنصور، ضاق عن المصلين به من الجيوش الجرّارة التي كانت تجتمع بالرباط، فوسّعه المنصور وزاد فيه زيادة كبيرة من ناحية القبلة.

واستدلّ على ذلك بضيق بعض الأروقة وسعتها ...

قلت: وهذا مجرد احتمال، تفرد به السيد كايّي "Caillé"، ولا يعضده نصّ صريح، ولا نقل صحيح، لأنّ المؤرخين الأقدمين، لاسيما الذين عاصروا الدولة الموحدية منهم، كصاحب «المعجب»، وصاحب «الاستبصار»، وغيرهما، لم يذكروا ذلك، ولا أشاروا إليه، بل ولا يفهم ولا يؤخذ من كلامهم، واتّفقوا على أنّ المنصور هو الذي ابتدعه، وانشأه من أول مرة واخترعه، وتحدّى فيه المساجد الإسلامية الكبرى التي سبقته بالمغرب والاندلس، وقد اعترف السيد كايّي بذلك، وبسطه بسطا مفصّلا.

وما لاحظه من الخطأ أو المخالفة في الوضع وطول الأروقة وعرضها، ربّما يكون نشأ أثناء البناء لعلة أو مقصد آخر تعيّن العمل بمقتضاه، ولم نهتد اليه الآن.

وعليه فالظاهر أنّ مسجد حسّان لم يكن في محله مسجد آخر قبله.

تاريخ بناء مسجد حسّان

كان المنصور رحمه الله، كما قدّمناه عند الكلام على بنائه مدينة رباط الفتح، شغوفا بالبناء، مولعا بالتعمير والإنشاء، له همّة عالية شمّاء، في تخليد المآثر، ورفع الهياكل، حتى كانت مملكته الواسعة بإفريقية الشماليّة والأندلس كلها أوراش عمل لتأسيس المدن، وتوسيع نطاق العمران، وخصوصا في المصالح العامّة والدينية، كالمساجد والمعاهد، والحصون والقلاع الجهادية، لأنه كان يعلم أن :

327) نفس المصدر ص 70 وما بعدها.

هِمَم المُلُوكِ إذا أرادوا ذِكْـرَهـا   مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِشَامِخِ البُنْيَـانِ
أوَ ما ترى الهَرَمَيْنِ قد بَقِيَا وَكَمْ   مُلْكٍ مَحـاهُ حَـوَادِثُ الأزْمَـانِ
إنَّ البِنَـاءَ إذا تَقَـادَمَ عَـهْـدُهُ   أضْـحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمُ الشَّـانِ

ويومن بقول الشاعر :

إنَّ آثَـارنَـا تَـدُلُّ عَلَيْنَـا   فَـانْظُـروا بَعْـدَنَـا إلى الآثَـارِ

وبقول الآخر:

لَيْسَ الفَتَى الذي لاَ يُسْتَضَـاءُ بِهِ   وَلاَ يَـكُـونُ لَـهُ فـي الأرْضِ آثَـارُ

ولهذا وصفه ابن الخطيب في «رقم الحُلَل» بقوله :

وشَـيَّـدَ الآثَارَ والمَـدارِسـا   وَنَوَّهَ القُـصُـورَ والمَـجَـالِسَـا

ولعلَّه لمَّا رأى عظمة جامع قرطبة وضخامة بنائه وهيكله، أراد أن يتحدّاه كعادته في تحديه آثار من تقدَّمه من الملوك، وتحديه كما يقال : مدينة الإسكندرية بمدينته الرباطية، التي صرف وجهته إليها، وعمل كلَّ ما في وُسعه وطاقته لتزيينها وتحسينها وتجميلها، إلى أنْ عاقه الموت عن إنجاز أعماله فيها.

ومن آثاره الخالدة بها، مسجد حسّان. أمر بتشييده، لمَّا جاز إلى الاندلس لغزاة الأرك، كغيره من المباني التاريخية الأخرى التي أمر بإنجازها بمُرّاكش ورباط الفتح كما في «الروض القرطاس»[328] سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة (1195/592)، واستمرَّ العمل جاريا فيه، مدة دولته الى حين وفاته.

قال في «المعجب» عند الكلام على بناء مدينة الرباط :[329]

«وبنى فيها – يعني أبا يوسف يعقوب المنصور – مسجدا عظيما كبير المساحة، واسع الفناء جِداًّ، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه»...

ثم قال : "ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم لأنَّ العمل ارتفع فيه بموت أبي يوسف، ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئا".

328) ص 164 طبع فاس.

329) ص 109 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

ويمقتضى هذا، فقد دام العمل فيه متواصلا مدة خمسة عشر عاما، ولم يتم.

هل تم بناء مسجد حسّان ؟

الذي يوخذ من نصّ «المعجب»، أعلاه، صراحة أنّ مسجد حسّان لم يتم بناؤه في عهد بانيه المنصور، ولم يعمل فيه شيئا من أتى بعده من سلاطين الموحدين.

قلت : ولا بني مرين، ولا من أتى بعدهم من ملوك الدول الاخرى التي تعاقبت على المغرب بعد ذلك.

ولكن بقي علينا أنْ نعرف الحالة التي وقف فيها البناء، والحدّ الذي وصل إليه، وما تمّ منه وما لم يتم.

وقد اهتمّ الباحثون من الأركيلوجيين الفرنسيين بأنقاضه ودراستها، لعلّهم يتوصّلون منها إلى معرفة الحدّ الذي وصل إليه البناء منذ وفاة المنصور رحمه الله، فاختلفوا.

فقال بعضهم :

إنّ المسجد وصل بناؤه إلى حدّ وضع السقوف والزخرفة والزينة، ولكنّه لم يتم نهائيا.

وقال آخرون : إنه تمّ نهائيا، ولكنّه لم يُفتح للعبادة وإقامة الصلوات فيه.

وليس لدينا نصٌّ يفصح عن ذلك فنعتمد عليه، ونصُّ «المعجب» الصريح في عدم إتمام بنائه، غير مفصح عن الحالة التي انتهى إليها البناء، مع أنَّ مؤلفه عاش في عهد الدولة الموحدية، وشاهد بعينيه مسجد حسّان، وأخبر أنه كان غير تامّ البنيان في زمنه.

والذي يؤخذ من هذا كلّه، أنّه كان مشرفا في بنائه على التّمام. وكانت بعض بلاطاته مسقفة بالبرشلة، ولذلك أُخذ عودها واستُعمل في غير ما جُعل له كما سيأتي، ووصل إلى طور الزينة والزخرفة.

ولكنّنا لا ندري مقدار الزّخرفة والزّينة التي وصل إليها لمّا وقف العمل فيه.

والغالب على الظنّ أنّ المنصور كان يتحدّى فيها زينة وزخرفة مسجد قرطبة كما تحدّى ضخامته. والدليل على ذلك أنّ أعمدته الرخامية منحوتة مدورة الشكل والهيئة، كأعمدة مسجد قرطبة، بخلاف أعمدة باقي المساجد الأخرى الموحدية المنصورية بمراكش وغيرها، فإنّها كلها مُربّعة.

وهذا مسجد سلا الأعظم من بناء المنصور أيضا. و كان العمل جاريا فيه، وفي مسجد حسّان، ومدينة الرباط في وقت واحد. وهو مخالف في البناء والتصميم وهيئة الأعمدة والأساطين لمسجد حسّان، لأنّها كلها مربعة الشكل، وليس الخبر كالعيان.

وقد استنتج السيد كايّي "Caillé" من أبحاثه الدقيقة في أنقاض مسجد حسّان ومقابلة بقايا ما هو موجود من شظاياها المبعثرة بأمثالها بالمساجد الموحدية الأخرى بمراكش وغيرها، أنّ بعضه أو جُلّه، و خصوصا القسم الوسط منه، كان مُسقّفا بالبرشلة المحكمة الصنع، المتقنة الوضع، على الأقواس والحنايا القائمة على الأساطين والسّواري والجدارات الصحيحة الرّاسخة الأُسُس في جوانبه وأركانه.

ولعلّ هذه هي الحالة التي كان عليها لمّا وقف العمل في إتمام بنائه بسبب وفاة بانيه.

وعلى كل حال فإنّ مسجد حسّان، لو تمّ لكان من أعظم المساجد الإسلامية ضخامة وفخامة؛ و آثاره الباقية تنبىء عن عظمة دولة المنصور و همّته السّامية، و تحدّيه لمن سبقه من الملوك العظام، حسبما تقدّمت الإشارة إليه، فرحم الله المنصور ما أبعد نظره، و أجلّ أثره.

هل عُثر على كتابات تاريخية في أنقاض مسجد حسّان ؟

لمّا بحث الباحثون المختصّون في الزّخرفة والزّينة والتّوريق والتّزويق في شظايا الأعمدة والجبس، والأخشاب التي وُجدت مبعثرة بين أنقاض المسجد، ودرسوا ما وجدوا فيها من أصناف الزينة والنقوش المختلفة على الطريقة الفنّية، وقابلوه بغيره ممّا هو موجود منها بمساجد موحدية أخرى بمراكش وسلا، استخرجوا من دراستها ومقابلتها ما بلغه الفن والتسطير في عهد الموحدين، وأدركوا أنّه كان له طابع خاص به.

ولم يعثروا في هذه الشظايا والأنقاض المبعثرة على أي كتابة مفيدة، إلاّ بعض الحروف الكوفية المقطعة التي لا تدلّ على لفظ مفيد، ولا تتألّف منها جملة مستقلة تدل على معنى مفيد.

ومنها ما أبان عنه الفحص والكشف الذي أُجْريَ سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1914/1331-1915)، وهو حروف مُقطّعة منقوشة على رخام بعض السوارى وتيجانها،

وبعض الجدارات الداخلية للمنار، أو كلمات مفردة، وأسماء متفرقة، غير متناسقة، إمَّا مكتوبة من اليمين إلى اليسار كما هو الشأن في الكتابة العربية، أو من اليسار إلى اليمين، أو من أسفل إلى أعلى، أو مقلوبة، ويُقرأ في بعضها أسماء تامَّة، كعلي، وعبد الله، ومحمد، وجامع، وحروف أخرى منعزلة أو منفردة، كالميم، والعين المُعرَّقة، والعين المطلقة، واللاَّم، والكاف، والميم، والسين، والرَّاء، والصَّاد.....الخ

وقد حاول من كان مُتصديًا للبحث في هذه الأنقاض من الأركيلوجيين الفرنسيين تلفيق بعض الحروف المقطَّعة، لعلَّه يتوفَّق إلى استخراج معانيها، فلفَّق من بعضها كلمة المنصور، وأضافها إلى لفظة جامع، فصارت «جامع المنصور».

وتعقَّب السيد كايِّي "Caillé" [330] في «تاريخه» هذا الاستخراج بأنَّه رُبَّما لا يصحُّ لأنَّ المنصور لقِّب بهذا اللقب بعد معركة الأرك عام اثنين وتسعين وخمسمائة (1195/592). ومسجد حسَّان، وقع الشروع في بنائه قبل ذلك.

قلت : من الممكن أنَّ هذه الكتابة نُقشت على السَّواري وتيجانها بعد الإعلان باللَّقب المذكور، لأنَّ العمل استمرَّ مسترسلا في الجامع ومناره مدة حياة المنصور، إلى أن توفي قبل تمامه.

ورأى آخرون أنَّ تلك الحروف إنَّما نُقشت على الموادِّ البنائية كالرخام والأعمدة والتيجان، تنظيما للخدمة، وتسهيلا على الواقفين على إنجازها في الأوراش البعيدة عن المسجد، ومراقبة العُمَّال والصُّناع ومعرفة منجزاتهم قبل حملها إلى المسجد، لأنَّ الورش كان يُهيَّء فيه مواد بنائية أُخرى، بقصد أبنية أخرى، في محلات أخرى، كالقصور الأميرية، وأبواب المدينة وغيرها، فكُتب عليها لفظ "الجامع" مثلا تمييزا لها من غيرها.

وأمَّا الأسماء التامَّة كمحمد، وعلي، فهي أسماء العملة الذين قاموا بإنجاز العمل في ذلك التاج، أو تلك السارية، لاسيما وقد عُثر على مثل هذا منقوشا على بعض أعمدة مسجديْ القيروان وقرطبة.

وباقي الحروف الأخرى المقطَّعة، إنَّما هي اصطلاح العملة فيما بينهم، ودِلالة على أعمالهم، ولا تتضمَّن شيئا عَنْ بناء المسجد وتاريخ تشييده.

330) «تاريخ حسَّان» لكايِّي، ص 11 والتي من بعدها.

الأبحاث الاركيولوجية التي أُجْريت في مسجد حسّان

لمّا كان مسجد حسّان من الآثار التاريخية الخالدة البارزة في مدينة الرباط، منذ تأسيسها إلى الآن، وحلّ به ما حل من التحطيم والتخريب والإهمال، أثناء القرون المتوالية، والأجيال الدارجة حوله، منذ الشروع في تشييده، وإيقاف العمل في تنجيزه، فقد اهْتمَّ به الباحثون والرسّامون، منذ نحو خمس وستين سنة مضت، فوضعوا له رسوما وتصميمات تقريبية متعددة، في أزمنة مختلفة، أولها، على ما بلغنا، سنة تسعة عشر وثلاثمائة وألف (1902/1319)، قام بها بعض الجالية الأوروبية التي كانت مقيمة بالرباط في ذلك العهد، ولم تكن ذات فائدة كبرى.

ثمَّ في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف (1333/1914-1915)، التفتت الحكومة المغربية إليه، وحاولت ترميم ما بقي من أطلاله العافية الخافية، لتكون عبرة ومثالا للجيل الحاضر والأجيال الآتية، فندبت للقيام بهذا العمل المهم الشاق، جماعة من المهندسين الاختصاصيين في الأبحاث الاركيلوجية، وكلفتهم بجمع أنقاضه المبعثرة، وشظاياه المتناثرة، وبقايا أجزائه المتطايرة، ولَمِّ بعضها إلى بعض، ورَمِّ رِمَمِه البالية وتنسيقها ما أمكن بعد النقض؛ وكانت حالته في نهاية العفاء والخفاء، ولم يبق ظاهرا منه إلاَّ المنار وبعض الجدارات من ورائها نحو العشرين سارية بادية، قائمة راكعة ساجدة، والباقي كله مُكسَّر مُبَعثر، ويحيط بالجميع الكرم والتين والصُّبَّار، يتخلَّلُهَا طرق ضيقة جداًّ، ترتفع وتنخفض بارتفاع الأرض وانخفاضها، بما يجتمع فيها من الطين والوحل ؛ وكانت بعض ساحاته حول المنار محروثة بالقمح والشعير.

فتولَّى البحث الأوَّلي فيه أحد العسكريين، الكولونيل ديولافوا "Dieulafoy " فنتج من بحثه الابتدائي، إظهار هيكل المسجد، وعظم ساحته.

ويُعَدُّ بحثه أول بحث أركيلوجي ابتدائي جرى فيه، واتُّخِذَ أصلا لِمَا أُجْرِي بعد ذلك من الأبحاث، وإنْ كانت وقعت له أغلاط في تفسير بعض النصوص وتطبيقها على الأنقاض المكتشفة.

ووقف العمل فيه إلى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة وألف (1352/1934-1935) فانْتُدِبَ حينئذ للبحث في أنقاضه السيد بوريلي "Borelly" بإعانة الأميرة رياض باشا المصرية، فأصلح بعض الحيطان المتداعية وقوّاها، وأقام بعض الأعمدة المُحطَّمة وصوبَّها، وكشف

عن عدد مُهمٍّ من الآثار والمواد البنائية كالآجر والأحجار المنحوتة، والقرمود، وقطع الأخشاب، والمسامير المستعملة في النجارة، وقطع الجبس المنقوشة، وغير ذلك.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وألف (1363/1943-1944)، اهتمَّت به مصلحة البحث في الآثار التاريخية القديمة بالمغرب، وأجرت فيه أبحاثا جديدة، تحت إشراف السيد طيراس "Terrasse"، وشارك فيها السيد كايّي "Caillé".

وكان موضوع هذه الأبحاث الجديدة، تعيين وضع الصحون، ومجاري المياه الداخلة إليه والخارجة منه وتعيين الأبواب ومواضعها.

وبعد ذلك في سنة ثمان وستين وثلاثمائة وألف (1368/1948)، أُجْري فيه بحث آخر تحت إشراف السيد طيراس أيضا "Terrasse" والمهندس السيد هينو "Hainaut" للكشف عن آثار بعض الأروقة والأقواس المطموسة، بمنتهى الجانب الجنوبي من الناحيتن : الشرقية والغربية، وآثار مُضافاته من جهة المحراب، كالمقصورة وبيوت الموظفين والقَوَمَة.

وقد كانت هذه الأبحاث الأخيرة أقرب الأبحاث التي أُجْريت فيه قبل ذلك لمطابقة الحقيقة.

لأنَّها كشفت عن جميع ما كان بقي تحت الرَّدْم والتُّراب من أنقاضه، وأظهرت ما عفي واختفى من حدوده، و أُسُس ما تهدَّم وتحطَّم وكاد أن يندثر من جدرانه، ونصبت جميع ما عُثِر عليه من أجزاء سواريه وأُسْطوَاناته.

وبمقتضى هذه الاعمال الجدِّية المُهمَّة، أمكن الوصول الى تصوير وتحقيق وضعيته، وتشخيص هيكله وشكله وهيئته.[331]

و بناءً على هذا البحث الاخير، والدراسة الأثرية العِلْمية، كتب الاستاذ جاك كايّي "Jacques Caillé" كتابه الخاص في وصفه المُسمَّى "جامع حسّان بالرباط"، وسجَّل فيه جميع النتائج التي استنتجت وتم تطبيقها. وقد اقتبسنا منه جل المعلومات الفنية التي أدرجناها في دراستنا هذه لأنها لم تترجم للغة العربية، ولم نقف عليها في مؤلف من مؤلفاتها، مع تقديرنا لعمله.

وسنبسط في الفصل الآتي وصف هذا المسجد، ونشخص للقارئ عظمته وفخامته حسب الإمكان.

---

331) «مسجد حسّان» لكايّي، ص 25.

المبحث الخامس

وصف مسجد حسّان
وتشخيص عظمته للعيان

كانت نتيجة الأبحاث الأركيولوجية التي أُجريت في مسجد حسّان على يد جماعة من الفنيين والمهندسين الاختصاصيين في الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة، تشخيص عظمته وفخامته للعيان لو تَمَّ بناؤه، وهي كما يلي :

– المساحة :

يشكل مسجد حسّان مساحة مربَّعة الشكل، مستقيمة الزوايا، طولها : 12 183 مترا، وعرضها : 139.32 مترا، و مجموعها : 25.512,2784 من الأمتار المربعة، يعني ما يزيد على هكتارين ونصف.

– القسم الخاص بمسجد الصلاة :

ويشغل القسم الخاصّ بمسجد الصلاة من هذه المساحة، ثلاثة أرباعها.

والباقي مُقسَّم بين الصُّحون الثلاثة كما سياتي بيانه في محله.

ومسجد الصلاة ينقسم إلى قسمين :

الأول : قسم الأروقة الثلاثة المُمتدَّة أمام جدار القِبلة والمحراب، وعرض كل رواق منها: سبعة أمتار ونصف.

والثاني : باقي الأروقة والبلاطات، وعددها تسعة عشر بلاطا، تنقسم إلى ثمانية عشر رِواقا طويلا.

– السّواري والأساطين :

وجميع هذه الأروقة والبلاطات محمولة على أربعمائة (400) سارية واسطوانة، منها ثلاثمائة (300) سارية وساريتين (2) من الرخام الأشهب والأزرق، والباقي من الحجر المنحوت.

– السُّقوف :

وجُلُّ هذه الأروقة والبلاطات، كان مسقفا بالبرشلة الرَّفيعة المتقنة الصُّنْع، المُحْكَمة الوضع، المحمولة على الأساطين والجدرات الصَّحيحة القائمة في جوانبه وأركانه.

– الأبواب :

تبيَّن من البحث أنه كان له ستة عشر (16) بابا شاهقا فارها شارعا الى داخله، ويتوصل إليها من الشارع بعدة درج.

أربعة (4) منها في الواجهة الشمالية، وأربعة (4) في الواجهة الشرقية، واثنان (2) في الواجهة الجنوبية، وستة (6) في الواجهة الغربية.

ولا شك أن هذه الأبواب كانت في هيئتها وشكلها وفخامتها كغيرها من أبواب المساجد الأُخرى الموحدية بمراكش وسلا.

– المِحْراب :

أمَّا المحراب، – فإنه وإنْ كانت الحالة التي وجد عليها من التَّهديم والتَّحطيم، لا تعطي صورة حقيقية عن هيأته وشكله – فالراجح أنه كان شبيها بمحاريب المساجد الموحدية التي بُنيت في عصره أو قريب منه، كمحراب تينمل، والكتبية، وجامع القصبة المراكشية.

ولعلَّه كان مزخرفا بمثل الزخاريف والزينة المُحلاَّة بها هذه المحاريب المطبوعة بالطابع الموحدي، والفنِّ المعماري الذي كان شائعا في ذلك العصر.

وقد أثبت البحث الأخير أن سعة بابه كانت : مترين وثمانين سانتيمترا (2,80)، وعُلُوُّه ثلاثة أمتار وتسع سانتيمترات 3,9، وعُمْقه ثلاثة أمتار (3)، وشكله الداخلي قريب من التربيع، بخلاف ما هو معهود في غيره من مساجد المغرب، وفي قبلته انحراف نحو الغرب.

– مُلحقات المسجد :

لعلَّ ملحقات المسجد كبيت المنبر، ومقصورة الخطيب والإمام، وخزانة الكتب، وبيت الأموات [332]... الخ كانت عن يمين وشمال المحراب، ولم يُعثر لها على أثر فيما اكْتُشف من آثار المسجد حتى الآن. و إنْ كان شينيِّي "Chénier" تحدَّث عنها في تاريخه فقال : [333]

"كان بجهة واجهته الشرقية بيوت ومساكن السَّدَنَة والقَوَمَة والخَدَمَة والموظَّفين".

فربَّما تكون تهدَّمت واضمحلَّت، ولم يبق لها أثر بعده.

و ربَّما تكون، لمَّا وقف العمل في بناء المسجد بمجرد وفاة المنصور، لازالت لم تُشيَّد وراء الناحية الموالية للواجهة الشرقية، كما قال شينيي (Chénier).

ويُؤيِّد هذا، أنَّه لمَّا قامت السلطة العسكرية بالرباط أثناء الحرب العالمية الكبرى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف (1943/1362)، بحفر خنادق على بُعْد نحو عشرين مترا من جدار قبلة المسجد، لوقاية سُكَّان حي حسَّان من الغارات الجوية التي كانت متوقَّعة، لم تعثر على أيِّ بناء أو أُسس قديمة بتلك الخنادق من وراء المحراب، وكان يُظنُّ أنه بمحلِّها كانت مُلحقات المسجد المذكورة.

وكذلك لم يُعثر على شيء منها في الحفر والتنقيب الذي أُجْري سنة ثمان وستين وثلاثمائة وألف (1948/1368)، وإنَّما عثر على بعض الأحجار والآجر المُكَدَّس.

– السُّطوح :

كانت سطوح المسجد مُزيَّنة من الخارج من جهاتها الأربع، بإفريز مُقَرْمَد مُسَنَّن كهيئة المنشار، على شكل جامع القصبة المرَّاكشية.

– أرض المسجد :

وكانت أرضه غير مُجصَّصة ولا مُرخَّمة، إلاَّ في قطعة صغيرة حول المحراب، كما هي العادة الجارية المعمول بها في جُلِّ مساجد المغرب، وخصوصا الموحدية منها، ومسجد سلا

---

332) «مسجد حسَّان» لكايِّي ص 85-86

333) ص 29، من ج 3.

الموحدي كذلك، لأنَّ السنَّة فرش المساجد بالحصباء والرَّمل، والمسجد الحرام بمكة كذلك. وقد كان مسجد رسول الله ص في أول عهده مفروشا بالحصى.

أخرج أبو داوود في «سُنَنِه»، عن أبي الوليد، عبد الله بن الحارث البصري التابعي قال :

"سألتُ ابن عمر عن الحصى الذي في المسجد فقال : مُطرنا ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلّة، فجعل الرجل يأتي بالحصى في ثوبه فيبسطه تحته، فلمَّا قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلَّم الصلاة قال : ما أحسن هذا !".

وورد في الحديث، أنَّ الحصى لتناشد الذي يخرجها من المسجد..... اهـ.

– الصَّحون :

تبيَّن من الأبحاث المتعدِّدة التي أُجريت في أنقاض مسجد حسّان، أنَّه كان به ثلاثة صحون، منها :

– الصَّحن الذي بالواجهة الشَّرقية، وطوله : تسع وأربعون مترا وخمس وثمانون سانتيمترا(49،85)، وعرضه : سبعة عشر مترا وثمانون سانتيمترا (17,80).

– والصَّحن المقابل له بالواجهة الغربية، وطوله وعرضه كطول وعرض الصحن الآخر.

ويحيط بهما من جهاتهما الأربع، أساطين من الآجُرِ والطوب.

ومن هذه الصحون تمتدُّ مجاري المياه التي تجتمع فيها نحو الناحية الشمالية كما سياتي بيانه.

أما الصَّحن الكبير، وهو الذي بشمال المسجد أسفل المنار، وتُقدَّر مساحته بنحو ربع مساحة المسجد كله، فطوله مائة وتسع وثلاثون مترا واثنان وثلاثون سانتيمترا(139،32)، وعرضه ثلاث وأربعون مترا وثلاثة عشر سانتيمترا(43،13).

وبوسطه كان خزَّان الماء (النطفية الكبيرة) المُعدَّة لجمع مياه الأمطار، للاستمتاع بها عند الاحتياج إليها.

– النُّطْفيات :

يوجد في وسط هذا الصَّحْنِ الكبير أسفل المنار، خندق واسع طوله : ثمان وستون مترا وثمان وتسعون سانتيمترا (68.98)، و عرضه ثمان وعشرون مترا وخمس عشرة سانتيمترا (28,15)، وعمقه خمسة متار وعشر سانتيمترات (5،10).

ويحده من جهاته الأربع جدار مبني بالصَّخر سمكه متران وخمس وستون سانتيمترا (2,65).

وقد قُسِّم هذا الخندق الواسع بواسطة جدرات أخرى ممتدَّة من الجهة الجنوبية إلى الجهة الشمالية.

ومنها تكوَّن أحد عشر خزاناً للماء (نطفية) يتراوح طول كل واحد منها ما بين خمسة عشر مترا وخمسة وسبعين سانتيمترا (15,75)، واثنى عشر مترا وواحد وثمانين سانتيمترا (12,81).

وهي شبيهة بنطفيات المساجد الموحدية بمسجد تينمل، ومسجد القصبة، ومسجد الكتبية بمراكش، والمسجد الأعظم بسلا.

و لعل مياه الأمطار التي كانت ستجتمع في هذه النطفيات، بواسطة القنوات التي عُثر على أثرها، هي التي كانت مُعدَّة للاستعمال في الطهارة بالمسجد، وفي ضرورياته، لأنه لم يُعثر إلى حدٍّ الآن على أثر ساقية أو مجرى موصلٍ ماء عين غبولة أو ماء غيرها إليه.

والغالب على الظن أنَّ هذه النطفيات كانت مُتَّصلة بعضها ببعض إذا امْتَلَأتْ بالماء بواسطة ساقية أو قناة خاصَّة بها.

قنوات المياه بمسجد حسّان

لمَّا كان هذا المسجد من الأهمية والعظمة بالمكان المعروف، ومُعداً لاجتماع آلاف المسلمين من الجيوش القارَّة والمارَّة بمدينة الرباط، وإقامة شعائرهم الدينية فيه، فقد اهتمَّ منشئه بإيجاد المياه الكافية بداخله، لتوقُّف العادة والعبادة عليها، كما هو الشأن في مساجد كل قطر من الأقطار والأمصار الإسلامية شرقا وغربا.

ولعلَّه حاول إيصال ماء عين غبولة التي كان فجَّر ينابيعها جدُّه عبد المومن بالقصبة كما تقدَّم، فلم يتيسر له ذلك، لأنه لم يُعثر على أيِّ مجرى منها إليه فيما اكْتُشف من آثار مجاريها بالرباط حتى الآن.

ولذلك أنشأ به مخازن المياه (النطفيات) التي تقدَّم ذكرها في الفصل السابق لاجتماع مياه الأمطار فيها، واتُّخذ لها بصحونه وسائر أروقته وسطوحه القنوات والمجاري الجالية

للماء النقي الطّاهر، والدّافعة للمتغير المستعمل. وقد كشف عنها الباحثون في آثاره الظاهرة والخفية، فعثروا على بعضها وتبيّن لهم من دراستها أنّها لم يتم إنجازها، واتصال بعضها ببعض، لأنّ المسجد لم يتم بناؤه[334].

الأسوار التي كانت محيطة بمسجد حسان :[335]

كان يحيط بمسجد حسّان في عهده الأول، قبل خرابه، أسوار خارجية حصينة متينة، على بُعْدٍ متفاوت من جهاته الأربع، تفصله عن مدينة الرباط، وتجعله مستقلا بذاته.

قالوا : و هذه الأسوار، اختصّ بها مسجد حسّان من بين سائر مساجد المغرب؛ ولا نظير لها إلاّ في مسجد سامَرّا، ومسجد أبي دُلف بها، ومسجد ابن طولون بالقاهرة.

وكان علُوُّ هذه الأسوار، يختلف ارتفاعه وانخفاضه بحسب ارتفاع الأرض التي بنيت بها وانخفاضها.

ويتخلّلها عدد كبير من البيوت الصغيرة، زعم ديولافوا "Dieulafoy" أنّها كانت شبْه بيوت مدرسية ربّما كانت مُعدّة لسكنى من سياوي إلى هذا المسجد من طلبة العلم لمتابعة الدروس فيه.

وقال شينيي "Chénier" في تاريخه :[336] إنّها كانت مُعدّة لسكنى بعض الموظفين الملازمين له، والناظرين في مصالحه.

كما كانت فيها أبراج وحصون زادت منظرها هيبة وجلالا. وقد تهدمت هذه الأسوار، ولم يبق منها إلاّ أطلال عافية تدلّ على أهميتها وفخامتها، وخصوصا بالجهة الجنوبية، وبُنِيَ بمحلّها اليوم عدّة ڤيلاّت تحيط بها البساتين الصغيرة.

ولم يبق منها بالجهة الشرقية إلاّ بعض الآثار شاخصة فوق سطح الأرض. وكذلك بالجهة الشمالية، لم يبق منها إلاّ أثر ضئيل جداً. ومن جهة الغرب كادت أنْ تضمحل.

وفي سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة والف (1933/1352) رمّمت بعضها مصلحة المحافظة على الآثار القديمة بالمغرب وخصوصا بناحية المنار.

---

334) «مسجد حسّان» لكايّي "Caillé" ص 75 والتي بعدها.

335) نفس المصدر ص 92.

336) «تاريخ» شينيي "chénier"، ص 29 من ج 3.

وكانت واجهة المسجد الجنوبية بما اكتنفها من هذه الأسوار والحصون، لها منظر جاف مرهب، وليس فيها كوة ولا زخرفة، وشبَّهوها في ذلك بمسجد قرطبة.

وكان في جهته الشمالية أربعة أبراج، إثنان في طرفْيها، وإثنان مُتَّصلان بالمنار.

وبعبارة جامعة، فقد كان هذا المسجد كأنَّه حصن من الحصون، أو قلعة من القلاع، لأنَّه بُني للجيش والعسكر، ولمقصد حربي، بمدينة حربية في ذلك العهد، وهي مدينة رباط الفتح.

ويُلاحظ فيه، وفي جميع ما تقدَّم من أوصافه، واستقراء ما عُثر عليه من بقايا أنقاضه، الفنّ المعماري الأندلسي، المستعمل في المشاهد الكبرى، والحصون والقلاع الأندلسية والمغربية، مِمَّا يدلُّ على أنَّ المنصور، رحمه الله، كان يعمل على توحيده بالأندلس والمغرب، وإبرازه في حلة واحدة، وهيأة متناسقة متَّحدة.

عظمة مسجد حسّان وفخامته

تبيَّن لنا ممَّا استعرضناه وشخَّصناه من أوصاف مسجد حسّان، المستنتجة من الأبحاث الأركيولوجية، والدراسات العلمية، المطابقة لما أسفر عنه الحفر والتنقيب في فِنائه الواسع، وما اكتُشف من شظايا وبقايا أجزائه الضائعة أنَّه لو تمَّ لَعُدَّ أكبر وأفسح وأوسع مسجد من المساجد الإسلامية المشهورة.

وقد وصفه المراكشي في «معجبه»[337] بأنَّه مسجد عظيم كبير المساحة، واسع الفِناء وقال :

"لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه...".

وهو في الحقيقة كذلك، أوسع رُقْعة من مسجد قرطبة، ومن الأزهر، والقرويين، ومسجد الكتبية، ومسجد سلا، وغيرها من المساجد المشهورة الأخرى.

وقد شبَّهه ابن بطوطة بمسجد بَلْخ، وقابل بينهما فقال:[338]

337) ص 109 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

338) ص 231، طبع وادي النيل.

«مسجد بلخ أحسن مساجد الدنيا، وأفسحها. ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه. ومسجد بلخ أجمل منه...».

وإلى هذا يشير ابو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه : «اتحاف اشراف الملا» بقوله :(339)

وَمَا حَوَى مَسْجِدُهَا الرِّبَاطِي	مِنْ اعْتِلاَءٍ زَائِدِ اشْتِطَاطِ
وَهَيْكَلِ الْمَنَارِ وَهْوَ أَعْجَبُ	واسْتَغْرَبَتْ هَيْأَةَ دَيْنِ الكُتُبُ
قَالَ مُؤَلِّفُ كِتَابِ المُعْجِبِ	لَمْ أَرَ مِثْلَهُ بِأَرْضِ الْمَغْرِبِ
وَقَالَ تَاجُ الدِّينِ في رِحْلَتِهِ	لَمْ أَرَ فِي كُلِّ الدُّنَا كَنَعْتِهِ
سِوَى الذي بِبَلْخٍ في الْعِرَاقِ	وَذَا وَذَاكَ في انْتِهَا وِفَاقِ

239) ص 11 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

المبحث السّادس

مآل مسجد حسّـــان
بعد وفاة المنصور

إهمال مسجد حسّان
وتركه عُرضة لعوادي الدّهر.

ثبت عندنا ممّا درسناه من أخبار مسجد حسّان، وسجّلناه من النصوص التاريخية، ونتائج الأبحاث العلمية، التي أجريت فيه، أنه لم يتمّ بناؤه، ووقف العمل فيه بعد وفاة بانيه، وأنه كان مشرفا على التّمام، ولكنّه لم يُدشّن، ولم يُفتح للعبادة، ولم تُقم فيه جماعة ولا جمعة، لأنّ الناصر لم يعمل فيه شيئا، ولا من أتى بعده من ملوك الموحدين، حسبما أخبر به المراكشي في المعجب[340].

ولمّا بقي مُهملا، صار عرضة لحوادث الدهر بالتّحطيم والتّخريب، وتسلّط الأيدي العادية عليه حتى كاد أنْ يعفى أثره، ويغيب في ظلام النسيان والفتن والمحن خبره.

والظاهر أنّه لمّا ارتفع العمل فيه، بموت بانيه، أُهْمِلَ شأنه، كغيره من المنشآت الأخرى التي تكون موضوع اهتمام بعض الملوك، فاذا فاتوا أوْ ماتوا لا يلتفت إليها من ياتي بعدهم، لاشتغالهم عنها بغيرها، حسب أغراضهم وشهواتهم، فيتسارع إليها الخراب، ومع طول الأيام، وتعاقب الازمان، تصبح في خبر كان.

ولعلّ ملوك الموحدين بعد المنصور، تقاعسوا عن إتمامه، لاشتغالهم بالاندلس وإفريقية، والحروب المندلعة فيها مع بني غانية، ومع بني مرين بالناحية الفاسية، وما نشأ عنها من تفريق الكلمة، وتطاحنهم على الملك، وصرفهم أموال الدولة في هذه الحروب الداخلية.

340) ص 109 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

«فقلَّ عمران الرباط، الذي ظهر به من المنصور الاغتباط، حيث القصبة والسَّاباط، ووقع منه بنظرة الاعتباط، فاتَّسع الخرق وعظم الاشتطاط، وبعد الكمال يكون الانحطاط»[341].

ولم يقتصر ملوك الموحدين على إهماله وعدم إتمامه، بل كانوا أول من سارع الى تخريبه وطمس معالمه، واستعمال مواده البنائية وأخشابه المختارة في أشياء أخرى كانت تهمهم أكثر منه.

ومن ذلك ما ذكر في «الذخيرة السنية»[342] من أنَّ السعيد الموحدي نقض سنة إحدى وأربعين وستمائة (1243/641) جامع حسّان الذي برباط الفتح، وصنع بخشبه الأجفان الغزوانية، ثمَّ احترقت بوادي أزمور.

وقد جاء بعد الموحدين سلاطين بني مرين، فاشتغلوا بحروبهم معهم، وزادوه إهمالا، ولم يعيروه أدنى التفاتة منهم، مع أنَّهم كانوا يتحدَّوْن الموحدين في تخليد المباني والآثار الدينية. ولكنَّ مدينة الرباط في عهدهم فارقها سُكَّانها، ونزح عنها قُطَّانُهَا، فازداد خرابا، وكاد أنْ يصبح قاعاً يبابا.

وهكذا كانت حالته في عهد الوطاسيين والسعديين.

ولم يزل نِسْيًا منسيا، وسجلاً مطويا، إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الموافق لمنتصف القرن الثامن عشر الميلادي، فذكر ابو عبد الله الضُّعَيِّف الرباطي في مجموعة مقيداته التاريخية[343] في حوادث سنة ثمان وستين ومائة والف (1754/1168 - 1755) أنَّ أهل سلا ورباط الفتح، أنشاءوا سفينة مشتركة بينهم من خشب جامع حسّان، يُقال لها سفينة الكُرَاكْجِيًا، وكانوا يتسبَّبون فيها ...اهـ. أي يستعملونها في الجلب من الخارج، وبعث منتوجات بلادهم إليه.

قلتُ : وقد اقتدوا في فعلهم هذا بما فعله قبلهم السعيد الموحدي كما تقدم أعلاه، نقلاً عن «الذخيرة السنية».

أمَّا الزلزال العظيم الذي وقع في السادس والعشرين من المحرم عام تسعة وستين ومائة والف (26 محرم 01/1169 نونبر 1755)، وهو المعروف بزلزال لشبونة، وارتجَّت منه

341) «مقامات البلدان» لابن الخطيب، ص 105، طبع الاسكندرية.

342) ص 66 و 70، طبع الجزائر.

343) ص 263 من ج 1، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

أرض مكناس والعدوتين : سلا ورباط الفتح، فإنَّه وإنْ كان أحدث خسائر جسيمة بالعدوتين، لأنَّ البحر انحسر إلى أقصاه، ورجع فتجاوز الحدّ الذي يصل إليه عند منتهى الامتلاء والمد، وأهلك خلقا كبيرا، لمْ يُتلف شيئا ممَّا كان قائما في ذلك العهد من بناء مسجد حسّان وأسواره المحيطة بفِنائه، لأنَّ الوثائق التاريخية التي بين أيدينا لم تذكر ذلك ولم تشر اليه.

وقد تعرَّض مرة لحريق شبَّ فيه أو حوله في ذلك العصر، فأباد ما كان بقي من أخشابه وألواحه.

وعثر الباحثون أخيرا في أنقاضه المتلاشية على بقايا هذا الحريق في بعض بقايا الأخشاب، المطمرة تحت التراب، وقطع القرمود المكُلَّسة.

كما عثروا على آجره مستعملا في بناء السور الاندلسي الممتد من باب الأحد إلى برج سيدي مخلوف المُطلِّ على الوادي.

وعثروا عليه أيضا مستعملا في عدة بنايات أخرى حادثة بعد ذلك كجامع مولينة الخرب، وصومعته البارزة بالعرصة التي كانت تسمى بهذا الاسم، وتعرف اليوم بالحديقة المثلثة[344] "Jardin du triangle de vue". ولا يخفى أنَّ جامع مولينة، بُني في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لمَّا أنزل جيش العبيد برباط الفتح.

وقد أخبر بعض من شاهده من الأروبيين، كالقنصل شيني "Chénier"، في حدود سنة سبع وثمانين ومائة والف (1773/1187) أنَّ بعض أروقته كانت ما تزال محفوظة[345].

ويلاحَظ أنَّ بعض الكُتَّاب والمؤرخين الأروبيين أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر الهجريين، الموافقين لأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين، لا يتكلَّمون عن مسجد حسّان إلاّ قليلا.

ومن هذا القليل، القنصل الانجليزي كْري جاكسون "Gray Jackson". فقد أخبر في مؤلفه عن المملكة المغربية في ذلك العصر، بأنه شاهد بمسجد حسّان عددا كبيرا من سواريه الرخامية مبعثرة وبقايا خزان للماء كبير...[346]

واكتفى آخرون بذكر مسجد خرب مُتهدِّم لا غير.

---

344) «مسجد حسان» لكايِّي، ص 19

345) ص 29 من ج 3.

346) ص 99، طبع لوندرة سنة 1224/1809.

والواقع أنّه كان في ذلك العهد لا يمكن المرور من ساحته، لامتلائها بالطّين والوَحَل الذي يجتمع بها في فصول الشتاء، مع ما كان يحيط به من أشجار الكروم، و سياجات الصبّار المشوكة، إلى زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، رحمه الله، فانتهج طريقا من داره بأكدال مارّة عليه، تسهيلا وتقريبا على الناس، فظهر حينئذ أثره، الدّال عليه مناره، وما تحته من الأنقاض المتهدّمة المتراكمة[347].

وفي حدود سنة تسع عشرة وثلاثمائة وألف (1902/1320)، كانت ساحته وما حولها ما تزال مُقسّمة إلى أجنّة مغروسة بالأشجار، يُرى في وسطها بعض الأعمدة الرخامية شاخصة دالّة على ما تحتها من الأنقاض البالية، والآثار العافية.

وقيل إنّ ساحته في ذلك العهد كانت مُجَزّأة قطعا قطعا تحت تصرّف خمس أو ستّة من أُسَرِ سُكّان المدينة، فاشترى منهم بعض الجالية الأوروبية من التُّجّار المقيمين بالرباط قطعتين من أحد صحونه، صيّروهما ملعبا للتّنيس "Tennis"، ومحلاّ للهوهم، فكانوا يجتمعون بهما في أوقات فراغهم وأيام عطلهم[348].

وإثر ذلك زار رباط الفتح الكاتب إيدموند دوتي "Edmond Doutté" ووقف عليه، فوصفه في كتابه المسمّى : «في القبيلة» "En tribu" [349] بأنّ ساحته الواسعة وما اتّصل بها، كلها أجنّة وبساتين تحيط بها سياجات الصبّار والعُلّيْق. وذكر أنّ أسواره وحيطانه العظيمة الفخيمة، وأعمدته وسواريه المبعثرة، منذ عدة قرون، لا زال بعضها قائما ماثلا يقاوم حوادث الدهر وعواصف الجو. وقد شاهد ملعب التنيس الذي اتّخذته الجالية الأروبية بصحن القسم الجنوبي الغربي منه، وقال :

«ان أصوات اللاّعبين واللاّهين من الرجال والنساء والأطفال تُسمع عالية متردّدة في جوانبه وأركانه، متقاطعة بالضحك العالي، عِوضاً عمّا كان يراد به من ترديد أصوات المؤذّنين والموحدين والمصلّين بكلمات توحيد الله وتمجيده».

واستمرّت حالته كذلك إلى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة والف (1905/1323)، وحينئذ عُطّل ملعب التنيس، وتُرك لعدم الأمن خارج أبواب الرباط وأسواره، وما والاها من أرباضه.

وفي أوائل عهد الاحتلال، استُعمل خرابه أيضا في غير ما جُعل له.

---

347) «الاستقصا» ص 234 من ج 4، طبع القاهرة، وص 143 من ج 8 طبع وزارة الثقافة سنة 2001.

348) المجموعة الوصفية التاريخية التي أصدرتها ادارة المعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة بالمغرب سنة 1349/1930، ص 117.

349) ص 398-399.

ومن ذلك أنَّه لمَّا أُحدثت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة والف (1914/1332) دار النَّقاهة العسكرية، التي صارت اليوم مستشفى عقليا يسمَّى «مستشفى الرازي»، أمام زاوية النُّسَّاك، خارج باب فاس، المعروف بباب الخميس، أقيم به سوق أُطلق عليه سوق «الشفقة والإحسان بحسَّان»، خُصِّص دخله للدار المذكورة. فمُهِّدت ساحته بما فيها من الأنقاض المطمورة تحت أطنان التراب، وخُطَّت فيه أربعة شوارع : شارع باريس، وشارع فاس، وشارع الرباط، وشارع أبي رقراق، وأُقيم على جانب كل شارع من هذه الشوارع الأربعة، حوانيت من خشب. ونُصبت في بعضها عِدَّة قياطين ومظلات، خُصِّصت لبيع بعض السِّلع والصنائع المغربية المرغوب فيها بأثمان غالية، ومقاهٍ لبيع الاشربة للزائرين والمتفرِّجين بأثمان غير اعتيادية، وتصدَّى لخدمتهم، وتقديم ما يطلبونه إليهم، نساء الجالية الفرنسية في أحسن زي وأكمل زينة. كما تصدَّى لبيع السِّلع المعروضة بعض أعيان التجَّار المغاربة، وذوي الوجاهة منهم، وأُقيم في أركان المسجد أجواق الموسيقى الأندلسية والفرنسية، تشنف الأسماع بما تُلحِّنه من الطباع، وصال وجال، بين أطلال أروقته وأعمدته الشاخصة، كل راقص وراقصة، ويُقال إنَّه اجتمع فيه مال كثير، خُصِّص للدار المذكورة.

مسجد حسَّان
والملك محمَّد الخامس

علمنا مما تقدَّم حالة مسجد حسَّان، وما تقلَّب فيه من الأطوار، منذ تخطيطه، والشروع في تشييده، وأنَّه لم يتم بناؤه، وما ءال إليه أمره بعد وفاة المنصور، أثناء الدول المتعاقبة، والأجيال المتناسخة، والسياسة المتناقضة المتضاربة الى أنْ خَرِبَ وكاد يعفى أثره، ويغيب في ظلام الإهمال والنسيان خبره، وما أُجري من الابحاث الاولَية، في أنقاضه المحطَّمة البالية، في عهد الدولة اليوسفية، وأنَّها استُؤْنِفَتْ بجِدّ واجتهاد في عهد الدولة المحمدية.

وقد كان هذا العهد بالنِّسبة للمسجد المذكور، عهد البعث والنَّشر، والبروز لعالم الظهور، بعد الاختفاء والستر، فخرجت أجزاؤه من أجداثها، واستيقظت رِمَمُهُ بعد النَّوْم الطويل من سُباتها، وربَّما كان في ذلك إشارة خفية إلى أنَّه هو الذي سيدشنه، ويصدع بكلمة الحق من فوق منبره ويعلنه، ويُحْتفل فيه بمأتمه، يوم يفوز برضوان الله ونعمه، ويكون سببا لاستيناف عمل المنصور، لمَّا يُشَيَّد له به الضريح المشهور، والبيت المعمور، ولله عاقبة الامور. وتضاف الى تاريخه بسبب ذلك صفحات، فيها للفنّ المعماري بالمغرب آيات بينات، وهو ماسنراه في الفصول الآتية.

نزول خيل زعير بساحة حسّان
إبّـان الأزمـة المغـربيـة

لمّا اشتدّت الأزمة المغربية التي ترتّب عليها الاعتداء على شخص جلالة الملك المقدس، أبي عبد الله، محمد الخامس، اتّخذت السلطة الحاكمة بأمرها في المغرب في ذلك العهد ساحة مسجد حسّان ميداناً لمرابطة خيالة قبيلة زعير، الذين أُمروا أو أُرغموا على المجيئ مهدِّدين للعدوتين الرباطية السلاوية، ومحاصرين القصر الملكي، في شهر ذي الحجة عام اثنين وسبعين وثلاثمائة والف الموافق لغشت سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة والف (ذي الحجة 1372/غشت 1953). وسنرى ردَّ فعل هذه المظاهرة فيما سياتي بعده.

تدشين الملك محمَّد الخامس مسجد
حسّـان بإقامـة شعيـرة الجمعـة بـه

لمَّا رجع جلالة الملك، أبي عبد الله، محمد الخامس، رحمه الله، الى ملكه مؤزّراً منصورا بعد الأزمة الشديدة والامتحان الكبير، واستأنف من جديد أعماله السياسية والدينية بالمغرب، مرفوع الرّأس، موفور الكرامة، إحتفل يوم الجمعة السادس والعشرين من رجب عام خمسة وسبعين وثلاثمائة والف، الموافق لتاسع مارس سنة ست وخمسين وتسعمائة والف (26 رجب 1375/9 مارس 1956)، بإقامة شعيرة الجمعة بمسجد حسّان، فنُظِّف وهُيِّئ وفُرش بالحُصُر والزَّرابي الوطنية، ونزل إليه من قصره العامر في أُبَّهته المخزنية، يحيط به الحرس الملكي والحاشية، وتولَّى بنفسه القيام بالخطبة والإمامة، بعد أن صَدَعَ المؤذِّنون بكلمة التوحيد من أعلى مناره. وكانت أول صلاة أُقيمت في رحابه، بعد أن مرَّت نحو ثمانمائة سنة على الشروع في تشييده، وكتب الله له أنْ قام بتدشينه واستعماله فيما جُعل له من ترديد أصوات المؤذنين والموحدين والمصلِّين بكلمات توحيد الله وتمجيده، بدلاً من أصوات اللاعبين واللاهين من أصحاب التنيس وغيره.

وكان في ذلك ردُّ فعل لمرابطة خيل قبيلة زعير بفِنائه.

ولا بأس أن نُثبت هنا نصَّ الخُطبة التي ألقاها من أعلا منبره، بإزاء محرابه، لأنَّها وثيقة دينية وتاريخية معا، قال رحمه الله :

خطبة الجمعة التي خطب بها الملك محمَّد الخامس بمسجد حسَّان[350]

الحمد لله مفضِّل الإسلام ، بالمزايا العظام، والمآثر الجسام، جاعل المسلمين إخوانا، وأحباء وأعوانا.

أحمده شاكرا، وأثوب اليه مستغفرا. وأشهد أنَّ الله المبدء المعيد، الفعَّال لما يريد، بيده الأمر، وهو على كل شيء شهيد.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، ومختاره من خلقه وخليله، أرسله ﴿بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون﴾. صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه الذين آوَوْه، وآووا إليه، وعزَّروه ونصروه، واتَّبعوا أحسن ما أُنْزل عليه، ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

أمَّا بعد، من يطيع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله، فإنَّه لا يضرُّ إلاَّ نفسه، ولا يضُرُّ الله شيئا.

أيها الناس. إنَّ الله أنعم عليكم بدين الإسلام، فبعُرْوته الوُثقى تمسَّكوا، وأسعدكم بمحمد عليه السلام، فسبيل ملَّته اسلكوا. أُسلكوا سبيل الرسول المستقيم، وانْهجوا نهج دينه القويم، الذي طالما دعا إليه، وبَذَلَ الجهود في الدَّلالة عليه، مستصغرا في سبيل نشره كلَّ أذية، وكلَّ سبَّة فذية. دعا إلى الله أعواما محتسبا صابرا، وأوضح تعاليمه ليالي وأياما حامدا شاكرا، تحفُّه في كل مواقفه العناية الإلاهية، وتُقَوِّيه في كلِّ مراحله العزيمة الإخلاصية، حتى طلع قمر الإيمان فأبدر، وخبا الشِّرك فأدبر، وظهر دين الله وأزهر، وانْبلج الحقُّ واشتهر، وزهق تمويه الباطل واندحر. فتح أعْيُناً عمياء، وأسمع آذاناً صمَّاء. أنقذ الناس من جاهلية جهلاء، وحروب شعواء. وما فتئ صلى الله عليه وسلم معطيا مُثُلَ الإنسانية الكاملة، والأخلاق الفاضلة، سائرا نحو هدفه الأسمى، لا يصدُّه صادٌ، كيفما كانت قوته، ولا يردُّه رادٌ، كيفما كانت شدَّته، الى أن توفي والإيمان منتشر الأعْلاَم، والدين مُمْتَثَل الأحكام، والحقّ باسقة فروعه، والصِّدق عامرة ربوعه، والعدل مفتوحة أبوابه، والجَوْر مقطوعة أسبابه، وتركنا في أمَّة جعلت الاسلام في قلوبها وعقولها وعزائمها، فأخلصت لله الشهادة، وعبدته حق العبادة، وقرأت القرآن تبصرا، وتلته تدبرا، واقتطفت ثمار الحكمة من اشجاره، ورياحين المعرفة من أزهاره، وجعلته

350) «انبعاث أمة»، ص 73، من ج 1.

رائدها في المُهمَّات، ومفزعها في المُلِمَّات، ومصباحها في الظلمات، وسارت في كل حال وحادث مُلِمّ، على تعاليم المنقذ الأعظم، ﷺ، شعارها الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والعدل في الأحكام، وخدمة الصالح العام، رائدها الدعوة الى ضروب الإصلاح، وأسباب الفوز والنجاح، وإنقاذ الإنسانية من مخاليب الغواية العاتية.

أمَّة وما أعظمها من أمَّة، يتراحم أبناؤها ويتعاطفون، للضعفاء يساعدون، ولحال البؤساء يرقُّون، عن الضَّرر يتباعدون، وعلى الخير يتكتَّلون، وأمام الحقّ يخضعون. نبذوا أغراضهم، وبذلوا في المصالح أموالهم، واتَّقوْا في كل الأحوال ربهم، ﴿وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾. نشروا في الأرض رحمة وعدلا، وشملوها نعمة وفضلا، ومَحَوْا منها ضلالا وجهلا، عاملوا بالإحسان الجميل، والتَّسامح الجزيل، والمساواة والعمل، والحلم والفضل، والأخوة البشرية، والرحمة الانسانية، فكوَّنوا بهذه العوامل النبيلة، والأخلاق الجميلة، من البعداء أصدقاء، وقادة نزهاء، وعلماء حرصاء، وحكماء أجلاَّء.

وبهذه العوامل الرشيدة، والمناهج الحميدة، استطاعت هذه الأمة أنْ تعيش في رفاهية وسعادة وطمأنينة، وأنْ تُكَوِّنَ للوجود مَدَنِيَةً عظيمة باهرة، ونماذج للسلام والأخوة والخير زاهرة، بقيت مع الزمان ماثلة للعيان.

وهكذا عاشت الأمة العربية الإسلامية مثالا من المُثُل العليا الإنسانية، زهرة من زهور الحضارة والمدنية.

حنانَيْكَ يا أبا القاسم، لقد جئت مؤاخيا، ناصحا هاديا، داعيا الى التَّوادد والتَّحابب والتَّعاضد، والتَّآلف والتَّساند، وكونت أمَّة صورتها الصادقة صورة رجال أحرار، غير مقيَّدين بعقال، يفنون أشخاصهم وأموالهم، في سبيل دينهم وبلادهم، لا يعرفون إلاَّ الواجب، وأداء الحق اللاَّزم، والتنافس في تحضير البلاد، وترقية العباد، والسير بالأفراد والجماعات الى كلِّ ما يضمن السعادة والهناء، والأمان والرخاء، لا يتركون للفتنة مجالا، ولا يَدَعُون للمغرضين عملا، عالمين بأنَّ الأمَّة إذا كثُر اختلافها، وتباينت أغراضها، أبطأ إثمار أعمالها، وانحلَّت عُرى عزائمها، فَصلَوا بعزيمتهم حبال المفسدين، وفصموا بصراحتهم ظهور الدجالين، ووقفوا في وجْه كل شيطان مارد، وكل فتَّان معاند، فصرخوا فوق الرؤوس بقول الله سبحانه : ﴿إن الله، لا يصلح عمل المفسدين﴾. ﴿ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمان نُقَيِّضْ له شيطانا فهو له قرين﴾. ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾. ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا باهله﴾.

في الصحيحين عن حُذَيْفَة بن اليمان، رضي الله عنه، قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخيْر، وكنتُ أساله عن الشر، مخافة أنْ يورطني، فقلت : يا رسول الله إنَّا كنَّا

في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخيْر، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم. قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخْل. قلت : وما دخله ؟ قال : قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر. فقلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دُعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت : يارسول الله، صِفْهُمْ لنا. قال : هم من جِلْدَتِنا ويتكلّمون بألسنتنا. قلت يارسول الله، بماذا تامرني إنْ أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

وفّق الله الجميع للعمل بالقرآن المبين، وبحديث نبي الهداية والرحمة، وغفر لي ولكم ولجميع المسلمين، آمين.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي وسع كرمه، وعمّت العوالم نعمه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بحر النّدى، وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى.

وقد اخترنا هذا اليوم المبارك يوم الجمعة عيد المومنين، لنُقيم مهرجانا لنصحكم في هذا المقام، الذي أُسِّس على التقوى، ليُذكر فيه اسم الله وتُقام فيه شعائره، أسّسه ملك مغربي، فاتح من عُظماء الإسلام الذين رفعوا رايته مُبشّرين بمبادئه، فجمع بين إعلاء كلمة الدين، وبين نشر حضارته، لتشهد الدّهور بعظمته، وعُلُوّ عبقريته، وقُوّة إيمانه.

وإذا صحّ أنّ أُمنية رافع أعمدة هذا المسجد العظيم لم يُقدّر لها أنْ تتِمّ، لتوقُّف الإنشاء والبناء، فلم تقم فيه صلاة، ولم يجتمع فيه للمسلمين حفل، فها نحن اليوم، بعد تَصرّم قرون، نقيم فيه الصلاة، ونذكر الله ونشكره ونستغفره، ونستزيده من فضله ونستلهمه. وإنّ ذكر عظمة ذلك العصر الزاهر، لتُظلّنا الآن ظِلاً روحيا، أبقى وأخلد من سقف يُطَعّمُ بعاج، أوْ تُقام عمده على صفائح وتراب.

فاحمدوا الله كثيرا على ما أنعم وتفضّل به وتكرّم من استقلال البلاد، فأشرقت الأرض بنور ربها، وابتهجت النفوس بعد كدرها. وقد شاءت الحكمة الإلاهية، أنْ تجعل بعد كل ضيق مخرجا، وبعد كل هم فرجا، وتكافئ العاملين، المجتهدين المخلصين، بتحقيق أمانيهم، وتصديق عزائمهم، وما كان ربك ليضيع عمل المخلصين.

أيها الناس إنّ خير ما نستعين به في المرحلة الإنشائية التي نحن منها على الأبواب، التشبث بتقاليدنا، وهي وشيجة تجمعنا بإخواننا من الدول العربية والإسلامية، وقد متّن

عُراها التأييد الفعَّال الذي أبدوْه نحو قضيتنا، والجهد النَّاجِع الذي واصلوه في سبيلنا، فلهم منَّا تحية الأخ لأخيه، وإنَّ ممَّا يفعمُنا سعادة يقيننا في أنَّهم مغتبطون بما بلغناه، ومترقبون منتظرون ما سنحرز في القريب إن شاء الله، أعان الله إخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأيَّد ملوكهم ورؤساءهم حتى يُتاح لهم أن يُعبِّئوا من مُقوِّماتهم ومَقدراتهم وتُراثهم، ما يحقِّقون به تمكينا جديدا لحضارتهم.

وخفِّف اللَّهم وطأة أهوال المسلمين، وفرِّج كربهم، وأمِّن خوفهم، وأعنهم على النهوض من كَبْوَتهم، وارشد اللَّهم أُمَم الأرض جميعا الى طريق الخير والصلاح، حتى تعيش الإنسانية كلها في هناء وسعادة وسلام.

مولانا، إنَّ في هذا اليوم ساعة لا يُردُّ فيها الدعاء، ولعلَّها والامام يخطب، والسامعون أعينهم تسكب، مادِّين أيديهم للرجاء، فها نحن يا مولانا مَدَدْنا إليك أكف الضارعين، المبتهلين الخاشعين، في أنْ تنظر إلينا بعين رحمتك، التي هي لكل ذنب غطاء. اللَّهم كن لنا عونا فيما إليه ذهبنا وقصدنا. وألهِمنا الشكر على ما غمرتنا به، من نعمتك الكبرى، نعمة الحرية والاستقلال.

واهدنا يا مولانا لطريق الفَوْز بالمحافظة عليها. اللَّهم إنا نضرع إليك بما ضرع به إليك نبيك محمد ﷺ.

فنسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرُّشد.

اللَّهم ألِّف بين قلوبنا، وأصلح ذات بَيْننا، واهدنا سُبُل السلام، ونجِّنا من الظُّلمات إلى النور.

اللَّهم لك أسلمت، وعليك توكَّلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، أعوذ بك من أظلم وأظلم لا إلاه إلاَّ أنت سبحانك.

ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

سبحان ربك رب العِزَّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه ربِّ العالمين.

الإحتفال بالصلاة على جثمان الفقيد الملك
أبي عبد الله محمد الخامس بمسجد حسّان

لمَّا استأثر الله تعالى بروح جلالة الملك المقدس أبي عبد الله محمد الخامس، واختار له ما عنده، بعد ظهر يوم الأحد عاشر رمضان عام ثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق لسادس وعشرين نونبر سنة إحدى وستين وتسعمائة وألف (10 رمضان 16/1380 نونبر 1961)، حُمل جثمانه بعد ظهر يوم الثلاثاء ثاني عشر رمضان الموافق للثامن والعشرين نونبر، (12 رمضان/18 نونبر)، من القصر الملكي إلى مسجد حسان، بقصد الاحتفال بالصلاة عليه في رحابه في موكب رهيب، اجتمع فيه ما يزيد على مليون من البشر، بقصد تشييعه وتوديعه، وأظنُّ أنه لم يجتمع بساحة حسَّان، وبمدينة رباط الفتح ، منذ تأسيسهما جمع كهذا، إلى يومنا هذا.

ولمَّا وصل النَّعش المحمول عليه الجثمان الشريف إلى المسجد، وُضع أمام جدار قبلته، وتقَّدم للصلاة عليه، العلامة الشريف، وزير التاج أبو عبد الله محمد بن العربي العلوي. ثم رجع الموكب بعد الصلاة تتلاحق أمواجه البشرية المتدفِّقة، إلى ضريح جدَّيْه المقدسين أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله، وأبي علي المولى الحسن الأول بالقصر الملكي حيث أُقبر، نوَّر الله ضريحه.

وفي ذلك إشارة إلى أنَّه سيُشيَّد له بمسجد حسّان ضريح خاصّ به، كما سياتي في الفصل الآتي.

ضريح الملك محمد الخامس
بمسجد حسّان

بعد وفاة جلالة الملك المقدس محمد الخامس والصلاة عليه بمسجد حسّان كما تقدَّم، قُّرر جلالة ولده وخلفه من بعده، ملكنا المعظم المحبوب، الحال من رعيته بسويداء القلوب، أبو علي مولانا الحسن الثاني أيَّد الله ملكه، وأجرى في فلك السعادة والتوفيق فلكه، أن يُشيِّد له بمسجد حسّان ضريحا يُنقل إليه، ويُدفن فيه، يكون مشهدا من المشاهد العظيمة المغربية، وأثراً خالدا من آثار الدولة العلوية، في تلك الساحة المباركة الموحدية، تنويهاً بذكره، واعترافا بجلالة قدره، وتنبيها على مكانته بين الملوك العظام من أسلافه الطاهرين، رفع الله مقامهم في عليين.

وفعلا وقع الشروع في العمل منذ عدة سنوات، وشُيّد على طول واجهة القبلة بناحية المحراب القديم.

وينقسم هذا المشهد إلى ثلاثة أقسام :

– القسم الأول :

يشتمل على الضّريح المبارك، وعليه قبّة بديعة الشكل والمنظر، إرتفع سمكها وأحكم وضعها، وأُتقن صنعها.

– والقسم الثاني :

يشتمل على مسجد للصّلاة خاصّ بالرجال وبإزائه مسجد آخر خاصّ بالنساء.

– والقسم الثالث :

يشتمل على متحف خاصّ، ستُعرض فيه آثار جلالة الملك الرّاحل، لتكون عبرة وذكرى لحياته المملوءة بالعمل، يعتبر بها الجيل الحاضر، وتستفيد منها الأجيال الآتية، وتكون مثلا يُقتدى ويُحتذى في الجهاد والصُّمود والثّبات على المبادئ السّامية.

ويُضاف إلى هذه الأقسام ملحقاتها من بيوت ومكاتب الموظّفين والأئمة والمؤذّنين والسَّدَنة والقَوَمة، ومحلاّت الوضوء والطّهارة من أعلى طراز وأرقاه في العصر الحاضر.

وجميع هذه الأقسام مرفوعة على حنايا وأقواس وأساطين وأعمدة بديعة الشّكل جميلة المنظر. وسائر جدراتها محلاة بأنواع الزّينة والزّلّيج الرّفيع، والعمل البديع، الذي لا يوجد له نظير في محلّ آخر.

وجميع أركانها وجوانبها مُلبّسة بالجبس والتّزويق والتّوريق والتّسطير المكْسُو بورق الذهب النُّضار، وأرضها ودرجها وأبوابها مفروشة بالرخام الصّافي المُختار.

وبعبارة جامعة، فقد اشتمل هذا الضريح على أرقى وأرفع وأبدع ما بلغه الفن المعماري من الإتقان والتّحسين والتّزيين في العصر الحاضر. ويكفي أنه تبارى فيه الفنّانون من سائر أطراف المغرب مظهرين عبقريتهم ومسجلين براعتهم. والعمل مازال مستمرا فيه إلى وقت كتابتنا هذه، وفيه مقابلة وتنظير بين الفنّيْن والحضارتين : الموحدية والعلوية، وما تمتاز به كل واحدة منهما. ولم يُغيِّر هذا البناء المُحْدث شيئا من المنظر العامّ في الخارج للمسجد

القديم، وإنما قُبَّة الضريح العالية، تُرى من بعيد شامخة بادية، مقابلة للمنار في الواجهة الشمالية.

وبهذه المناسبة أُجْري إصلاح جديد في آثار المسجد القديم، وُرمِّم وأُصلح ما بقي من جدرانه وسواريه القائمة النائمة، وفُرشت أرضه وصحونه بالكَذَّان الجيِّد المختار المنحوت المجلوب له خصِّيصا من تازا، فتجلَّت من جديد عظمته، وظهرت للعيان ساحته الواسعة ورقعته.

إلحــاق

في عاشر رمضان عام واحد وتسعين وثلاثمائة وألف (10 رمضان 30/1391 أكتوبر 1971) تم بناء الضريح، ونُقل إليه جثمان جلالة المغفور له محمد الخامس، ودشَّنه جلالة ولده، السلطان المولى الحسن الثاني، بإحياء ليلة الحادي عشر منه بالصلاة فيه، وتلاوة القرآن الكريم والأمداح النبوية، والتَّرحم عليه. وأَمَرَ بإقامة الصلوات الخمس فيه، وصلاة الجمعة، وأسند القيام بخطبتها للشيخ أبي عبد الله محمد المكِّي بن اليمني الناصري، وهو الآن من المساجد المعمورة المقصودة برباط الفتح من الزُّوار والسُّواح من سائر الآفاق.

وغاية ما يقال في هذا المقام، هو أنَّ أبا يوسف يعقوب، إنَّما شيَّد مسجد حسان، منذ نحو ثمانمائة عام، ليكون ضريحا مقصودا، ومقاما محمودا، ومشهدا لأحد الملوك العظام، أبي عبد الله محمد بن أبي يعقوب يوسف، قدَّس الله أرواح الجميع في دار السلام، آمين.

المبحث السّابع

أوصاف منار حسّان
ومكانته التاريخية

وصف منار حسّان

مسجد حسّان، كما تقدّم، آثار تاريخي عظيم بالمغرب عموما، وبرباط الفتح خصوصا. ومناره زاده شُهرة وفخرا، وشيوعا وذكرا. تحدّث عنه المؤرخون في مؤلفاتهم، والكُتّاب في سوانح أفكارهم، ورسمه الرسّامون في ألواحهم، وهو بشبحه الماثل، كأنه إعلان، عن وجود مسجد حسّان. يلفت نظر السُّوّاح والزُّوار من بعيد، فَيَتَشَوَّفُونَ إلى الوقوف عليه، وعلى المسجد الذي شُيِّدَ فيه. وقد أشار إلى ذلك صاحب «الاستبصار» لمّا تكلّم على مدينة الرباط بقوله :

«وهذه المدينة شَرَّفَهَا هذا الأمر العزيز وكَرَّمَهَا بما أحدثه فيها من المباني الرفيعة. والمنارة البديعة...»[351].

وقال ابن الخطيب في «مقامات البلدان» :[352]

«وَطَلَلُ حسّان، المثل في الاشتهار...».

وأشار له أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «إتحاق أشراف الملا» بقوله :[353]

---

351) ص 141، طبع الإسكندرية.

352) ص 105، طبع الإسكندرية.

353) ص 12، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

.... وَفِي المَنَارِ عِـبْـرَةٌ تَجْـتَـمِـعُ
جَـفَـاءُ طُولٍ وَاتِّسَـاعُ مَـعْـرَجِ وَحُـسْنُ إتْقَـانٍ وَزَهْوُ فُـرَجِ

وقد شُيِّد هذا المنار في الواجهة الشمالية المقابلة للصَّحن الكبير للمسجد، وأمامه خـزّان المـاء أو النُّطْفيَات التي تقدَّم الكلام عليها.

وهو قائم في وسط الجدار الممتدِّ على طول هذه الواجهة، برز نصف عرضه داخل المسجد، والنصف الآخر خارجه على الطريق المطلَّة على الوادي. وبوضعه هذا، صار له منظر فَخِيمٌ، يزيد في عظمة المسجد وأُبَّهته، كأنه برج أو مرقب شامخ. وقد قُلِّدَ فيه بل وفي سائر المنارات الموحدية المغربية، الصوامع والمراصد السُّورية بالشرق الأوسط.

وجرى العمل في المغرب منذ القديم على بناء الصوامع والمآذن مربعة الشكل، ولم يَشُذَّ عنه إلاَّ بعض الصوامع القليلة التي بُنِيَتْ في عهد متأخِّر على شكل مثَمَّن، كصومعة مسجد الشرفاء بوازان، ومسجد مولاي المكي بالرباط، ومسجد بوعزوز بتطوان.

وامتاز منار حسّان بعظم هيكله، وارتفاع سمكه، واستقامة سَمْته، يملأ العين ضخامة وفخامة، أكثر من شقيقتيه بمسجدَيْ الكتبية بمرَّاكش، وإشبيلية بالأندلس.

وكان العمل جاريا في بنائه وتشييده في وقت واحد مع المسجد، إلى أنْ ارتفع عنهما، بموت المنصور قبل تمامه فيهما.

واستُعمل في بنائه نفس المواد المختارة، التي بُني بها المسجد من الطين والحجارة. وكلها صفح وجنادل منحوتة، وضع بعضها فوق بعض، بإحكام، وحسن صنْع والتئام، وتناسق تام.

وتَبَيَّنَ من مُماثلتها تمام المماثلة للصُّخور التي بُني بها منار مسجد قرطبة أنَّ المنصور كان يتحدّاه.

وواجهات هذا المنار الأربع، مزينة بالنقوش والزَّخاريف الرائعة الرائقة، المنحوتة في تلك الصخور الصلداء المتلاحمة.

ونُقِشَ على أحد هذه الواجهات صورة سيفين مُصْلَتَيْنِ، موجهة رؤوسهما إلى العُلو، كما هو بباب الرَّواح وباب العُلو، وهما شعار الموحدين وإعلانهم بالجهاد والدعوة إليه كما تقدّم.

وقد استنتج الباحثون من مقابلة زخرفة منار حسّان بنقوش وزخرفة منار الكتبية، بمراكش، ومنار اشبيلية بالأندلس، وجود بعض المشابهة والمخالفة في الوضع والمشابكة.

ويظهر أنَّ تيجان أعمدة منار حسّان، مقتبَسة من أعمدة مسجد قرطبة، أو منقولة من الأندلس، وكذلك بمسجد الكتبية بمراكش، وبعض الأبواب الكبرى بالرباط، كباب القصبة، وباب الرّواح، وباب، أكْنَاوْ بمراكش.

وعلى كلِّ حال، فإنَّها يوحي بعضُها إلى بعض زخرف الزينة، ويكسوها حُلَلَ الجمال والجلال طوال الأزمنة والدهور، شاهدة بالقوة والتقُّدم بقدَمٍ راسخة في ميدان الحضارة والتّرف والنّعيم والفخر والازدهار.

هذا، وقدا امتازت هذه المنارات الثلاثة : بالرباط ، ومراكش، واشبيلية، - وكلها موحدية - عن غيرها من المنارات الأخرى المغربية، بأنها لا درج لها، وإنما يُرتقى إلى أعلاها، بواسطة عقبة متدرجة في الارتفاع، سهلة المرتقى، دائرة ملْتوية حول العمود الفقري للمنار، وكذلك كانت منارة الإسكندرية في القديم. وعرض عقبة حسّان متران. ويُقدَّر ارتفاعها التدريجي بنحو واحد وعشرين في المائة، تتخلَّلها عدَّة غرف مقبوة بعضها فوق بعض. وفُتح أمامها في واجهات المنار الأربع عدة طاقات مُقوَّسة، يدخل منها ضوء الشمس والهواء، وعددها تسعة في الواجهة الشمالية، وثمانية في الواجهتين : الشرقية والغربية، وتسعة في الواجهة الجنوبية. ويمكن أن يصعد فيها الراكب بفرسه، والدّوابُ موقرة بمواد البناء إلى أعلى المنار.

وفي وسط الواجهة الجنوبية مقابلا لخزّان الماء والنّطفيات التي سبق الحديث عنها، فُتح الباب الذي يُصعد منه إلى أعلى المنار، وأمامه أروقة وبلاطات المسجد، وهو بسيط في بنائه بالنسبة لفخامة المنار، وإنما شُيِّد جانباه وقوسُه بالحجر الصّلد المنحوت.

عرض منار حسّان وطوله

يبلغ عرض كل واجهة من واجهات المنار الأربع، ستة عشر مترا واثنى عشر سانتيمترا، (16.12 م)، وارتفاعه الموجود الآن أربع وأربعون مترا وعشرون سانتيمترا : (44.20) من أرض المسجد، وخمسون ميترا وخمسة وخمسون سانتيمترا (50.55) من أرض الطريق الحافَّة بالوادي خارجه.

وحيث كانت القاعدة الحسابية المعروفة عند المهندسين المعْماريين الاقدمين في ارتفاع الصوامع والمنارات شرقا وغربا، هي أن الطول يكون أضعافَ العرض أربع مرَّات، فإنَّ ارتفاعه يكون أربعة أضْعَاف عُرْضه، وهو معنى قولهم : "طوله في عرضه". وذلك بدون اعتبار البناء الزّائد أعلاه، المعروف عند العامَّة بالمغرب "بِالْعَزْرِي"، المُعَدّ لنشر العلم الأبيض

والأزرق، إعلاما بدخول وقت الصلاة نهارا، ومصباح النور إعلاما بدخوله ليلا، المحدثين سنة تسع وأربعين وسبعمائة (1348/749) بأمر من السلطان أبي عنان المريني رحمه الله.

وممَّا قيل في ذلك :

نُورٌ بِهِ عَلَمُ الإِيمَانِ مُرْتَفِعٌ ... لِلْمُهْتَدِينَ بِهِ لِلْحَقِّ إِرْشَادُ
يأْتُونَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ نَحْوَهُ فَلَهُمْ ... لَدَيْهِ لِلرُّشْدِ إِصْدَارٌ وإِيرَادُ[354]

وكذلك الصَّوامع الكبرى الآخرى الموحدية بالمغرب والأندلس جرى العمل فيها على مقتضى هذه القاعدة الحسابية الهندسية، فصومعة إشبيلية وصومعة الكتبية طولهما أضعاف عرضهما أربع مرات، بدون اعتبار البناء الأعلى الخاص بالعلم والضوء نهارا وليلا.

وعليه، فإنَّ منار حسَّان، لو تمَّ لبلغ طوله نحو أربع وستين مترا (64 م) من سطح أرض المسجد، أو ما يزيد على ثمانين مترا (80 م)، باعتبار البناء النهائي المعد للعلم والضوء ؛ وبهذا الارتفاع يكون معدودا حينئذ أعلى منار في المغرب، كأن الأعشى عناه بقوله :

يُوازِي كُبَيْداءَ السَّمَاءِ وَدُونَهُ ... مِلَاطٌ وَدَارَاتٌ وَكِلْسٌ وَخَنْدَقُ

وقال عُدَي بن زيد العبادي :

شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْـ ... ـسًا فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وُكُورُ

هذا، وقد أذكرني البحث في منارات المغرب، وخصوصا منار حسَّان، ومنار الكتبية، وتطبيق القاعدة الحسابية المذكورة عليهما، رسالة كانت تحت يدي، خاطب بها حامل راية علمي الحساب والهيئة في وقته بسلا، أبو العلاء إدريس بن محمد الجعيدي السلاوي من مراكش، والدنا، مؤرخ المغرب، الشيخ أبا العباس أحمد بن خالد الناصري، جوابا له عن كتاب كان وجَّهه إليه، يتعلق بتحقيق عرض وطول منار الكتبية، وتطبيق القاعدة المذكورة عليها، على الطريقة الفنِّية الهندسية المحْضة، فأردت إدراجها هنا لأهميتها وتعلقها بالموضوع، خشية ضياعها، ولأنها أثر من آثار أحد أعيان سلا وأعلامها، وفيها دلالة على قيمة الأبحاث العلمية الفنِّية التي كانت تروج في ذلك الوسط العلمي في ذلك الوقت، وسُمُوِّ أفكار المشتغلين بها في ذلك العهد.

قال رحمه الله تعالى :[355]

---

354) «الاستقصا»، ص 102 من ج 2، طبع القاهرة وص 195 من ج 4، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

355) وثائق ومستندات أبي العباس الناصري المحفوظة بخزانته بسلا.

رسالة أبي العلاء الجعيدي السّلاوي
المتعلّقـة بطـول منـار الكتبيـة

الحمد لله وحده   وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

أدام الله سعادة سيدنا وسندنا، علاّمة زمانه، وأديب عصره وأوانه، أبي العبّاس سيدي أحمد الناصري.

وسلام عليكم ورحمة الله، عن خير مولانا نصره الله.

وبعد، وصلني كتابك المحترم، ومعه القياس الذي اقترحتم علينا أن نقيس لكم به طول منارة جامع الكتبيين وعرضها ونرده لكم، وأنّك كنت باشرتَ ذلك حيث كنتَ هنا وتركتَه في الدار، وتوقّفت عليه الآن.

فاعلمْ – رعاك الله – أني ذهبت ومعي الرئيس السيد حمدوش وَوَصِيفَنَا في عشية يوم الجمعة السابع والعشرين الماضية، و طلبنا من المكلف بالجامع الصعود للمنار، فقال : لا يأتي الآن، لأنّ أناسا كانوا به ساعتئذ وأخذوا يشربون الاتاي فوق المنار، فمكر بهم العامل، فقلت له مُداعبا : نحلف لك في هذا المسجد على أنّنا لا ننقلُ هذه الصّومعة إلى سلا، وإنْ كان لكاتبه معرفة بحمل الأثقال، وهذا رئيس له معرفة بحيلة جرِّها على وجه الارض، فانبسط لذلك.

ثمّ أخرجت الأصطرلاب، ولا زلت أَبْعُد عن الصومعة حتى وصلت إلى الباب المتّصل بعرصة دار مولاي علي رحمه الله، فوضعت العضّادة على ارتفاع خمس وأربعين درجة، ثم أخذت ارتفاع الكَرْدُون الذي عليه شراريف المنار، وأنا أتقدّم وأتأخّر، والارتفاع على حاله، حتّى حرّرت ارتفاع الكَرْدُون المذكور، وكانت معي قَنَّبَةٌ طويلة. قلت للرئيس : ضَعْ رأسها بمحل وقوفي حين الارتفاع على وجه الأرض وسِرْ بِهَا إلى أصل المنار، ففعل. والوصيف ماسك طرف القَنَّبَة بمحلِّ أَخْذ الارتفاع، ثمّ زدنا على ذلك قدر ما من بصري إلى الأرض، حين وقوفي، وفصلنا من القنبة هذا الطول، وقد اجتمع علينا إذ ذاك خلق كثير، فقلت للمكلّف بالمسجد ها نحن أخذنا طول هذا المنار بدون صعود إليه، ولو أرسلنا هذه القَنَّبَة من أعلاه إلى الأرض لتحقّق لنا ذلك، فأقسم أنّه ما منعنا الآن إلاّ للعِلّة التي ذكرها، ولوجود الظُّلْمة إذ ذاك حين الصعود إليها، ووعدنا بأنْ نرجع إليه يوم السبت في الضُّحى ويساعدنا على مُرادنا، لكنْ لم يَتَأَتَّ لنا.

ثمَّ إنَّنا عبرنا عرض المنار بذلك فوجدناه ثلاثة وعشرين منه، فقال المكلَّف : كم يكون في طولها، فقلت : 92، فقال : لا، سيدي، بل في طولها خمسة أمثال العرض، وإنَّ في المنار قالات : 119 وقد حقَّق ذلك غاية، فقلت : إذاً يكون 115 بهذا القياس، وحينئذ لا خلاف بين هذا القياس وبين ماهو مُحرَّر عندك إلاَّ ما يُمكن من التَّفاوت بين هذا القياس، وبين الذي قستُم به قبل. فَسُرَّ بذلك، وتعجَّب من أخذ الطول بهذه الكيفية، وزدته بأنَّنا أخذنا ارتفاع أصل الشرافة، وهو منتهى علو المنار، ومن أخذه قبلنا ربَّما يكون أخذ ارتفاع جَامُور الْعَزْرِي، فيكون طول العزري هو الربع الخامس. فقال: ممكن ذلك.

ولمَّا رجعت بالقنَّبة إلى الدار مسحتها بذلك المقياس فوجدت فيها منه 93.50، فترجَّح عندي أن الطّول مقدار أربعة أمثال العرض.

وهذه القالة ونصف التي خرجت زائدة، سببها أنَّ المحلَّ الذي كنتُ واقفا فيه حين تحرِّى الارتفاع، مرتفع عن أصل المنار ارتفاعا مشاهدا بالحِسّ، فيكون الخطُّ المتوهم خروجه من محل الوقوف إلى الصومعة قائما عليها، وبينهما زاوية قائمة بينه وبين وجه الأرض الذي برز منه أصل المنار مقدار قامة ونصف، والله أعلم.

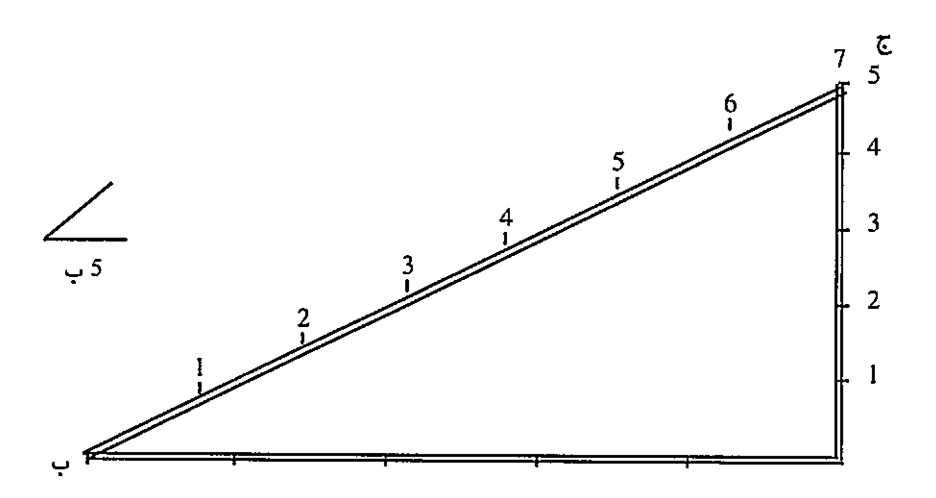
واعلمْ أنَّ هذا الوجه الذي أخذت به الارتفاع هو مُحَرَّرٌ مَعْلُوم عند أرباب الفَنِّ. ولك به معرفة. غير أني أزيد ذلك وضوحا وبيانا فأقول : إذا وضعت العضّادة على ارتفاع 45، وأَخَذْتَ ارتفاع شيء، ينشأ عن ذلك مثلث قائم الزاوية يحيط بها ضلعان متساويان، وقاعدتها، وهو الضلع الثالث، هو الخط المتوهم خروجه من بصر ءاخِذ الارتفاع نافذا من ثُقْبَتَيْ العضّادة منتهيا إلى رأس المرتفع المأخوذ ارتفاعه، وأحد الضِلْعين المتساويين هو الخط المُتَوَهَّم خروجه من بصر ءاخذ الارتفاع المنتهي إلى الشيء المرتفع قائما عليه، والضلْع المساوي له هو طول الشيء المأخوذ ارتفاعه من أعلاه إلى المحلِّ المُسَامِتْ لبصر ءاخذ الارتفاع، فيبقى من طول الشيء المرتفع 19 من الأرض إلى المحل المُسَامِت للبصر، فهذه علَّة زيادة 19 من بصر الإنسان إلى الأرض على الطول المحرَّر، لكن محل هذا إذا كانت الأَرض مُنْبسطة، بحيث يكون سطحها مُوازياً للخطِّ القائم على أصل المنار.

أمَّا إذا كان سطحها منحدرا عنه كصورتها أوْ مرتفعا فيُراعى إعمال ذلك.

واعلمْ أنَّه متى كان ارتفاع الشمس 45 درجة إلاَّ ويكون ظل كل قائم مثله، بشرط الاستواء للقائم، والمحل القائم عليه، فكذلك أخذ ارتفاع شيء والعضّادة محل ارتفاع 45، فيستوي إذ ذاك الظلان : المبسوط والمنكوس. ولَوْ فرضنا أنَّنا أخذنا ارتفاع الشمس 45

شرقيا وغربيا، وكان ظل ذلك المنار إلى الجهة التي أخذنا فيها الارتفاع، لوجدناه منتهيا إلى محل وقوفنا.

والمثلث المرسوم يُمْنته يوضح ذلك :



فخطٌ : (اج) هو القائم على وجه الأرض. وخط : (اب)، هو البعد عنه، وخط : (ب ج)، هو القطر، وهو الخط المُتوَّهم خروجه من بصر ءاخذ الارتفاع منتهيا إلى أعلاه. فإذا جزَّءنا البعد وهو خط : (اب)، لأيٍّ عدد شئنا، وجدنا في خط : (اج)، مثله، ويكون في القطر جذر مجموع مربعيهما، فمربع (اب) 25، ومربع (اج)، مثله، الجميع 50 ، جذره تقريباً 7. وهذا شكل القرطبون عند النَّجَّارة، ومنه يتخذونه، ففيه فساد لا يشعرون به من حيث أنَّ جذر الخمسين من العدد هو أكثر من سبعة، ولا يمكن التعبير عنه أبدا. وإنَّما يُرسم في الخطوط في بيان مقادير الجذور ذوات الأسماء.

قد خرجنا عن الموضوع، ووددْنا أن لو وجدْنا فراغا لعدَّدنا الأمثلة ورسمنا شكل المنار. ولكن فاقْبَلْ ما وُجد، على أنّي لابُدَّ لي بحول الله من الرجوع لجامع الكتبيين، لآخُذ ارتفاع مناره من قمته، إذْ هو مظنَّة اسْتِوَاء سطحه، وأيْضاً فسطح الصَّحن منحدر عن الأرض التي أخذنا منها الارتفاع بنحو قالتين، لأنَّنا ننزلُ إلى المسجد بنحو درج ستة، والله أعلم.

استدراك

وسأرسمُ لسيادتك مثلثا تعرف منه البعد بينك وبين كل مرتفع، وكم في ارتفاعه من غير وصول إلى أصله بحول الله.

والحامل معه القياس، وقد حصل الخلل بما أخذه صانعه من طرفيه من تكسيرهما، فخذ منه الحقَّ على ما ارشدته إليه من التنكيت عليه في حِرْفته، عساه لا يعود لمثل ذلك ... (وفي الرسالة أمور أخرى شخصية لا تتعلق بالموضوع أضربنا عنها ...)

وعلى المحبة والسلام.

في تاسع وعشري صفر عام ثمانية وتسعين ومائتين وألف (29 صفر 1298/30 يناير 1880).

إدريس وفقه الله.

هذا، وقد حرَّر المهندسون والفنِّيون المعاصرون عرض وطول منار جامع الكتبيين فتبيَّن لهم أن عرضه : 12.80 مترا وطوله : 69.50 مترا، باعتبار «العزري» وإلى أعلى عمود الضوء : 77 مترا.

وعليه فإنَّ منار حسان لو تمَّ لكان أطولَ منه، لأن علوه يبلغ 88 مترا باعتبار البناء النهائي المعد لرفع العلم نهارا، ومصباح النور ليلا، كما تقدّم.

رجع إلى بقية أخبار منار حسّان

لم يزل منار حسّان كما تركه بانيه، يوم توقَّف العمل في بنائه صامدا أمام حوادث الدهر العادية، مقاوما نكبات الطبيعة العاتية، إلى أن وقع بالواجهة الغربية منه قرب الزاوية الجنوبية تحطيم وتهديم.

قال كايِّي "Caillé" [356]، نقلا عن أبي العباس أحمد عاشور الرباطي في بعض مقيداته، أنَّه من أثر الزلزال الذي ارتجَّت له أرض المغرب، المعروف بزلزال ليشبونة، الواقع يوم السبت السادس والعشرين من المحرم عام تسعة وستين ومائة وألف (26 محرم 1169/01 نونبر 1755)، وإنْ كان لم يُحدثْ ضررا بالمسجد كما تقدَّم.

---

356) «مسجد حسان»، ص 23.

وقال شينيي "Chénier" في «تاريخه» :[357]

«إنَّ المنار ظلَّ شامخا بشكله وهيكله وكَلْكَله، مدة القرون والدهور الغابرة – وإنْ كان المغاربة هدَّموا جانبا من مرقاه ليمنعوا الناس من الرُّقِيِّ إليه – إلى أن أصابه في يوم من الأيام إعْصار فيه نار، فاحترق جانب منه، وانْهدَّ الرُّكن الجنوبي الشرقي، وبَقِيَ أثره ظاهرا. وزاد أنَّه كان يُستعمل في زمنه مرقبا تُراقب من أعلاه السُّفن والمراكب السَّابحة بساحل المحيط، وتُرى على مسافة مدِّ البصر».

وذكر الأسيرُ مويط "Mouette"، أثناء حكاية تاريخ أسره[358]، أن بحَّارة الرباط كان لهم في زمنه وزمن القرصنة السلاوية الرباطية، بإزاء منار حسَّان، ورش لصنع السفن القُرْصانية، ومَرْقَبٌ يراقبون منه مصبَّ الوادي في البحر، ومعرفة سائر السفن والمراكب التي تحاول الدُّنوَّ منه، ولم يبق له اليوم أثر.

وقد أشار شينيي "Chénier" في «تاريخه» لهذا الورش فقال :[359]

«يوجد بالعدوتين، سلا والرباط، بعض الأوراش لصناعة السفن».

وفي العهد الأخير تبيَّن من صعوبة المصبِّ النهري في البحر، وامتلائه بالرِّمال من حين لآخر باستمرار، أنَّ الوادي لا يمكن أن يدخل إليه إلاَّ السفن الصغيرة التي تتحرَّك بالمجادف. وتبيَّن أيضا أنَّ عبور المصب لا يكون سهلا إلاَّ في الفصول المعتدلة، أوْ من ابتداء شهر أبريل إلى آخر شهر شتنبر لمَّا تكون الرياح هابَّة بناحية الجنوب، والجنوب الغربي، وهذا لا يكون بوادي العدوتين في فصل الشتاء.

والحاصل أنَّ مرسى العُدوتين ومصب واديهما صعب جداًّ، ومُعرَّض لتقلُّبات جوية كثيرة خطيرة، لأنَّ حالة المصب تتبدَّل بتبدُّل الجو والرياح، وتمنع الاتِّصال الدائم المتواصل مع المدينتين.

وأحسنُ محلٍّ لإيواء السُّفن هو جنوب الوادي من الناحية الرباطية، بحيث تكون راسية أمام منار حسَّان، مع الأخذ بالاحتياط التَّام لحبالها ممَّا عسى أن يكون بالوادي من المخاطيف المنبوذة المنسية بقَعْره.

---

357) ص 29، طبع باريس.

358) ص 31، طبع باريس، سنة 1348/1929. وص 18 للترجمة العربية لكتاب الأسير مُويطْ (Mouette) المعنون "La captivité du sieur Mouëtte"، طبع وزارة الثقافة سنة 1990.

359) ص 29، طبع باريس

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف (1916/1334) رمّمت إدارة الفنون الجميلة والآثار القديمة بالمغرب الزاوية الجنوبية منه، التي تصدّعت من آثار الزلزال أو الإعصار كما تقدّم. وأصلحت ما كان تهدّم من العقبة التي يُصعد منها إلى أعلاه. وقوّت ورمّمت أيضا ساحة سطحه في منتهاه.

قلتُ : وما زال هذا المنار الشّامخ الرّاسخ قائما مقاوما حوادث الأيام وزوابع الإعصارات والزلازل، كما تقدم، مصونا محفوظا بارزا ملحوظا، يحجُّ إليه الزُّوار والسُّواح ويتبارى الرسّامون والمصوِّرون في رسمه وتصويره في الكتب، والدلائل، والصحف، والطوابع البريدية والألواح، إعجابا به، وإكبارا لهمة منشئه ومبدعه، أبي يوسف يعقوب المنصور، ضاعف الله له الأجور، وشكر سعيه المحمود المبرور.

تسجيل مسجد حسّان ومناره
في الابنية التاريخية المغربية

لمّا كان مسجد حسّان ومناره من الأهمية الأثرية والتاريخية بالمنزلة التي وصفناها، كأنّه مرآة انعكست عليها أشعة الحضارة والفن الزخرفي والمعماري الذي كان شائعا بالمغرب في عهد الموحدين، منذ نحو ثمانمائة سنة، فقد اهتمّت الحكومة المغربية بشأنهما وإصلاحهما، وجمع ما تناثر من عقد زينتهما وحليهما، كما تقدّم تحريره ووصفه.

ولأجل المحافظة على كِيان ما بقي منهما، وكفِّ اليد العادية عن تغييرهما، أو تعريضهما لكل ما يؤدي إلى زيادة تخريبهما، أو إعفاء شيء ممّا اكتُشف من آثارهما، أصدرت في التاسع عشر من رجب عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق للرابع عشر من يونيو سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (19 رجب 14/1332 يونيو 1914)، قرارا وزيريا في شأن البحث عن تقييد صومعة حسّان في عدد الأبنية التاريخية جاء فيه :[360]

360) الجريدة الرسمية الصادرة في 9 شعبان عام 1332 الموافق 3 يوليوز سنة 1914. عدد 61، ص 268.

قرار وزيري في شأن البحث عن تقييد صومعة حسّان في عدد الأبنية التاريخية.

الحمد لله وحده :

بمقتضى الفصول الرابع والخامس عشر والسادس عشر من الظهير الشريف الصادر في السابع عشر من ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق للثالث عشر من إبراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (27 ربيع الأول 13/1332 إبراير 1914). وبناء على طلب مدير إدارة الآثار القديمة، والفنون الجميلة والأبنية التاريخية قرّرنا ما يلي :

الفصل الأول

يُجرى البحث في شأن الطلب الراجع إلى تقييد صومعة حسّان وما عُدَّ منها كما يأتي :

بقايا الجامع نفسها التي تحدُّها بقايا جدران ملُوَّنة على الخريطة المضافة لهذا القرار بلون أحمر، وهذه البقايا تتألّف من الصومعة والأعمدة، والجدران، كما ذلك في الباب الأول من الظهير الشريف الصادر في السابع عشر من ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (1332).

ويتمشى طبق الباب الثاني من الظهير المشار له فيما يتعلّق بالمنطقة التي تحوط المسافة المذكورة على دائرة اثنين وخمسين مترا (52 م) شمالا وغربا وجنوبا، وخمسة عشر مترا (15 م) فقط شرقا، وهي ملُونة على الخريطة بتلوين أصفر، ولا يُسمح لأحد بإحداث بناء في المسافة المذكورة كلها، والمنطقة التي يحدها شمالا الزقاق المعروف بزنقة بتي جان "Petit Jean"، الممتد إلى النهر، يَحدُّها غربا خط قد رُسم متوازيا للحد الغربي من المنطقة السابقة، وذلك على مسافة مائة وخمسة وعشرين مترا (125م). ويَحدُّها جنوبا خط قد رُسم متوازيا للحد الجنوبي من المنطقة السابقة، وذلك على مسافة مائة وخمسة وعشرين مترا (125 م)، ويَحدها شرقا وادي «بورقراق»، وهي الدائرة الملونة على الخريطة بلون أخضر.

أمَّا الحرمات المتعلقة بهذه المنطقة فهي الآتية :

يجب أن لا يكون علو البناءات التي تُحدث فيها أكثر من ثمانية أمتار. ويجب أن يكون لها سطوح، وأن تُبيِّض كلها بالجير، ويجب أيضا قبل الشروع في البناء أن تدفع اللوائح المتعلقة بذلك إلى إدارة الفنون الجميلة لتُوافق عليها.

والمنطقة التي يَحدُّها شمالا الحد الجنوبي من المنطقة السابقة، وغربا خط يمتد مع الحد الغربي من المنطقة السابقة، ويَحدُّها جنوبا خط مستقيم موازٍ للحدود الجنوبية من المناطق السابقة، ماراً بالجهة الجنوبية من البرج المغربي القديم، وذلك مُلَوَّن على الخريطة بتلوين أزرق.

أمَّا الحرمات الخاصة بهذه المنطقة، فهي نفس الحرمات المتعلقة بالمنطقة السابقة، لكن يمكن لإدارة الفنون الجميلة أن تسمح بإحداث أبنية يكون عُلُوُّها أكثر من ثمانية أمتار.

الفصل الثاني

يمكن لكل من له علاقة بهذا الأمر أن يبدي ملاحظاته بشأن التقييد المذكور، بواسطة الكاتب العام للحكومة الشريفة المكلف بهذا الشأن.

الفصل الثالث

يُكلَّف بتنفيذ هذا القرار، الكاتب العام للحكومة الشريفة.

وحرر برباط الفتح في التاسع عشر من رجب عام اثنن وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق للرابع عشر من يونيه سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (19 رجب 14/1332 يونيو 1914).

مَحمد بن محمد الجبّاص

وقد صادف صدور هذا القرار الوزيري إبَّان انفجار بركان الحرب العالمية الأولى.

ومع ذلك فقد انتُدب الكولونيل ديولافوا "Dieulafoy" أحد العسكريين الفرنسيين الذين كانوا مُجنَّدين بالمغرب حينئذ للشروع في أبحاثه الأولية، وإجراء حفرياته الأرْكِيُولُوجِيَّة. فبعث عددا كبيرا من الأعمدة الرخامية التي كانت مقبورة تحت الرَّدم، وأخرجها من أجداثها، حسبما تقدَّم وصفه وتحصيله وتفصيله، وحَرَّر بذلك محضرا علْميا قدَّمه للأكادمية الأدبية الفرنسية التي كان عضوا فيها، وينتسب إليها، ضمَّنه أفكاره الخاصَّة ووصف ما عثر عليه.

ثم حصلت فترة في الأعمال مُدَّة الحرب المذكورة، إلى سنة أربعين وثلاثمائة وألف (1922/1340)، بعد انقضاء الحرب وخمود جُذْوَتِهَا، فأصدرت الحكومة المغربية، في ثالث

رمضان عام أربعين وثلاثمائة وألف (03 رمضان 01/1340 مايه سنة 1922) قرارا وزيريا آخر بإجراء بحث آخر يُقَيَّدُ بمقتضاه المسجد المذكور ومناره في عدد الأبنية التاريخية المغربية، جاء فيه :[361]

نص القرار الوزيري الثاني

الحمد لله وحده

بمقتضى الظهير الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر ابراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 13/1332 ابراير 1914) في المحافظة على الأبنية التاريخية.

ونظرا لاقتراح المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة قرّرنا ما يأتي :

الفصل الأول

يُؤْذن بإجراء بحث لتقييد مسجد الموحدين المتهدِّم وصومعته المعروفة بصومعة حسّان بالرباط ضمن الحدود المبينة بالخريطة الملحقة بهذا القرار. وإذا صدر ظهير شريف في الإذن بالتقييد المذكور، فتجري عليه المقتضيات المنصوص عليها بالباب الثاني من الظهير الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر ابراير سنة أربع عشر وتسعمائة وألف، المشار إليه أعلاه.

الفصل الثاني

إنَّه عملا بمقتضيات الظهير الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر ابراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف، يُكلف رئيس الإدارة البلدية بالرباط، حالما يُنشر هذا القرار بالجريدة الرسمية للدولة الحامية، بتبليغه على الطريقة الإدارية، ونشره وتعليقه طبقا للشروط المنصوص عليها في الفصلين المشار إليهما بعد أنْ يُعلم بذلك من طرف المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة.

---

361) الجريدة الرسمية الصادرة في 16 ماي سنة 1922 الموافق 18 رمضان عام 1340. عدد 472 ص 568.

أمَّا مسألة التَّقييد المشار إليه، فيُقيد حالاً في قائمة اللجنة البلدية للرباط لتتفاوض بشأنه. ويوجه عاجلا رئيس الإدارة البلدية بالرباط إلى المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة الأوراق المثبتة لإنجاز الموجبات المشار إليها، وكذلك نسخة مطابقة للأصل من المفاوضات التي تكون قد جرت في الموضوع، بشرط أن يكون جميع من لهم مصلحة في الأمر قد توصلُوا بما ذكر من التبليغ.

والســــلام.

وحُرر برباط الفتح في ثالث رمضان عام أربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لفاتح مايه سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وألف (03 رمضان 01/1340 ماي 1922).

محمد المقري

وبمقتضى هذا القرار، صدر ظهير يوسفي شريف بتطبيقه ونصه :[362]

ظهير شريف في تقييد جامع الموحدين ومنارته المعروفة
بصومعة حسّان بالرباط في عدد الأبنية التاريخية.

يُعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعزَّ أمْره، أنه بمقتضى ظهيرنا الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر ابراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 13/1332 ابراير 1914)، الصادر في المحافظة على الأبنية التاريخية، والمناظر البهيجة، المتمِّم بظهيرنا الشريف المؤرخ بثامن ذي القعدة عام أربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لرابع يوليوز سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (08 ذي القعدة 04/1340 يوليوز 1922)،

وبناءً على القرار الوزيري المؤرخ بثالث رمضان عام أربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لفاتح مايه اثنين وعشرين وتسعمائة وألف (03 رمضان 01/1340 مايه 1922)، الصادر في الإذن بإجراء بحث بقصد تقييد جامع وصومعة حسان بالرباط في عدد الأبنية التاريخية،

ونظراً لنتائج البحث الذي أُجري عملا بالقرار الوزيري المشار إليْه،

ونظراً للرأي الذي أبداه المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة،

362) الجريدة الرسمية الصادرة في 12 دجنبر سنة 1922(22 ربيع الثاني عام 1341) رقم 502، ص 1309.

ونظراً لاقتراح وزيرنا الصدر الأعظم ، أصدرنا أمرنا الشريف بما يلي :

الفصل الأول

يُقَيَّدُ في عدد الأبنية التاريخية جامع الموحِّدين الخَرِبِ وَمَنَارَته المعروفة بصومعة حسَّان بالرباط، حسب الحدود المبينة بالخريطة الملحقة بقرار وزيرنا الصدر الأعظم، المؤرخ بثالث رمضان عام أربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لفاتح مايه سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف، المشار إليه أعلاه).

الفصل الثاني

لا يمكن مباشرة أي تغيير كان في الهيأة الحالية لِمَا ذُكر من الأبنية المُقيَّدة، إلاَّ بإذن من المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة، والآثار القديمة، وتحت مراقبة إدارة الأبنية التاريخية، وتجرى على المخالف العقوبات المنصوص عليها بظهيرنا الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر ابراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 13/1332 ابراير 1914)، المشار إليه أعلاه،

والســــــلام .

وحُرِّر برباط الفتح في خامس ربيع الثاني عام واحد وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لخامس وعشري نونبر سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (05 ربيع الأول 25/1341 نونبر 1922).

قد سُجِّل هذا الظهير الشريف بوزارة الأملاك المخزنية بتاريخ تاسع ربيع الثاني عامه الموافق لتاسع وعشري نونبر سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف. (9 ربيع الثاني 29/1341 نونبر 1922).

محمد المقري

المبحث الثامن

بعض ما اندثر من الآثار الموحدية
ولم يبق له اسم ولا رسم برباط الفتح

الجسر الجامع بين العدوتين :
سـلا و ربـاط الـفـتح

هذا الجسر أنشأه أوّلاً الخليفة عبد المومن بن علي لمّا بني قصره بالقصبة، ليجمع بين العُدوتين، ويربط بين الضّفتين، وتعبر عليه جيوشه الجرّارة المتنقلة بين القارتين، فكانت تجتمع بالرباط، وتعبر على هذا الجسر إلى سلا، ثم تتوجه إلى قصر المجاز، ومنه تعبر البوغاز، وتتفرق في الثغور والمسالك الأندلسية.

وجدّده ولده وخلفه من بعده، أبو يعقوب يوسف لمّا انتقل من مراكش إلى المهدية في طريقه إلى الأندلس، سنة ست وستين وخمسمائة (1170/566).

قال عبد الملك بن صاحب الصّلاة، لمّا عدّد ما قام به أبو يعقوب من إصلاحات في منشآت والده بالرباط :(363)

«وكذلك ألفى الجسر الذي كان قد نصبه أبوه ما بين سلا وبين المهدية المذكورة على البحر، لإجازة الناس عليه، قد خرقته البحور وَهَدّمَتْه الدهور، فأمر بنصب جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناء، وأساسا واعتلاء، من الحجر العادي والجيار الثابت لأمواج البحار، فصُنع في أقرب مدة، بأعظم آلة وعدّة، ووصله بالقوارب والخشب، حتى جاء في أمن له من الأزمان والحقب...»

---

363) ص 449 من كتاب . «المنّ بالإمامة».

وهذا يقتضي صراحة أنَّه غير الجسر الأول، وأحسن منه وأتقن.

ووصفه في «الاستبصار» بقوله :[364]

«وعلى هذا المعبر (يعني معبر أبي رقراق)، قنطرة مركَّبة من ثلاثة وعشرين معدية، مُدَّت عليها أوصال الخشب، وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذي لا يؤثر فيه الحافر، يجوز عليه العساكر والمسافرون، وحولها يُتصيَّد أنواع السمك والشابل، ويمدُّ البحر فترتفع القنطرة، ويتغطَّى الجسر، فتعوم عليه المراكب، وترسو دونه الأجفان الكبار، وقلَّما تسلم عند دخولها وخروجها لصعوبة المدخل، وهو مشهور عند أهل صنعة البحر...»

وجاء في «المعجب» لعبد الواحد المراكشي، لمَّا تكلَّم على بناء مدينة الرباط :[365]

«.. أنَّ الموحدين بنوْا على أبي رقراق قنطرة ألواح وحجارة يعبر عليها الناس حِينَ يجزُر النَّهر، فإذا مدَّ عبروا على القوارب».

وقال في كتاب «المدن والقبائل المغربية» :[366].

"وأمر (يعني أبا يعقوب) ببناء الجسر أمام ضفة سيدي مخلوف، المقابلة لمدينة سلا، وقد كان هناك جسر بسيط، رُكب من عدة قوارب مقطورة بعضها ببعض، فعوَّضه بِهَذَا الجسر المبني بالحجارة والسفن المربوطة بالسلاسل والقلوس[367]، وفرش سطحه بصفائح العود المتخالفة الوضع، المُشَبَّكة الصنع، معتمدة على ثلاثة وعشرين وَتِداً مغروسة في مجرى الوادي".

وكان بطرف هذا الجسر من ناحية الضفة الشمالية بناء مُسطَّح، عرضه عشرة أمتار، وإلى عهد قريب كان يلاحظ بقاياه في منتصف المسافة التي بين برج سيدي مخلوف ومسجد حسَّان، وينتهي هذا الجسر بالضفة السلاوية اليمنى أمام الباب المعروف اليوم بباب الريح، قبالة أسْوار وأبواب دار الصناعة التي سيأتي الكلام عليها.

ومن غريب الاتِّفاق أنَّ هذا الموضع من أبي رقراق، هو الذي شُيِّدت به في زمننا هذا القنطرة العظيمة الواسعة المسماة "بقنطرة مولاي الحسن" الجامعة بين العُدوتين السلاوية والرباطية، وبين شمال المغرب وجنوبه.

---

364) طبع الإسكندرية، ص 141.

365) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ص 146.

366) "Villes et tribus du Maroc"، ج 1، ص 29.

367) القلوس . حبال ضخمة من خوص أو غيره.

وإلى هذا الجسر يُشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «إتحاف أشراف الملا» بقوله :[368]

وَانْسُبْ إِلَيْهَا مَعْبَرَ الْمَجَازِ	مَا بَيْنَ عُدْوَتَيْهَا لِلْمُجْتَازِ
كَانَتْ عَلَى كَحٍّ مِن الْجَوَارِي	قَنْطَرَةُ الْوَادِي بِلاَ مُمَارِي
وَالنَّاسُ بَيْنَ عَابِرٍ وَصَائِدْ	وَذِي اعْتِبَارٍ وَاغْتِبَاطٍ زَائِدْ
ثُمَّ أُعِيدَتْ بِبِنَاءٍ وَخَشَبْ	ذَكَرَهَا الْمُعْجِبُ فِيمَا قَدْ كَتَبْ

دار العادل

من جملة الآثار الموحدية التي كانت برباط الفتح ودرست معالمها، واختفت محاسنها، دار العادل.

ولعلَّها منسوبة للخليفة أبي محمد عبد الله المنصور المُلقَّب بالعادل، بناها، ورفع سمكها، لمَّا رجع من الأندلس بعد بيعته بها، سنة إحدى وعشرين وستمائة (1224/621)، وعرَّج على سلا والرباط، وأقام به قبل انتقاله إلى مُرَّاكش.

وقد كانت هذه الدار معدودة من المنتزهات البديعة، والمباني الرفيعة، برباط الفتح، ينتابها السلاطين والأمراء إلى عهد الدولة المرينية.

قال أبو عبد الله محمد بن عبد العظيم الأزموري في كتابه المسمى «بهجة الناظرين وأنس الحاضرين» في مناقب صلحاء بني أمغار أصحاب تيط عين الفطر :[369].

«إن السلطان أبا عنان كان برباط الفتح عام أربعة وخمسين وسبعمائة (1353/754) نازلا بالقصر بدار العادل، وأمر بعقد جمع كبير بها من الشُّرفاء والصُّلحاء للنظر في صحة أنساب بيوتات المغرب، فاجتمعوا وأجمعوا على صحة نسب بني أمغار الحسني الفاطمي المحمدي ...»

---

368) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ص 12.

369) ورقة 24 مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وفيها يقول السلطان المنتصر بالله، أبو العباس أحمد بن أبي سالم المريني، وكان شاعرا أديبا، متذكرا أوقات السُّرور التي مرَّتْ له بها .[370]

يَا عَاذِلِي دَعْ عَنْكَ عَذْلَ الْعَاذِلِ ... وَاخْلَعْ عِذَارَكَ فِي الْحَبِيبِ الْمُوَاصِلِ

وَإِذَا ذَكَرْتَ عَشِيَّةً بِمَحَاسِنٍ ... فَاذْكُرْ عَشَايَانَا بِدَارِ العَادِلِ

وإليها يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي، في «إتحاف أشراف المَلا» :[371].

وَاعْتَبِرَنْ فِي الْحُسْنِ دَارَ العَادِلِ ... فَلَمْ يَزَلْ حُسْنُهَا فِي تَوَاصُلِ.

وقد اندثرت في زمننا هذا ولم يبق لها اسم ولا رسم.

---

370) «جذوة الاقتباس»، ص 43، طبع فاس «و«دُرَّة الحجال»، طبع الرباط، ص 27 ،ج 1.

371) ص 28، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

المبحث التّاسع

الهجرة الأولى
من الأندلس إلى رباط الفتح

إبتدأ انهيار سلطان الموحدين بالأندلس بعد معركة العقاب، التي محّص الله فيها المسلمين، ولم تقم لهم بعدها بالديار الأندلسية قائمة.

واستبدّ السّادات الوُلاة من بني عبد المومن بولاياتهم، وتصرّفوا فيها حسب أهوائهم، وأسْخَطوا بذلك الأندلسيين، فجاهروا بعداوتهم وعَملوا على الخلاص من حكمهم، لأنّهم فقدوا هيبتهم وشهرتهم الجهادية، فصار لكل والٍ منهم في ولايته شريك، وقام فوق كل غصن ديك، كما كان الشأن لمّا سقطت الخلافة الأموية.

وسارع بعضهم إلى العدو يطلب حمايته، ويتزلّف إليه مستمنحا معونته، لأنّ خلفاءهم بالعُدوة القُصوى، كانوا منشغلين عنهم في حروبهم الداخلية، ومكافحة جيوش الدولة المرينية التي طلعت طلائعها من الأقطار الشمالية المغربية، وأطلّت عليهم من وراء المصب بالعُدوة السلاوية، وكادت أن تتجاوزه إلى العدوة الرباطية، زيادة على تناحرهم على المُلك، وركوبهم في سبيله كل فُلك، ولو أدّى إلى الهُلك.

فاتّخذ العدو -الذي كان يتربّص بهم الدوائر- ذلك سببا، وانقضّ عليهم انقضاض العُقاب، وعاقبهم أشدّ عِقاب، وكانت مأساة شرق الأندلس كله، فتساقطت مدنه وحصونه، الواحدة تِلْوَ الأُخرى كجزيرة شقر، وشاطبة وبلنسية وغيرها، وهاجر أهلها فرارا بدينهم، فتفرّقوا فيما بقي بأيدي المسلمين من البلاد كغرناطة وما والاها.

وجاز الجمُّ الغفير منهم المجاز إلى المغرب، واستأذنوا الخليفة الموحدي إذ ذاك أبا محمد عبد الواحد الرشيد بن المامون بن المنصور، فأذن لهم في الانتقال إلى رباط الفتح وعمارته.

وأصدر لهم ظهيرا ملكيا بتاريخ حادي وعشري شعبان سنة سبع وثلاثين وستمائة (21 شعبان 22/637 مارس 1240)، خولهم حقَّ السكنى به والحرث والغرس، وتأثُّل الأملاك والضِّياع، واقتناء الأصول والرباع، وحملهم على كاهل المَبَرَّة والإكرام وحُسْن الجوار، واعتناء الوُلاة ومن بيدهم الأمر من أمراء الدولة بشأنهم، وحفظ كرامتهم ، والذبِّ عنهم، وإعفائهم من المغارم غير الشرعية، هم وأولادهم، ومن انْضمَّ إليهم، أو التحق بهم، فهاجر جمهور كبير منهم إليه، واتخذوه دارا، وملجأ وقرارا .

ونصُّ الظهير المذكور من إنشاء أبي العباس أحمد بن عميرة، قاضي رباط الفتح وسلا في ذلك العهد، كما جاء في رسائله :[372].

ظهير موحدي بالاذن لأهل الأندلس في الهجرة إلى رباط الفتح

الحمد لله وحده :

هذا ظهير كريم أمر به فلان (كذا بالاصل) للمنتقلين من أهل بلنسية، وجزيرة شقر، وشاطبة، ومن جرى من سائر بلاد شرق الأندلس مجراهم، وعَراهم من غِيَرِ الأيام ما عراهم، حين أنهى فلان (كذا بالاصل) ما أصابهم من الجلاء، ودهاهم من الأعداء، وسَعَى لهم سَعْيَ من يقضي لهم حقَّ الجِوار، ويلتمس لهم مكانا للقرار، ومنزلا لإلقاء عصا التسيار، وعند ذلك أَذِنَ لهم أعلا الله إذنه، وجدَّد سعده ويمنه في النقْلة إلى رباط الفتح عمَّره الله بقضيضهم وقضِّهم، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه، بدلاً من مساكنهم وأرضهم، ويُعمِّروا منه بلدا يقبل منهم أولى مَن قَبَل، ويحملهم إن شاء الله، وخير البلاد ما حمل، فإنه مناخ للتاجر والفلاَّح، وملتقى للحادي والملاَّح، والمرافق من بره وبحره موجودة في فصول السنة، موذنة لقاطنيه بالعيشة الهنية والحال الحسنة، ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر العزيز، أدامه الله، من التوسعة على قويهم كي يزداد قوة، والرفق بضعيفهم حتى ينال يسارا وثروة، وأن يتوسَّعوا في الحرث، ففي أرضه هناك مُتَّسع، ويتبسَّطوا في كل مالهم منه معاش وبه ينتفع، ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عادتهم ببلادهم، ويتأثَّلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم. وكل ما يغمرون من الضياع ويقتنون من الأصول والرباع، فله حكم التسويغ على

372) «رسائل ابن عميرة»، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ك.232 . ورقة 118.

الإطلاق والدوام، ولا يلزمون فيه شيئا من وجوه الإلزام، ولا يُطالَبون بغير حقوق الشرع التي جعلها الله في أموال أهل الإسلام، وأموالهم في مقاديرها مُصدَّقة وأمانيهم كلها لهم وللاَّحقين بهم مُحقَّقة، والوُلاة والعُمَّال، حفظهم الله مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يُلِمُّ بجانب من جوانبهم، أو يعوق عن مأرب صغيرا وكبيرا من مآربهم، وأن يكرموا غاية الإكرام فقهاءهم وأعيانهم، ويولوهم من حُسْن الجوار، ما ينسيهم أوطانهم، حتى تندفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف، ويجمع لهم بين الرعاية لحُرْمة البلدي والعناية بحق الضيف، إحسانا منه أعلا الله أمره، وأوزع شكره، ينسحب على جماعتهم وأفذاذهم، ويحملهم على مُوجب اعتلاقهم بهذا الأمر أدامه الله وملاذهم.

فمن وقف عليه من الطَّلبة والعُمَّال – أكرمهم الله – فليعمل بحسبه، ولا يعدل عن كريم مذهبه، إن شاء الله تعالى، وهو المستعان لا ربَّ سواه.

كتب في الحادي والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستمائة (21 شعبان 19/637 مارس 1340) .

وقد كان الرباط في ذلك العهد، كما سبق بيانه، قد تناقص عمرانه، بعد وفاة بانيه يعقوب المنصور، لضعف الحركة العسكرية والجهادية فيه، وإنَّما كان خلفاء الموحدين يُعرِّجون عليه أثناء تنقلاتهم في حركاتهم بين الأندلس وجنوب المغرب وشماله، فيقيمون بقصبته الفَيْنَة بعد الفَيْنة من غير اهتمام بعمران المدينة، ولكن كانوا يحرصون كل الحرص على من يعمره، وينزل به من المهاجرين ولا يهجره، ولا يُسندون ولايته إلا لمن لهم به الثقة الكاملة من رجال دولتهم، دفاعا عن كيانه وكيانهم.

وعليه، فقد ابتدأت الهجرة إليه في عهد الموحدين، وهؤلاء المهاجرون هم السَّابقون الأوَّلون الذين عَمَروه، وتلاحق بهم إخوانهم بعد ذلك زرافات ووحدانا، وهم الذين بَذَروا به بُذور الحضارة الأندلسية، إلى أن لَحِقَ بهم إخوانهم بعد الوقعة الكبرى، والداهية العظمى، لمَّا صدرت مراسيم الطرد الجماعي سنة ثمان عشرة وألف (1610/1018)، وطُوِيَتْ أعلام الإسلام من الديار الأندلسية كلها. ولِلَّه الأمر من قبل ومن بعد.



الفصل الخامس

عن المدينتين الشقيقتين الرقراقيتين
سلا ورباط الفتح، وما توحيانه من مشاعر
وتأملات وتجلِّيات وارتسامات،
وبعض ما قيل فيهما من شعر بديع ونثر بليغ

المبحــث الأول

منظر العدوتين ووصفهما
من أعلى منار حسّان
وما قيل فيهما من نثر وشعر.

منظر العدوتين – سلا ورباط الفتح – من أعلى منار حسّان، بديع رائع فتّان، يذكّر بما سلف لهما من رفيع الشان، وتكتل العمران – فيما غبر ودبر من الأزمان – تتجلّى للناظر منه مناظرهما الخلاّبة، ومحاسنهما الرائقة الجذّابة، فيتصوّر حقيقة وضعهما الجغرافي والطُّبوغرافي من المصبّ، كأنهما لوحة مرسومة بريشة رسّام فنان – وليس الخبر كالعيان – على بسيط أفيح، بقلم الطبيعة وهو وأوضح وأفصح، فيصلهما النهر ويجمعهما البحر.

فعلى الضّفة اليُمنى للمصب : سـلا

سَلاَ بَلْـدَةٌ بِالْغَـرْبِ لَمْ أَرَ مَنْظَـراً ... يُشَـاكِلُهُ فِي الْحُسْنِ وَالشَّـمْسُ آفِلَةْ

وَلاَسِيَّمَـا بُرْجُ الدُّمُـوعِ الَّذِي غَـدَتْ ... مَحَاسِنُهُ كَالْفَرْضِ وَالْغَيْرُ نَافِلَةْ (373)

"سلا، بلدُ الانقطاع والسُّكون، والإنابة إلى الله والرُّكُون"، تتجلّى أبنيتها المتدرِّجة المتلاحقة، المتراصّة المتناسقة، رافلة في حُلَّة بيضاء، مرصّعة بقبب أضرحتها الخضراء، بارزة من بينها صوامعها الزاهية الهيفاء، بمسجدها الأعظم وجامع الشهباء ؛ ويتّصل بها أرباضها الفيحاء، وبساتينها الزاهرة الغنّاء ؛ ويكتنفها، كما قال ابن الخطيب في «مقامات

373) سياتي الكلام على برج الدموع في فصل بناء السُّور الغربي لمدينة سلا.

البلدان» : "المَسْرَح ، والخصْب الذي لا يبرح، والبحر الذي ياسو ويجرح ؛ "ويحيط بها الأسوار الموحدية والمرينية، تتخللُها الأبراج والحصون الجهادية، وبقايا آثار دار صناعة الأساطيل القرصانية، كالأبواب الشاهقة، شاهدة بعُلُوٍّ همَّة منشئها وناطقة ؛ ويبدو بوسطها معالم المساجد الأثرية، والمدارس العلمية، الجامعة لأنواع الزخرفة والفنون الهندسية؛ ويتشخَّص الناظر في أحيائها القديمة بقايا، بعض ما كان فيها وما لازال من المعاهد والزَّوايا، وكم فيها من خبايا، كزاوية النُّسَّاك، محطِّ رِحال العُبَّاد والزُّهَّاد والأمراء والأملاك ؛ ويُضاف إليها شرقا وغربا "مقبرتها المُنَضَّدَةُ العجيبة في الانتظام، المعدودة في المدافن العظام"، المقبور بها الجمهور الكبير، والجمُّ الغفير من الأعْلاَم، ومن درج فيها من الرؤساء الأعيان، الذين كان لهم في الدِّين والدُّنيا شان وأي شان، منذ أجيال درجت، وأعصارٍ متطاولة مرَّت وانقرضت.

سَلاَ يَا بَهْجَةَ الدُّنْيَا فَهَلاَّ ... عَنِ القَوْمِ الذِّينَ مَضَوْا سَلَوْتِ
بَكَيْتِ عَلَى فِرَاقِهِمُ دُهُوراً ... بُحُوراً قَدْ مَلأْتِ فَمَا مَلِلْتِ
فَلَوْ عَنْهُمْ سَلَوْتِ سَلَوْتُ يَوْماً ... وَلَكِنِّي بَكَيْتُ كَمَا بَكَيْتِ

وقد كانت منذ عهد الدول الأولى، – وهو عهد ازدهارها، وتكتُّل عمرانها –، يحجُّ إليها الأدباء وشعراء المغرب وإفريقية والأندلس، ويؤمُّها مشاهير الأمراء وأعيان الرؤساء والوزراء، فينزوي في زواياها كل خائف، طاف به طائف، أو ألمَّ به من الدَّهر مُلِمّ، ونزل بساحته أمر مُهِمّ، أو مسَّته الضرّاء، بعد السرّاء، وتنكَّر له الزمان، بعد الأمان، فجفاه الإخوان، وقلاه الأصدقاء والأخدان، فتعذَّرت مطالبه، وتنوَّعت مصائبه، وتكدَّرت مشاربه، واختلفت مذاهبه، فإذا نزل بساحة أمرائها، واستظلَّ بظل قضاتها، من أبناء عشرتها، زالت غمَّته، وانحلَّت أزمته، ومدَّ إليه الدهر يده مصافحا، مستغفرا ممَّا جناه، مستمنحا رضاه، مسالما مسامحا، وحينئذ يتزلَّف إليه الإخوان، ويتملَّقه الأصدقاء والأخدان، وتتيسَّر له المطالب، وتنحلُّ عُقَد المصائب، ويصبح صاحب الرأي الصائب، وتصفو لديه المشارب، وتتحقَّق المطالب، وتتيسر المآرب، وتتَّحد المذاهب.

وهذا يدلُّ على أنَّه كان في سلا رجال ذووا همَّة وجاه ووجاهة، وعفَّة وكرامة نفس ونزاهة، يُقْتَدَى بهم في الدنيا والدين، ولا تُردُّ كلمتهم عند أمراء المسلمين من المرابطين، ومن جاء بعدهم من خلفاء الموحدين، وسلاطين بني مرين، والشرفاء السعديين، وملوك دولتنا الأشراف العلويين، أمراء المومنين، مدَّ الله ظِلَّهم، وبارك أصلهم، وزكَّى فرعهم، آمين.

هذه سلا التي – منذ العهد المريني – تخلَّت عن مظاهر السياسة، وتجرَّدت من ملابس الرياسة، وتحلَّت بحلَّة الرزانة والكِياسة، فأصبحت مدينة علمية، صوفية دينية، ياوي إليها الأفاضل والأخيار، ويحتمي بحماها أهل الصلاح من الزهاد والأبرار، كالشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، والشيخ ابن عباد، وما أدراك بهما، وهو القائل في حق رجالها «قصدتهم لوجدان السلامة معهم»؛ والشيخ أبي حاجة، وضجيعه ميْمون بن خبَّازة، ولسان الدين ابن الخطيب، وهو القائل فيها ·

"وهي على الجملة من غيرها أوفق، ومغارمها لاحترام الملوك الكرام لها أرفق"

"وتتأتى بها للعُبَّاد الخلوة وتوجد عندها للهموم السلوة" :

وَصَلْتُ حَثِيثَ السَّيْرِ فِيمَنْ قَلَى الْفَلاَ	فَلاَ خَاطِرِي لما نَبَا وَانْجَلَى انْجَلاَ
وَلاَ نَسَخَتْ كَرْبِي بِقَلْبِي سَلْوَةٌ	فَلَمَّا سَرَى فِيهِ نَسِيمُ سَلاَ سَلاَ

هذه سلا التي كان يَشُدُّ إليها الرِّحال، عظماء الرِّجال من أهل الخير والصلاح في ذلك العصر وقبله.

ومن تَتَبَّع تراجم هؤلاء الأعلام من أهل الله في كتاب «التشوف إلى رجال التصوف»، لأبي يعقوب يوسف التادلي، المعروف بالزيات ، و«أنس الفقير، وعزّ الحقير»، للخطيب القسمطيني وغيرهما، عَلِمَ حقيقة ذلك.

فقد ذكروا جمهورا كبيرا ممن ءاوى إليها، وحطَّ رحله بها، وعُدَّ من مشاهير صلحائها، كالإمام الشريشي، وأبي العباس المطارحي، وغيرهما...

وكل هؤلاء الأعلام، كانوا ممن يُستَقَى بهم الغمام، ويُهتدى بهديهم، ويَصِحُّ في مقامات السلوك الاقتداء بهم، واقتباس أنوار الهداية من معاشرتهم، والتأدُّب بأخلاقهم.

وقد أفصح عن ذلك الخطيب القسمطيني في رحلته بقوله :(374)

"هذه المدينة ، (يعني سلا) مقر الصالحين، ورأيتُ منهم فيها عددا كبيرا، وذكر أفرادا منهم ، ثم قال:

"وهي أولى بالمريد بالمغرب من غيرها، عمَّرها الله بالخير والعافية . . . اهـ".

---

374) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

هذه سلا، التي عدَّها أبو العباس الصَّوْمعي في كتابه «المعزى، في مناقب الشيخ أبي يعزى»[375] من جملة الأمكنة التي كانت مجتمع أهل الله وأوليائه وعباده الصالحين، فقال عند الكلام على استحباب زيارة الأولياء :

"ولاسيما في مشاهد الأخيار، إذا اجتمعوا في مكان من الأمكنة المشرَّفة، كما كانوا يجتمعون قبل هذا برباط شاكر، وبساحل دكالة، وبسلا... اهـ."

ولذلك يشير أبو علي اليوسي، رحمه ا لله، في رائيته التي ستأتي بعد :

وَسَاحِلِ صِدْقٍ كَانَ مَحْجُوجَ نَاسِكٍ ... يُلَبِّي المُنَادِي فِيهِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ

هذه سلا، التي ظهر فيها – في ذلك العصر وبعده- أعلام في العلوم العربية والشرعية، ورفعوا رايتها، وأوقدوا سراجها، فأضاؤا للنَّاس معالمها، واكتشفوا بالبحث والتحقيق مجاهلها، وأدركوا غايتها :

كالإمام النحوي، الحافظ الرَّاوية الشهير، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمران الفنزاري السلاوي، المعروف بِالمِجْرَادِ، المتوفي سنة سبعين وسبعمائة (1368/770). والإمام العلاَّمة أبي الحسن علي بن موسى بن إسماعيل المطْماطي، المتوفَّى رابع المحرَّم عام ثلاثة وسبعين وسبعمائة (1371/773). وآخرين كثيرين، وإنَّما ذكرنا هذين الإمامين الذين استحضرناهما على سبيل المثال، لمَّا استعرضنا في خيالنا حالة سلا فيما مضى من الأجيال. لاسيما إذا تجلَّت للناظر من أعلى المنار أضرحة بعض هؤلاء الأعلام، كالإمام المجراد، وغيره من الأعيان الأفراد.

وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «اتحاف أشراف الملا» بقوله :

وَوُصِفَتْ فِي كُتُبِ الأَخْلاَقِ ... بِأَنَّهَا أَقْرَبُ لِلْوِفَاقِ
لِكُلِّ ذِي وِلاَيَةٍ وَذِي صَلاَحْ ... وَذِي زَهَادَةٍ وَعَوْنٍ ذِي فَلاَحْ
وَأَنَّهَا مُجْتَمَعُ الأَعْيَانِ ... مِنَ الرِّجَالِ العُظَمَاءِ الشَّانِ

وقال أيضا :

375) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

كَفَى سَلاَ فَخْراً وَيَكْفِي حَضَرا ... إِنْ رَحلَتْ إِلَى بَنِيهَا الكُبَرَا

كَالحَاتِمِي الإِشْبِيلِي وَالصَّدِّينِي ... وَالعَارِفِ الرُّنْدِي وَشَنْتَرِينِ

وَالمُقْرِيءِ الرُّعَيْنِي وَالقَبَّابِ ... وَجَلَّ عَدُّهُمْ عَنِ الحِسَابِ

كَانَتْ لَهَا الرِّحْلَةُ فِي القَدِيمِ ... لِمَا حَوَتْ مِنْ مَفْخَرٍ عَظِيمِ

مِنْ جِلَّةِ الشُّيُوخِ وَالنُّظَّارِ ... وَقَادَةِ الأَسَانِيدِ الأَخْيَارِ

وَعَيْنِ أَعْيَانِ الْكُبَرَا الصُّلَحَا ... فَذَا أَبُو عِنَانٍ أَمَّ صَالِحَا

وَلِيُّهَا ابْنِ عَاشِرِ الأَنْدَلُسِي ... حَدِيثُهُ غَضٌّ جَدِيدٌ مَّا نُسِيَ

هذه سلا، التي ذكرها الشُّعراء في أشعارهم، وحلُّوا باسْمها جيدَ جَيِّدِ قصائدهم، ووصفوا مناظرها ومآثرها، وتشوَّفوا إلى مغانيها، وتذكَّروا سالف أيامهم الزاهرة، وأوقاتهم العامرة فيها، ومدحوا صُلحاءها وأعلامها وأعيانها، متطارحين على أبوابهم، ملتمسين الفوز بمكارمهم، والنَّيْل من فيض معارفهم.

ومن ذلك قول القاضي أبي العباس أحمد بن المطرف ابن عميرة، لمَّا انتقل من الأندلس إلى رباط الفتح، وحلَّ بسلا على طريق البحر من قصيدة :

وَرَكِبْنا مَتْنَ الخِضَمِّ بِأَحْشَا ... ءٍ حَكَتْهُ فِي زَفْرَةٍ وَاصْطِفَاقِ

هَالَ بَحْرُ الزُّقَاقِ حَتَّى رَكِبْنَا ... بِسِوَاهُ فَهَانَ بَحْرُ الزُّقَاقِ

وَحَلَلْنَا سَلاَ فَسَلْ عَنْ فُؤَادِي ... هَل سَلاَ مَن نَّأَى بِمَنْ هُوَ لاَقِي

– وقال أيضا مخاطبا بعض تلامذته بسبتة كما في «الرسائل» :

يَا صَاحِبَيَّ وَلِلْفِرَاقِ صَبَابَةٌ ... عَمَّا بِقَلْبِي مِنْ لَوَاعِجِهَا سَلاَ

وَاسْتَخْبِرَا خَبَرِي وَإِنْ جَوَّزْتُمَا ... بَعْدِي السُّلُوَّ فَإِنَّ قَلْبِيَ مَّا سَلاَ

لِلصَّبْرِ دِرْعٌ كُنْتُ مِنْهَا حَاسِراً ... يَوْمَ اتَّقَيْتُ البَيْنَ سَهْماً مُّرْسَلاَ

أُنْسٌ لَهُ مِنَّا انْقِبَاضٌ فِي أَسَى ... وَجَدَ الضُّلُوعَ كَمَا اشْتَهَى فَاسْتَرْسَلاَ

فَمُحَدِّثٌ بَسَاكٍ لآخَرَ مِثْلِهِ ... بِحَدِيثِ شَوْقٍ قَدْ رَوَاهُ مُسَلْسَلاَ

قَدْ كَانَ صَفْوُ الْعَيْشِ يَدْنُو لَوْ دَنَا ثَاوٍ بِسَبْتَةَ مِنْ مُقِيمٍ فِي سَلاَ
مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ أَرْضَ ظِلاًّ سَجْسَجاً[376] كَلاًّ وَلاَ اسْتَعْذَبْتُ مَاءً سَلْسَلاَ

– وقال القاضي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد بن عبد الملك الأنصاري الأوْسي، صاحب كتاب «الذيل والتَّكملة لكتابي الموصول والصِّلة»، من البحر والقافية متشوِّقا إلى سلا، وإلى خلٍّ له بها :

يَا عَاذِلِيَ دَعِ المَلاَمَةَ أَوْ سَلاَ عَنْ صَادِقٍ فِي الحُبِّ مِثْلِيَ هَلْ سَلاَ
كَيْفَ السُّلُوُّ وَلِي بِحُكْمِ البَيْنِ فِي مُرَّاكُشٍ جِسْمٌ وَقَلْبٌ فِي سَلا
هَيْهَاتَ أَسْلُو عَهْدَ خِلٍّ لِي بِهَا أَسَلاَ ابْنُ حُجْرٍ عَهْدَ جَارَةَ مَا سَلاَ
وَافَي إِلَيَّ عَلَى البِعَادِ كِتَابُهُ فَبِمُهْجَتِي أَفْدِي كِتَاباً أَرْسَلاَ
أَوْرَدْتَ مِنْ مَرْءَاهُ رَوْضاً مُونِقاً وَوَرَدْتُ مِنْ فَحْوَاهُ مَاءً سَلْسَلاَ
طِرْسٌ كَنَحْرٍ مُعَذَّرٍ أَبْدَتْ بِهِ صُدْغَاهُ وَشْيُ الحُسْنِ حِينَ تَسَلْسَلاَ
أَأَحِبَّتِي رُحْمَاكُمُ فِي نَازِحٍ بِكُمُ إِلَيْكُمْ فِي الدُّنُوِّ تَوَسَّلاَ
أَحْلَلْتُمُ هَجْرِي وَخِلْتُمْ أَنَّنِي وَصْلِي الحَرَامُ كَمَا عَلِمْتُمْ بَسَّلاَ[377]
إِنْ أُعْلِنِ الشَّكْوَى فَمَا أَشْكُو سِوَى بَيْنٍ نَعِيمَ الأُنْسِ جَوْرِ البُسَّلاَ[378]
حَسْبِي اذِّكَارٌ قَدْ أَثَارَ صَبَابَتِي وَلِمَا تَرَقْرَقَ فِي التَّنَائِي أَرْسِلاَ
فَعَنِ ادْمُعِي عَنْ زَفْرَتِي عَنْ لَوْعَتِي أَرْوِي الحَدِيثَ مُعَنْعَناً وَمُسَلْسَلاَ
مَن لِّي بِتَيْسِيرِ المَسِيرِ إِلَيْكُمُ فَأُصَمِّمَ العَزْمَ الَّذِي لَنْ يَكْسَلاَ
وَ أُصَارِمَ القُرْبَى وَ أَهْجُرَ مَوْطِناً وَأَجُوبَ حَوْمَاتٍ أُنَعَّى عَنْ سَلاَ
فَلَوِ القَضَاءُ أَتَاحَ مَا عُلِّمْتُهُ مَا كُنْتُ مِمَّنْ فِي البِدَارِ تَرَسَّلاَ
حَتَّى أَحُلَّ مَثَابَةَ الْفَضْلِ الَّذِي لِسِوَاهُ قَلْبِي بَعْدَهُ مَا اسْتَرْسَلاَ
فَأَكُونَ فِي رَأْيِ كَذَائِنٍ حَنْظَلٍ كَرِهَ العَبِيرَ وَ عَافَهُ فَاسْتَعْمَلاَ
أَوْ يُنْعِمُ اللَّهُ الكَرِيمُ بِرَجْعَةٍ يَرْوِي بِهَا خَبَرَ السُّرُورِ مُسَلْسَلاَ

---

376) سجسجا ليس فيه حرٌّ ولا برد.

377) الإبسال . التحريم.

378) البُسلا · الشجاع والمتعبس غضبا.

– و قال الإمام الصّالح الزّاهد الشهير، أبو العباس، أحمد بن عاشر الأندلسي، دفينها :

سَلاَ كُلُّ قَلْبٍ غَيْرَ قَلْبِي مَا سَلاَ   أَيَسْلُو بِفَاسٍ وَالأَحِبَّةُ فِي سَلاَ
بِهَا خَيَّمُوا فَالقَلْبُ خَيَّمَ عِنْدَهُمْ   فَأَجْرَوْا دُمُوعِي مُرْسَلاً وَمُسَلْسَلاَ

أمّا ما صدر من ابن الخطيب في حقّ سلا نظما ونثرا، فسياتي عند الكلام على أخباره أيام مقامه فيها.

– ولأبي فارس عبد العزيز المَلْزوزي مادحا سلا، وواصفا حركة القطائع البحرية بواديها :

لِلَّهِ دَرُّكِ يَا سَلاَ مِنْ بَلْدَةٍ   مَنْ لَمْ يُعَايِنْ مِثْلَ حُسْنِكِ مَا اشْتَفَى
قَدْ حُزْتِ بَرًا ثُمَّ بَحْرًا طَامِيًا   وَبِذَاكَ زِدْتِ مَلاَحَةً وَتَزَخْرُفَا
وَإِذَا رَأَيْتَ بِهَا القَطَائِعَ خِلْتَهَا   طَيْرًا يَحُومُ عَلَى الوُرُودِ مُرَفْرِفَا
وَالجَاذِفِينَ عَلَى الرَّكِيمِ كَأَنَّهُمْ   قَوْمٌ قَدِ اتَّخَذُوا إِمَامًا مُسْرِفًا
جَعَلَ الصَّلاَةَ لَهُمْ رُكُوعًا كُلَّهَا   وَأَتَى لِيَشْرَعَ فِي السُّجُودِ مُخَفِّفَا
وَالْمَوْجُ يَأْتِي كَالجِبَالِ عُبَابُهُ   فَتَظُنُّهُ فَوْقَ المَنَازِلِ مُشْرِفَا
حَتَّى إِذَا مَا المَوْجُ أَبْصَرَ حَدَّهُ   غَضَّ العِنَانَ عَنِ السُّرَى وَتَوَقَّفَا
فَكَأَنَّهُ جَيْشٌ تَعَاظَمَ كَثْرَةً   قَدْ جَاءَ مُزْدَحِمًا يُبَايِعُ يُوسُفَا

– وقال أخونا، أبو عبد الله، مَحمد في الموضوع واصفا عشي أُنسٍ مع بعض الإخوان والأخدان الخلاّن، على نهر أبي رقراق .

رَاقَ العَشِيُّ عَلَى أَبِي رَقْرَاقِ   وَرَقَى وَرَقَّ بِمَائِهِ الرَّقْرَاقِ
وَصَفَا الزَّمَانُ وَتَمَّ أُنْسُ جَمِيعِنَا   وَسَقَانَا مِنْ خَمْرِ المَسَرَّةِ سَاقِ
مَعْ فِتْيَةٍ طَابَتْ مَحَاسِنُهُمْ وَقَدْ   فَاقُوا بِحُسْنِ الخَلْقِ وَالأَخْلاَقِ
مَا مِنْهُمُ إِلاَّ أَدِيبٌ شَاعِرٌ   ذُو عِفَّةٍ وَنَزَاهَةٍ وَوِفَاقِ
أَوْ مُونِسٌ يُنْسِيكَ طِيبُ حَدِيثِهِ   مَا فِي بُطُونِ الكُتْبِ وَالأَوْرَاقِ
أَوْ مُنْشِدٌ يَشْدُو فَيُطْرِبُنَا بِمَا   يُزْرِي بِإِبْرَاهِيمَ أَوْ إِسْحَاقِ

أَوْ بَدْرُ تَمٍّ فِي المَلاَحَةِ مُفْـــــرَدٌ أَوْ فَاتِكٌ يُسْبِيكَ بِالأَحْــــدَاقِ
أَوْ أَهْيَــفُ يَزْهُو بِلِيــنِ قَوَامِــهِ أَوْ شَادِنٌ يَسْطُو عَلَى العُشَّـــاقِ
وَالْجَوُّ طَلْقٌ وَالنَّسِيـــمُ مُعَطَّــرٌ وَالوَقْتُ فِي زَهْوٍ وَفِي إِشْـــرَاقِ
وَالنَّهْرُ يَنْسَابُ انْسِيَابَ الأَيْمِ فِي لَمَعَانِــهِ وَصَفَائِــهِ الْبَـــرَّاقِ
وَالْفُلْكُ تَجْرِي كَالرِّيَاحِ وَتَـــارَةً تَرْسُو وَتَطْرُقُ أَيَّمَا إِطْـــرَاقِ
تَدْنُو وَتَبْعُدُ بِالْمَجَاذِفِ فَهْيَ مَا بَيْنَ افْتِـرَاقٍ دَائِمًا وَتَـــلاَقِ
فَكَأَنَّهَا صَبٌّ يَرُومُ الْوَصْلَ مِنْ ظَبْيٍ نَفُورٍ غَيْرِ ذِي مِيثَـــاقِ
وَعَنِ اليَمِينِ تَرَى رِيَاضًا أَزْهَرَتْ وَزَهَتْ بِشَــذْوِ الوُرْقِ فِي الأَوْرَاقِ
وَعَنِ الشِّمَالِ تَرَى مُرُوجًا أَيْنَعَتْ وَسَمَتْ بِطِيبِ نَسِيمِهَا الْخَفَّـاقِ
فَـإِذَا نَظَرْتَ نَظَرْتَ حُسْنًا بَاهِـــرًا مَلَكَ الْجَوَارِحَ مِنْ حَشًى لِتَرَاقِي
يَا حُسْنَهَا مِنْ جَلْسَةٍ لَوْ لَمْ تَكُــنْ قَدْ شِيبَ صَفْوُ مِزَاجِهَا بِفِـرَاقِ
لَمْ أَنْسَ مَوْقِفَنَا وَكُلٌّ قَدْ غَــدَا يَبْكِي بِدَمْــعٍ سَائِلٍ مِهْـــرَاقِ
إِنَّ النَّوَى سَيْفٌ عَلَى أَهْلِ الْهَوَى مَـازَالَ مَسْلُـولاً عَلَى الأَعْنَـــاقِ
إِنِّـي لأَرْجُـــو أَنْ يَعُــودَ وِصَالُنَـــا وَالْعَوْدُ أَحْـــمَدُ لِي عَلَى الإِطْلاَقِ

– وقال أبو عبد الله المُرابِط الدِّلائي :

نَــادَيْتُـــهُ أَنْ عَلِّلَنِّـــي بِنَـظْـرَةٍ فَـأَجَابَنِي : إِنَّ الْحَبِيبَ سَلاَ سَــلاَ
فَـغَـدَوْتُ مَكْلُومَ الفُـؤَادِ مُـتَـيَّـمـــًا بِهَوَاهُ إِذْ نَادَى الحِجَا بِسَلاَ سَــلاَ

ولمَّا زارها الإمام، أبو علي اليوسي، رحمه الله، سنة اثنتين وثمانين وألف (1082/1671)، وشاهد مشاهدها، وصف بهذه القصيدة معاهدها وحالها، فقال :[379]

سَلاَ القَلْبُ فِي مَرْسَى سَلاَ وَتَحَمَّلَتْ رَكَائِبُ هَمٍّ كُنَّ خَيَّمْنَ فِي الصَّـدْرِ
وَأَطْلَعَ فِي نَفْسِ السُّرُورِ شُمُوسَـهُ بِبِيضٍ مَبَانِيهَا وَأَمْوَاهِهَا الخُضْــرِ
بِـــلاَدٌ بِكِلْتَــا ضَفَّـتَيْـهَـا كَـأَنَّهَـا وِشَاحَانِ أَوْ جَفْنٌ عَلَى ذَلِكَ النَّهْـــرِ

---

379) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

عَلَى نَهَرٍ يَلْقَاكَ يَبْرُقُ مُصْلَتًا ... وَإِنْ حَلَّ ذَاكَ الْجَفْنُ أَغْضَى عَلَى كَسْرِ
بِهَا أَثَرُ الْحُسْنِ الْقَدِيمِ كَأَنَّهُ ... رُسُومٌ عَلَى سَجْفٍ مِنَ الْحِبَرِ الْحُمْرِ
فَيَا لَكَ مِنْ مَرْءًا صَبِيحٍ وَمَتْجَرٍ ... رَبِيحٍ وَسُلْوَانٍ مُرِيحٍ مِنَ الْهَجْرِ
وَلَكِنَّهَا شَنَّ الْخَرَابُ إِغَارَةً ... عَلَيْهَا فَأَقْوَتْ مُذْ سِنِينَ وَمُذْ دَهْرِ
فَلَوْلاَ مَزَارُ الصَّالِحِينَ مُنِيرَةً ... بِهَا ظُلَمَ الأَحْزَانِ كَالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَفُلْكٍ بِهَا مِنْ كُلِّ جَرْدَاءَ قَدْ غَدَتْ ... لَهُمْ فَلَكًا مِنْ فَوْقِ أَمْوَاجِهَا الْغُرِّ
جَوَارٍ بِأَبْطَالٍ حُمَاةٍ حَوَافِلٍ ... لِغَزْوِ الأَعَادِي مِنْ عَوَانٍ وَمِنْ بِكْرِ
وَسَاحِلِ صِدْقٍ كَانَ مَحْجُوجَ نَاسِكٍ ... يُلَبِّي الْمُنَادِي فِيهِ يَوْمًا مِّنَ الدَّهْرِ
لَمَا كَانَ حَقًّا أَنْ يَكُونَ ازْدِيَارُهَا ... وَظِيفَةَ حُرٍّ أَوْ تَمُرُّ عَلَى فِكْرِ

– وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد القادر التَّسْتاوْتي متشوِّقاً إليها .

أَلاَ عَرِّجَا مِنْ جَانِبِ الْغَوْرِ مِنْ سَلاَ ... وَإِنْ جِئْتُمَاهَا فَاسْئَلاَ الْبَدْرَ هَلْ سَلاَ
فَإِنِّي إِلَى تِلْكَ الأَمَاكِنِ شَيِّقٌ ... وَمِنْهَا يُرَى دَمْعِي عَلَى الْخَدِّ مُرْسَلاَ

– وقال أيضا مخاطبا أهل وُدِّه من سلا :

أَقُولُ لأَهْلِ الوُدِّ مِنْ سَاكِنِي سَلاَ ... سَلَوْتُمْ وَعَنْكُمُ إِخْوَانِيَ الْقَلْبُ مَا سَلاَ
لَكُمْ مِّنْ فُؤَادِي مَنْزِلٌ مَا أَجَلَّهُ ... سَمَوْتُمْ بِهِ بَيْنَ الأَحِبَّةِ فَاعْتَلاَ

– وقال الأديب أبو عبد الله محمد ابن الحاج الفاسي متشوِّقاً إلى رَبْعِ سلا وساكنيه :

أَأَهْلَ سَلاَ إِنِّي مَشُوقٌ لِّرَبْعِكُمْ ... لأَلْقُطَ مِنْ أَشْعَارِكُمْ حِلْيَةَ النَّحْرِ
وَمَا هُوَ إِلاَّ الدُّرُّ نُظِّمَ عِنْدَكُمْ ... وَلاَ غَرْوَ يُلْفَى الدُّرُّ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ
وَلِلْقَلْبِ سِرٌّ فِي سَمَاعِ حَدِيثِكُمْ ... لِيَعْلَمَ كَيْفَ النَّفْثُ فِي عُقَدِ السِّحْرِ

– وقال الأديب أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرُّوداني :

خَلِيلِي إِنَّ أَهْلَ سَلاَ أُنَاسٌ ... بُدُورًا فِي الهِدَايَةِ أَوْ شُمُوسَا
ولا يَفْنِي فَضَائِلَهم مَّدِيحٌ ... وَلَوْ أَفْنَى القَرَاطِيسَ والطُّرُوسَا

– وقال القاضي العلاّمة، السيد عبد الواحد ابن المَوّاز في سلا، لمّا حلّ بها مرجعه من مرّاكش، سنة إحدى وثلاثمائة وألف (1918/1301)، وزار رجالها، وكان نزوله بروض قاضيها العلاّمة أبي الحسن علي بن مَحمَّد عوّاد.

بِثَــغْــرِ سَــلاَ سَلَوْتُ عَنِ الْهُـمُــومِ	وَنِلْتُ الْفَــــضْلَ مِنْ أَهْلِ الْعُلُومِ
وَزُرْتُ رِجَــالَهَــا وَحَلَلْتُ رَوْضًــا	يَفُـوقُ عَـبِـيـرُهُ عَــرْفَ النَّسِيــمِ
فَـمَـا رَاءٍ كَـمَنْ سَـمِعَ المَـعَـالِـي	جَـمِيعُ شُـؤُونِهَـا شَـأْنُ الكَرِيــمِ

– وقال أيضا في هذه الرحْلة، في وَلِيِّها، الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر :

إِنْ تُرِدْ سُــؤْلَــكَ بَــادِرْ	وَاقْــصِــدِ الشَّــيْخَ ابْنَ عَــاشِـرْ
وَسَــلِ اللَّــهَ لَدَيْــهِ	تَجِــدْ أَمْــرَكَ حَــاضِـرْ
بِسَــلاَ يَسْلُو فُــؤَادِي	وَبِهَـا فَـافْــخَـرْ وَفَـاخِـرْ

– وكـان الشّـاعر الأديب، الشـيخ صـالح أبو رزق، خـاطبنا بقصـيـدة في غرض من الأغراض، استهلّها بمدح سلا وأهلها فقال :

سَلُو فُؤَادِي عَنِ الأَحْبَابِ كَيْفَ سَـلاَ	هَوَاهُـمُ وَارْتَضَى ذُلَّ الْهَـوَى بِسَــلاَ
أُفَـضِّلُ الذُّلَّ فِي أَرْضِ الكِرَامِ عَلَـى	رَفَاهَةِ العَيْشِ مَعْ مَنْ قَدْ رَنَا جَهِـلاَ
سَلاَ سُلُـوِّي إِذَا مَا جِئْـتُ أَرْبُعَهَـا	فِيهَا هَنَائِي وَفِيهَا الأُنْسُ قَدْ كَمُـلاَ
أَرْضُ الوَفَاءِ وَأَرْضُ الصِّدْقِ تُوحِشُنِي	إِنْ غِبْتُ عَنْهَا فَلاَ شَيْئًا أَرَاهُ حَـلاَ
سَـلاَ سُلُـوِّي رَعَـاهُ اللَّـهُ مِنْ بَلَدٍ	مَلْجَـا الْغَـرِيبِ الذِي عَنْ أَهْلِهِ رَحَلاَ
مَنَـازِلٌ فِـيـهَـا لَمْ تُطْفَئْ مَـوَاقِدُهَـا	وَسَـائِلُ الرِّفْدِ لَمْ يَسْمَعْ جَوَابَـهُ لاَ
فِيهِ الأَحِبَّةُ وَالإِخْـوَانُ تَجْمَعُهُــمْ	مَحَبَّةٌ قَدْ غَدَتْ بَيْنَ الْوَرَى مَثَــلاَ
شَمْسُ السُّعُودِ بَدَتْ فِي أُفْقِ بَلْدَتِهِمْ	وَالطَّيْرُ غَنَّى عَلَى غُصْنِ النَّقَا زَجَـلاَ
لَمَّا الْبَشِيرُ بِصَوْتِ الأُنْسِ صَاحَ بِهِمْ	هَبُّوا سَرِيعًا فَوَقْتُ الزَّهْوِ قَدْ وَصَلاَ
مَـعَـالِمُ الأُنْسِ وَالأَفْرَاحِ قَـدْ ظَهَـرَتْ	وَعَمَّتِ الدُّورَ وَالأَسْوَاقَ وَالحِلَلاَ... الخ

– وقال أديب رباط الفتح، وصاحب آيات الفتح، أبو عبد الله محمد بوجندار، مادحا سلا، ومُهَنِّئاً بعض أدبائها لحلّ لُغْزٍ كان موضوع مسابقة أدبية شعرية بينهم :

أُهَيْلَ سَلاَ الغَـرَّاءِ شُكْرًا عَلَى شُكْرٍ فَقَدْ أَشْرَقَتْ مِنْ فِكْرِكُمْ غُرَّةُ الشِّعْـرِ
بَهَــرْتُمْ بِآيَاتٍ أَضَلَّتْ بِهَـدْيِهَــا وَلاَ غَرْوَ فَالإِضْلاَلُ مِنْ آيَةِ السِّحْــرِ
وَطَوَّقْـتُمْ جِيـدَ الزَّمَـانِ وَنَحْـــرَهُ بِدُرٍّ نَفِيسٍ جَاءَ مِنْ أَنْفَسِ الـــــدرِّ
إِذَا ذُكِرَ السَّـادَاتُ كُنْتُم وَحَـقِّكُـمْ كَفَاتِحَةِ التَّنْزِيلِ فِي أَوَّلِ الذِّكْــــرِ
يَطِيبُ لَنَا مَـدْحٌ بِطَيِّبِ رَبْعِكُــم أَخِي الْحِلْمِ وَالْمَجْدِ المُؤَثَّلِ وَالْفَخْـرِ
لَقَدْ طَـابَ خَلْقًا ثُمَّ خُلْقـًا أَمَا تَـرَى شَمَائِلَهُ طَابَتْ عَنِ الْعَنْبَرِ الشِّحْــرِي
أَيَا طَيِّبًا رَقَّــتْ مَفَـاتِيــحُ لُغْـــزِهِ لِيَـهْنِيكَ فَـتْحٌ رَاقَ مِـنْ سَـادَةٍ غُــرٍّ
فَمَا مِنْهُـــمُ إِلاَّ صَبِيحِــيُّ طَلْعَــةٍ سَنَاهَا رَوَاهُ الصُّبْحُ عَنْ طَلْعَةِ الْفَجْرِ
وَمَـا ثَــمَّ إِلاَّ فَــرْقَـدَانِ تَعَـالَيَـا عَلَى هَامَةِ الْجَوْزَاءِ وَالأَنْجُمِ الزُّهْـــرِ
بَقِيتُمْ وَلاَ زَالَـتْ إِلَيْكُـمْ مُشِيـرَةً أَكُفُّ الوَرَى إِنْ قِيلَ مَنْ سَادَةُ الْعَصْرِ؟
وَدُمْتُ إِذَا عَطَّرْتُ نَادِي بِمَـــدْحِكُمْ كَأَنِّي أَفُضُّ الْخَتْمَ عَنْ قَدَحِ الْخَمْـــرِ

وسياتي الجواب عن هذه القطعة عند الكلام على رباط الفتح ووصفه.

– وقال الشاعر المطبوع، أبو محمد عبد الله القبّاج :

سَلاَ بَلْدَةٌ بِالْغَـرْبِ لَيْسَ لَهَـا بِـــهِ نَظِيرٌ وَلاَ رَسْـمٌ يُشَابِـهُ رَسْمَهَـــا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ خَـيْـرَ الْبِـلاَدِ بِأَسْـرِهَا لَمَا كَتَبَ الرَّحْـمَانُ فِي كَفِّنَا اسْمَـهَا

يشير إلى أنَّ أصابع الكفِّ تدلُّ على اسم سلا، يعني أنَّ الخِنْصير والبِنْصير والوُسْطى بمنزلة حرف السين، والسبابة والإبهام بمنزلة حرف لام الألف.

– وقال أيضا من قصيدة طويلة خصَّصها للإشادة بمدح فاس ورباط الفتح وسلا.

وَبَيْــنَ زَنَاتَـةَ وَالصَّـفِّ غِـيــدٌ كَأَمْثَــالِ الجَــآذِرِ مَائِسَـــاتِ
تَذِلُّ لَهَا الأُسُودُ فَـهَـلْ سَمِعْـتُـمْ بِأَنَّ اللَّيْـثَ يَعْنُـــو لِلْمَهَـــاتِ
عَــوَاطِلُ مِنْ ثَمِــينِ الْحِلْيِ لَكِــنْ مِنَ الْحُسْنِ الْبَدِيعِ مُحَلَّيَـــاتِ
دِمَـاءُ العَـاشِـقِـينَ لَهُمْ جُـفَـارٌ بِـسَلاَ قَـوَدٍ تُـرَاقُ وَلاَ دِيَـــاتِ
مَـصَـابِيـحٌ إِذَا سَـفَـرُوا بِلَيْـلٍ حَسِبْتَــهُ لاَبِسـًا لِّلْخُنَّسَـــاتِ
مُـرَنَّحَـةٌ مَـعَـاطِفُـهُـمْ صُحَـــاةٌ تَفِيـضُ عُيُونُهُـــمْ بِالْمُسْكِـرَاتِ

لَهُمْ صُوَرٌ كَأَنَّ الْحُسْنَ صَبٌّ ... فَقِيرٌ قَدْ أَتَاهَا لِلزَّكَاتِ
وَأَلْفَاظٌ إِذَا الْمَخْمُورُ مِنْهَا ... تَدَاوَى لَمْ يَزَلْ فِي عَافِيَاتِ
وَأَسْنَانٌ تُقَدِّيهَا اللَّآلِي ... وَيَحْسُدُهَا الْعُقَارُ عَلَى الشِّفَاةِ
بِأَعْيُنِهِمْ يَجُولُ السِّحْرُ حَتَّى ... تَكَادُ تَقُولُ أَسْحِرُ سَاحِرَاتِ
لِشَوْقٍ سَنَى الصَّبَاحِ إِلَى لِقَاهُمْ ... تَنَفَّسَ ثُمَّ أَلْقَى بِالْعَصَاةِ
إِذَا بِقِبَابِهِمْ سَفَرَتْ ظِبَاهُمْ ... جَزَمْتَ بِأَنَّهُمْ نَسْلُ السَّرَاةِ
سَقَتْهُمْ أَعْيُنُ الأَنْوَاءِ دَمْعاً ... يَسِيلُ بِخَدِّ تِلْكَ الأَوْدِيَاتِ
وَلاَ دَرَسَتْ نَوَادِي الْحُسْنِ مِنْهُمْ ... وَلاَ يَرِحُو جَمَالَ الأَنْدِيَاتِ
هُمُ بِالْقَلْبِ لاَ بِالْخَيْفِ حَلُّوا ... وَفِيهِ بَنَوْا مَنَازِلَ سَامِيَاتِ
أَقَامُوا فِيهِ بَعْدَ رَحِيلِ صَبْرِي ... فَأَمْسَى عَامِراً بِالْمُحْصَنَاتِ
سَلَوْتُ بِهِنَّ عَنْ صَحْبِي وَأَهْلِي ... وَعَنْ كُلِّ الْحِسَانِ الْغَانِيَاتِ
سَلاَ يَا صَاحِبَيَّ سَلاَ عَلَيْهِنْ ... كِرَامِ الْعُرْبِ وَالْقَوْمِ الثِّقَاةِ
سَلاَ مَنْ قَدْ عَرَفْتَ وَلاَ تُبَالِي ... بِأَقْوَالِ الْعَوَاذِلِ وَالْوُشَاةِ
لَعَمْرُ أَبِيكَ إِنَّهُمُو بُدُورٌ ... وَشَمْسٌ فِي سَمَاءِ الْمَكْرُمَاتِ
بُدُورٌ مَّا بِهِمْ عَنَّا خَفَاءٌ ... وَهَلْ تَخْفَى بُدُورُ الْكَائِنَاتِ
بُدُورٌ شَأْنُهُمْ فِي الدُّورِ شَانٌ ... عَظِيمٌ غَيْرَ شَانِ النَّيِّرَاتِ
تُصَانُ نُفُوسُهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْنٍ ... وَلَيْسَ تُصَانُ عَنْ عَمَلِ الْهُدَاةِ
نَفَائِسُ أَنْفُسٍ كَالْمِسْكِ تَذْكُو ... نَوَافِحُهُ وَتَسْرِي فِي الذَّوَاتِ
أَنَالَهُمُ التَّوَاضُعُ كُلَّ مَجْدٍ ... فَسَادُوا بِالتَّوَاضُعِ كُلَّ عَاتِ
فَكَانَ لَنَا سُرُورٌ حَيْثُ كَانُوا ... وَكَانَ لَهُمْ ثَنَاءٌ حَيْثُ نَاتِي
لَقَدْ تَمَّتْ صِفَاتُ الْحُسْنِ فِيهِمْ ... تَمَامَ الْمَجْدِ فِي حُسْنِ الصِّفَاةِ

– ولمَّا وقف على هذه القصيدة أديب سلا وشاعرها، المرحوم، أبو المِسْك، السيد الحاج الطيب عوَّاد أجاب عنها بقوله :

بَنَاتُ الْفِكْرِ تُخْطَبُ كَالْبَنَاتِ ... وَمِنْ خُطَّابِهَا الْكُفْؤُ الْمُوَاتِي
بَدَتْ فَسَبَتْ نُهَى الْبُلَغَا بِسِحْرٍ ... حَلاَلٍ لِلْعُدُولِ وَلِلْقُضَاةِ

تَقَاصَرَتِ السَّجَايَا الْـغُرُّ عَمَّــا ... لَهَا فِي الْحُسْنِ مِنْ أَسْنَى الصِّفَاةِ
لَقَدْ حَيَّتْ فَأَحْيَتْ كُلَّ حَيٍّ ... وَحُسْنُ حَيَائِهَا رُوحُ الْحَيَاةِ
دَعَتْنِي مُفْرَدًا لِبِسَاطِ أُنْسٍ ... وَإِنْ عَمَّ الدُّعَا كُلَّ الْجِهَاتِ
تُؤَزِّرُهَا السَّعَادَةُ بِانْتِشَارٍ ... مِنَ الأَقْصَى إِلَى نَهْرِ الْفُرَاتِ
هِيَ الْغِيدُ التي أَمْسَتْ تُنَادِي ... بِنَادِي الأُنْسِ هَاتِ الرَّاحَ هَاتِ
سَكِرْتُ بِخَمْرِ رِقَّتِهَا اضْطِرَاراً ... وَلاَ سُكْرَ الْغَوَانِي الْمُطْرِبَاتِ
وَمُذْ أَمَّتْ سَلاَ وَالشَّوْقُ يَنْمُو ... وَمَا عَنْهَا سَلاَ أَهْلُ الثَّبَاتِ
وَعَنْهُمْ قَدْ رَوَتْ كُتُبًا صِحَاحًا ... لأَعْلاَمٍ جَحَاجِحَةٍ هُدَاةِ
تَحَمَّلَهَا الأَدِيبُ الْفَرْدُ عَنْهُمْ ... فَعُدَّ الْيَوْمَ رُكْنًا لِّلدُّعَاتِ
وَبَرَّزَ فِي الْبَلاَغَةِ عَنْ سِوَاهُ ... وَفِي الرُّتَبِ الْعَوَالِي الشَّامِخَاتِ
أَلاَ إِنَّ الْفَصَاحَةَ فِي قُرَيْشٍ ... وَمِنْهُمْ حَازَهَا أَهْلُ الأَنَاةِ

– وقال الأديب، أبو محمد، عبد الله بن محمد الحسني الشِّنْقيطي، بتشطير أبي محمد عبد الله القبّاج :

عَرِّجْ مُقِيمًا بَيْنَ الإِنْجَاحِ ... بِمَدِينَةِ الْعُلَمَاءِ وَالصُّلاَّحِ
وَأَنِخْ مَطِيَّكَ عِنْدَ بَابِ حَسَايِنِ ... بِسَلاَ السَّلاَمِ وَمَعْدِنِ الإِصْلاَحِ
حَيْثُ الْمَكَارِمُ خَيَّمَتْ وَتَبَسَّمَتْ ... لِلْوَافِدِينَ تَبَسُّمَ الإِصْبَاحِ
حَيْثُ الْهُدَى لَمَّا بَدَا كَشَفَتْ لَنَا ... غُرُّ الْعُلَى عَنْ ثَغْرِهَا الْوَضَّاحِ
وَغَدَا عِمَادُ الدِّينِ رُكْنًا عَالِيًا ... بِحِمَاهُ رَغْمَ عَوَاصِفِ الأَرْيَاحِ
وَغَدَا مَنَارُ الْعِلْمِ صَرْحًا شَاهِقًا ... فِي جَوِّهِ مُتَعَاضِدَ الأَلْوَاحِ
وَغَدَتْ رِيَاضُ الْمَجْدِ زَهْوًا زَاهِرًا ... وَهَزَارُهَا يَشْدُو عَلَى الأَدْوَاحِ
وَأَرِيجُهَا لَمَّا سَرَى فَوْقَ الثَّرَى ... عَمَّ الْبِلاَدَ بِشَذْوِهِ الْفَوَّاحِ
وَانْهَلَّ غَيْثُ الْفَضْلِ سَهْلاً طَيِّبًا ... وَالْفَضْلُ غَيْثٌ فِي سَمَاءِ سَمَاحِ
فَسَقَى بَنِيهَا أَجْمَعِينَ وَلَمْ يَزَلْ ... تَبْدُو عَوَارِضُ بَرْقِهِ اللَّمَّاحِ

– وقال أخونا، أبو عبد الله، مَحمَّد، من قصيدة :

لِسَلاَ مَعَالٍ شَأْوُهَا لاَ يُلْحَقُ مِنْ دُونِهَا سُورُ الْمَهَابَةِ مُحْدِقُ
وَبِهَا تَرَى غُصْنَ الْمَعَارِفِ مُثْمِراً وَبِهَا بَدَا نُورُ الْعُلُومِ الْمُشْرِقُ
بَلَدٌ بِهِ حَلَّ الْكِرَامُ وَخَيَّمُوا بَلَدٌ بِهِ أَصْلُ الْفَصَاحَةِ مُعْرِقُ
بَلَدٌ لأَهْلِ الْعِلْمِ أَضْحَى مَوْطِناً مَنْ عِلْمُهُمْ مُتَلاَطِمٌ يَتَدَفَّقُ
أَهْلُ الْبَلاَغَةِ وَالْبَرَاعَةِ وَالنَّدَى مَا مِنْهُمُ إِلاَّ فَصِيحٌ مُفْلِقُ
فَهُمُ الأُلَى طَابَ الْمَدِيحُ بِذِكْرِهِمْ وَبِشِعْرِهِمْ جِيدُ الزَّمَانِ مُطَوَّقُ
يَحْكِي قَرِيضُهُمُ إِذَا مَا نُظِمَتْ أَبْيَاتُهُ عِقْداً نَفِيساً يُنَسَّقُ
وَإِذَا هُمُ مَدَحُوا فَذَاكَ الشَّهْدُ بَلْ دُرُّ الْبُحُورِ عَلَى النُّحُورِ مُعَلَّقُ
وَإِذَا هُمُ فَخَرُوا تَقُولُ تَعَجُّباً هَذَا السَّمَوْءَلُ أَوْ حَبِيبٌ يَنْطِقُ
هَذِي مَقَالَةُ شَاعِرٍ أَشْعَارُهُ سِحْرٌ عَلَيْهِ مِنَ الْبَلاَغَةِ رَوْنَق

– وقال الأديب، أبو زيد، عبد الرحمان بن أحمد حجّي السّلاوي :

أُسُّ الْمَفَاخِرِ فِي سَلاَ الْغَرَّاءِ ثَغْرِ الْجِهَادِ وَمَنْبَعِ الْعَلْيَاءِ
بَلَدٌ لَهَا الشَّرَفُ الصَّمِيمُ مُؤَثَّلُ عُرِفَتْ بِهِ كَالْغُرَّةِ الْبَيْضَاءِ
وَبِهَا الْحَيَاءُ مَعَ الْوَقَارِ مُخَيِّمٌ قَامَتْ عَلَى سَاقٍ بِكُلِّ وَفَاءِ
كَمْ أَنْجَبَتْ مِنْ مِصْقَعٍ أَوْ مِفْلِقٍ يُمْلِي جَوَاهِرَ حِكْمَةِ الْبُلَغَاءِ
لاَ يَسْتَقِرُّ بِهَا سِوَى أَهْلِ النُّهَى فَتَرَى لَدَيْهَا مَجْمَعَ الْبُلَغَاءِ
أَهْلُ الْفَصَاحَةِ وَالرَّجَاحَةِ وَالصَّبَا حَةِ وَالْمَلاَحَةِ ثَاقِبُوا الآرَاءِ

– وتذكّرت هنا قصيدة كانت صدرت منّي في وصف سلا وذكر مآثرها التاريخية، قلت فيها :

هَذِي سَلاَ مَأْوَى السُّرُورْ وَمَقَرُّ أَرْبَابِ الصُّدُورْ
أَرْضٌ بِهَا الأَعْيَانُ قَدْ شَادُوا الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورْ

وَبِهَا الحَضَارَةُ قَدْ زَهَتْ   بِالْعِلْمِ فِي مَاضِي الْعُصُورْ
"الْعَشْرِيُونَ"(380) سَمَوْا بِهَا   زَمَنًا كَمَا تَسْمُو البُدُورْ
حَلَّ "الْخَلِيفَةُ"(381) قَصْرَهُمْ   لَمَّا بِهَا كَانَ الْمُرُورْ
"وَبَنُو مَرِينٍ" شَيَّدُوا   "دَارَ الصِّنَاعَةِ"(382) وَالظُّهُورْ
"فَبِبَابِهَا"(383) الْعَالِي تَرَى   آيَاتِ مَجْدٍ فِي سُطُورْ
بُنْيَانُهَا الْمَرْفُوعُ سَمْـ   ـكُهُ بِالْجَنَادِلِ وَالصُّخُورْ
يُوحِي إِلَيْكَ جَلاَلَةً   وَمَهَابَةً تُذْكِي الشُّعُورْ
آثَارُهَا تُنْبِيكَ عَنْ   أَخْبَارِهَا مَرَّ الدُّهُورْ
منها "الأساطيل"(384) جُهِّزَتْ   لِلْغَزْوِ فِي لُجِّ الْبُحُورْ
فَتَكَاثَرَتْ أَجْفَانُهَا   وَتَضَافَرَتْ تَحْمِي الثُّغُورْ
مَخَرَتْ عُبَابَ الْيَمِّ تَا   سِرُ كُلَّ ذِي بَغْيٍ كَفُورْ
وَتَسُوقُهُ لِلذُّلِّ يُعْـ   ـلِنُ بِالْعَوِيلِ وَبِالثُّبُورْ
"وَابْنُ الْخَطِيبِ"(385) بِهَا ثَوَى   لَمَّا بِهِ حَلَّتْ أُمُورْ
فَسَلاَ وَطَابَتْ نَفْسُهُ   وَتَطَايَرَتْ عَنْهَا الشُّرُورْ
ءَاوَى إِلَى النُّسَّاكِ(386) يَرْ   جُو عَفْوَ رَبِّهِمُ الْغَفُورْ
"وَبِشَالَةٍ"(387) قَدْ كَانَ يَنْـ   ـدُبُ حَظَّهُ بَيْنَ الْقُبُورْ
أَكْرِمْ بِهَا مِنْ بَلْدَةٍ   فَلَكُ السُّعُودِ بِهَا يَدُورْ
فَلَهَا دَوَامًا رِفْعَةٌ   تَبْقَى إِلَى يَوْمِ النُّشُورْ

---

380) هم بنو عشرة الذين مصَّروا سلا وشيَّدوا بها قصورهم.
381) عبد المومن بن علي.
382) هي التي بُنِيَ في محلها ملاح سلا.
383) هو باب المُرِيسَى بقعر الملاح.
384) يعني أساطيل الجهاد القُرْصانيَة.
385) ابن الخطيب لما نُكب أوى إلى سلا وسكن بها.
386) زاوية النُّساك هي المشاهدة أطلالها خارج باب فاس، المعروف اليوم بباب الخميس.
387) شالة، أشهر من أن يُعَرَّفَ بها، وبها مدافن بني مرين.

هذه سلا، كما يراها الناظر على الضفة اليمنى للمصبّ من أعلى منار حسَّان، وما يتجلَّى في فكره من مناظرها ومآثرها الخالدة وأوصافها الحِسَان.

وعلى الضفة اليسرى للمصبّ
شقيقتها : رباط الفتح

رباط الفتح، ذو المحاسن التي لا يستوفيها الشَّرح ؛ دار هجرة الأندلسيين، وروْضة أجداث الملوك من ءآل مرين، والأشراف العلويين، حيث الرسوم الرومانية، والآثار المرابطية، والمباني المُوحِّدية، وأطلال القصور العبد المومنية، والأسوار اليعقوبية، ذات الحصون والأبراج العادية، والأبواب الشاهقة العالية، يتردَّد فيها صدى قَعْقَعَة سلاح الجيش الزّخار، والجُند المختار، لفتح الأقطار والأمصار، وخوض المعارك وراء البحار.

بلد انتشرتْ فيه أعلام الحضارة الأندلسية، وشُيدت به منشآت الدولة العلوية، كالمدرسة الرشيدية، والقصور الملكية، والمراكز الوزارية والإدارية.

وفي شمال غربه، قامت القصبة التاريخية، التاشفينية الموحدية المومنية المهدية، الفاصلة الواصلة بين النهر والبحر، في حالتي المد والجزر، تُمثّل في هيأتها وشكلها أسداً رابضا، أمام مُحيط كان فيما مضى سِراًّ غامضا.

ويتخيَّل الرائي من أعلى هذا المنار، أشباح الأساطيل الجرَّارة، التي كانت تغدو وتروح في الوادي في أحسن زي وأكمل شارة، سابحة في مياهه الرقراقة، رافعة في أعلى صواريها مصابيحها اللّماعة البرّاقة، ناشرة قلوعها وراياتها الخفّاقة، وإلى خوض لُجَج المحيط الأعظم توّاقة، تتكسَّر أمواج المدّ والجزْر على جوانبها، فترفعها وتخفضها، وتُدْنيها وتُقْصيها.

لَبِسَتْ بِهَا الأمْوَاجُ أحْسَنَ مَنْظَرٍ	يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاظِـرِ الْمُتَعَجِّـبِ
مِنْ كُلِّ مُشْرِفَةٍ عَلَى مَا قَابَلَـتْ	إشْرَافَ صَدْرِ الأجْدَلِ الْمُتَنَصِّبِ
جَوْفَاءُ تَحْمِلُ مَوْكِبًا فِي جَوْفِهَا	يَوْمَ الرِّهَانِ وَتَسْتَقِلُّ بِمَوْكِبِ
خَرْقَاءُ تَذْهَبُ إنْ يَدٌ لَمْ تَهْدِهَا	فِي كُلِّ صَوْبٍ لِلرِّيَاحِ وَمَذْهَبِ

ومن حولها الفُلْك والسُّفن الصغيرة جوّالة، تحمل الناس والبضائع مترنِّحة صاعدة نازلة مُختالة.

حَقّاً، إنَّ منظر العدوتين : السلاوية والرباطية ومصب واديهما، الفاصل بينهما، من أعلى منار حسّان، منظر خَلاَّب، يُسْحِرُ الألباب، ويوحي في النَّفس الشُّعور والإعجاب ؛ يُذكِّر ويُنْسِي بجماله الفتّان، قْيِينّا ودَانوبها، وباريسَ وسِينَها، ولونْدَرَةَ وتَاميزَها، وبغداد ودجلتها، والقُسْطنطينية وبُوسفُورَها.

وفي هذا المنظر الفائق الرَّائق، من ذلك العُلُوِّ الشاهق،

– يقول أخونا أبو عبد الله، مَحمد :

فَاقَتْ سَلاَ وَرِبَاطُهَا البُلْدَانَا	بِمَنَاظِرٍ تَحْكِي لَنَا بَغْدَانَا
وَبَدَتْ كَقُسْطَنْطِينَةٍ فِي هَيْأَةٍ	وَبَدَاعَةٍ أَحْسِنْ بِهَا إِحْسَانَا
وَغَدَتْ كَجَوْهَرَةٍ بِهَذَا الْمَغْرِبِ الأ	قْصَى تُحَلِّي جِيدَهُ الْمُزْدَانَا

هذا هو موقع الرباط، الذي كما قال ابن الخطيب :[388]

"... ظهر به من المنصور الاغتباط، حيث القصبة والسَّاباط، ووقع منه بنظره الاعتباط، فاتَّسع الخرق، وعَظُمَ الاشْتطاط".

لا، لقد تحقَّق فيه اغتباط المنصور، بعد أزمنة ودهور، فأصبح من أعمر الثغور، وهو اليوم عاصمة البلاد، ومركزها الإداري والسِّياسي الذي عليه المَدار والاعتماد، وبه الجُند والسُّلطان، والوزراء والأعيان ، وأضرحة الملوك ذوي التِّيجان، وهو محط الرِّحال، ومقصد الرِّجال، ومنتهى الآمال، ومحور الأعمال، ومجتمع الأمراء والباشاوات والعُمَّال. يؤمه الملوك والرؤساء والسفراء والأقيال. ومنه تصدر الأوامر، وفيه يجتمع الوارد والصادر. دار الإمارة، وبلد الحضارة، ومحور التجارة، والحركة والعمارة، حيث الشوارع المشروعة الواسعة المستقيمة، والصُّروح الشامخة الفخيمة، والمساجد والصوامع، والمدارس والمطابع، والمباني والمصانع، وأسواق ذوي الحرف والصنائع، والمكاتب الجامعية المفتحة الأبواب للباحث والمطالع، وملاجئ المرضى ومطاعم الجائع.

وإن طُفتَ متنقِّلاً في الأحياء والسَّاحات، رأيتَ سيَّارات ودرَّاجات وعجلات، وأعلاما خافقة ورايات، ومتاحف وفنادق ومنتديات وحانات وخانات، وقصوراً شماء ومنتزهات، ورَوَاشٍ في الحسن آيات.

388) «مقامات البلدان»، ص 105.

وإذا وصل وقت الأصيل، وهبَّ النَّسيم العليل، وكانت الشمس على أطراف النخيل، إصْطَفَّ على كراسي مقاهيه، وأروقة مبانيه، الخلُّ والخليل، والأديب والنبيل، يتجاذبون من أطراف الحديث كل قديم وحديث، ويتداولون الصحف والجرائد، وينصتون إلى ناقلة الأصوات والصور البعيدة والمشاهد، حتى يكون الغائب كالحاضر الشاهد، فيشاهدون مناظر الدنيا، ويسمعون ويقرؤون أخبار العالم على الأرائك والمقاعد، وقد ألبست الشمس حيطانه البيض حلَّة ذهبية، ونشرت أشعتها المُصفرَّة على خضرة رياضه السندسية، إلى أن يُقبل الظلام بجيوشه الزنجية، فَتُبَدِّدُها أنوار المصابيح الكهربائية.

وحينئذ تتشكل المناظر، وتتجلَّى ضروب الحسن للنَّاظر. فكم تسمع إذ ذاك من دور لهوه، وملاعبه السينيمائية، من جنك وعود، وأنغام تُذيب الجلمود، وتُزري بمزامير داوود، إلى غير ذلك ممَّا هو هنالك، ولو تتبَّعْناه لطال كثيرا، وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيما ومُلكا كبيرا...

وإنْ ولَّيت وجهك شطر المدينة، وتنقَّلت في أحيائها القديمة، وطفت في أسواقها، وأزِّقتها الضَّيِّقة والواسعة ومنعرجاتها، رأيت دكاكين، وحوانيت، مملوءة بالبضائع والقطائف، والمصْنوعات اللَّطائف، وأنواع المأكولات، وأصناف الفواكه والحلويات، المعروضة فوق الرَّصيف وسط الشارع، تُلْفتُ نظر المارّ، وتُغري النَّهم الجائع، فيشتدُّ الزحام، وتشتبك الأقدام، وتصطكُّ المناكب، ويتدافع الرَّاجل والرَّاكب، وترتفع الأصوات، بمختلف اللُّغات واللَّهجات، وتكثر المناجات والمسارَّات، والمحاجَّات والملاجَّات، بكثرة الحاجات، وكل يزكِّي قوله، وينزِّه عن الغشِّ والخديعة فعله، فتتدخَّل حينئذ الشرطة والوزعة، وتنزع بكل واحد منزعه. وفي الحقيقة إنه لَمَنْظَرٌ وأيُّ منظر، يذكِّر المتجول الجائل في فكره بيوم المحشر، والفزع الأكبر، فيقول الله أكبر.

دَعِ الناس في غفلاتهم، كادحين من أجل معيشتهم في أسواقهم، وعُجْ بربك إلى المساجد، تجدها مكتظَّة بكل راكع وساجد، وقانت وعابد، وشاكر وحامد، يُثني على ربه بسائر المحامد، ومُعتكف مقبل على الله، متدبِّر ما فيه من الأوامر والنواهي والزواجر في حق الملحد والجاحد، ﴿أولئك هم المومنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾.

وهناك طائفة أخرى من العلماء، خصَّصوا أنفسهم لنشر العلوم الدينية، وبيان الأحكام الشرعية، فأخلصوا دينهم للّه وذكَّروا بأيام الله، فهم عن اللَّغو معرضون، وبواجبهم قائمون، و﴿لأماناتهم وعهدهم راعون﴾، و﴿على صلواتهم يحافظون﴾، ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفِرْدوس هم فيه خالدون﴾.

وقد تذكَّرتُ هنا ما مرَّ لنا في عهد الشَّباب بالرباط، من أيام أفراح ونشاط، وانشراح وانبساط، وأنس واغتباط.

أيَّاما كانت عامرة، وأوقاتا زاهرة، بالدَّرس والتَّحصيل زاخرة.

أيَّاما كانت كأنَّها أعراس قائمة، مستمرَّة دائمة، ليلها كنهارها، وعشاياها كبكورها.

أيَّام حفلات، واجتمعات، ومذاكرات، ومساجلات، ومناظرات، ومحاضرات، متَّصلة الحلقات.

فيالها من منتديات ومجالس ! يستحليها ويستطيبها الجالس، وينقادُ إليها النَّفور الشَّامس، وينبسط فيها المحزون العابس، ويغشاها اليائس والبائس، فتذهب أتراحه، ويعود إليه انشراحه. تذكرنا أيام أدباء الفِرْدوس المفقود، والظلِّ الممدود، والحوض المورود، والتَّرف المعهود، بقرطبة واشبيلية وغرناطة، آخر مقام محمود، إلى أن أصابتها القارعة في اليوم الموعود، والأجل المحدود، لشاهد ومشهود، مع إخوانٍ أخدان، وأصدقاء وخُلَّان، صِنْوانٍ وغير صِنْوان، كأنهم أزهار أفنان، أو ياقوت ومرجان.

فحيَّا الله تلك الأيام ! ما كان أزهاها وأبهاها ! وألذَّها وأحلاها ! وما زال يتردَّد في الفكر صداها، فتنتعش النفوس من ذكراها، واستحضار مبتداها ومنتهاها.

– ومِمَّا جرى على لساني في ذلك الزمان الذي مضى، ومرَّ مرور الشريط السينيمائي وانقضى :

إِنَّ الرِّبَاطَ سَــبَـــا لُبِّي وَتَيَّــمَنِــي	وَأَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي شَجْوٍ وَفِي شَجَنِ
لأَنَّهُ قَـــــدْ حَــــوَى مِنْ كُلِّ آنِسَــةٍ	بَيْنَ الْحِسَانِ أَتَتْ كَالْبَدْرِ فِي الدُّجَنِ
فَـالوَرْدُ مِنْ خَدِّهَا اسْـتَـعَارَ حُمْـرَتَهُ	والشَّمْسُ فِي وَجْهِها تَجْرِي مَدَى الزَّمَنِ
وَكُلُّ شَيْءٍ بِهِ مُسْـتَـحْـسَنٌ حَـسَنٌ	وَكُلُّ نَفْسٍ بِهِ تَسْلُو عَنِ الْحَــزَنِ
فَـالرَّوْضُ مُـزْدَهِرٌ وَالزَّهْرُ مُنْتَـثِــرٌ	وَالْوُرْقُ أَعْـرَبَتِ الأَلْحَـــانَ فِي فَنَــنِ
وَفِـيـــهِ ظَبْيٌ غَـرِيرٌ كُلُّهُ غُـــرَرٌ	لاَ أَرْعَـوِي عَنْهُ فِي سِـرِّي وَلاَ عَلَــنِ
فِي طَرْفِـــهِ دَعَجٌ فِي ثَغْــرِهِ فَلَــجٌ	أَعْـيَا عُـقُـولَ ذَوِي الأَفْـهَـامِ وَاللُّسُنِ
وَالْقَدُّ يَحْكِيهِ غُصْنُ الْبَانِ فِي هَيَسٍ	وَخَـصْـرُهُ نَاحِلٌ وَالرِّدْفُ ذُو سِـمَــنِ
وَكُلُّ مَنْ رَءَاهُ سَــرَتْ مَـحَـبَّـتُـهُ	فِي قَلْبِهِ سَرَيَانَ الرُّوحِ فِي الْبَـــدَنِ
آهٍ عَلَى زَمَنٍ مَــرَّتْ مَـــحَـــاسِنُــهُ	وَعَيْشُهُ قَدْ مَضَى أَحْلَى مِنَ الْوَسَنِ

وَالْيَـوْمَ قَـدْ دَرَسَتْ عَنَّا مَـعَـالِمُـهُ كَـأَنَّ بَهْـجَـتَـهُ الْغَـرَّاءَ لَمْ تَكُـنِ
فَـاللَّهُ يُبْـقِـيـهِ مَـأْوَى كُلِّ غَـانِيَـةٍ حَسْنَاءَ مَعْ كُلِّ بَدْرٍ مُـحْسِنٍ حَسَـنِ

– وفيه قال أخونا، أبو عبد الله، مَحمَّد من البحر والرَّوي :

إِنَّ الرِّبَاطَ لَهُ فَـضْلٌ عَلَى الْمُـــدُنِ لأَنَّ فِـيــهِ سُلُوَّ الرُّوحِ وَالْبَـدَنِ
مَا شِئْتَ مِنْ رَوْضَةٍ غَنَّاءَ مُونِقَـــةٍ فِيـهَا الطُّيُورُ شَدَتْ زَهْوًا عَلَى فَنَنِ
وَالْغَيْثُ مُنْسَجِمٌ وَالزَّهْرُ مُبْتَسِـــمٌ والمـاءُ فِي جَـرْيِهِ كَـمُـرْهَفٍ يَـمَـنِ
وَفِيـهِ مَـا تَشْـتَـهِي مِنْ كُلِّ غَـانِيَـــةٍ حَوْرَاءَ تُسْبِي قُلَيْبَ العَاشِقِ الشَّجِنِ
إِنْ أَعْـرَضَتْ قَـتَلَتْ وَإِنْ بَدَتْ فَـتَنَـتْ وَإِنْ مَشَتْ قَدُّهَا فِي اللِّينِ كَالْغُصُنِ
أَوْ أَرْسَلَتْ فَرْعَـهَا مِنْ فَوْقِ عَـاتِقِهَا وَقَدْ بَدَا وَجْـهُـهَا فَـالْبَدْرُ فِي الدُّجَنِ
وَفِـيـهِ مَـا تَبْـتَـغِي مِنَ الْمَـرَامِ وَمِنْ مُنَعَّمٍ بَابِلِيِّ الطَّرْفِ تَيَّـــمَنِـي
إِذَا بَدَا خَـجِلَ الْبَـدْرُ الْمُنِيـرُ وَلَـمْ لاَ يَخْجَلُ الْبَدْرُ مِنْ ذِي الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ
فَـالْعَـيْنُ عَـيْنُ مَـهَـا وَالْقَـدُّ قَـدُّ قَنَا وَالرِّدْفُ يَحْكِي كَثِيبَ الرَّمْلِ فِي السِّمَنِ
إِذَا تَذَكَّـــرْتُ أَيَّامَ الوِصَـــالِ بِـــهِ تَشُبُّ فِي مُـهْـجَـتِي نَارٌ مِنَ الْحَـزَنِ
أَيَّامَ لاَ عَـــاذِلاً أَخْـــشَى يُؤَنِّبُنِي عَلَى الْحَـبِـيـبِ وَلاَ سُـهْـدًا يُؤَرِّقُنِي
لاَزَالَ مَـأْوَى الظِّبَاءِ الْغِيـدِ قَـاطِبَةً هَذَا دُعَـائِي لَهُ فِي السِّـرِّ وَالْعَلَـنِ

– ولمَّا خاطب الأديب المرحوم، أبو عبد الله محمد بوجندار أهل سلا، مادحا ومهنئا، أجبته بهذه القطعة، مادحا الرباط وأهله، وَمُنَوِّهًا بهم :

أُهَيْلَ رِبَاطِ الْفَـــتْحِ مِنِّي عَلَيْكُـمُ سَلاَمٌ يَفُوقُ الْمِسْكَ وَالْعَنْبَرَ الشَّحْرِي
فَـأَنْتُمْ بُدُورٌ قَـدْ عَنَتْ لَكُمُ الْعُـلاَ وَأَنْتُمْ بُحُورُ الْفَضْلِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ
وَأَنْتُمْ شُمُـوسُ الْمَـجْدِ حَقًّا وَنَظْمُكُمْ يَفُـوقُ نَفِيسَ الدُّرِّ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْـرِ
زَفَـفْـتُمْ لَنَا مِنْكُمْ عَـرَائِسَ طُوِّقَتْ بِمَـدْحِ سَلاَ تَخْتَـالُ فِي حُلَلِ الْفَـخْرِ
فَـيَـالَهُ مِنْ مَـدْحٍ كَـأَنَّ بُيُـوتَـهُ سَـبَـائِكُ تِبْـرٍ أَوْ قَـلاَئِدُ مِـنْ دُرِّ
سَمَوْتُمْ عَلَى الشِّعْرَى بِفَخْرِكُمُ الذِّي يَضِيقُ نِطَاقُ النَّثْرِ عَنْهُ مَعَ الشِّعْـرِ

بَقِــينَا أُهَيْلَ الْفَــتْحِ نَحْنُ وَأَنْتُم عَلَى غَايَةِ الإِحْسَانِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ
وَدُمْنَا كَـأَرْوَاحٍ بِجِـسْمٍ تَمَـازَجَــتْ كَمَا امْتَزَجَ المَاءُ الزُّلَالُ مَعَ الْخَمْرِ

– وأجابه أخونا، أبو عبد الله، محمد بهذه القصيدة، فقال :

أَتَتْ من رباط الفتح ذِي المَجدِ والفَخْرِ فَـتَـاةٌ غَـدَتْ تَزْهُـو بـأوصـافـهـا الغُـرِّ
فَتَاةٌ تَغَارُ الشَّمْسُ من حُسْنِ وَجْهِهَا وَطَلْعَـتُـهـا تُغْنِيكَ عَنْ طلعـةِ الْبَـدْرِ
فَـأَسْكَرَتِ الأَلْبَـابَ من خَـمْـرِ رِيقِـهـا وَقَـرَّطَتِ الأَسْـمَـاعَ من خـالصِ التِّبْرِ
وَأَرَّجَتِ الأَرْجَـاءَ مِنْ نَشْـرِ طِيـبِـهَـا وَأَهْدَتْ سَلاَمًا طَيِّبَ العَرفِ وَالنَّشْرِ
وَمَــا هِيَ إِلاَّ بِكْرُ فِكْرٍ تَوشَّــحَتْ وِشَـاحًـا مِنَ السَّعْدِ الْمُكَلَّلِ بِالْبِشْرِ
فَــأَبْيَــاتُهَـا عِــقْــدٌ تَنَاسَقَ نَظْمُــهُ وَآيَاتُهَـا تُزْرِي بِبَـابِلٍ فِي السِّــحْـرِ
فَـأَمْـهَـرْتُهَا قَلْبِي وَطَرْفِي وَمَسْـمَـعِي وَقَدْ سَكِرْتُ رُوحِي بِهَـا غَـايَةَ السُّكْرِ
وَقُلْتُ لَهَــا عِنْدَ الزِّيارة مَــرْحَـبًـا بِمَــحْـبُـوبَةٍ زُفَّتْ مِنَ الطَّيب الذِّكْـرِ
فَــتًّى فَــاقَ أَبناءَ الزَّمَــانِ بِنَظْمِــهِ وَجَــاءَ بِدُرٍّ أَخْــجَلَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّي
فَتًّى رَقَصَتْ فينا سَوَاجِعُ سَجْعِهِ على فَنَنِ الإِبْدَاعِ في رَوْضَـةِ الشِّـعْـرِ
أَيَا سَــيِّــداً رَقَّتْ نَتَــائِجُ فِكْرِهِ وَرَاقَتْ فَفَاقَتْ رُتْبَةَ الشَّمْسِ في الْفَخْرِ
حَـبَوْتَ سَـلاَ الغَـرَّاءَ مَـدْحًـا كَـأَنَّهُ قَــلاَئِدُ دُرٍّ قَــدْ أُنِيطَتْ عَلَى نَحْــرِ
فَـتَــاهَتْ دَلاَلاً مِن مَّـدِيحِكَ وَارْتَقَتْ فَــخْـرًا على الجَـوْزَاءِ وَالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
بَقِيـتُمْ أُهَيْلَ الفتحِ وَالسَّـعْـدُ خَـادِمٌ لِنَشْــرِ مَــعَـالِيكُمْ إِلَى آخِـرِ الدَّهْرِ

– وقال الشيخ أبو العبّاس، أحمد بن عبد القادر التَّاسْتاوتي، مُتشَوِّقاً إلى الرباط، أيام إقامته بمكناس :

خَلِيلِي إِنْ جِــئْتَ الرباط وَعَــا يَنْتَ الدِّيارَ وَأَبْصَرْتَ القِبَابَ بِأَعْلاَهَا
لَعَلَّكَ تَلْقَى بِالعُلُوِّ أُمَــيْــمَــةً وَتَسْـأَلُ عَنَّا وَالْجَوَى حَشْوَ أَحْشَـاهَا
بِرَبِّكَ نَبِّــئْــهَـا بِأَنِّي على الْهَــوَى مُـقِـيمٌ وَفي قَلْبِي وَطَرْفِي مَـثْـوَاهَا
وَمَا زادنا بُعْدُ المَزَارِ سِوَى الأَسَى وَسَكْبِ دُمُـوعٍ دَائِمًـا عِنْدَ ذِكْـرَاهَا
أَلاَ كَـيْفَ أَنْسَى مَنْ إذا مَـا تَبَـرَّجَتْ تَنَاسَيْتُ ضَوْءَ الشَّمْسِ سَاعَةَ مَرْآهَا

– ولمَّا مرَّ برباط الفتح، راجعا من الحضرة المُرَّاكشية، العلامة الشيخ، أبو عبد الله، مَحمَّد جنُّون الفاسي، ونزل على الشيخ العلامة، الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح، خاطبه بقصيدة استهلُّها بقوله :

بُشْــرَى لِطَالِعِ وَصْلِنَا يَا وَاسِــي ‏ ‏ ‏ بِحُلُــولِنَا بِمـعَـاهِــدٍ وَمَـرَاسِـــي
سَـمَحَ الزَّمَــانُ لَنَا بِجَـمْعٍ سَـلاَمَــةٍ ‏ ‏ ‏ بِأَحِـبَّـةٍ فِي أَبْهَـــجِ الأَعْـــرَاسِ
جَـمْعًـا أضـاءَ بِكُــلِّ حِبْرٍ سَـيِّــدٍ ‏ ‏ ‏ يُسْـلِـي عَنِ الأَوْطَانِ سَلْـوَةَ نَـاسِي
جَـمْعًـا تَنَاهَـى لاَ مَـثِـيلَ لِفَـــرْدِهِ ‏ ‏ ‏ مُـتَنَزِّهًـا عن سَـاحَــــةِ الأَدْنَـــاسِ
جَـمْـعـاً يَضُـوعُ النَّدُّ مِنْ أَنْفَـاسِـهِ ‏ ‏ ‏ بِرِبَـاطِ فَتْحٍ مَـجْمَــعِ الأَكْـيَــاسِ

– وقال الأديب، أبو عبد الله، محمد السليماني، مُتشوِّقاً إلى الرباط أيضا :

هُمُ مَنَعُوا جَفْنِي المَنَامَ فَـلاَ صَبْرَا ‏ ‏ ‏ وَهُمْ مَنَحُـوا قَلْبِي التَّـفَكُّرَ وَالذِّكْـرَى
وَهُمْ نَزَلُوا ثَغْـرَ الرِّبَـاطِ وَخَـيَّـمُــوا ‏ ‏ ‏ بِمُنْعَرَجِ الرَّقْـرَاقِ وَالْهَضْبَةِ الْخَضْرَا
أَهِيمُ بِذِكْــرِ المُنْحَنَى مِنْ عُلُـــوِّهِ ‏ ‏ ‏ إِذَا نَفَحَــتْ هَبَّــتْ مُنَمْنَمَـــةً نَشْـرَا
يُذَكِّــرُنِي عَـرْفُ النَّسِـيـمِ وَدِيـعَـــةً ‏ ‏ ‏ لَدَيْهِمْ رَعَى اللَّهُ الْوَدِيعَــةَ وَالذُّخْــرَا

– وقال الشاعر الفحل، أبو عبد الله، محمد الجزولي، حرسه الله،[389] من قصيدة :

رباط الفــتح مَــأْوَى الفــاتحــينا ‏ ‏ ‏ بِكَعْــبَــتِــهِ يَطُوفُ النَّاسُ حِـينَا
هُـوَ الْبَلَـدُ الأَمِــــينُ وَمَـنْ بَـنَـاهُ ‏ ‏ ‏ عَظِيمٌ مِنْ مُلُوكِ المُــسْلِمِــينَا
إِلَى الْمَنصـورِ نِسْـبَـتُــهُ وَأَعْظِمْ ‏ ‏ ‏ بِهِ نَسَـبًــا يُزَكِّي النَّاسِـبِــينَا
بَنَـاهُ آيَـةً كُـــــبْـــــرَى بِوَضْـعٍ ‏ ‏ ‏ يَدُلُّ على اقْــتِـدَارِ الواضِـعِــينَا
وَخَلَّدَ ذِكْــرَهُ فِــيـــهِ بِصَــرْحٍ ‏ ‏ ‏ وَسَـــاباطٍ على مَــرِّ السِّنينَا
مَنَارٌ قَـامَ فِي الدُّنْيَــا خَطِيـبًــا ‏ ‏ ‏ إِلَـى الآتِينَـا يَنْعَى الذَّاهِبِـــينَا
إِذَا ذُكِـرَتْ بِلادُ الغَـرْبِ أَضْـحَى الرِّ ‏ ‏ ‏ بَـاطُ مَــدَارَ ذِكْـــرِ الذَّاكِـــرِينَا

389) توفي رحمه الله بتاريخ.....

وَلَوْ نُصِبَتْ مِثَالاً كَانَ مِنْهَا مَكَانَ الرأسِ حِينَ سَمَا وَصِينَا
بِلادٌ لم تكُنْ وَطَنًا لَهُمْ وَمَا بَرِحَ السُّرُورُ لها خَدِينَا
تَفِيضُ رُبُوعُهَا لَبَنًا وَشَهْدًا وَتوتي أُكْلَهَا عِنَباً وتينَا
وَجَوٌّ فِي الصَّفَاءِ كَجَامِ خَمْرٍ فَناقِعُهُ تُحَيِّي الجَالِسِينَا
هَوَاهُ لِكُلِّ مَنْ أَشْفَى شِفَاءٌ وَمَاءٌ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَا
شَوَارِعُهَا تَمِيسُ بِهَا غُصُونٌ كَسكْرَى الغِيدِ مِسْنَ مَتَى سُقِينَا
وَذَاكَ عُلُوُّهَا الأَذْكَى أَرِيجاً يَضُوعُ شَذَاهُ لِلْمُسْتَنْشِقِينَا
حِفَافُهُ أَكْؤُسٌ مُلِئَتْ دِهَاقًا بِهَا نُسْقَى المَسَرَّةَ إِنْ ظَمِينَا
وَتُنْعِشُنَا الصَّبَا فِيهِ بِرَوْضٍ عَشَايَاهُ تَبُثُّ الرُّوحَ فِينَا
إِذَا أَضْنَى الْهَوَى قَلْبَيْنِ طافا بِكَعْبَتِهِ طَوَافَ القَادِمِينَا
وعِنْدَ الرَّوْضِ يَحْلُو العَتْبُ لَيْلاً إِذَا مَا الحُبُّ أَضْنَى العَاشِقِينَا
وَطِيبُ العَيْشِ في عُتْبَى حَبِيبٍ فَيَا لَيْلَ العِتَابِ مَتَى تَجِينَا
بِهِ مُلْقَى الأَعِنَّةِ مِن قُلُوبٍ بِأَعْيُنِ مِنْ أَسْهُمِهَا رُمِينَا
تَغِيبُ الشمس غَيْرَى حين تَبْدُو شُمُوسٌ فِيهِ تُعْشِي النَّاظِرِينَا
تَرَى الآرامَ تَظْفَرُ فِيهِ شَتَّى وَتَلْقَى العَاشِقِينَ به عَزِينَا
بِهِ يَسْلُو الكَئِيبُ شَقَاءَ هَجْرٍ وَيَنْسَى الحُزْنَ مَنْ أَمْسَى حَزِينَا
إِذَا بَرَدَ النَّسِيمُ تَرَى بَنِيهِ بِهِ مَلأوا الشَّمَائِلَ والْيَمِينَا
وُجُوهٌ كَالبُدُورِ تُضِيءُ لَيْلاً وَأَخْلاَقٌ تكاد تَسِيلُ لِينَا
وَفِي وَجْهِ الزمانِ بَدَوْا عُيُونًا إِلَى هَامِ المَعَالِي طَامِحِيناَ
أُبَاةُ الضَّيْمِ عِنْدَ الخَطْبِ أُسْدٌ إِذَا جَاسَ العَدُوُّ لَنَا عَرِينَا
فَنَحْنُ القَاصِمُونَ إذا غَضِبْنَا وَنَحْنُ القَاسِمُونَ إذا رَضِينَا
فَدَيْتُكَ هَلْ يُقَاسُ بِنَا سِوَانَا وَنَحْنُ مِنَ التَّجِلَّةِ حَيْثُ شِينَا
فَشَمْسُ المُلْكِ تَطْلُعُ مِنْ ذُرَانَا نُضِيءُ بِهَا الغَيَاهِبَ والدُّجُونَا
وَنُورُ العِلْمِ يَنْشُرُهُ لَدَيْنَا إِمَامُ ذَوِي المعارفِ أَجْمَعِينَا

– وقال الشاعر أبو مُحمد، الحاج عبدالله القبَّاج، بتخميس الأديب، أبي المسك، السيد الحاج الطيب عوّاد :

قُلْ لِلَّــذِي زَارَ الْحِــمَــى لَكِــنَّــهُ صَــافَى بِمَــا غَــرَسَ الودادُ وسنَّــهُ
إِنْ رُمْتَ آثارَ الكَمَــالِ وَعَــيْنَــهُ (عَــرِّجْ علــى ثَغْــرِ الربــاط لأنَّــهُ)
(بَلَدٌ تُعَــزُّ بِــهِ الرِّجَــالُ وَتُرْزَقُ)

بَلَدٌ تَزِيــدُكَ بَهْــجَــةً بِسُلُوِّهَــا غـرًا تَعَــالَتْ فِي سَـمَـاءِ سُـمُـوِّهَــا
قَــالَ الذِي يَرْنُو لِحُــسْنِ نُمــوِّهَــا (مَــا بَيْنَ شَــاطِئِــهَــا وبَابِ عُلُوِّهَا)
(قَــمَــرٌ يَغِــيبُ وَأَلْفُ شَــمْسٍ تَشْــرُقُ)

– وفيه يقول أيضا واصفا نهج العُلُو، أيام كان في زمنه الحي العامر، والنهج المسلوك، للوارد والصادر، قبل أن ينتقل العمران إلى الأحياء الجديدة، خارج المدينة القديمة، وخصوصا شارع محمد الخامس، وما التحق به من الأحياء الأخرى، كالمشور الملكي، وحي أكدال، وحي السويسي :

ثَغْــرُ الرباط مُنَضَّــدٌ كَــالْجَــوهَرِ وَرُضَــابُهُ كَــالشَّــهْــدِ أَوْ كَــالْكَوْثَرِ
يَمِّــمْــهُ إِنْ رُمْتَ الْمُــقَــامَ بِغَــرْبِنَا وَأَنِخْ مَطِيَّكَ حَــوْلَ خَــيْــرِ الأَنْهُــرِ
وَعَلَيْكَ بِالسُّكْنَى بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الأَغَــرِّ الْفَــرْدِ صِنْوِ الأَحْــمَــرِ
أَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الضِيــاعِ وَمَنْ لَهُمْ دُورٌ مُــشَــيَّــدَةٌ بِهِ لِلْمُكْتَــرِي
وَاسْكُنْ بِنَاحِــيَــةِ العُلُوِّ بِمَنْزِلٍ عَــالٍ يُطِلُّ عَلَى الْخِــضَــمِّ الأَكْــبَــرِ
فَــالدَّارُ فِي نَــهْجِ العُلُوِّ أَجَلُّ مِنْ خَــمْــسِــينَ دارًا فِي مَــحَلٍّ آخَــرِ
نَهْجٌ قَــدْ اخْــضَــرَّتْ جَــوَانِبُ سُــوحِــهِ فَــغَــدَا شَــبِــيهًــا بِالرِّدَاءِ الأَخْــضَــرِ
نهج تَجَلْبَبَ بِالمَــحَــاسِنِ وَاكْــتَــسَى شَــوْبَ البَــهَــا فَــغَــدا جَــمِــيلَ الْمَنْظَرِ
نهج به الأَفْــرَاحُ قَــائِمَــةٌ على سَــاقٍ على رَغْمِ الزَّمَــانِ الأَعْــوَرِ
نهج تَرَى الأُدَبَاءَ تَقْــصِــدُهُ لِمَــا يَجِــدُونَ فِــيــهِ مِنَ النَّسِــيمِ المُنبرِي
عَــشِقَ الرَّبِيعُ رِيَاضَــهُ فَــأَعَــارَهُ ثَوْبًا من الزَّهْرِ البَــدِيعِ الأَعْــفَــرِ
نــهج تَــرَى الآرامَ تَــرتَــعُ حَــــوْلَــهُ وَ تَرَى النَّعَــامَــةَ فِــيــهِ خَلْفَ الْجُــؤْذَرِ

نهج تَرَى الْوِلْدَانَ حَوْلَ قِبَابِهِ عِنْدَ الأَصِيلِ تَمُوجُ مَوْجَ الْعَسْكَرِ
نهج به الأَضْوَاءُ تَسْطَعُ فِي الدُّجَا سَطْعَ الكَوَاكِبِ حَوْلَ بَدْرٍ نَيِّرِ
وَغَدا الصَّبَاحُ بِهِ شَبِيهًا بِالْمَسَا وَغَدَا المَسَاءُ شَبِيهَ صُبْحٍ مُسْفِرِ
نهج بِهِ يَقَعُ الزِّحَامُ إذا الْتَقَتْ فِيهِ الأَجِلَّةُ كَازْدِحَامِ المحْشَرِ
نهج له ياتي أَمِيرُ بلادِنَا فِي جَيْشِهِ بِجَمِيعِ أَهْلِ المِشْوَرِ
نهج بِجَانِبِهِ دِيَارُ كِبَارِنَا أَهْلِ العُلُوِّ رِجَالِ رَبِّ المِنْبَرِ
نهج يُزِيلُ الهَمَّ عَمَّنْ أَمَّهُ أَوْ مَرَّ منه إلى مَقَرِّ الْمَصْدَرِ
نهج به دَارُ السَّعَادَةِ قد غَدَتْ أَبْوابُهَا مَفْتُوحَةً لِلْمُخْبِرِ

– وقال أيضا من قصيدة أخرى واصفا ازدهار عمرانه، وتعداد محاسنه، وانتشار معالم الحضارة العصرية بالمدينة المنشأة الجديدة، خارج أسواره :

عَرِّجْ على ثَغْرِ الرباط الأَنْفَسِ وَأَنِخْ مَطِيَّكَ بِالمَقَامِ الأَقْدَسِ
حَيْثُ الغِيَاضُ تَدَفَّقَتْ أَنْهَارُهَا وَتَعَانَقَتْ أَشْجَارُهَا بِالأَرْؤُسِ
حيث الرِّيَاضُ تَفَتَّقَتْ أزهارُها وَغَدَا القَرَنْفُلُ حَاسِدًا لِلنَّرْجِسِ
حيث المنازلُ قد عَلَتْ وَتَزَيَّنَتْ حيث الشَّوَارِعُ نُزْهَةٌ لِلأَنْفُسِ
حيث النُّجُومُ من السَّمَاءِ تَنَزَّلَتْ وَغَدَتْ مَصَابِيحًا تُضِيءُ بِأَكْؤُسِ
حيث النَّفَائِسُ وَالطَّنَافِسُ وَالمُؤَانِـ سُ وَالأَوَانِسُ كَالجَوَارِ الكُنَّسِ
حيث المَعَابِدُ وَالمَعَاهِدُ والمَسَا جِدُ وَالمُسَاعِدُ لِلْفَقِيرِ الأَيْئَسِ
حيث الإِمَارَةُ وَالوِزَارَةُ وَالإِدَا رَةُ كَالأَغَرِّ الأَمْلَسِ
حيث الزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالبِضَا عَةُ وَالقَنَاعَةُ بِاليَسِيرِ الأَبْخَسِ
حيث الزَّوَاخِرُ وَالمَوَاخِرُ والبَوا خِرُ وَالذَّخَائِرُ كَالأَشَمِّ الأَطْلَسِ
حيث السَّعَادَةُ وَالسِّيَادَةُ وَالإِفَا دَةُ وَالإِجَادَةُ لِلأَمِيرِ الأَخْمَسِ
حيث المَرَاكِبُ وَالمَوَاكِبُ وَالنَّجَا ئِبُ وَالجَنَائِبُ لِلشَّرِيفِ الأَسْيَسِ
حيث الأَكَابِرُ وَالعَسَاكِرُ وَالدَّسَا كِرُ وَالدَّفَاتِرُ تَحْتَ أَمْرِ الرَّيِّسِ
حيث الجَلاَلَةُ وَالعَدَالَةُ وَالمَعَارِفُ وَالعَوَارِفُ رَحْمَةٌ لِلآيِسِ

– وقال أيضا في حقّه في قصيدته التائية التي مدح بها مدينة فاس، وسلا ورباط الفتح :

وَفِي ثَغْــرِ الرباط نَظَرْتُ خُــوداً ... بِأثْوَابِ الجَــمَــالِ مُــوَشَّــحَــاتِ
تَغَــانَوْا بِالقُــدُودِ عَنِ العَــوَالِي ... وَبِالأجْــفَــانِ عَنْ حَــمْلِ الْقَنَاةِ
فَــبَــيْنَ لِحَــاظِهِمْ كَمْ مِّنْ طَرِيحٍ ... وَبَيْنَ قُــــدُودِهِمْ كَمْ مِّنْ رُفَــــاةِ
إِذَا يَوْمًــــا مَـــــرَرْنَ عَلَى أُنَاسٍ ... تَرَكْنَ جَــمِــيــعَــهُمْ فِي النَّازِعَــاتِ
عُـــيُـــونِي فِي هَوَاهُمْ أَوْحَلَتْنِي ... وَفِي الْعَــبَــرَاتِ أَضْــحَتْ خَــارِجَاتِ
هُمُ اجْــتَــمَــعُــوا عَلَى قَــتْلِي بِجَــمْعٍ ... فَلِمْ لَمْ يَبْــعَــثُــونِي مِنْ وَفَــاتِي
فَلَمْ أَرَ قَــبْلَهُنَّ شُــمُــوسَ خِــدْرٍ ... يَلُحْنَ مِنَ الْعُلُوِّ بِأكْــسِــيَــاتِ
فَلَيْتَ الحَــائِكِينَ لَهُنَّ مَــاتُوا ... جَــمِــيــعًــا قَــبْلَ صُنْعِ الأَرْدِيَاتِ
وَلَيْتَ مَــلاَحَــهُمْ عَــدِلَتْ فَــأَعْطَتْ ... حَــمَــائِمَ حَلْيِــهَــا لِلْعَــاطِلاَتِ
سَقَى غَيْثُ السُّرُورِ الصَّفْوَ صِرْفًا ... رِباطَ الفَــتْحِ عَــاصِــمَــةَ الحُــمَــاةِ
بِلاَدًا تَكْفُلُ الآرَامَ فِــيــهَــا ... ضَــرَاغِــمُــهَــا وَجُــرْدَ الصَّــافِنَاتِ
بلادا تَشْــرُقُ الأَقْــمَــارُ فِــيــهَــا ... بِأَطْوَاقٍ وَتُحْــــجَبُ بِالظُّبَــــاةِ
بلادا قَدْ غدا فــيــهــا مُــقِــيــمًــا ... أَمِــيــرُ القُطْرِ مَــحَّــاقُ البُــغَــاةِ
بلادا أَكْــبَــرُ الْعُلَمَــاءِ فــيــهــا ... غَــدَا مُــتَــصَــدِّرًا لِلْمُــوعِظَاتِ
بلادا أَعْظَمُ الوزراء فــيــهــا ... وَفِــيــهَــا مَنْ عَلِمْتَ مِنَ الدُّهَاةِ
تَأَمَّلْ في مَــرَابِعِــهَــا تَجِــدْهَا ... مَـــرَابِعَ زَاهِرَاتٍ زَاهِيَـــاتِ
مُنَظَّمَـــةَ شَـــوَارِعُــهَــا وَلَكِنْ ... مِنَ الأَدْرَانِ طُرًّا خَـــالِيَـــاتِ
تَأَمَّلْ فِي مَــسَــاجِــدِهَا تَجِــدْهَا ... بِأَمْــوَاجِ الخَــلائِقِ عَــامِــرَاتِ
مُنَظَّفَــــةً مُـــعَظَّمَـــةً وَلَكِنْ ... لأَشْــتَــاتِ المَــحَــاسِنِ جَــامِــعَــاتِ
لَهَـــا سُــــرُجٌ تُنَارُ بِكُلِّ لَيْلٍ ... فَــتَــسْطَعُ كَــالنُّجُــومِ الزَّاهِرَاتِ
يَخَــالُ النَّاظِرُونَ لَهَــا قُــصُــوراً ... ضِــخَــامًــا للملوكِ مُــشَــيَّــدَاتِ
وَفَــتِّشْ عن مــدارِسِــهَــا تَجِــدْهَا ... بِطُلاَّبِ المَـــعَـــارِفِ آهِلاَتِ

بِهَا الشُّبَّانُ عَاكِفَةٌ على مـا — يُفِيـدُ من العُلُومِ النَّافِعَاتِ
عُلُومًا فَضْلُهَا أَمْسَى جَلِيًّا — غَنِيًّا من جَمِيعِ البَيِّنَاتِ
عُلُومًا لاَ حَيَاةَ اليومَ فِيمَا — أَرَاهُ بِدونِهَا في ذِي الحَيَاةِ
عُلُومًا حَسْبُ دَارِسِهَا افْتِخَارًا — تَعَلُّمُهُ لِسَيِّدَةِ اللُّغَاتِ
عُلُومًا لَوْ قَرَأْنَاهَا قَدِيمًا — لَمَا كُنَّا مِثَالَ العجْمَوَاتِ
ولاَ كُنَّا تَرَكْنَاهَا اخْتِيَارًا — فَجِئْنَاها اضْطِرَارًا كَالعُفَاةِ
وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ لها حَدِيثًا — دِيَارًا وَاسِعَاتٍ شَاهِقَاتِ
يُوافِيهَا المَرِيضُ بِكُلِّ رَدِحٍ — فَيُشْفَى مِنْ جَمِيعِ الموجِعَاتِ
لذلك سُمِّيَتْ في كُلِّ حَيٍّ — مِنَ الأَحْيَاءِ بِالْمُسْتَشْفَيَاتِ

– وهو القائل أيضا :

إِذَا افْتَخَرَتْ مَكْنَاسُ بِالمَاءِ وَالهَوَى — وَفَاسُ بِوَادِيهَا وبِالعِلْمِ وَالمَجْدِ
ومُرَّاكِشُ بالجِدِّ وَالجُودِ وَالجَدَى — فَإِنَّ رباط الفتح وَاسِطَةُ العِقْدِ

– وقال الشيخ، أبو إسحاق، ابراهيم التادلي في موشحة له :

جَادَكَ الغَيْثُ أَيَا مَنْ رَبَطَا — برباط الفتح بَدْرًا هَبَطَا
وبِهِ رَاسِي بِغَرْبٍ سَقَطَا — وَبِحَرْفِ العِلْمِ فَضْلاً نُقَطَا
كُلُّ مَنْ قَدْ حَلَّ فِيهِ مُسْلِمَا — وَنَوَى غَزْوًا بِهِ مَاتَ شَهِيدْ
لَيْلَةٌ فِيهِ حَدِيثٌ مُعلمَا — بِمَزَايَاهَا عَنِ النَّارِ بَعِيدْ
حَبَّذَا شَلَّ بِهِ مُسْتَلَمَا — وَرِبَاطُ الخَيْلِ لِي فِيهِ شَهِيدْ
وَحَبِيبُ القَلْبِ جَارٌ بِسَلاَ — كُلَّمَا وَاصَلَنِي قَلْبِي سَلاَ
أَوْ أَفَاضَ الدَّمْعَ بَحْرًا مُرْسَلاَ — بِحَدِيثِ الصَّدِّ جَاءَتْ سَلْسَلاَ
مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ إِنْ شِئْتَ ادْعُهَا — شَاهِد يَتْلُوهُ مِنْهُ فِي النَّظَرْ
نُزْهَةُ الدُّنْيَا بِهِ قَدْ نِلْتُهَا — مِنْ عُلُومٍ وَذَهَابٍ لِكَدَرْ

– وقال الشيخ، أبو بكر البنّاني الرباطي، من قصيدة :

قِفْ بِالمَطِيِّ رَعَاكَ اللّهُ مُهْدِيهَا … إنْ جُزْتَ نَجْدَ رِبَاطِ الفَتْحِ وَابْكِيهَا
وَسَلْ سُؤَالَ فَتًى قَدْ شَاقَهُ وَطَنٌ … عَنْ جِيرَةٍ قَدْ عَفَتْ أَطْلَالُ نَادِيهَا
وَسَلْ عَقِيقًا طَفَا بِصِفْرٍ بِلَقْعِهَا … إنْ شِمْتَ سَلْعَ النَّقَا أَوْ خِلْتَ بَانِيهَا
وَعَفِّرِ الخَدَّ وَاسْمَعْ وُرْقَ أَيْكَتِهَا … بَلَابِلَ الشَّوْقِ فَهْيَ مِنْكَ تُنْبِيهَا
وَعَطِّرِ الرُّدْنَ مِنْ عَرْفِ الرِّبَاعِ إِذَا … وَصَلْتَ ذَاكَ الحِمَى وَحَيِّ حَامِيهَا
وَاخْضَلْ بِمِيمِهِ مِن مُزْنِ المَحَاجِرِ إِنْ … حَلَلْتَ وَدْفَتَهَا شَوْقًا وَنَادِيهَا
يَا مَعْهَدَ الأُنْسِ يَا مَأْوَى السُّرُورِ وَيَا … شُرُوقَ شَمْسِ المُنَا وَيَا تَجَلِّيهَا
عَهِدتُ وُرْقَ قِيَانِ اليُمْنِ صَادِحَةً … تُنْبِئُ بِالبِشْرِ مَنْ أَتَى يُنَاجِيهَا
تَسْمُو المَنَابِرُ مِنْ أَيْكٍ وَقَدْ سَفَرَتْ … مِنْ خِدْرِهَا وَسَفِيرِ الجَذْلِ يُوحِيهَا
وَالرَّوْضُ يَخْضِلُ وَالأَغْصَانُ مَائِسَةٌ … وَالطَّلُّ يَنْظِمُ دُرًّا فِي تَرَاقِيهَا
وَاليَوْمَ أَطْلَالُهَا أَصْبَحْنَ نَاحِلَةً … أَبْكِي عَلَيْهَا وَمَا أَدْرِي أَسَامِيهَا
تَهْمِي لِفُرْقَتِهَا عَيْنَايَ وَاحَرَبًا … تَشْكُو الظَّمَا غُلَّةً وَالدَّمْعُ سَاقِيهَا
كَمْ لَيْلَةٍ بِتُّهَا أُذْكِي الهُمُومَ بِهَا … حُزْنًا وَأَزْمَةُ زَنْدِ البَيْنِ تُذْكِيهَا
أَلَا وَحَقِّ نَكَالِ البَيْنِ إِنْ لَفَحَتْ … نِيرَانُهُ وَطَغَى بِالطَّعْنِ بَاغِيهَا
إِنْ لَمْ يُقَلِّصْ زَمَانُ الهَجْرِ ذَيْلَهُ قَدْ … فَقَأْتُ مُقْلَتَهُ بِالشُّهْبِ أَعْمِيهَا

– وقال الأستاذ، أبو عبد الله، محمد الشافعي النُّبطي مادحا الرباط وأهله :

رباط الفتح لَيْسَ لَهُ نَظِيرُ … جَمِيلٌ شَكْلُهُ فَرْدٌ نَّضِيرُ
وكُلُّ فَتًى أَتَاهُ يَرَى رِيَاضًا … وَيَلْقَى بِهِ بُدُورًا تَسْتَنِيرُ
يُنَوِّرُ قَلْبُهُ مِنْهَا عُلُومًا … بِحُبِّ جَمَالِهَا عَبْدًا يَصِيرُ
رِيَاضٌ كَالنَّعِيمِ تَرُوقُ حُسْنًا … بُدُورٌ فِي العُلُوِّ لهَا مَسِيرُ
تَفِيضُ صُدُورُهُمْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ … فَمَنْ رَامَ العُلُومَ لَهُمْ يَسِيرُ
إِيَّاسٌ فِي الذَكَاءِ بَلَى عَلِيٌّ … وَفِي نَظْمِ المَدِيحِ هُمُ جَرِيرُ
نَوَافِلُهُمْ إِذَا مَا رُمْتَ عِلْمًا … فَإِنَّ الصُّبْحَ هُوَ بِهَا خَبِيرُ

لَهُمْ جُـودٌ لَقَـدْ وَسِعَ البَـرَايَا فَـمَـا يَحْـيَى وَمَـا مَـعْنٌ نَّظِيـرُ
إِذَا حَلَّ الـغَـرِيبُ لَهُمْ رُبُوعًـا يَجِـدْهُمْ خَـيْـرَ أَهْلٍ يَسْـتَـجِـيـرُ
لَهُمْ فِي المَـجْـدِ وَالفَـضْلِ المُـعَلَّى مَـقَـامٌ دُونَهُ البَـدْرُ المُنِيـرُ
سَـقَى الغَـيْثُ الرِّيَاضَ وَسَـاكِنِيـهَا وَمَـوْلاَنَا الكَرِيمُ لَهُمْ نَصِـيـرُ
عَلَيْـهِمْ مَّـا سَـمَـوْا أَسْـمَى سَلاَمٍ عَـبِـيـرِ خِـتَـامِـهِ مِـسْكٌ عَـبِـيـرُ

– وقال القاضي، أبو العباس، أحمد بن العيَّاشي سكيرج :

لِلَّهِ أَيَّـامُ أُنْـسٍ بالريـاط مَضَـتْ بِهَـا سَلَوْتُ عَنِ الأَحْـبَـابِ وَالوَطَنِ
قَدْ جَادَ لِي الدَّهْرُ فِيهَا بِالمُنَى فَغَدَتْ تُعَدُّ عِنْـدِي مِـنْ نَفَائِـسِ الزَّمَـنِ

– وقال العلامة، الأديب، المجاور بالمدينة المنورة، الشيخ عبد الجليل برَّادة، رحمه الله، متشوقا إلى رباط الفتح وسلا :

عُجْ بِالرِّكَـابِ عَلَى الرباط فَـإِنَّـه مَـثْـوَى السُّـرُورِ وَمَنْزِلُ الأَفْـرَاحِ
أَمَّـا سَلاَ فَـالقَلْبُ عَنْهَـا مَـا سَـلاَ وَكِـلاَهُمَـا حَـسَـنٌ بِغَـيْـرِ مِـزَاحِ

– وقال الأديب، الوزير، أبو عبد الله، محمد بوعشرين :

سَـلا والـرباط مَـحَـطُّ الأَدَبْ وَسُـوقُ عُكَاظِ سَـرَاةِ العَـرَبْ
أَزُورُهُمَـا شَـاعِـرًا نَاثِـرًا وَذَاكَ شِـعَـارُ حَلِيـفِ الأَدَبْ

– وقال الأديب، أبو عبد الله، محمد بن زاكور، مخاطبا أهل سلا ورباط الفتح :

أَأَهْلَ سَـلاَ أَهْلَ السُّلُوِّ عَنِ البُـخْلِ سَلِمْـتُمْ وَدُمْـتُمْ في مُسَالَمَـةِ المَحْلِ
خُصُوصًـا بها أَهْلَ الربـاط فَإِنَّهُـمْ أُنَاسٌ يُنَسِّـي أُنْسُـهُمْ عَطْفَـةَ الأَهْـلِ
يُـدَاوُونَ أَدْوَاءَ النَّـوَى بِنَوَالِهِـمْ وَيَسْـقُـونَ مَـا فِيهِـمْ بِآنِيَـةِ الفَضْلِ

– وقال الأديب، القاضي، أبو العباس أحمد الأزمُّوري :

رِبَاطَ الفَـتْحِ إِنَّكَ ذُو جَـمَـالٍ تُطِلُّ عَلَى سَـلاَ ذَاتِ النَّضَـارَةْ
وَشَكْلُ سَـلاَ بِجَنْبِكَ مُـسْـتَـدِيرٌ وَلاَ تَقْلَـقْ فَـإِنَّ بِـكَ الإِدَارَةْ

– وذيَّلهما الأديب، أبو عبد الله، محمد بوجندار بقوله :

وَإِنْ صَـالَتْ بِصَـوْلَتِـهَـا قَـدِيمًـا ... فَـــإِنَّ بِكَ الإِمَـارَةُ وَالـوِزَارَة

وَإِنْ طَـالَـتْ بِـأَطْـلاَلٍ حِـسَــانٍ ... فَـمِنْ حَـسَّـانَ تَكْفِـيكَ المَنَارَةْ

– ثم شطرهما بقوله :

رباط الفـتـح إنَّـكَ ذو جَـمَـالٍ ... (عَـرِيقٍ في التَّـمَـدُّنِ والحَـضَـارَةْ)

(مَـبَـانيكَ التي طَالَتْ وصَـالَتْ) ... تُطِلُّ على سـلا ذَاتِ النَّضَـارَةْ

وَشَكْلُ سَـلاَ بِجَنْبِـكَ مُـسْـتَـدِيـرٌ ... (حَكَى مِنْ مِعْصَمِ الْحَسْنَا سِوَارَهْ)

(فـقل ياحـسن شكل مـسـتـديـر) ... ولا تقلـق فـان بـك الإدارة

– وقال الأديب، أبو عبد الله، محمد الشنقيطي، مخاطبا الأديب، أبا عبد الله، محمد بوجندار :

رُوَيْدَكَ إِنَّنِي جِـدُّ اشْـتِـيَـاقٍ ... إِلَـى ثَغْـرِ التَّـآزُرِ والوِفَـاقِ

رِبَاطِ الفَـتحِ مَطْمَحِ كُلِّ نَدْبٍ ... يَرُومُ مِنَ العُـلاَ صَـعْبَ المَـراقِ

أُيَمِّمُـهَـا وَقَلْبِـي مُسْتَـهَـامٌ ... بِمَـغْنَاهَا وَدَمْـعِي فِي انْطِـلاَقِ

أَخِـلاَّءِي المُـقِـيـمِـينَ اعْـذِرُونِي ... عَلَى هَـذَا التَّـقَـاطُـعِ وَالفِـرَاقِ

لَهَـا دَيْـنٌ عَلَيْـنَا بَـلْ وِثَـاقٌ ... وَحَـتْـمٌ أَنْ يُـوَفَّـى بِالوِثَـاقِ

مُـحَـمَّـدُ هَـلْ تَفَكَّرْتَ التَّـآخِـي ... وَأَيَّامَ التَّـعَـارُفِ وَالتَّـلاَقِـي

وَسَـاعَـاتٍ قَـضَـيْنَاهَـا جَـمِيعًـا ... بِأَبْحَـاثٍ وَأَسْـئِلَـةٍ رِقَـاقِ

– فأجابه الأديب بوجندار بقوله :

أَلاَ إِنِّي عَلَى المِـيـثَـاقِ بَاقِي ... وَإِنْ حَكَمَ الزَّمَـانُ بِمَـا أُلاَقِي

أَحِنُّ إِلَيْكُمْ شَـوْقًـا وَذِكْـرى ... لأَيَّامِ التَّـدَانِي وَالتَّـلاَقِي

لأَيَّامٍ وَدِدتُّ لَـهَـا فِـدَاءً ... بِـأَيَّامِ السَّـوَالِفِ وَالبَـوَاقِي

قَـضَـيْنَاهَا كَـمَـا حَكَمَ التَّـآخِي ... عَلَيْنَا فِي اصْطِبَـاحٍ وَاغْـتِبَـاقِ

وَكَمْ بِتْنَا وَغُصْنُ الأُنْسِ دَانٍ وَجُنْحُ اللَّيْلِ مَسْدُولُ الرِّوَاقِ
أَبَا عَبْدِ الإِلَاهِ بَقِيتَ فَرْدًا جَوَادًا لاَ يُجَارَى فِي السِّبَاقِ
تَعَالَى نُجَدِّدَنْ عَهْدَ التَّدَانِي وَنَرْضَعُ صَفْوَ أَلْبَانِ الوِفَاقِ
وَقُلْ أَهْلاً بِمَنْ صَافَى وَوَافَى رِبَاطَ الفَتْحِ عَنْ جِدِّ اشْتِيَاقِ

ولنختم هذا العرض الأدبي في وصف مدينة رباط الفتح، بما قاله شاعر الأسرة الناصرية، وحامل راية الأدب في العاصمة الرباطية، نزيل حرم رسول الله صلى الله وسلم، أبو عبد الله، الحاج محمد بن اليمنى الناصري في موشح له، يتشوّق فيه إلى رباط الفتح، ويتذكر معاهده وأيامه الزاهرة، خاطب به جلالة ملكنا الجليل أبا علي، الحسن الثاني، لمّا زار مدينة الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، زيارة رسمية، عام سبع وسبعين وثلاثمائة وألف (1958/1377)، وهو إذ ذاك ولي عهد والده المقدس، جلالة أبي عبد الله، محمد الخامس، سقى الله ثراه قال :

– قال أبو عبد الله الحاج اليمني الناصري في موشحه :

إِنَّ لِي عَهْدًا جَمِيلاً سَلَفَا بِرِبَاطِ الفَتْحِ فَخْرِ المُدُنِ
وَلَهُ قَدَّمْتُ عَهْدِي سَلَفَا مُوقِظًا مَا قَدْ غَفَا مِنْ فِطَنِ
وَالصِّبَا قَدْ جَرَّ ذَيْلَ المَرَحِ فِي رِيَاضِ الأُنْسِ مَابَيْنَ الصَّبَاحْ
وَالصَّبَا قَدْ هَزَّ عِطْفَ الْفَرَحِ بِأَنَاشِيدِ الهَنَا حَتَّى الصَّبَاحْ
وَالهَوَى لَمْ يَدْرِ مَعْنَى التَّرَحِ فِي مُبَاحٍ قَدْ حَوَى كُلَّ مُبَاحْ
حَيْثُ كُنَّا بَيْنَ إِخْوَانِ الصَّفَا نَتَمَلَّى بِانْقِيَادِ الزَّمَنِ
وَالمُنَى تَمْرَحُ فِي جَوِّ الصَّفَا نَجْتَنِي مِنْهَا جَنَى الْعَيْشِ الْهَنِي
وَالبَسَاتِينُ لَنَا مُنْتَزَهْ عَرْفُهَا يُزْرِي شَذَا الْمِسْكِ الذَّكِي
وَرِفَاقِي الغُرُّ حُرٌّ أَنْزَهْ وَأَدِيبٌ نَيِّرُ الْفِكْرِ ذَكِي
وَعَزِيزٌ نُبْلُهُ قَدْ عَزَّهْ وَنَسِيبٌ طَيِّبُ الأَصْلِ زَكِي
وَأَبُو رَقْرَاقَ رَقْرَاقٌ نُفَا مَاؤُهُ الرَّيِّقُ عَنِّي حَزَنِي
كَانَ لِي مِنْ كُلِّ هَمٍّ كَنَفَا صَفْوُهُ يَفْرِي رُؤُوسَ المِحَنِ

يَا لَهُ نَهْراً جَمِيلَ الضَّفَّتَيْنْ   يَبْعَثُ البَهْجَةَ فِي نَفْسِ الحَزِينْ
فَهْوَ لَفْظٌ لِمَعَانِي العُدْوَتَيْنْ   وَهْوَ مَعْنًى شَيِّقٌ يُذْكِي الْحَنِينْ
وَهْوَ كَالرُّوحِ سَرَتْ فِي مُهْجَتَيْنْ   لِصَدَاهُ الْعَذْبِ فِي النَّفْسِ رَنِينْ
كُلَّمَا جُزْتُ بِهِ مُنْعَطَفَا   أَسْكَرَتْنِي نَغَمَاتُ الأَغْصُنِ
وَأَنَا بَيْنَ رِفَاقٍ لُطَفَا   بِهِمُ صِرْتُ قَرِيرَ الأَعْيُنِ
وَالبَسَاتِينُ بِهِ قَدْ أَحْدَقَتْ   نَفْحُهَا يُنْعِشُ أَرْبَابَ الْغَرَامْ
وَعُيُونُ الزَّهْرِ فِينَا حَدَّقَتْ   حَدَقُ الأُنْسِ بِهَا لَيْسَتْ تَنَامْ
قَيَّدَتْنَا بِالهَوَى مُذْ أَطْلَقَتْ   رُوحَهَا فِينَا فَأَزْرَى بِالمُدَامْ
وَذَوُوا الْعِلْمِ بِهَا وَالشُّرَفَا   يَتَسَاقَوْنَ كُؤُوسَ الْيَمَنِ
وَأَنَا أُنْشِدُهُمْ مُسْتَشْرِفَا   إِذْ تَنَادَوْا : إِيهِ يَا ابْنَ الْيَمَنِ
وَلَكَم مِّنْ مَحْفَلٍ كُنْتُ بِهِ   أُوقِظُ الْفِكْرَ وَأَسْمُو بِالشُّعُورْ
وَأُزِيحُ السِّتْرَ عَنْ مُشْتَبِهِ   لِيَرَى عَوْرَتَهُ عُمْيٌ وَعُورْ
وَأَزُفُّ الحَقَّ لِلْمُنْتَبِهِ   فِي بَيَانٍ كُلُّهُ حُسْنٌ وَنُورْ
فَمَحَا مِنْ كُلِّ قَلْبٍ أَغْلَفَا   ظُلْمَةَ الجَهْلِ وَغَيْنَ الوَسَنِ
وَجَلاَ عَنْ كُلِّ وَجْهٍ أَكْلَفَا   كَلَفَ الإِذْعَانِ لِلْخَصْمِ الدَّنِي...

ثم استرسل – حفظه الله – في المدح إلى آخرها.

المبحث الثاني

تشخيص منظر العدوتين وتمثيله

علمنا من النَّثر والشِّعر، الذي جال في الفكر، ورسمه القلم، فيما تقدَّم، منظر العدوتين ووصفهما، كما رآه الكاتب الناثر، والشاعر الماهر. وكلٌّ منهما عبَّر عمَّا جاش في نفسه، وارتسم في فكره، من وصف مطابق، ومدح رائق فائق، وتصوير عواطف مشوق وشائق، واستعراض ما فات من أوقات أنس زاهرة، وأيام أفراح عامرة، طوى الزَّمان سجِلَّها، وقلَّص ظلَّها، وبقي في الخيال يتردَّد صداها، فتفتَّق فكر الكاتب بتسجيلها في نثره، وتفجرت قريحة الشاعر بتمثيلها في شعره.

وجاء المصور الرسام، فرسم وشخَّص تلك الآيات النثرية، والمعاني الشعرية، واستحضر للناظر مناظرها الخيالية، وهو ما سأذكره، ومازلت أتذكَّره، أعني صورة من نوع ديورما "Diorama" التي تمثل المناظر والمشاهد، وإذا عُكِسَ عليها النور الكهربائي، تشخَّصت وراءها تلك المناظر، واستجلاها من موضع مظلم كل حاضر وناظر.

وقد كانت هذه الصورة عُرضت في معرض حي أكدال بالرباط عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف (1915/1333)، مثَّل فيها راسمها المدينتين : السلاوية والرباطية، وموقعهما من مصب النهر الرقراقي، في المحيط الأطلانطيقي، تكتنفهما بساتين وجنان، ذواتي أفنان، فيها من كل فاكهة زوجان، وتحيط بهما عن بُعْد الهضاب العالية، فيها المواشي الراتعة الراعية، وفي وسط هذا المنظر البديع، دار فسيحة مليحة مغربية، ذات شكل رفيع، فيها دُمًى جَوَارٍ حِسان، جالسات متبرِّجات بجمالهن الفتَّان، مُتَّكِئَاتٍ على فرش من استبرق وجنا الجنتين دان، بلباسهن القومي، وعلى رؤوسهن معاقد التيجان ؛ وفي بحبوحة الدار، أواني موضوعة، وفرش مرفوعة، وزرابي مبثوثة، وأمامهن صواني الشاي المذهبة، المزينة بالكؤوس البلَّورية المنتخبة، والمجمر فوقه إبريق الماء المغلَّى، وبخاره في الجوِّ قد علا، وأنظارهن مُتَّجهات من سراجيب البيت الذي جلسن فيه بقصبة الودايا نحو سلا، كأنهن يتأملن

منظرها، ويستطلعن مخبرها، ويتعجَّبْن من موقعها، يكاد الناظر إليهن يظن أنهن أحياء، صامتات متأملات، متعجبات.

وقد رسم الرسام البارع في هذه الصورة التمثيلية حالة العيشة الداخلية في الهيأة الاجتماعية المغربية في ذلك العهد.

ثم يتغيَّر المنظر، ويرى الناظر العدوتين السلاوية والرباطية، والشمس آفلة، ويتصوَّر حينئذ حقيقة ما قاله الشاعر فيه :

سَــلاَ بَلْدَةٌ بِالغَــرْبِ لَمْ أَرَ مَنْظَــرًا　　　يُشَــاكِلُهُ فِي الحُـسْنِ وَالشَّـمْسُ آفِلَةْ

وتغيب الشمس في المغرب، ويأتي الليل من المشرق، ويطلع القمر بقرصه اللامع، ونوره الساطع، فينير العدوتين، ويتبدل شكل المدينتين، وتُوقد المصابيح الكهربائية، مضاهية بلمعانها مصابيح السماء الصاحية الصافية، ويلاحظ الناظر تَكَسُّرَ الأمواج البحرية على الشواطئ الرملية والصخرية.

ثم يغيب القمر في البحر، ويتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وتختفي النجوم، وتظهر الرُّبى والرُّسوم، وتَنْطَفِئ المصابيح، وتتبيَّن المسارح، وتشرق الشمس، وتتميَّز المنازل والدور، دار فدار، والمنابر منار فمنار، ويخرج الناس من بيوتهم إلى صلاتهم في مساجدهم، وطلب رزقهم في أسواقهم، فتكثر في الشوارع والساحات الحركة، كأنَّ الناس في معركة.

وهكذا تستمرُّ المناظر مختلفة باختلاف الساعات، مُتبدِّلة بتبدُّل الأوقات، ما دامت الأنوار الكهربائية مُسلَّطة على الصورة من ورائها، ولا يشعر أحد بوجودها.

فهذا هو الشِّعر المحْسوس. وما تقدَّم شعر الخيال الملْموس. ولكلٍّ منهما فائدة ولذَّة، يستمتع بهما الرَّائي والسَّامع، والمتأمل والمطالع، إلاَّ أنَّ الأولى مقصورة على الزمان والمكان، والثانية مرسومة في الخلد والجنان، على ممرِّ الأزمان، لأن الشعر خالد، وهذا المنظر الكهربائي زائل وبائد.

ولكنْ، حقاً، لم يكن في ذلك المعرض الرباطي شيء أبدع ولا أبرع ولا أروع ممَّا اخترعه ورسمه بريشته هذا الرسَّام، ولذلك كان الزُّوار والمتفرِّجون لا ينقطعون عن زيارته، والتعجُّب من إتقانه وحُسْن تمثيله وشارته. ولا غرْو فإنَّ الشاعر والرسَّام، يتباريان في رسم المعاني، وتشخيص المناظر والمباني، ولكلٍّ منهما في وقتنا هذا دولة، وفي عالم الخيال جولة، وفي ميدان الأدب صولة، وفي كل مشهد ومعرض حقيقي أو خيالي قوله.

ومن انتاجهما الفكري يستفيد المتدبِّر والمتأمِّل، والدارس والمتعقِّل، فيزداد عبرة وذكرى، ويسدي إليهما ثناء وشكرا.

* * *

هذه انطباعات، تنطبع في نفس النَّاظر لمناظر العدوتين السلاوية والرباطية، من أعلى منار حسّان، تمثل كيْفية تكتُّل عُمْرانهما حول مصبٍّ نهرهما الرقراقي، في محيطهما المحيط بهما. وارتسامات ترتسم في ذاكرته، واستحضارات يستحضرها في مفكرته، وتجلِّيات تتجلَّى لبصره وبصيرته، فيستعرض شريط حوادثهما التاريخية والعمرانية، وأوصافهما الشعرية والنثرية، الحقيقية والخيالية، وارتفاع درجة مقياس الحضارة فيهما وانحداره بالنسبة لقوة وعظمة الدول التي سيطرت عليهما، أو الأجيال التي درجت متناسقة متتابعة متناسخة فيهما، جاش بها الفكر، وعبَّر عنها اللِّسان، فحبَّر معانيها في هذه الصُّحُف القلم، وهو إحْدى اللِّسانين، في الإفصاح بالبيان. ولوْ كان لمنار حسَّان، لِسان، لَنَطق به وقصَّ علينا ما شاهده بالعِيان، من انطلاق وحِجر، ومدٍّ وجزر، في تيار القوة والحضارة والرُّقي والعمْران، حول مصب هذا النهر في البحر، منذ نحو ثمانمائة سنة خلت من الدَّهر. ولكنَّه حسّان، مقطوع اللِّسان، لا يستطيع التحدُّث بما كان، وإنَّما يُعبِّر بوجوده في هذا المكان، عمَّا سلف له منذ وجوده فيه من رفعة شان، أوْ إهمال ونسيان، ولِلَّه في خلقه شان.

وعلى كلِّ حال، فإنَّ المنظر المتجلِّي من أعلاه، يبعث على الذِّكْرى والإعجاب، وما يتذكَّر إلاَّ أولو الألباب.

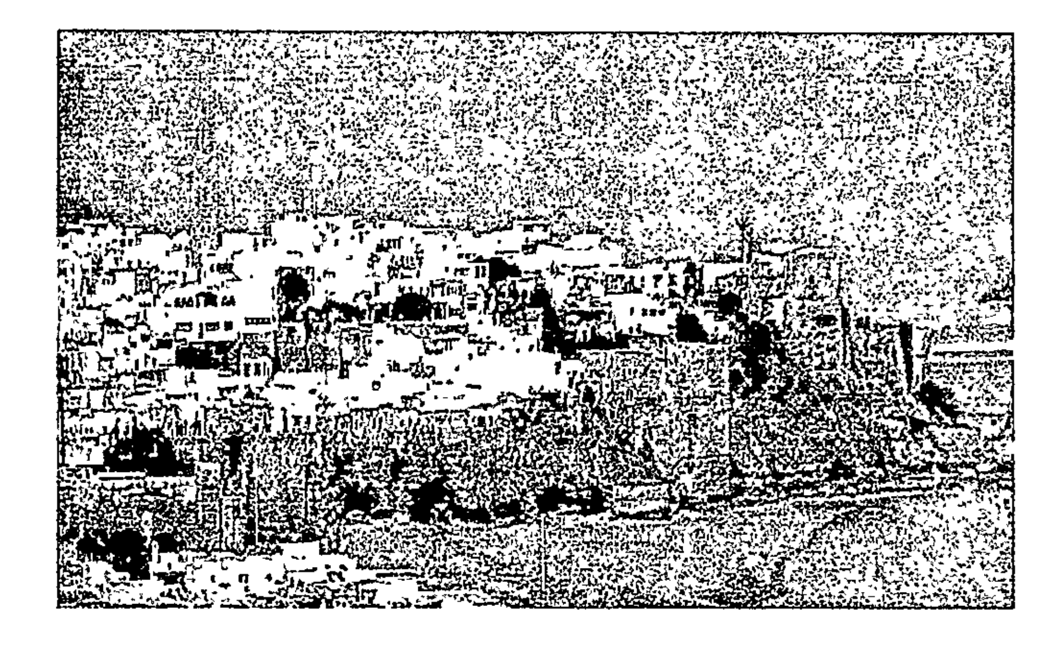
انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني ويبتدئ بـ «سلا في عهد بني مرين»

مُلحق

فيه صور للمآثر التاريخية
الواردة في الجزء الأول

لوحة رقم 1



منظر عام لقصبة الأوداية

صورة من كتاب «الاوداية، حصن قراصنة سلا»

تأليف إيف مونلاهوك

لوحة رقم 2



السور الموحدي لمدينة الرباط

صورة من كتاب «تاريخ الرباط»

تأليف جاك كايي

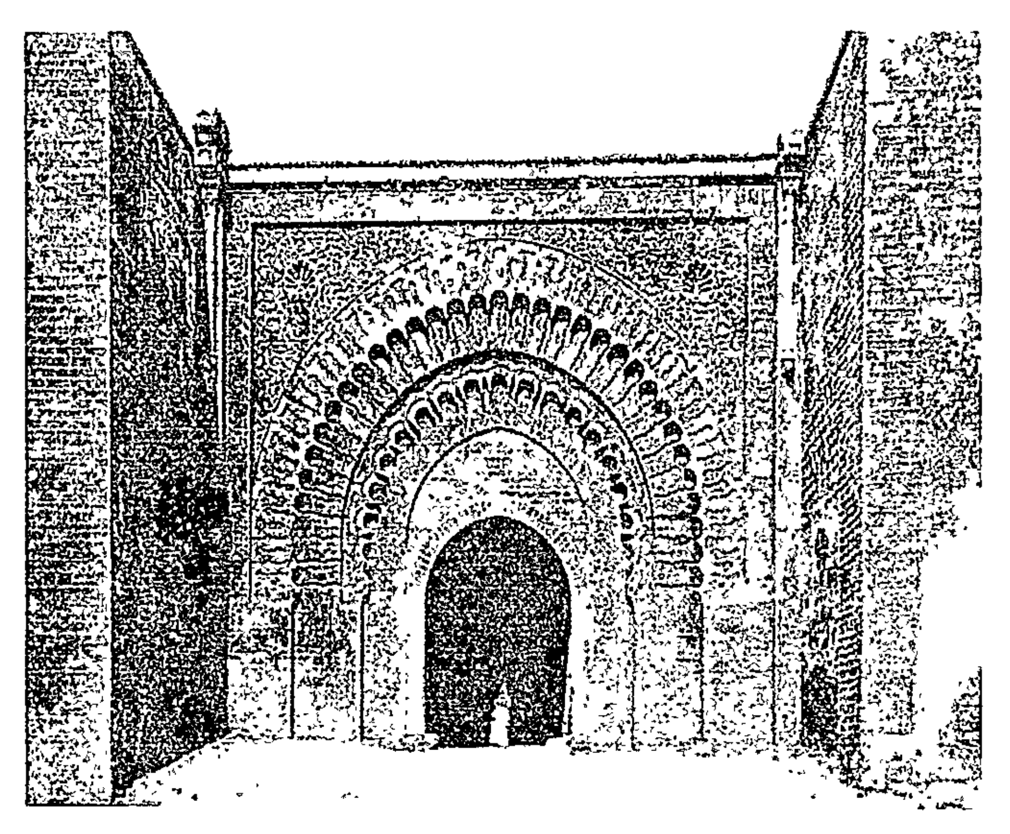
لوحة رقم 3

الباب الكبير لقصبة الأوداية وهو باب الساباط

صورة من كتاب «تاريخ الرباط»

تأليف جاك كايي

لوحة رقم 4

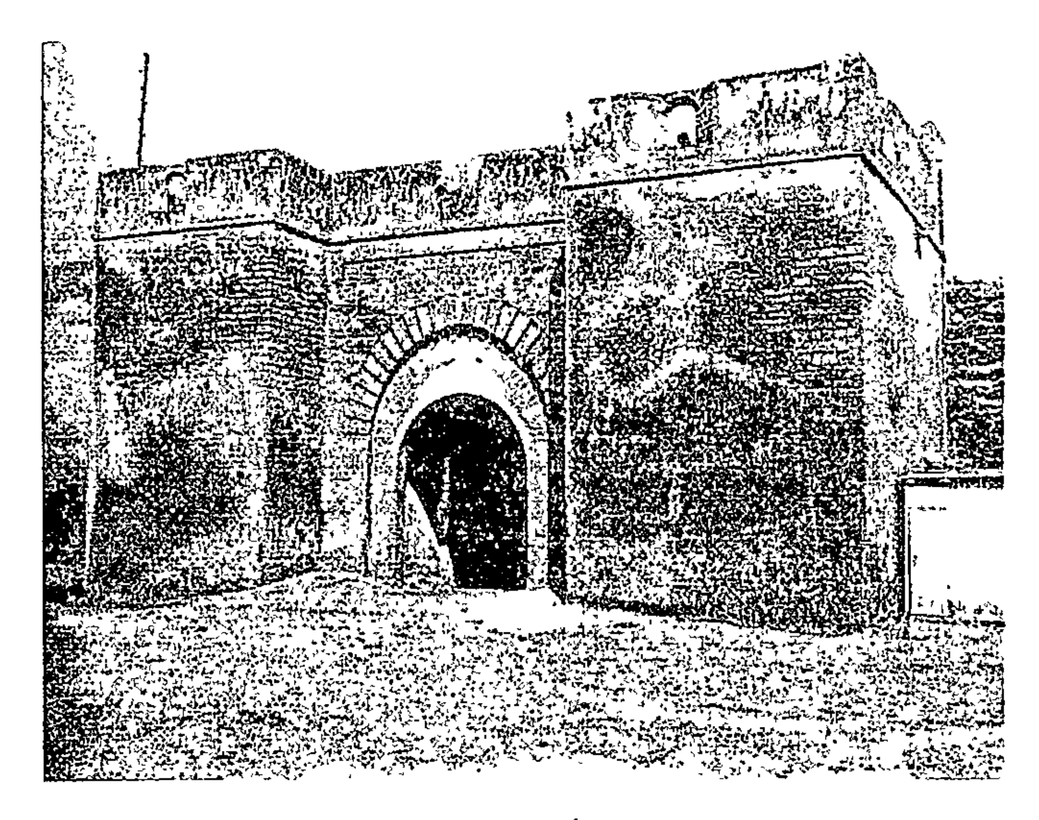


باب الرواح

صورة من كتاب «تاريخ الرباط»

تأليف جاك كايي

لوحة رقم 5

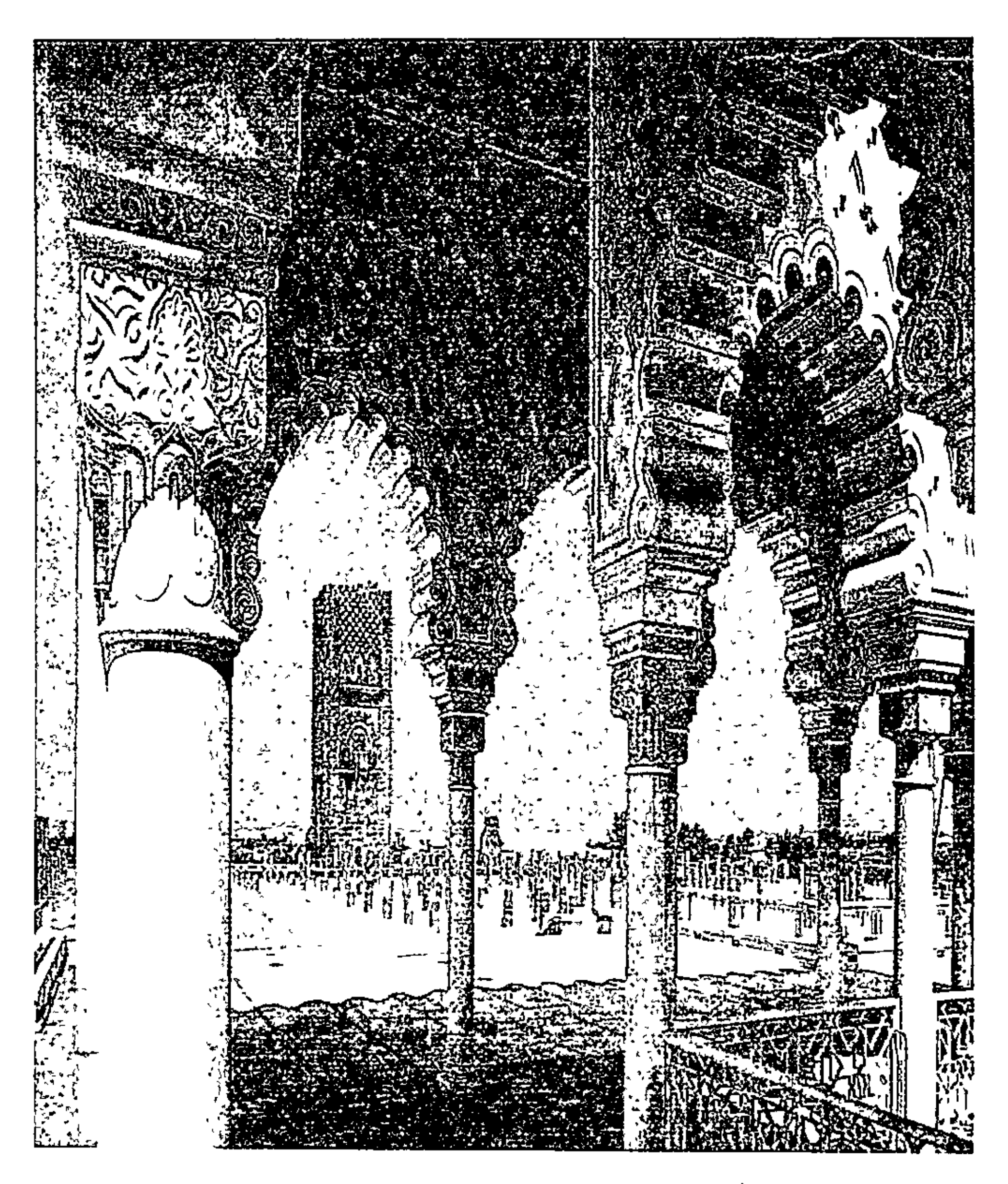


باب زعير

صورة من كتاب «تاريخ الرباط»

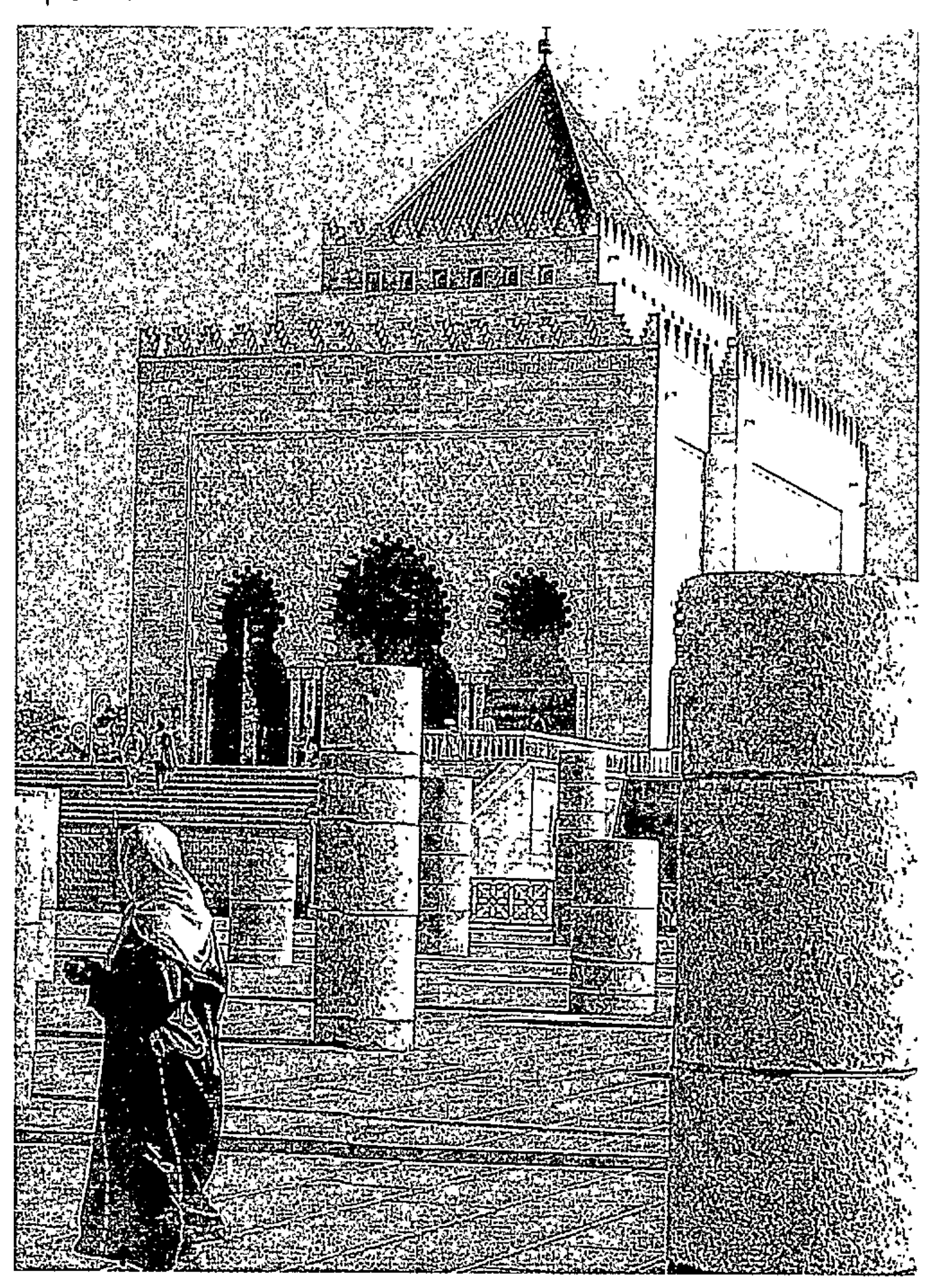
تأليف جاك كايي

لوحة رقم 6



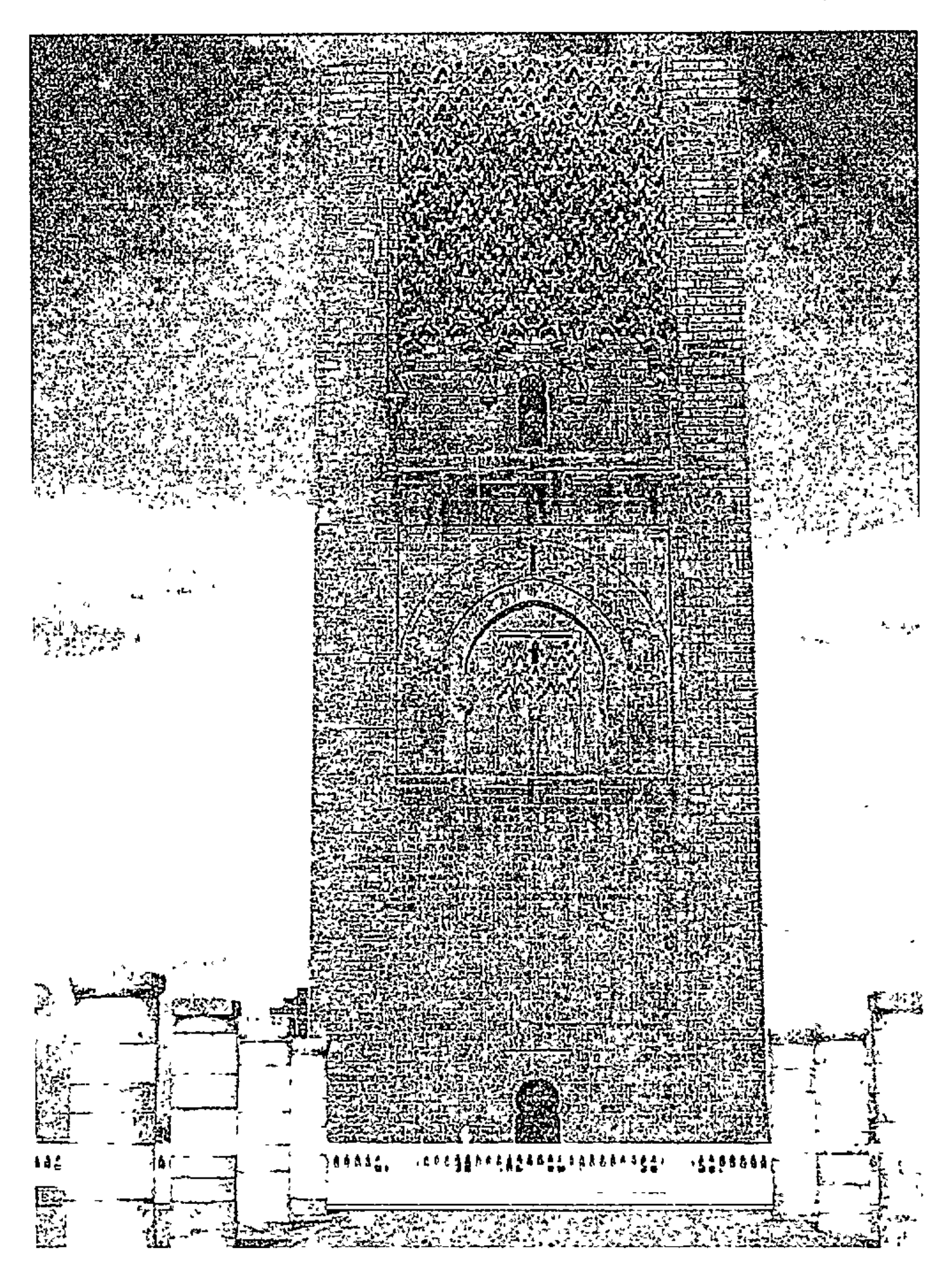
مسجد حسّان – مشهد من أعمدة وأقواس ضريح محمد الخامس – الرباط

لوحة رقم 7



ضريح محمد الخامس ـ الرباط

لوحة رقم 8



صومعة حسّان – الرباط

الفهرس